الدكتور محمد عمارة

الإسلام في عيون غربية

بين افتراء الجهلاء .. وإنصاف العلماء



دار الشروق

الدكتور محمد عمارة

الإسلام في عيون غربية

بين افتراء الجهـــلاء .. وإنصـــاف العلمـــاء

دار الشروق

تمهيد

الإسلام : الدين .. والأمة .. والدولة .. والحضارة.

الإسلام : دين التوحيد . . توحيد الله، سبحانه وتعالى ، فى الألوهية . . والربوبية . . والذات . . والصفات . . والأفعال . . حتى أنه قد بلغ فى هذا التصور التوحيدى قمة التنزيه والتجريد، اللذين لا تستطيع اللغة البشرية التعبير عن حقيقة كنههما . . وإنما ـ فقط ـ تضرب لهما الأمثال التى تقربهما إلى التصورات . . فخلاصة الإسلام، والإخلاص للإسلام، هو التوحيد الذى جاءت به سورة الإخلاص : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص : ١ - ٤) . .

والله، سبحانه وتعالى، فى التصور الإسلامى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ (الشورى : ١١) . . وبعبارة فلاسفة الإسلام : «فكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك» ! . .

وعلى حين ترى مذاهب وفلسفات أخرى أن لله صورة، وأنه قد خلق آدم على صورته ـ أى على صورة الله ـ فإن الإسلام العقيدة ـ ومعه العربية اللغة ـ وهى لغة كتابه وشريعته ـ يفسر هذه المأثورة ـ «لقد خلق الله آدم على صورته» ـ رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد ـ بأن الله قد خلق آدم ـ عليه السلام ـ على صورته، ـ أى صورة آدم، إذ الضمير، فى «صورته» يعود إلى أقرب مذكور، فسبحان الله وتنزه عن التصور والصُّور والتصوير .

* * *

● وشريعة الإسلام: هى الدرجة العليا والأخيرة والخاتمة فى سلم شرائع النبوات والرسالات، التى توالت - فى إطار دين الله الواحد - من آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام . . لذلك، جاءت هذه الشريعة الإسلامية مصدقة ومستوعبة لما بين يديها، ولما سبقها من النبوات والرسالات والكتب والصحائف والألواح . . مصدقة فى ثوابت عقائد الدين الإلهى الواحد وقيمه . . ومهيمنة على تلك الشرائع، بالتصحيح لما حدث فيها من التحريف والتغيير والتبديل . . وبالتذكير لما وقع فيها من النسيان . . وبالتجديد والإضافة فيما تجاوزه التطور الزمانى والتغير المكانى والتبدل فى الأعراف . . كما جاءت هذه الشريعة الإسلامية الخاتمة بالانتقال بنطاق التشريع الإلهى من المحلية إلى العالمية . . ومن التوقيت إلى الخلود . . ومن مجرد «الدعوة الدينية» إلى «المنهاج الشامل» للدين والدولة والأمة والحضارة والاجتماع . . وذلك حتى تحرس الدولة الدين، ويسوس الدين الدولة . . فلم تقف هذه الشريعة - فقط عند مملكة السماء - خارج هذا العالم - وإنما شملت الدنيا مع الآخرة، والفرد مع المجموع، والآخر مع الذات . . ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

وإذا كانت آيات العالمية فى القرآن الكريم قد نزلت فى المرحلة المكية، قبل الهجرة والدولة ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (يوسف: ١٠٤). ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٧) . . فإن هذه العلاقة بين الشريعة الإسلامية وبين أهل الشرائع الإلهية السابقة قد أخذت طريقها إلى «التنظير» و«التقنين» و«التطبيق» منذ اللحظات الأولى للعلاقات التى قامت بين الأمة الإسلامية ودعوتها ودولتها وبين أهل تلك الشرائع والديانات.

□ ففى دولة المدينة المنورة، ومنذ العام الأول لقيامها سنة ١ هـ ٦٢٢ م - نص «دستورها» - الذى اشتهر بـ «الصحيفة» و«الكتاب» - على: أن «**يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة**

مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصر عليهم .. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم»(١).

□ وفى أول لقاء مع النصرانية ـ سنة ٧ هـ ٦٢٨ م ـ السنة التى بدأت فيها العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية ـ خاطب الصحابى «حاطب بن أبى بلتعة» [٣٥ ق . هـ ـ ٢٠هـ ٥٨٦ ـ ٦٥٠م] «المقوقس» ـ عظيم القبط فى مصر ـ محددا علاقة الإسلام بما سبقه من شرائع ورسالات . . فقال ـ «للمقوقس» ـ : «إن لك دينا ـ [أى النصرانية] ـ لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به..»(٢).

فلما استقبل رسول الله ﷺ وفد نصارى «نجران» ـ فى المدينة سنة ١٠ هـ سنة ٦٣١ م ـ فتح لهم باب مسجد النبوة . فصلوا فيه صلاتهم لعيد الفصح . . وقنن لهم ـ فى العهد الذى كتبه لهم ـ علاقة الشريعة الإسلامية ودولتها بالشريعة النصرانية والمتدينين بها ، وهى علاقة «المواطنة» الكاملة فى ظل الدولة الإسلامية والمرجعية الدينية والأمة الواحدة . . صنع ذلك رسول الله ﷺ ، عندما كتب لهم : «لنجران وحاشيتها وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم .. أن أحمى جانبهم، وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملّتى.. لأنى أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم .. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»(٣).

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ ـ ٢١ جمعها وحققها: د. محمد حميد الله الحيدر آبادى ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
(٢) ابن عبد الحكم : [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦ . طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.
(٣) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١١ ـ ١٢٨ .

فقرر الإسلام وقنّن ـ منذ ذلك التاريخ ـ كامل حقوق المواطنة، انطلاقا من الدين، وعلى أساس من العقيدة الإسلامية ـ وليس على أنقاص الدين والاعتقاد الدينى ـ كما هو حال «المواطنة» فى حضارات أخرى!.

* * *

● والإسلام: هو الدين القيّم.. ودين القيَم: أى الدين المستقيم، والمقوِّم لأمور الناس ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (الروم: ٤٣). ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١).

وهو دين القَيِّمة.. أى دين الأمة التى تسلك سبيل العدل والاستقامة ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٥).. فمساحة القيم والأخلاق فى شريعة الإسلام هى مصدر القانون والمعيار لإسلامية هذا القانون.

* * *

● والإسلام: دين البيّنة، التى تبيّن الشىء وتوضحه، حسيا كان هذا الشىء أو عقليا.. ولقد ورد هذا المصطلح ومشتقاته فى القرآن الكريم فى ثلثمائة وسبعة وخمسين موضعا: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٢). ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (الأنعام: ١٥٧).

* * *

● والإسلام: دين البرهان، أى الحجة الفاصلة البينة.. يقيم البرهان على عقائده وحقائقه.. ويدعو الآخرين إلى البرهنة على ما لديهم من مقولات

وتصـورات: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤).

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٧). ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١). ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٤). ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (القصص: ٧٥). ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل: ٥٩ ـ ٦٤).

* * *

- والإسلام: علم ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١).

والله ـ فى الإسلام ـ هو: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (التوبة: ٩٤): وأولوا العلم،

فى الإسلام، هم ـ مع الله والملائكة ـ القائمون بالقسط : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾(آل عمران : ١٨). وهم الأكثر خشية لله، عندما يكتشفون أسرار الإبداع الإلهى والقدرة الإلهية فى الكون ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر : ٢٨).

لذلك، فإن الإسلام إذا حاكم واحتكم إنما يحاكم إلى العلم وإليه يحتكم : ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأنعام : ١٤٣). ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ (الأنعام : ١٤٨). ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ (الأحقاف : ٤).

* * *

● والإسلام : نور واستنارة وتنوير إيمانى ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (النور : ٣٥). ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (البقرة : ٢٥٧).

والله ـ فى الإسلام ـ نور : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ (النور : ٣٥).. والقرآن نور : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ (التغابن : ٨). وكذلك «الحكمة» ـ التى هى الصواب العقلى ـ هى الأخرى نور.. وفى الحديث النبوى يقول رسول الله ﷺ : «إن الله يحيى القلوب بنور الحكمة» ـ روه الإمام مالك فى [الموطأ] ـ. ورسول الله ﷺ، نور : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة : ١٥).

* * *

● والعدل ـ فى الإسلام ـ اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى [1].

(١) الغزالى ـ أبو حامد ـ : [المقصدالأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] ص ٦٠ ـ ٦٣ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

والله، سبحانه وتعالى يأمر بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠).

ولأن العدل نقيض الظلم، فلقد حرّم الله الظلم على نفسه، وعلى عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: ٤٠). ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ (يونس: ٤٤). ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف: ٤٩). ولذلك، كان العدل هو الروح السارية فى الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية.. فلقد حرم الإسلام حتى ظلم الإنسان لنفسه، ومن باب أولى ظلمه لغيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء: ٩٧).

ولقد أوجب الإسلام العدل فى كل المعاملات والعلاقات، حتى مع من نكره ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨) وحتى مع من يُقاتلنا ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠). ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤).

ولقد أسس الإسلام فريضة العدل مع الآخرين على سنة من سنن الله الكونية والتكوينية التى لا تبديل لها ولا تحويل.. وليس على مزاج يتغير أو خُلق يتبدل.. فالتنوع والاختلاف - أى وجود الآخرين - هو سنة من سنن الله فى كل عوالم المخلوقات.. والواحدية والأحدية هى فقط، للذات الإلهية، ومن عداه وما عداه - فى عوالم الإنسان.. والأفكار.. والشرائع والملل.. والمناهج والثقافات والحضارات.. والألسنة واللغات والقوميات.. والأجناس والألوان.. والشعوب والقبائل - بل وفى النبات والحيوان والجماد.. هذا التنوع والتمايز والاختلاف فى جميع هذه العوالم سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. والتعارف - المؤسس على التعايش والتعاون والتحاور - هو المقصد الأسمى لهؤلاء

الفرقاء المختلفين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣٠).

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (الروم : ٢٢). ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة : ٤٨). ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود : ١١٨-١١٩). . أى وللتنوع والاختلاف والتمايز خلقهم . . وفى هذا التنوع والاختلاف الحافز على التسابق فى طريق الخيرات بين المختلفين ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ١٤٨).

وإذا كان الإسلام قد اعترف بكل النبوات والرسالات والكتب والشرائع التى توالت على طريق علاقة السماء بالإنسان، عبر التاريخ الطويل للنبوات والرسالات ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة : ٢٨٥). . وتجاوز - بذلك - مجرد الاعتراف بالآخر إلى حيث جعل هذا «الآخر» جزءا من «الذات»، عندما قرر أن تنوع الشرائع السماوية إنما هو تمايز فى إطار وحدة دين الله . . فلكل أمة شرعة، أما الدين فواحد . . والأنبياء - ومن ثم أممهم - إخوة، أمهاتهم - أى شرائعهم - شتى وأبوهم - أى دينهم - واحد . . وفى هذا المعنى وهذه الفلسفة جاء حديث رسول الله ﷺ: «الأنبياء أولاد علاّت، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد» (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد).

ولهذه الحقيقة - حقيقة نظرة الإسلام هذه إلى «الآخر»، وعلاقته به . . كان العدل الإسلامى الذى حرص دائما على أن يميز بين الفرقاء والفصائل والمذاهب والتيارات والطوائف فى هذا «الآخر»، فلا يعمم ولا يضع الجميع فى «سلة» واحدة

كى لا يظلم بهذا التعميم . . ولذلك ، لا نجد الإسلام - مثلا - يضع أهل الكتاب جميعهم فى «سلة» واحدة ، فيعمم الحديث عنهم ، إنما نجده يتحدث عن «كثير» من أهل الكتاب . . و«طائفة» من أهل الكتاب . . و«فريقا» من أهل الكتاب . . فهم [ليسوا سواء] . . وإنما [منهم أمة مقتصدة] ومنهم الذين [ساء ما يعملون] . يسلك القرآن الكريم سبيل العدل هذا ، فيميز بين الفرقاء المتمايزين وفق تمايزهم وعلاقاتهم بالكلمة السواء . . فنقرأ فيه : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (آل عمران : ١١٣ - ١١٦) . ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (آل عمران : ٦٩) . ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٢) . ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ١٠٩) . ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٥) . ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

فمن أهل الكتاب : [أمة مقتصدة] ومنهم من هم ﴿ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . ومنهم من هم أقرب مودة للذين آمنوا ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (المائدة : ٨٣) .

وإذا كانوا ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ . . فإن جزاءهم عند الله ليس واحدا . . فالذين كفروا منهم ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران : ١١٦) . أما ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة : ٦٩) .

والمسلمون يدعون كل فرقاء «الآخر» إلى كلمة سواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران : ٦٤) . والجدال معهم يجب أن يكون ، ليس فقط بالأسلوب الحسن ، وإنما بالأحسن ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت : ٤٦) . . فالكلمة السواء هي أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد لله . . والإيمان بالغيب . . والعمل الصالح . . مع التنوع فى الشرائع داخل أصول هذه الكلمة السواء .

ولهذا العدل الإسلامى ، لم يعمم القرآن الكريم الحكم بالتحريف على كل ما لدى أهل الكتاب ، وإنما نبه على أن فيما لديهم هدى ونور . . ف ﴿الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة : ٤٦) . ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ (المائدة : ٤٧) . ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة : ٤٤) . ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ (المائدة : ٤٣) .

هكذا بلغ الإسلام الذروة فى العدل مع كل ألوان أطياف «الآخرين» و«المخالفين» .

❊ ❊ ❊

● ولأن الإيمان ـ فى الإسلام وبالإسلام ـ هو تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين ، استحال الوصول إلى هذا الإيمان بأى لون من ألوان الإكراه ، فكانت القاعدة القرآنية

المحكمة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦) . . لذلك كان سبيل الإسلام إلى القلوب هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥) . . فمن استجاب قلبه كان مؤمنا بالإسلام . . ومن أعرض قلبه، فـ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦). ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) . . وحسابه فى الآخرة - إلى الله وعلى الله . . أما فى الدنيا، فإن «له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين».

ولهذه الحقيقة كان انتشار الإسلام سلميا . . بل ودون مؤسسة تبشيرية ترعى وتعمل على هذا الانتشار . . وإذا كانت أغلب بقاع عالم الإسلام وأكثر شعوب الأمة الإسلامية عددا لم تجرِ فيها فتوحات ولا حروب إسلامية . . فإن كل حروب الإسلام إنما كانت دفاعا عن حرية الاعتقاد، وحرية الضمير، وحرية الاختيار، وحرية الوطن الذى يعيش فيه المسلمون . . فكل غزوات عهد النبوة إنما كانت ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وفتنوهم فى دينهم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩ - ٤٠).

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٧ - ٩).

فلم يعرف الإسلام «حروبا دينية»، لقهر المخالفين على الإيمان به . . وكل ضحايا

غزوات عهد النبوة من الجانبين - شهداء المسلمين وقتلى المشركين - هم، على سبيل الحصر ٣٨٦ قتيلا!! - ١٨٣هم جملة شهداء المسلمين . . و٢٠٣ هم جملة قتلى المشركين [١] . بينما ضحايا «الحروب الدينية»، داخل النصرانية - بين الكاثوليك والبروتستانت - قد بلغت عشرة ملايين - وفق إحصاء «ڤولتير» [١٦٩٤ - ١٧٧٨م] - أى ٤٠ ٪ من شعوب وسط أوربا أبيدوا فى هذه الحروب الدينية التى امتدت نحو قرنين من الزمان!.

أما كل معارك الفتوحات الإسلامية، فى القرن الهجرى الأول، فإنها كانت ضد جيوش القوى الاستعمارية التى قهرت الشرق، سياسيا وحضاريا ودينيا وثقافيا، لأكثر من عشرة قرون . . ضد جيوش القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية . . ولم تدر معركة واحدة بين جيوش الإسلام وبين أهل البلاد المفتوحة . . بل لقد وقف أهل تلك البلاد - وهم على دياناتهم القديمة - مع جيوش الفتح الإسلامى، وشاركوا فى هذه الفتوحات . . ورأوا فيها تحريرا لأوطانهم من القهر الاستعمارى الرومانى . . وتحريرا لضمائرهم وعقائدهم من القهر الدينى والحضارى . . بل ورأوها إنقاذا إلهيا لهم - على يد المسلمين - وعقابا إلهيا للمستبدين الرومان.

وبهذه الحقيقة شهد الأسقف «يوحنا النقيوس» - وهوشاهد عيان على الفتح الإسلامى لمصر فقال: **«إن الله الذى يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردَّهم إلى يد الإسماعيليين - [العرب المسلمين] - ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر، وكان «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١] حزينا .. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا فى مدينة مصر، وبأمر الله الذى يأخذ أرواح حكامهم، مرض «هرقل» ومات. وكان عمرو بن العاص يقوي كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها، ولم يأخذ شيئا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئا ما، سلبا أو نهبا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام»** [٢] .

---

(١) ابن عبد البر: [الدرر فى اختصار المغازى والسير]. تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

(٢) يوحنا النقيوسى: [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص ٢٠١، ٢٢٠. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

وشهد بذلك أيضا الأسقف «ميخائيل السريانى»، فقال: «**لم يسمح الإمبراطور الرومانى لكنيستنا بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نُهبت، ولهذا،فقد انتقم الرب منه، لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام**» [١].

فالفتوحات الإسلامية كانت تحريرا لأوطان الشرق من الاستعمار والاستعباد والاستغلال الرومانى.. وكانت «إنقاذا» لنصارى الشرق ونصرا نيتهم من القهر الرومانى.. حررت الأرض.. وحررت ضمائر الشعوب، ثم تركتهم وما يدينون فى «سلام».. فكانت نصرانية الشرق - بهذه الفتوحات - «هبة الإسلام»!

* * *

● ولأن الإسلام «دين» و«دولة» و«حضارة» فلقد فجر، منذ ظهوره «الإبداع الحضارى» مع هدايته القلوب إلى «الإيمان بالله».

فبينما اقترن انتشار النصرانية فى أوربا - فى القرن الرابع الميلادى - ببدايات العصور الأوربية الوسطى والمظلمة، التى بدأت فى القرن الخامس الميلادى، وامتدت عشرة قرون.. حتي أن أوربا النصرانية لم تعرف أول فلكى فى تاريخها «كوبر نيكوس» [١٤٧٣ - ١٥٤٣ م] - إلا فى القرن السادس عشر.. وكتابه الذى كتبه عن [دوران الأفلاك] سنة ١٥٣٠م، لم يطبع إلا بعد وفاته.. وظل مصادرا من قبل الكنيسة حتى القرن الثامن عشر سنة ١٧٥٨م!!.

بينما حدث هذا لأوربا المسيحية، فجرّ الإسلام - منذ ظهوره - الإبداع الحضارى، فى علوم التمدن المدنى مع علوم العقيدة والشريعة والتفسير والحديث.

إن أوربا المسيحية قد تخلفت عن العلوم المدنية والطبيعية عشرة قرون، فى ظل

---

(١) د. صبرى أبو الخير سليم: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى]ص ٦٢ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١ م.

نصرانيتها، بينما فجر الدين الإسلامى الإبداع الحضارى فى العلوم المدنية والطبيعية منذ القرن الهجرى الأول . . ولقد وقفت خلف هذا الامتياز والتميز الإسلامي أسباب عديدة . . فى مقدمتها :

- تميز النظرة الإسلامية «للطبيعة» و«العالم» عن النظرة المسيحية لهذه «الطبيعة» وهذا «العالم» . . فالطبيعة والعالم - فى النظرة الكنسية - «مدنَّس»، فى مقابل اللاهوت «المقدس»، ومملكة هذا اللاهوت الكنسى أشرف من أن تتحقق فى هذا العالم «المدنَّس» . . لذلك، كان الاشتغال بالعلوم الطبيعية والتجريبية عملا شيطانيا، لأنه طلب للعلم خارج «المقدس» - الإنجيل واللاهوت - وكانت «التجارب» فى ظل هذا اللاهوت الكنسى - كالعمل اليدوى - فى ظل الفكر الإغريقى - مما لا يليق بالأحرار والأشراف . . وإنما هى من عمل العبيد الأرقاء! .

ومن هنا كان اضطهاد الكنيسة لكل الذين اشتغلوا بالعلم التجريبى . . وكانت انتصارات هذه العلوم الطبيعية التجريبية - فى النهضة الأوربية - على أنقاض سلطان الكنيسة وسلطان رجال الدين، وفى ظلال العلمانية، التى استبدلت «الدين الطبيعى» «بالدين الإلهى»، وجعلت العالم والطبيعة المصدر الوحيد للمعرفة، بل وألّهت الطبيعة، وأحلتها محل الله، وجعلت مملكتها فى هذا العالم وحده، منكرة عالم الغيب ومملكة السماء .

هكذا تأخر العلم الطبيعى - فى أوربا المسيحية - حتى استردت العلمانية «الشرف» للطبيعة، فى ثورتها على اللاهوت! .

- أما الإسلام - الذى اقترن فيه «الإيمان» «بالعمل» - فإنه قد رأى ويرى فى هذه «الطبيعة» خليقة مخلوقة لله سبحانه وتعالى، مثلها فى ذلك مثل الإنسان، وكل عوالم المخلوقات . . فلها - ككل المخلوقات - شرف الخلق الإلهى . . بل إن هذه الطبيعة - فى الرؤية الأسلامية - حية مؤمنة بخالقها، وهى تسبحه كما نسبحه، حتى وإن لم نفقه نحن تسبيحها! . . إن لها شرف الخلق الإلهى - حتى أن الإمام محمد

عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] كان يؤثر أن يسميها «الخليقة»، بدلا من «الطبيعة» ولها شرف الخطاب الإلهى لها . . بل وعرض الأمانة عليها . . ولها ـ كذلك ـ شرف العبادة والتسبيح لله ! . .

ـ ثم إن هذه الطبيعة ـ الخليقة ـ قد سخرها الله سبحانه وتعالى، بكل قواها وطاقاتها، لخدمة الإنسان، فغدا عمرانها التحقيق للأمانة التى حملها الإنسان، كخليفة لله، سبحانه وتعالى . . ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤) . فالبحث فى هذه الطبيعة التى خلقها الله . . وخاطبها . . وسخرها للإنسان . . والنظر فى سننها، والاكتشاف لأسرارها، عبادة لله، وقيام بالفريضة الإلهية التى كانت أولى فرائض الإسلام ـ فريضة القراءة لآيات الله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (العلق : ١ ـ ٥) .

فالقراءة هنا قراءتان : قراءة لآيات الله الكونية والطبيعية ـ المودعة فى الطبيعة ـ وقراءة لأيات الله المنزلة . . أى قراءة فى كتاب الله المنظور . . وقراءة فى كتاب الله المسطور .

بل إن القرآن قد جعل البحث والتجريب والاكتشاف لأسرار الله فى الطبيعة والكون، بواسطة العلوم الطبيعية والتجريبية، فى مقدمة الأسباب الداعمة للإيمان الدينى، والمفضية إلى أن يكون علماء هذه العلوم الطبيعية هم الأكثر خشية لله، سبحانه وتعالى . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر : ٢٧ ـ ٢٨) .

على حين كان المشتغلون بهذه العلوم الطبيعية والتجريبية - بنظر الكنيسة الأوربية - هم المارقون والملاحدة، الذين تركوا البحث فى «المقدس» - اللاهوت - واشتغلوا بالتجريب فى «المدنَّس» - الطبيعة وعلومها - !! .

لهذه الحقائق، التى ما يزت بين الإسلام وبين نصرانية الكنيسة الأوربية، عاشت أوربا المسيحية عشرة قرون مظلمة - بدأت بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ م - الذى تزامن مع انتشار المسيحية فى أوربا - وامتدت حتى اكتشاف «كريستوفر كولمبس» [١٤٥١-١٥٠٦م] لأمريكا سنة ١٤٩٢م . . وبدء الإصلاح الدينى على يد «مارتن لوثر» [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] فى القرن السادس عشر الميلادى .

أما الإسلام، فإنه - لتميزه . . ولتميز موقفه من الطبيعة - ولأنه دين ودولة وحضارة قد سلك طريقا آخر . . اقترن فيه الإبداع فى العلوم الطبيعية والتجريبية والمدنية بالإبداع فى العلوم الشرعية . . وكانت فيه الطبيعة وعلومها وآيات الإبداع فيها هى السبيل إلى معرفة الله وعظمته وقدرته وهى السبيل إلى خشيته . . بينما أدى الغلو العلمانى - الذى جاء رد فعل للغلو الكنسى إزاء الطبيعة إلى أن صاح الذين أحلوا العلم الطبيعى محل الله، صيحتهم المنكرة التي قالوا فيها «لقد مات الله» !! .

لقد برئ الإسلام من غلو احتقار الطبيعة . . ومن غلو تأليه الطبيعة . . حتى لقد رأينا الإبداع فى العلوم الشرعية والإلهية يجاور ويزامل الإبداع فى العلوم الطبيعية والتجريبية، ليس فقط في المجتمع الإسلامى، وإنما فى عقل العالم المسلم، وفى المشروع الفكرى لكثير من علماء الإسلام . . فلم نعرف علماء للعلوم الشرعية . . وآخرين للعلوم الطبيعية . . وإنما وجدنا تجسد هذه النظرة الإسلامية الجامعة بين عالم الغيب وعالم الشهادة . . بين قراءة آيات الله المسطورة فى كتاب الوحى وقراءة آيات الله المنظورة والمبثوثة فى الأنفس والآفاق . . وجدنا تجسد هذه النظرة الجامعة فى المشاريع الفكرية لكثير من علماء الإسلام الذين جمعوا - فى ثقافتهم - بين «الشرعى» و«المدنى» فى المعارف والعلوم . . فكانوا «تجريبيين - مؤمنين» . .

و«روحانيين ـ ماديين»، لأن الدين ـ فى حضارتهم ـ : وضع إلهى يسوق الإنسان لعبادة الله ولعمران الكون، ولإقامة دولته فى هذا العالم الطبيعى، مستعينا فى أداء أمانة الاستخلاف بكتابى «الوحى» و«الوجود».

ومن هؤلاء العلماء، الذين امتزجت فى إبداعاتهم العلوم الإلهية بالعلوم الطبيعية:

• أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م] الذى كان الناس يفزعون إلى فتواه فى «الفقة» كما يفزعون إلى فتواه فى «الطب». . فهو الطبيب المجرب. . والفقيه الأصولى المتكلم. . والحكيم. . إنه صاحب [كتاب الكليات] ـ فى الطب ـ و[بداية المجتهد ونهاية المقتصد] ـ فى الفقه ـ و[مناهج الأدلة فى عقائد الملة] و[فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ـ فى علم الكلام والتوحيد ـ . .

• وابن سينا، أبو على الحسين بن عبد الله [٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م] الذى كان «الشيخ الرئيس» فى «الشرعى» و«المدنى» . . فى «الإلهيات» و«الطبيعيات». فى «التصوف» و«النبات والحيوان» و«الهيئة» . . فمن آثاره فى الطب: [القانون] . . وفى الحكمة والإلهيات: [الشفاء] و[المعاد] و[أسرار الحكمة المشرقية] . . وفى التجريب والطبيعة: [النبات والحيوان] و[الهيئة] و[أسباب الرعد والبرق] . . إلخ.

• والبغدادى، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر [٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٧ م] الذى اشتهر بإبداعاته المتميزة فى أصول الدين. . والمبرزة فى الحساب. . وفى الهندسة. . حتى لقد قالوا: إنه كان يُدَرّس فى سبعة عشر فنا!. ومن آثاره: [أصول الدين] و[تفسير القرآن] و[معيار النظر] و[التكملة فى الحساب] و[رسالة فى الهندسة] . . إلخ.

• والخيام، أبو الفتح عمر بن إبراهيم [٥١٥ هـ ـ ١١٢١ م] اللغوى . . والشاعر . . والفيلسوف . . والمؤرخ . . والرياضى . . والفقية . . والمهندس . . والفلكى!

. . ولقد بقيت لنا من آثاره: [مقالة فى الجبر والمقابلة] و[شرح ما يشكل من مصادرات إقليدس] و[الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما] و[الرباعيات] و[الخلق والتكليف] . . وغيرها من الآثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الإسلامى فى تكامل مصادر المعرفة وتكامل أدواتها، وتكامل الإبداع فيها . .

● والفخر الرازى، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر [٥٤٤ـ٦٠٦هـ ١١٥٠ـ١٢١٠م] الذى كان الإمام فى علوم الدين والدنيا جميعا . . حتى لقد قال مؤرخوه: «إنه كان أوحد زمانه فى: المعقول . . والمنقول . . وعلوم الأوائل» . . ومن بين آثاره الكثيرة والجامعة لأقطار المعرفة وتخصصاتها، نجد: [مفاتيح الغيب]ـ فى تفسير القرآن الكريم ـ و[معالم أصول الدين] و[لوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى والصفات] و[الخلق والبعث]ـ فى التوحيد وأصول الدين . . و[محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين] و[نهاية العقول] و[البيان والبرهان]ـ فى الفلسفة ـ . . و[المباحث المشرقية]ـ فى التصوف ـ . . و[السر المكتوم] ـ فى الفلك ـ . . و[النبوات] ـ فى النبوة والرسالة ـ . . و[النفس]ـ فى علم النفس ـ . . كما أبدع فى الهندسة [كتاب الهندسة] و[كتاب مصادرات إقليدس] . . إلخ .

هكذا تكامل وتزامل وامتزج «الشرعى» و«المدنى» . . «الإلهى» و«الطبيعى» . . «الروحى» و«المادى» . . و«المنقول» و«المعقول» فى الإبداع الإسلامى، دونما تناقض، كذلك الذى رأيناه فى أوربا النصرانية ذلك أن الإسلام قد جاء ليعلم الإنسان أن المقاصد من خلق الله له، هى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) . لكنه لم يحصر العبادة فى الشعائر وفى المحاريب . . بل لقد رأيناه يجعل الأرض والطبيعة كلها محرابا ومسجدا . . !! . ورأيناه قد جعل عمران الكون وصلاح الدنيا ـ بالمعارف والعلوم الكونية والشرعية ـ من أفضل العبادات . . فالدنيا والطبيعة ليست «دنسا»، مقابلا للدين «المقدس» وإنما هى خلق الله، الذى يسبحه، والذى يتوقف «صلاح الدين» على صلاحه، لأن معارف الدنيا والأمن فيها هما شرط صحة العبادات وصلاح الدين . .

حتى ليقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]: **«إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا .. فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليها إلا بصحة البدن،وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من: الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن.. فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية .. فبان، إذن، أن نظام الدنيا .. شرط لنظام الدين»**(١) .

بل ووجدنا من فلاسفة الإسلام وعلماء الإلهيات فى الحضارة الإسلامية من يرى فى الاشتغال بأبحاث العلوم التجريبية قربة إلى الله ، سبحانه وتعالى ، وعبادة من أفضل العبادات . . فالعلم الطبيعى ، وتدبر حقائق الكون وسننه وقوانينه ، واكتشاف أسرار الإبداع الإلهى فيه ، هى السبيل لمعرفة الله ، التى هى جوهر الدين ، وباب الدخول إليه ، كما أنها هى السبيل إلى خشية الإنسان لربه ، وهى المحققة لجوهر الشعائر والمناسك والعبادات ومقاصدها وثمراتها . . ولذلك تحدث الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م] عن هذا العلم الطبيعى **«الذى تتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلّة، والكهول العلية، حتى يختارون النظر فيه على التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، وطول الانتصاب فى الصلاة، حتى ليزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد»**(٢) .

فالطبيعة ليست مدنسة ، بل هى مخلوق يسبح الخالق . . ومقامها فى الشرف هو مقام الحقيقة التى بدونها لا يعرف الإنسان الألوهية ولا التوحيد! . . فالجمع بين علومها وبين الإلهيات خصيصة من خائص الفلسفة الإسلامية ، وأمارة من أمارات التمكن من الصناعة والرياسة فى العلم الإسلامى . . وبعبارة الجاحظ : **«وليس يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام، متمكنا من الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة. والعالم عندنا هو الذى يجمعهما، والمصيب هو الذى يجمع تحقيق «التوحيد» وإعطاء «الطبائع» حقها من الأعمال.**

---

(١) الغزالى ـ أبو حامد : [الاقتصاد فى الاعتقاد]ص ١٣٥ طبعة مكتبة ومطبعة صبيح ـ القاهرة . بدون تاريخ .

(٢) الجاحظ : [كتاب الحيوان] جـ١ ص ٢١٦ ، ٢١٧ . تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة ـ الثانية .

ومن زعم أن «التوحيد» لا يصلح إلا بإبطال حقائق «الطبائع»، فقد حمل عجزه على الكلام فى «التوحيد»، وكذلك إذا زعم أن «الطبائع» لا تصح إذا قرنها «بالتوحيد». ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى «الطبائع». وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على «التوحيد» إلى بخس حقوق «الطبائع» لأن فى رفع «أعمالها» رفع «أعيانها»، وإذا كانت «الأعيان» هى الدالة على الله، فرفعت «الدليل»، فقد أبطلت «المدلول عليه».. ولعمرى! إن فى الجمع بينهما لبعض الشدة .. وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتى باب من الكلام صعب المدخل، نقضت ركنا من أركان مقالتى. ومن كان كذلك لم ينتفع به!»[1].

فأعيان الطبيعة هى الدليل إلى الألوهية والتوحيد. . والتجريب هو السبيل إلى ذلك . . بينما احتقار الطبيعة، والانصراف عن علومها التجريبية، هو المعطل للدليل على معرفة الله وما له من صفات الكمال والتنزيه.

* * *

الإسلام لم يعرف التناقض بين «العقل» و«النقل» . . فالنقل فيه - القرآن الكريم - معجزة عقلية «عُرضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى فى أثنائها»[2]. . والآيات التى تتحدث عن العقل ومقامه، وعن القلب وتعقله، وعن الحكمة، واللُّب، والنُّهى، والفقة، والاعتبار، والتفكر، والتدبر - فى القرآن الكريم - تقرب من ثلثمائة آية! . .

فالنقل - فى الإسلام - معجزة عقلية . . والعقل - فى الإسلام - هو سبيل فقه النقل، فهو الأساس للدين، ولابناء بدون أساس. . وبعبارة الماوردى [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ٩٤٥ - ١٠٥٥ م]: «فإن السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها

---

(١) المصدر السابق. جـ٢ ص ١٣٤، ١٣٥.

(٢) محمد عبده: [الأعمال الكاملة] جـ ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨١. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

هو علم الحس، وهو العقل، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول، إذ لا تُعرف الأصول إلا بحجج العقول..»[1].

وإذا كان النقل والشرع كالضياء والنور، فإن العقل كالبصر، وبدون العقل يصبح الناس عميانا أو مغمضى الأجفان لا يستفيدون من ضياء الشرع ونور النقل.. وبعبارة حجة الإسلام الغزالى: «فإن مثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.. فالمعرض عن العقل، مكتفيا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان.. فالعقل مع الشرع نور على نور»[2].

فالإسلام، ليس الكهنوت الكنسى الذى ناصب العقل ـ مع الطبيعة ـ الاحتقار والازدراء.. حتى لقد قال القديس الفيلسوف «أنسيلم» [١٠٣٣ ـ ١١٠٩م]: «يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك، بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت، فليس الإيمان فى حاجة إلى نظر عقل»![3].

الإسلام ليس هذا اللاهوت الكنسى، وإنما هو الدين الذى قال بعض فلاسفته ـ ومنهم أبو على الجبّائى [٢٣٥ ـ ٣٠٤هـ ٨٤٩ ـ ٩١٦م] انطلاقا من أوامر القرآن الكريم بالنظر ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأعراف: ١٨٥). ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١). ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: ٢٠). قال كثير من فلاسفة الإسلام ـ انطلاقا من هذا الأمر القرآنى بالنظر ـ أى التأمل والتدبر والتفكر والاعتبار: «إن الواجب الأول على الإنسان هو النظر»، لأن النظر هو السبيل إلى معرفة الله[4].

* * *

(١) الماوردى: [أدب القاضى] جـ١ ص ٢٧٤. طبعة بغداد سنة ١٩٧١م.

(٢) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ٣٢.

(٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٧٩.

(٤) د. على فهمى خشيم: [الجبائيان: أبو على وأبو هاشم] ص ٣٣٣. طبعة طرابلس ـ ليبيا سنة ١٩٦٨م.

● لهذه الحقائق، التى ميزت الإسلام عن النصرانية ـ فى لاهوتها الكنسى ـ أقام الإسلام ـ فى أرض الواقع ـ مدنية وحضارة وإبداعا فى العلوم الطبيعية، مع إقامة إنسانه الصلوات فى المساجد والمحاريب . . ولم يقف هذا التميز، فقط عند الإبداع المبكر ـ منذ القرن الهجرى الأول ـ فى هذه الميادين، على حين تأخر إبداع الغرب النصرانى فى العلوم الطبيعية عشرة قرون! ـ وإنما تميز الإسلام ـ فى هذا الميدان ـ أيضا بإقامته المدنية والحضارة والإبداع فى العلوم الطبيعية، انطلاقا من الدين، وبحافز الدين وتحقيقا لمقاصد الدين، وإرضاء وقربة وعبادة لرب هذا الدين . . وليس ـ كما حدث فى الغرب ـ على أنقاض الدين، وبعد العلمنة، التى مثلت ثورة على الدين، وفى ظل الحداثة، التى مثلت «دين العلم . . الدين الطبيعى» الذى حل محل الدين الإلهى ! .

لهذه الحقائق، بدأ الإحياء الإسلامى للمواريث العلمية ـ مواريث العلوم الطبيعية والكونية ـ فى الحضارات السابقة . . وبدأ تمثّل الإسلام لهذه المواريث . . و« **بدأ الإنتاج الفكرى العلمى فى الإسلام منذ القرن الأول للهجرة» أى منذ اللحظة التى بدأ فيها تكوين المجتمع الإسلامى فى منتصف القرن الهجرى الأول .. فهذا المجتمع قد «تكوّن من بيئات شتى، وثقافات مختلفة، وألسنة متباينة، فأصبح ـ فى الواقع ـ مقرا لا تصال أصحاب المدارس العديدة، وتلاقح أفكارها، بعد أن كانت قبله مفصولة بعضها عن بعض، وكان تأثرها ببعضها غائبا تقريبا..»**[1] .

ومن الشهادات التى شهد بها العلماء الثقاة، على أن هذا الإبداع الإسلامى المبكر فى العلوم المدنية والطبيعية إنما كان ثمرة من ثمرات الدين الإسلامى، شهادة العالم الحجة فى تاريخ العلم: الدكتور فؤاد سيزكين، التى يقول فيها: «**إن هناك دافعا خطيرا أسهم إلى حد كبير فى محاولة المسلمين أخذ ما لدى غيرهم من الأمم من علوم ومعارف دون عوائق.. وهذا الدافع يتضح مما أوجزه «فرانس روزنتال» فى كتابه [استمرار علوم الإغريق القدماء فى الإسلام] حيث قال: ليس يكفى الدافع النفعى**

---

(١) د. فؤاد سيزكين: [مكان المسلمين والعرب فى تاريخ العلوم] مجلة «الثقافة» ـ الجزائرية عدد مارس ـ أبريل سنة ١٩٨٦م ص ٣٦.

العملى، أو النظرى ليعلل لنا ظاهرة العملية الواسعة لترجمة الكتب الأجنبية، بل لا بد من فهم موقف الدين الإسلامى ذاته من العلم .. وموقفه هذا كان المحرك الكبير لا للحياة الدينية فحسب، بل للحياة الإنسانية فى جميع جوانبها، وموقف الإسلام هذا هو الدافع الأكبر فى السعى وراء العلوم، وفى فتح الأبواب للوصول إلى المعارف الإنسانية، ولولاه لانحصرت الترجمة فى أشياء ضرورية للحياة العملية وحدها..»[١].

فموقف الإسلام من العلم، كان العامل المؤثر فى هذا التمثل المبكر والإبداع المبكر للمسلمين فى ميادين العلوم الطبيعية والكونية والحضارية . .

* * *

● ويلفت ابن النديم [٤٣٨ هـ ١٠٤٧ م] - صاحب [الفهرست] - النظر إلى أن البحث عن مواريث السابقين والنظر فيها، والتدوين لعلومها ومعارفها، إنما بدأ فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول، على عهد معاوية بن أبى سفيان [٢٠ ق . هـ - ٦٠ هـ - ٦٠٣ - ٦٨٠ م] . . وذلك عندما يذكر أن عبيد بن شرية [٦٧هـ ٦٨٦م] وهو جاهلى، أدرك الإسلام، وأسلم - وفد على معاوية، فسأله معاوية عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة - [أى اختلافها] - وأَمْر افتراق الناس فى البلاد؟ - وكان استحضره من صنعاء اليمن - فأجابه إلى ما أمر به، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية. وعاش عبيد بن شريَّة إلى أيام عبد الملك بن مروان [٢٦ - ٨٦ هـ ٦٤٦ - ٧٠٥ م]، وله من الكتب [كتاب الأمثال] و[كتاب الملوك وأخبار الماضين]..»[٢].

فالتدوين لمعارف وعلوم الأوائل قد بدأ فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول . . وليس فى العصر العباسى - كما شاع عند الكثيرين - . .

* * *

(١) المرجع السابق . ص ٣٧ .
(٢) ابن النديم : [الفهرست] ص ٨٩ . طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م .

● ولقد أصبحت الترجمة لعلوم الصنعة - العلوم الطبيعية - وإحياء تراث مدرسة الإسكندرية فى هذه العلوم «صناعة إسلامية كبرى»، يتفرغ لها كوكبة من المترجمين والعلماء منذ القرن الهجرى الأول. . وكان الأمير الأموى «خالد بن يزيد» [٩٠ هـ ٧٠٨ م] على رأس العلماء المبتتلين فى هذا الإحياء والتمثل والإبداع العلمى . . وكما يقول صاحب [الفهرست] : «فإن خالد بن يزيد كان يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلا فى نفسه خطيبا شاعرا، فصيحا حازما، جوادا ذا رأى. وله همة ومحبة فى العلوم.. ولقد خطر بباله نقل علوم الصنعة إلى العربية، فأحضر جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى. وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة.. كما نقل له «اصطفن القديم» [الإسكندرى] كتب الصنعة وغيرها..»[١] .

وخالد بن يزيد هذا - كما يضيف صاحب [الفهرست] - «هو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء.. ويقال إنه قيل له:

- لقد فعلت أكثر شغلك فى طلب الصنعة - [أى تخصصت وتفرغت لهذه العلوم] - فقال:

- ما أطلب بذلك إلا أن أغنى أصحابى وإخوانى. وأنا أريد أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحدا عرفنى يوما أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة!.

ويقال - والله أعلم - إنه قد صح له عمل الصناعة، وله فى ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير فى هذا المعنى رأيت منه خمسمائة ورقة، ورأيت فى كتبه [كتاب الحرارات] و[كتاب الصحيفة الكبير] و[كتاب الصحيفة الصغير] وكتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة ..»[٢].

فنحن هنا أمام ما هو أكثر من الترجمة للعلوم الطبيعية - علوم الصنعة - إلى العربية. . نحن هنا - أيضا - أمام تطبيقات عربية وإسلامية لهذه العلوم . . وبعبارة

(١) المصدر السابق. ص ٢٤٢، ٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق. ص ٣٥٤ .

«ابن النديم» : فإن خالد بن يزيد «**قد صح له عمل الصناعة**» . . ومشروعه العلمى هذا كان يريد به خلق دولة للعلم والعلماء ، توازى - إن لم تتفوق - على دولة السياسة والخلفاء . . فهو بعد أن ذهبت عنه الخلافة ، أراد أن يغنى العلماء - ومن ثم الأمة - «عن الوقوف بباب السلطان ، رغبة أو رهبة»! .

فمنذ القرن الهجرى الأول ، تخلّقت فى الحضارة الإسلامية والاجتماع الإسلامي نواة «سلطنة العلماء» ، التى تعصم أركانها من الوقوف بباب الأمراء! .

ونحن هنا أمام إبداعات رأى كتبها صاحب [الفهرست] . . بل وأمام صياغات شعرية ومنظومات أدبية لحقائق وقوانين هذه العلوم الطبيعية - على عادة العرب فى تركيز الفنون والمتون - رأى منه ابن النديم خمسمائة ورقة لخالد ابن يزيد وحده! .

ويدعم هذه الحقيقة - حقيقة التطبيقات الإسلامية المبكرة للعلوم الطبيعية - قول «ابن عساكر» [٤٩٩ هـ ١١٠٥م] عن خالد بن يزيد : إنه قد مارس تجارب تحلية مياة البحر المالحة وتحويلها إلى مياة عذبة! . . وأنه قال لأصحابه : «**إن شئتم أُعذبُ لكم ماء البحر؟. فأتى بقلال من ماء.. ثم وصف كيف يصنع به حتى يَعْذُب..**» (١) .

وخالد بن يزيد هذا ، هو الذى قال فيه خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز [٦١-١٠١ هـ ٦٨١-٧٢٠م] - تقديرا لمكانة العلم الذى أشرف على ترجمته وتدوينه والإبداع فيه : «**ما ولدت أميّة مثل خالد بن يزيد. لا أستثنى من ذلك عثمان ولا غيره**»! (٢) . . فقدمه على عثمان بن عفان [٤٧ ق . هـ - ٣٥ هـ ٥٧٧ - ٦٥٦ م] - عليهم جميعا رضوان الله - . .

ولعل هذه الكلمات أن تلفت الأنظار إلى البعد العلمى وإلى مقام العلم الطبيعى فى عقل وفكر ودولة وإنجازات الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز - وهو بُعْدٌ لم

---

(١) ابن عساكر : [تهذيب تاريخ ابن عساكر] جـ٥ ص ١١٩ ، ١٢٠ طبعة دمشق سنة ١٣٣١هـ.

(٢) ابن عبد ربه : [العقد الفريد] جـ٢ ص ٢٣٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .

يلتفت إليه أحد - فلقد وقف دارسوه عند تقواه وورعه، وإحيائه السنة وتدوينه لها، وإماتته البدعة ومحاربته إياها . . وعند ثورته الإصلاحية التى رد بها المظالم إلى أهلها . . وعند إحيائه للشورى . . وإقامته للسلام العام فى المجتمع - بل لقد زعم البعض أنه لم يكن «رجل دولة»[1] ! . . لكن استقراء تاريخ العلم الطبيعى - فى الحضارة الإسلامية - يكشف عن إنجازات هذا الراشد الخامس - عمر بن عبد العزيز - فى القرن الهجرى الأول - فى هذا الميدان . . **ففى عهده عمم تدريس الطب «بعد أن كان بالإسكندرية.. ويقول ابن أبى أصيبعة [٥٩٦ - ٦٦٨ هـ ١٢٠٠ - ١٢٧٠م] فى [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] عن ابن أبجر الكنانى: «كان طبيبا عالما ماهرا، وكان فى أول أمره مقيما فى الإسكندرية، لأنه كان المتولى فى التدريس بها من بعد الإسكندرانيين .. وذلك عندما كانت البلاد فى ذلك الوقت لملوك النصارى - [الرومان] - ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية، أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز - وكان حينئذ أميرا قبل أن تصل إليه الخلافة - وصَحِبَهُ، فلما أفضت الخلافة إلى عمر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى إنطاكية وحران، وتفرق فى البلاد. وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر، ويعتمد عليه فى صناعة الطب»** [2] .

فعمر بن عبد العزيز - فى القرن الهجرى الأول - هو الذى عمم تدريس الطب فى حواضر الدولة الإسلامية، بعد أن كان وقفا على الإسكندرية .

ولقد بدأت اهتمامات عمر بن عبد العزيز بهذا الميدان قبل إمارته وخلافته . . وإلى هذه الحقيقة يشير صاحب [طبقات الأطباء والحكماء] فيقول: **إن أول كتاب فى الطب ترجم إلى العربية هو [كناش] القس «أهرن بن أعين» - من أهل الإسكندرية - وهو فى ثلاثين مقالة «وجده عمر بن عبد العزيز فى خزائن الكتب، فأمر بإخراجه، ووضعه فى مصلاه، فاستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تم له فى ذلك أربعون**

---

(١) انظر رد «فلهوزن» على هذا الرأى فى [تاريخ الدولة العربية]ص ٢٩٤ - ٣٠١ . ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبوريدة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٢) ابن أبى أصيبعة: [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء]ص ١٧١ . طبعة بيروت سنة ١٩٦٥م: والنقل عن: خليل داود الزرو [الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة] ص ١٨٦ . طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.

صباحا أخرجه إلى الناس وبثه فى أيديهم».. وكان مترجمه هو «ماسرجويه» الطبيب البصرى ـ وكان يهوديا سريانيا. .[1].

هكذا، كانت المحاريب، وكانت استخارة الله سبحانه وتعالى، الطريق الذى سلكته الحضارة الإسلامية لإحياء العلوم الطبيعية وتعميمها بين الناس . . بعد أن ظلت مواريث تلك العلوم حبيسة الصناديق الحديدية لعدة قرون بسبب الكهنوت الذى أقام العداء بين هذه العلوم ولاهوت المحاريب! .

* * *

وفى هذه المرحلة المبكرة، أصبحت الترجمة صناعة كبرى، فتحت النوافذ أمام العقل المسلم والحضارة الإسلامية على كل مواريث العلوم فى مختلف الحضارات التى سبقت ظهور الإسلام . . حتى ليذكر ابن النديم فى [الفهرست] ـ أسماء أكثر من سبعين من التراجمة عن اليونانية والسريانية والفارسية والهندية إلى العربية[2] وهى كل لغات العلم العالمى فى ذلك التاريخ ـ ومن نماذج هؤلاء المترجمين :

ـ «يوحنا بن ماسويه» [١٩٠ ـ ٢٦٠ هـ ٨٠٩ ـ ٨٧٣ م] الذى قلده هارون الرشيد [١٤٩ ـ ١٩٣ هـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩ م] ترجمة الكتب القديمة (الطبية) التى وجدت بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم . . ووضعه أمينا على الترجمة، ووضع له كُتّاباً حذاقا يكتبون بين يديه . . وخدم الرشيد والأمين [١٧٠ ـ ١٩٨ هـ ٧٨٧ ـ ٨١٣ م] والمأمون [١٧٠ ـ ٢١٨ هـ ٧٨٦ ـ ٨٣٣ م] وبقى على ذلك إلى زمن المتوكل [٢٠٦ ـ ٢٤٧ هـ ٨٢١ ـ ٨٦١ م] . .[3].

ـ «ويوحنا بن البطريق» الذى تولى أمانة الترجمة على عهد المأمون . . وترجم كثيرا من كتب الأوائل . . وترجم كتاب أرسطو طاليس [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م] إلى

---

(١) ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى : [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٦١، ٦٢. تحقيق : فؤاد سيد . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

(٢) [الفهرست] ص ٢٤٤، ٢٤٥.

(٣) [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٦٥.

الإسكندر [٣٥٦-٣٢٤ ق. م]- المعروف بسر الأسرار، وهو كتاب السياسة فى تدبير الرياسة - من اللسان اليونانى إلى اللسان الرومى، ثم من اللسان الرومى إلى اللسان العربى . . ولقد عانى فى طلب أصل هذا الكتاب «فقصد الهياكل - [المعابد] فى البحث عنه، حتى إلى هيكل عيد الشمس، الذى كان بناه، «هرمس الأكبر» لنفسه يمجد الله تعالى فيه. قال: فظفرت فيه بناسك متعبد مترهب، ذى علم بارع، وفهم ثاقب، فتلطفت به، وأعملت الحيلة عليه، حتى أباح لى مصاحف- [كتب] الهيكل المودعة فيه، فوجدت فى جملتها المطلوب الذى نحوه قصدت وإياه اتبعت - الذى أمرنى أمير المؤمنين - [المأمون] - بطلبه مكتوبا بالذهب، فرجعت إلى الحضرة المنصورة ظافرا بالمراد»! [1].

- «وحنين بن اسحاق» [١٩٤ - ٢٦٠ هـ ٨١٠ - ٨٧٣ م] - تلميذ يوحنا بن ماسويه - كان عالما بلسان العرب، فصيحا باللسان اليونانى جدا - تعلمه بالإسكندرية - بارعا فى اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين.

ومما يشهد على أن النشاط العلمي فى هذه العلوم الطبيعية قد استمر حتى فى اللحظات التى اضطهد فيها التيار العقلانى - المعتزلة - أن «حنين بن اسحاق» هذا قد اختير للترجمة، وائتمن عليها . . ووضع المتوكل له كُتّابا نحارير عالمين بالترجمة، كانوا يترجمون ويتصفح حنين ما ترجموا . . وهو الذى أوضح - فى عهد المتوكل - معانى كتب «بقراط» [٤٦٠ - ٣٧٧ ق. م] و«جالينوس» [١٣١ - ٢٠١ ق. م] ولخصها أحسن تلخيص، وكشف ما استغلق منها، وأوضح مشكلها . . وعمد إلى كتب «جالينوس» فاحتذى فيها حذو الإسكندرانيين، فصنعها على سبيل المسألة والجواب، فأحسن فى ذلك . . وله كتاب صناعة المنطق، لم يسبق إلى مثله غيره، لحسن تقسيمه، وبراعة نظامة . . [2] . فاستمر النشاط فى العلوم الطبيعية حتى فى عهد المتوكل العباسى، الذى اضطهد المعتزلة والمتكلمين!

---

(١) المصدر السابق ٦٧ ، ٦٨.

(٢) المصدر السابق ٦٨، ٦٩.

● ثم نبغ الكندى، أبو يوسف يعقوب بن صباح الكندى [١٨٥ - ٢٦٠ هـ - ٧٩٦ - ٨٧٣ م] الذى كان عالما بالطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والهيئة والنجوم وطبائع الأعداد واللحون . . وترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها مشاكلها، ولخص المستصعب، وبسط العويص . . وألف فى التوحيد كتابا على طريق أصحاب المنطق فى سلوك مراتب البرهان لم يسبقه إلى مثله أحد . . وكتاب فى إثبات النبوة، بذات المنهاج . . [(١)] . . فبرهن بالعقل على التوحيد . . وعلى النبوات . . حتى قال «البيهقى» [٤٩٩ - ٥٦٥ هـ - ١١٠٦ - ١١٧٠م] عن فلسفة الكندى : إنه قد جمع فى بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات . .

ولقد أوجز الكندى - فى رسالته إلى «المعتصم بالله» [١٧٩ - ٢٢٧ هـ ٧٩٥ - ٨٤١ م] منهاج الحضارة الإسلامية فى الانفتاح على الحضارات العالمية، فقال :

«.. وينبغى أن لا نستحى من الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شىء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغى بخس الحق ولا التصغير بقائله، ولا بالآتى به، ولا أحد بُخس بالحق، بل كل يشرفة الحق.. ومن أوجب الحق أن لا نذم من كان أحد أسباب منافعنا الصغار الهزلية، فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية، فإنهم وإن قصروا عن بعض الحق، فقد كانوا لنا أنسابا وشركاء فيما أفادونا من ثمار فكرهم، التى صارت لنا سبيلا وآلات مؤدية إلى علم كثير مما قصروا عن نيل حقيقته، ولا سيما إذ هو بيّن عندنا وعند المبرزين من المتفلسفين قبلنا من غير أهل لساننا.

إنه لم ينل الحق - بما يستأهل الحق - أحد من الناس بجهد طلبه، ولا أحاط به جميعه، بل كل واحد منهم إما لم ينل منه شيئا، وإما نال منه شيئا يسيرا بالإضافة إلى ما يستأهل الحق، فإذا جمع يسير ما نال كل واحد من النائلين الحق منهم، اجتمع من ذلك شىء له قدر جليل. فينبغى أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق، فضلا عمن أتى بكثير من الحق، إذ

---

(١) المصدر السابق. ص ٧٣، ٧٤. و[الفهرست] ص ٢٥٥.

أشركونا فى ثمار فكرهم، وسهّلوا لنا المطالب الخفية، بما أفادونا من المقدمات المسهلة لنا سبل الحق، فإنهم لو لم يكونوا، لم يجتمع لنا مع شدة البحث فى مددنا كلها هذه الأوائل الحقّيّة، التى بها تخرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية، فإن ذلك إنما اجتمع فى الأعصار المتقادمة عصرا بعد عصر إلى زماننا هذا، مع شدة البحث ولزوم الدأب وإيثار التعب فى ذلك»[1].

بهذا المنهاج، الذى ظل متبعا فى تاريخ العلم الإسلامى تفتحت نوافذ العقول الإسلامية على المواريث الفكرية والعلمية فى كل الحضارات . . ورأينا هذا المنهاج عند أبى الوليد بن رشد، الذى قال: **«إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك .. سواء أكان مشاركا لنا فى الملة أو غير مشارك فى الملة ..فننظر فيما قالوه من ذلك، فإن كان صوابا قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه..»**[2].

وحتى جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] الذى قال: «إن أبا العلم وأمه هو الدليل . . والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل» . .

ومن قبل جميع هؤلاء، حديث رسول الله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها» - رواة الترمذى وابن ماجة . .

* * *

● ومن الذين نبغوا - فى العلوم الطبيعية والكونية - أبناء شاكر: محمد بن موسى بن شاكر [٢٥٩ هـ ٨٧٣ م] وأحمد بن موسى بن شاكر [كان حيا قبل ٢٥٩ هـ ٨٧٣ م] ووالدهما: حسن بن موسى بن شاكر [٢٠٠هـ ٨١٥ م] . . والذين مثلوا نموذجا للمؤسسات «الأكاديمية» الأهلية، فى المجتمع الإسلامى . . فأنجزوا إنجازات كبرى فى الرياضيات وعلم الهيئة والحيل والنجوم والفلسفة والموسيقى . .

---

(١) قدرى حافظ طوقان: [تراث العرب العلمى]ص ١٧١، ١٧٣، ١٧٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

(٢) ابن رشد (أبوالوليد): [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة - الثالثة - سنة ١٩٩٩م.

وأقاموا لذلك مجمعا للترجمة والتأليف . . حتى ليقول صاحب [الفهرست] : «إنهم قد بذلوا الرغائب، وأنفذوا حنين بن اسحاق وغيره إلى بلاد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقي والأرثما طيقى والطب» .. وأقاموا نظام «التفرغ» للترجمة والتأليف .. وكانوا «يرزقون حنين بن اسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة [٢٢٠ ـ ٢٨٧ هـ ٨٣٥ ـ ٩٠٠ م] وغيرهم فى الشهر خمسمائة دينار..»[١].

* * *

وغير هذا الموقف الإسلامى المتميز من الطبيعة والتجريب والعلوم الطبيعية . . وثمرات هذا الموقف فى التمثل المبكر والإبداع المبكر فى ميادين هذه العلوم وتطبيقاتها . . يشير مؤرخ العلوم الإسلامية الدكتور فؤاد سيزكين إلى لون آخر من التميز الإسلامى فى هذا الميدان . . وهو النظرة الإسلامية إلى أصحاب تلك المواريث العلمية القديمة . . وكيف تميزت هذه النظرة الإسلامية عن نظرة اللاتين عندما نقلوا العلوم عن الآخرين . . يشير الدكتور فؤاد سيزكين إلى ذلك، فيقول : «إن عملية الأخذ والتمثل قد تمت لدى اللاتين على غير الصورة التى تمت بها عند العرب، ذلك أن المسلمين اهتدوا إليها بوساطة الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، وبواسطة مواطنيهم أصحاب المعارف الأجنبية. أما عند اللاتين فكانت على صورة أخرى .. لقد كانوا ـ أعنى اللاتين ـ مضطرين إلى أخذ المعارف، وإلى أخذ أنظمة المؤسسات المختلفة، وإلى أخذ أساليب الجامعات وبرامجها من الأعداء السياسيين والدينيين. لقد كانوا يشعرون بشعور المعاداة والبغضاء تجاه من يأخذون عنهم، وانعكس ذلك على عملية الأخذ بصورة عُقد نفسية، وطبيعى بعد هذا أن يفقدوا عنصرى الوضوح والصراحة، وهما العنصران الأصليان فى عملية أخذ المسلمين عن الآخرين» .

نعم . . لقد كان اللاتين ـ إبان نهضتهم ـ يأخذون عن من يعتبرونهم «أعداء . . هراطقة» وعن من يعتبرونهم دونهم فى سلم الإنسانية . . ولذلك افتقر نقلهم ـ كما

(١) [الفهرست] ص ٢٤٣ .

يقول الدكتور سيزكين إلى الوضوح والصراحة، فلم يذكروا المصادر ولا الأسماء التى نقلوا عنها فى الأغلب الأعم، فكان نقلا أقرب ما يكون إلى «السرقة»! . . بينما كان النقل الإسلامى واضحا صريحا موثقا . . فهم يقومون بواجب دينى، هو الإحياء لمواريث الإنسانية، وينهضون بفريضة إلهية هى النظر فى آثار الأمم والشعوب والقراءة لآيات الله المبثوثة فى الأنفس والآفاق، والتى نظر فيها الأولون، الذين ينقل عنهم المسلمون . . وذلك فضلا عن أن هذا النقل إنما كان يتم من مراكز علمية وحضارية كانت جزءا من دار الإسلام، ويقوم به مسلمون أو أهل كتاب، هم جميعا أمة واحدة تعيش فى دار الإسلام . .

* * *

• وبعد مرحلة النقل والتمثل لمواريث الحضارات القديمة فى العلوم والمعارف . . وبعد بواكير التطبيقات الإسلامية لحقائق وقوانين هذه العلوم . . جاءت مرحلة النضج للعقل العلمى الإسلامى، والتى تجلت فى المراجعة والاختبار والتجريب لكثير من نظريات تلك العلوم . . ومن ثم النقد والتصحيح والتطوير لكثير منها . . ثم الإضافات الإبداعية فى ميادينها . . كل ذلك بفضل براعة المسلمين فى التجريب، وإبداعهم للمنهج التجريبى ـ الذى جاء ثمرة لموقف الإسلام من الطبيعة ومن العمل والتجريب فى أنحائها.

ويتحدث الدكتور فؤاد سيزكين عن هذه المرحلة من مراحل العلم الإسلامى، فيقول: «ولسنا نخالف الحقائق التاريخية إذا اعتبرنا أن مرحلة «الأخذ والتمثل» تنتهى فى أواسط القرن الثالث الهجرى إلى مرحلة الإبداع .. وذلك بإدراك المسلمين بأنفسهم أنهم قادرون على الإبداع، وهم قادرون بالتالى على أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه الإغريق من قبلهم..

فالإخوة الثلاثة المشهورون ببنى موسى، والذين كانوا يقومون بعمل مشترك فى دراستهم لأرخميدس [٢٨٧ ـ ٢١٢ ق. م] وأبلونيوس [٢٦٠ ـ ٢٠٠ ق.م] كانوا يحاولون الوصول إلى تحديد الرقم اليونانى أدق مما وصل إليه القدماء، وإلى حل جديد

لمسألة تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، وقد كانوا يصححون ما وقع لأبولونيوس في كتابه [المخروطات] على رأيهم.

كذلك نذكر في ميدان الرياضيات أن الماهانى [كان حيا قبل ٢٦٠هـ ٨٧٤ م] حاول في أواسط القرن الثالث من الهجرة أن يجد الحل العددى لمعادلة من الدرجة الثالثة.

وفي ميدان الطب والبصريات كان الرازئ [٢٥١ ـ ٣١١ هـ ٨٦٥ ـ ٩٢٣ م] يرد على إقليدس وجالينوس قولهما في كون رؤية الأشياء تتكون بخروج الرؤية من العين إلى الأشياء، ويصرح الرازى بأن الرؤية تحدث بوصول الضياء من المادة إلى العين، كما يرى أن حدقة العين تتغير كبرا وصغرا بمقدار قوة الضياء الذى يدخل فيها .

ونرى مثلا أن الكندى ينصرف عن معظم ما توصل إليه أرسطو طاليس والعلماء اليونانيون الآخرون في ميدان الآثار العلوية (ميثاؤرو لوجيا) ويأتى بآراء خطيرة لا يختلف بعضها عن النتائج الحديثة..» [١].

ويقول «ألاردغور» عن كتاب عبد الرحمن الصوفى [٢٩١ ـ ٣٧٦ هـ ٩٠٣ ـ ٩٨٦ م] [كتاب الكواكب الثابتة]: إنه أصح من كتاب «بطليموس» [٩٠ ـ ١٦٨م] وزيجه أصح زيج وصل إلينا من كتب القدماء. . وأكثر الأقدار التى أوردها الصوفى مثل أقدارها المعتمد عليها الآن فى أزياج «اجلندر» و«هيس» [١٨٦٦ ـ ١٩٤٩ م] . . وفى كتاب الصوفى هذا ـ [كتاب الكواكب الثابتة] ـ صور الأبراج والصور السماوية فى هيئة أناسى ملونة . .

وللبتانى [٣١٧ هـ ٩٢٩] [زيج الصابى] . . الذى يقال إنه أصح من زيج بطليموس . . ومن كتب الكوهى: [كتاب الزيادات على أرخميدس فى المقالة الثامنة . . وللأمير أبو نصر منصور بن على بن عراق [٤٢٥ هـ ١٠٣٤ م] [رسالة فى حل شبهة عرضت فى الثالثة عشرة من كتاب الأصول] . . [٢] . وللرازى ـ محمد بن زكريا

---

(١) د. فؤاد سيزكين: مجلة «الثقافة» ـ الجزائرية ـ عدد مارس ـ أبريل سنة ١٩٨٦ م ص ٣٨، ٣٩.
(٢) [تراث العرب العلمى] ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٧٢.

ـ[كتاب الشكوك والمناقضات التى فى كتب جالينوس] . . هذا غير تحقيقه لصناعة الكيمياء ـ التى ألف فيها أربع عشرة مقالة . . وتآليفه فى الجبر[1].

ولابن الصلاح ـ نجم الدين أبو الفتوح أحمد بن محمد السرى ـ [المتوفى بدمشق سنة نيف و ٤٥٠ هـ]ـ [كتاب المقالات السبع] الذى انتقد فيه عددا من العلماء القدماء، منهم أرسطو فى المقالة الثانية من [كتاب البرهان] . . والمقالة الثالثة من كتاب [السماء والعالم] . .

وللسموأل بن يحيى بن عباس المغربى [٥٧٠ هـ ١١٧٥ م] [كتاب الباهر] . . ومن مباحثه تعليل ما زعم «فيثاغورس» [القرن السادس ق. م] أنه أدركه بطريق الوحى . .

كما كانت لابن باجة [٥٣٣ هـ ١١٣٩ م] ملاحظات قيمة على نظام بطليموس فى الفلك، وقد انتقده، وأبان مواضع الضعف فيه . . وكذلك صنع ابن طفيل [٤٩٤ ـ ٥٨١ هـ ١١٠٠ ـ ١١٨٥ م] فى نقد بطليموس أيضا . .

ولقد تنبه نصير الدين الطوسى [٥٩٧ ـ ٦٧٢هـ ١٢٠١ ـ ١٢٧٤ م] لنقض أقليدس [القرن الثالث ق. م] فى قضية المتوازيات . . كما انتقد ـ فى كتابه [التذكرة فى علم الهيئة] ـ [كتاب المجسطى] واقترح نظاما جديدا للكون أبسط من النظام الذى وضعه بطليموس . . ويعترف مؤرخ العلم «سارطون» [١٨٨٤ ـ ١٩٥٦ م] بأن الانتقاد الذى وضعه الطوسى للمجسطى يدل على عبقريته وطول باعه فى الفلك . . ويمكن القول إن انتقاد الطوسى هذا كان خطوة تمهيدية للإصلاحات التى تقدم بها «كوبر نيكس» [١٤٧٣ ـ ١٥٤٣ م]. ومن مؤلفات ابن الهيثم [٣٥٤ ـ ٤٣٠ هـ ٩٦٥ ـ ١٠٣٩م] [كتاب حل شك أقليدس] . . ومن مؤلفات الخيام [٥١٥هـ ١١٢١ م] كتاب [شرح ما يشكل من مصادرات أقليدس] و[مقالة فى الشكوك على بطليموس]. ومن مؤلفات قسطا بن لوقا البعلبكى [٣٠٠هـ ٩١٢ م] [كتاب شكوك كتاب أقليدس]. ومن مؤلفات

---

(١) [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٧٧، ٧٨.

العباس بن سعيد الجوهري ظهر حوالى سنة ٨٣٠م] [كتاب الأشكال التى زادها فى المقالة الأولى من إقليدس] . .

ولقد أجرى أمير سمر قند «أولغ بك بن شاه روخ بن تيمور [٧٩٦-٨٥٣ هـ ١٣٩٣ - ١٤٤٩م] أرصادا صححت بعض الأرصاد التى قام بها اليونان، وذلك عندما رأى أن حساب التوقيعات للحوادث - وفق التجارب والأرصاد - لا يتفق مع ما قرره بطليموس . .

وهكذا - بعد النقل والتمثل لعلوم الأولين - قاد المنهج التجريبى علماء المسلمين إلى المراجعة والنقد والشكوك والتصحيح لما ترك الأولون . . ثم توالت إبداعات الإضافة والتطوير بعد الإبداع فى المراجعة والتصحيح .

ولعلنا ندرك مدى الأمانة العلمية، والتقدير لما أبدعه القدماء، حتى أثناء المراجعة لتراثهم، والنقد له، والتصحيح لأخطائه . . ندرك مدى هذه الأمانة والعظمة العلمية الإسلامية، التي جعلت العلم والحقيقة «رحما» بين بنى الإنسان . . ندرك ذلك، ونحن نقرأ كلمات الخيام فى كتابه [مقالة فى الشكوك على بطليموس] . . والتى يقول فيها: «**إن الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر.. ولما نظرنا فى كتب الرجل المشهور بالفضيلة .. أعنى «بطليموس القلوذى» وجدنا فيها علوما كثيرة، ولما خصمناها وميزناها.. وجدنا فيها مواضع مشبهة وألفاظا بشعة ومعانى متناقضة .. إلا أنها يسيرة فى جنب ما أصاب فيه من المعانى الصحيحة. ورأينا أن فى الإمساك عنها هضما للحق وتعديا عليه .. ووجدنا أن أولى الأمور ذكر هذه المواضع وإظهارها، ثم نجتهد بعد ذلك فى سد خللها وتصحيح معانيها . ولسنا نذكر فى هذه المقالة جميع الشكوك التي فى كتبه..**»[1].

إنها حضارة العدل والحق، التى صنعت مناهج هؤلاء العلماء العظماء ! . .

* * *

(١) [تراث العرب العلمى] ص ٣٦٩، ٣٧٢، ٣٨٦، ٣٨٩، ٤١٢، ٤١٣، ٣٠٥-٣٠٧، ٣٠٩، ٢١٣، ٤٤٦.

• وإذا كان الإسلام قد تميز عن الرسالات السماوية التي سبقته، بإقامته «للدولة» التي تحرس «الدين»، والتي يسوسها هذا الدين . . كما تميز بتكوينه «لأمة . . وجماعة» . . و«بوطن» هو الوعاء «للأمة . . والدين» . . كما تميز بإبداعه «للحضارة والمدنية»، كأثر من آثار تطبيقاته «كدين» . . كما تميز «بالعالمية»، لأنه لن يُبعث نذير فى أى مكان من هذا العالم، بعد بعثة رسول الإسلام ﷺ . . وتميز - كذلك - «بخلود شريعته» إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنها الشريعة التى ختم بها الله رسالات السماء والوحى الإلهى لبنى الإنسان.

إذا كان الإسلام قد تميز فى هذه الميادين عن الرسالات التى سبقته . . فلقد تميزت حضارته بمنهاج «الوسطية الجامعة» فى النظر إلى «ذاتها» وإلى «غيرها» من الحضارات . . .

وإذا كان كتاب [الفهرست] لابن النديم [٤٣٨هـ ١٠٤٧ م] قد مثل باكورة علم إسلامى، ارتادت به الحضارة الإسلامية ميدان التصنيف للعلوم والفنون والعلماء والفرق والمذاهب والملل والنحل . . فإن فى هذا الكتاب - العمدة - معالم منهاج إسلامى فى النظر إلى العلاقات بين الحضارات . .

• فهو فى الديانات والمعتقدات والمذاهب يفرد لكل أمة مكانا يحكى فيه عقائدها وكتبها والمبرزين من علمائها . . ويصنع ذلك - أيضا - فى الحديث عن الأساطير والخرافات والعزائم والسحر . . وذلك إشارة إلى سنة اختلاف الأمم فى الشرائع والملل والمناهج والثقافات.

• وهو فى علوم الكلام، والفقه، واللغة والنحو والآداب والسير والأنساب، والشعر، وعلوم القرآن والسنة، يقف عند إبداع المسلمين . . وذلك إشارة لتميز علوم الأمة الخاتمة - أمة الإسلام - عن نظائرها فى الأمم الأخرى.

• وهو فى الفلسفة، والعلوم الطبيعية، وعلوم الصنعة التطبيقية - يسوق أخبارها وأعلامها وكتبها فى تسلسل واحد، منذ النشأة وحتى عصره، عبر الأمم والتاريخ . . وذلك إشارة إلى أنها مشترك إنسانى عام، تتوارثه الأمم والحضارات وتضيف إليه وتبدع فيه، وتتفاعل مع غيرها فى حقائق هذه العلوم وقوانينها . .

الأمر الذى يزكى التمييز بين «العام - الإنسانى» و«ما هو خاص متميز» لدى كل أمة من الأمم وحضارة من الحضارات .

فإذا علمنا أن فلاسفة الإسلام - من الكندى [١٨٥ - ٢٦٠ هـ ٧٩٦ - ٨٧٣ م] إلى مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م] - قد تميزت فلسفتهم عن الفلسفة اليونانية . . وأن الكثيرين منهم قد اشتغلوا بـ «الكلام - التوحيد» . . وكانت قراءة من درس منهم الفلسفة اليونانية قراءة بعيون إسلامية وعقل إسلامى ، وذلك من خلال محاولاتهم التوفيق بين الفلسفة والدين ، أو الجمع بين أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م] وأفلاطون [٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م] . . ومن خلال الانتقادات التى أوردوها على المقولات اليونانية أو الشروح والإضافات التى بثوها أثناء شروحهم لهذه المقولات .

إذا أدركنا ذلك ، علمنا أن العلوم الطبيعية وعلوم الصنعة - التطبيقات والتقنيات - قد كانت أرض الوحدة الفكرية الإنسانية . . على حين تمايزت المعتقدات والشرائع والملل والمناهج والثقافات والآداب والتصورات الفلسفية للوجود ولمكانة الإنسان فى هذا الوجود . . أى أن الأمم والحضارات قد تمايزت فى التكوين النفسى ، وعمران النفس الإنسانية . . بينما اشتركت فى علوم التمدن المدنى ، وعمران الواقع المادى ، أى العلوم الطبيعية والدقيقة والتجريبية وتطبيقاتها . . فكانت علاقة «العموم والخصوص» هى التى «تجمع» وأيضا «تمايز» بين الأمم والحضارات . .

* * *

هذا هو الإسلام - كما تجلى ، بالحقائق ، من خلال هذه الإشارات والشهادات .

- دين التوحيد ، الذى يبلغ فى التنزيه قمة التجريد . . فكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك .

- وهو المصدق لما بين يديه من الكتب والنبوات والرسالات . . والمصحح والمضيف والمستوعب لمواريث النبوات .

• وهو دين القيمة . . والبينة . . والعلم . . والبرهان .

• وهو دين النور والاستنارة والتنوير بالله . . والرسول . . والقرآن . . والحكمة .

• وهو دين العدل . . مع الذات . . ومع الآخرين . . ومع من نكره . . وحتى مع الذين يقاتلون أهله .

• ودين التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف فى كل عوالم الخلق والأفكار . . مع التوحيد للذات الإلهية . . التى ليس كمثلها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

• ودين الحرية فى الاعتقاد، لأن الإيمان به : تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين، فلاسلطان عليه إلا لله . . ومن المحال أن يتأتى بالإكراه .

• وهو الدين الذى تفرد بتكوين «الأمة» و«الدولة» و«الوطن» و«الحضارة»، التى تتنوع فى إطار الشعوب والقبائل والألسنة واللغات والقوميات والشرائع والملل والألوان والأجناس والعادات والتقاليد والأعراف . . فالوحدة فيها قائمة على التنوع، والتنوع فيها قائم فى إطار جوامع المشتركات . .

• وهو الدين الذى جمع - فى مصادر المعرفة - بين عالمى الغيب والشهادة . . و- فى سبل المعرفة - بين العقل والنقل والتجربة والوجدان . . فامتزج فى ثقافة أمته «الشرعى» و«المدنى» و«الروحى» و«المادى» . . حتى لقد تدينت - فيها - الفلسفة، وتفلسف الدين ! .

• وهو الدين الذى مثل الإحياءالعام . . للإنسان . . والأمة . . والحضارة . . وللمواريث العلمية التى أبدعها الأولون . . فكان إنقاذا لمواريث العلم الإنسانى من الضياع .

• وهو الدين الذى أدالت فتوحاته قوى الهيمنة والقهر والاستغلال، فحرر الأوطان الشرقية . . وحرر ضمائر الشعوب . . وترك الناس - أحرارا - ومايدينون، فكان المنقذ حتى للديانات التى لا يدين أهلها بالإسلام . . بل والتى يجحد أهلها الإسلام الذى أنقذهم من الفناء ! ! .

• وهو الدين الذى تآخى فى ثقافته عالم الغيب والشهادة . . وآيات الكتاب الإلهى المسطور وآيات الكتاب الإلهى المنظور . . فكانت نظرته إلى «الطبيعة» باعتبارها «خليقة . . حية» . . تؤمن بخالقها . . وتتجه إليه بالحمد والتسبيح» . . فكان إبداع حضارته مقترنا بإيمان إنسانه . . وكانت التجارب والمنهج التجريبى مظهرا لعبقرية أمته فى ميادين العلوم . .

* * *

وهنا يسأل الإنسان :

ـ إذا كان هذا هو الإسلام . . الدين . . والحضارة . . فماذا يستحق هذا الإسلام من الناظرين فيه؟ . . حتى ولو لم يكونوا من المؤمنين بثوابته فى الاعتقاد؟؟ . .

ماذا يستحق هذا الإسلام من الناظرين فيه . . والدارسين لحضارته . . ولتاريخ أمته؟! . . الإنصاف؟ . . أم الافتراء؟! . .

القسم الأول

افتراء الجهلاء

• شهادات غربية على قدم وتجذر ثقافة العداء للإسلام .. والكراهية للمسلمين فى التراث الغربى:

١ ـ افتراءات الحرب الصليبية الجديدة ـ عقب ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م..

٢ ـ اتخاذ الإسلام عدوا .. عقب سقوط الشيوعية سنة ١٩٩٠م..

٣ ـ التحريض على الإسلام ـ فى ثمانينيات القرن العشرين ..

٤ ـ الهجمة التنصيرية على الإسلام فى سبعينيات القرن العشرين..

٥ ـ شهادات غربية على أن عداء الغرب للإسلام إنما يعود إلى فجر ظهور الإسلام!..

- ١ -

فور وقوع «قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م» فى أمريكا - والتى قُصف فيها مبنى وزارة الدفاع - «البنتاجون» - فى واشنطن . . ودمر فيها برجا التجارة العالمية فى نيويورك - . . وقبل أن يبدأ التحقيق فى هذا الحادث المروع ، أعلن الرئيس الأمريكى «بوش - الصغير» - فى ١٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م - «حملة صليبية» استباقية ! . . ضد الإسلام وأمته وعالمه . . واضعا إياهم تحت اسم «الأشرار . . والإهارب» ! . .

ورغم محاولات البعض تصوير عبارته عن «الحملة الصليبية» بأنها «زلة لسان» ، سببتها قلة الثقافة ، إلا أن سيل الكراهية السوداء ، الذى انهال على الإسلام - والإسلام تحديدا - سواء من وسائل الإعلام الغربية - والأمريكية بالدرجة الأولى - أو من قطاعات كبيرة من كبار المسئولين وصناع القرار . . أو من المفكرين الاستراتيجيين المشيرين على صناع القرار . . وذلك فضلا عن الممارسات العدوانية التى مارستها كثير من الحكومات الغربية ، بقيادة وضغوط أمريكية - ومنها الحروب الاستباقية ضد أفغانستان والعراق - . . كل ذلك لم يدع شكا فى أن عبارة «الحملة الصليبية» قد أريد بها المعنى الذى سبق وعنته فى التاريخ الوسيط للصراع التاريخى الذى مارسه الغرب الاستعمارى ضد الشرق والشرقيين . . معنى النزعة الاستعمارية التى تغلف الأطماع الإمبريالية بغلالة من المسيحية . . وليس معنى الحرب بين المسيحية والإسلام . .

فإذاعة الفاتيكان - التى تذيع بتسع وثلاثين لغة - والناطقة باسم أكبر المراجع النصرانية فى العالم ، قد صادق مديرها «باسكوالى بور جوميو» على أن لغة الإدارة

الأمريكية ومواقفها، إنما هى «صليبية» . . فصرح - فى ٢٨ - ٢ - ٢٠٠٣ م - إبان الهجمة الأمريكية - الغربية على العراق - فقال: «إنه فى الوقت الذى يدعو الفاتيكان إلى التعقل، ويشجع العمل الديبلوماسى، ويدافع عن القانون الدولى، نرى فى الجانب الآخر قوة عظمى تقودها إدارة خوّلت إلى نفسها مهمة إنقاذية (مقدسة) .. واتخذت لهجة ومواقف صليبية»[(١)] .

ولقد صدّق على موقف الفاتيكان هذا، وأكده الأنبا «يوحنا قلته» - نائب البطرك الكاثوليكى فى مصر - فقال: «إن بوش يستخدم المسيح درعا، والصليبية ثوبا للدفاع عن مصالح أمريكا المادية .. وأنه كان يقصد تماما معنى عبارة «الحملة الصليبية» .. ولم تكن أبدا زلة لسان»[(٢)] . وإبان هذه «الحملة الصليبية» انهالت على الإسلام سيول من افتراءات ثقافة العنصرية والكراهية السوداء:

• فوزير العدل الأمريكى «جون أشكروفت» يسب إله المسلمين ورب العالمين، فيقول: «إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الرب فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الرب!»[(٣)] .

• ومساعد وزير الدفاع الأمريكى «الجنرال وليام ج. بويكن»، يذهب إلى حد القول: «إن إلهنا أكبر من إله المسلمين .. إن إلهنا حقيقى، وإله المسلمين صنم. وإنهم يكرهوننا لأننا أمة مسيحية يهودية، وعدونا هو الشيطان نفسه»![(٤)] .

• والسيناتور الديمقراطى - الأمريكى - «جوزيف ليبرمان» - مرشح الرئاسة الأمريكية - يعلن ما يؤكد «صليبية» هذه الحملة . . فهى - كما يقول - حملة لفرض

---

(١) صحيفة [الحياة] - لندن - فى ٢٩ - ٢ - ٢٠٠٣ م.
(٢) صحيفة [العربى] - القاهرة - فى ١٦ - ٣ - ٢٠٠٣ م.
(٣) صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن - فى ٢١ - ٢ - ٢٠٠٢ م.
(٤) صحيفة [الحياة] - لندن - فى ١٧ - ١٠ - ٢٠٠٣ م.

«القيم»، وليس «السياسات» فقط . . فيقول : «إنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التى نراها ضرورية.. فالشعارات التى أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهى عند الحدود الأمريكية، بل تتعداها إلى الدول الأخرى»[1]!.

• وتتحدث «مارجريت تاتشر» - رئيسة وزراء إنجلترا الأسبق - عن أن المعركة هى حول «القيم» و«المصالح»، فتقول - عن المسلمين - «إنهم يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب.. وإنهم يمثلون أيدلوجية عدائية لأمريكا والغرب .. فهم كالبو لشفية فى الماضى .. وكما كان الحال مع الشيوعية، فلا بد من تبنى استراتيجية طويلة المدى ليتسنى لنا هزيمتهم»![2].

• وهذه «القيم» التى تريد هذه «الحملة الصليبية» فرضها على الإسلام وأمته وعالمه، هى قيم الحداثة الغربية، التى تريد تغيير طبيعة الإسلام، وعزله عن شئون الدولة والاجتماع، وتحويله إلى صورة من المسيحية الغربية التى خضعت للعلمنة، ففصلت بين ما لقيصر وما لله، مكتفية بما لله، وخلاص الروح، ومملكة السماء - خارج هذا العالم . . فهذه «الحملة الصليبية» ليست ضد «التشدد» الإسلامى، كما يحسب البعض ويعلن، وإنما هى ضد الإسلام الرافض لقيم الحداثة الغربية : الليبرالية . . والعلمانية.

وعن هذه الحقيقة يفصح المفكر الاستراتيجى الأمريكى «فوكوياما»، فيقول : «إن الحداثة، التى تمثلها الولايات المتحدة الأمريكية والديمقراطيات المتطورة، ستبقى القوة المسيطرة فى السياسة الدولية، وإن المؤسسات التى تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر فى الانتشار عبر العالم .. وإن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى لديها مشاكل أساسية مع الحداثة .. فالحركات الأصولية الإسلامية ترفض، لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة العلمانية نفسها ..

---

(١) صحيفة [الأهرام] - الأهرام - فى ١٦ - ١ - ٢٠٠٢ م.

(٢) صحيفة [الشرق الأوسط] لندن - فى ١٤ - ٢ - ٢٠٠٢ م.

وإن المسألة ليست ببساطة حربا على الإرهاب .. وليست المسألة الحقيقية هى السياسات الخارجية الأمريكية فى فلسطين أو العراق ..ولكن الصراع الأساسى الذى نواجهه أوسع من ذلك بكثير .. إنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى تقف ضد الحداثة الغربية وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية .. وهذا هو التحدى الأيديولوجى الذى يمثل فى بعض جوانبه، تحديا أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية»![1].

● وإذا كان الرئيس الأمريكى «بوش ـ الصغير» قد استخرج مصطلح «الأشرار» الذى أطلقه على الدول والتوجهات الإسلامية المعارضة لحملته الصليبية هذه. . قد استخرج هذا المصطلح من «سفر المزامير» .. وقرر أن حربه على العراق ـ فى مارس سنة ٢٠٠٣ م ـ هى «حرب عادلة، وفق المفهوم المسيحى، كما شرحه القديس «أوغسطين» [٣٥٤ ـ ٤٣٠ م] .. وكما فصله كل من القديس «توما الأكوينى» [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ م] و«مارتن لوثر» [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ م] وآخرون»!.

وأنه ـ خلال هذه الحملة الصليبية الجديدة ـ قد تعود أن يبدأ يوم عمله ـ فى البيت الأبيض ـ بالقراءة فى كتاب عظات إنجيلية قصيرة، عنوانه [أعظم ما يمكننى لأعظم العظماء] Mgutmost for his hghest للقسيس «أوزوالد تشيمبرز» الذى توفى سنة ١٩١٧م وهو يحرض الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين على غزو القدس، فى الحملة التى قادها الجنرال الإنجليزى «اللنبى» [١٨٦١ ـ ١٩٣٦ م] سنة ١٩١٧ م!.

إذا كان هذا هو «الورد»! الذى يبدأ «بوش ـ الصغير» بقراءته كل صباح . . وإذا كان قد أعلن عن البعد الدينى فى حملته هذه على «الأشرار ـ المسلمين»، عندما خطب فى «أبر يلاند» بمدينة «ناشفيل» متوجها إلى رجال الإعلام الدينى ـ فى الحزام الإنجيلى بالجنوب الأمريكى ـ حيث قال: «إنهم ـ المسلمون الأشرار ـ يكرهون حقيقة أن نعبد الرب بالطريقة التى نراها مناسبة»!! . .

---

(١) النيوزويك ـ الأمريكية ـ العدد السنوى ديسمبر سنة ٢٠٠١ م ـ فبراير ٢٠٠٢ م.

حتى لقد قال أحد المشاركين فى ذلك اللقاء: «**لا يسعنى أن أتصور المسيح يدعو حشدا يهتف له إلى الحرب كما سمعت الرئيس يفعل للتو**»!.

وحتى لقد وصف الكاتب الانجليزى «جيلبرت كيه» الروح الدينية والنزعة الصليبية فى هذه الحملة الأمريكية فقال: «**إن أمريكا أمة بروح كنيسة! .. وإن الرئيس الحالى والرئاسة الحالية هما الأشد رسوخا فى هذا الإيمان خلال العصور الحديثة**»!.

إذا كانت هذه هى وقائع وشهادات الأمريكيين والغربيين على روح هذه الحملة الصليبية التى أعلنتها أمريكا على «المسلمين - الأشرار» عقب أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م .. فإن قساوسة «اليمين الدينى» و«المسيحية الصهيونية»، كان لهم الدور القيادى فى هذه الحملة الصليبية ضد الإسلام.

لقد ذهب قساوسة «التحالف المسيحى» و«المؤتمر المعمدانى الجنوبى» و«الجيب السامرى»، مع الجيش الأمريكى الزاحف على العراق - فى مارس سنة ٢٠٠٣ م وهم «**لا يخفون رغبتهم فى تحويل المسلمين إلى المسيحية، حتى - بل لا سيما - فى بغداد**»! - كما تقول مجلة «النيوزويك الأمريكية».. [١].

فالقس «فرانكين جراهام» - الذى ترأس حفل القسم الدستورى لبوش - الصغير - والذى يعد الأب الروحى الذى قاد بوش من السُّكْر إلى الرب، و«الولادة المسيحية الجديدة» .. يقول عن الإسلام: «**إنه دين شيطانى وشرير**»! [٢].

والقس «بات روبرتسون» - وهو أوسع قساوسة اليمين الدينى نفوذا فى الإعلام الأمريكى .. ورئيس «التحالف المسيحى» الذى يتحكم فى انتخابات الرئاسة والكونجرس - هو القائل عن الإسلام: «**إن الدين الإسلامى دعا إلى العنف.. وإن**

---

(١) انظر فى ذلك كله: النيوزويك - ١١-٣-٢٠٠٣ م.

٢) صحيفة [واشنطن بوست] فى ١٨-١-٢٠٠١ م.

أمريكا بحاجة إلى إنذار ضد خطر المسلمين الذى يكرهون أمريكا ويحاولون تدمير إسرائيل»![1].

والقس «جيرى فاين» هو القائل عن نبى الإسلام ﷺ «**إن محمدا هو الشيطان نفسه**» ![2].

تلك إشارات - مجرد إشارات - إلى قطرة من محيط مخزون ثقافة الكراهية السوداء، التى انهالت على الإسلام وأمته وعالمه، عقب قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م[3].

وهناك نسأل:

- هل كانت ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م هى «بداية» تاريخ هذا الافتراءالغربى على الإسلام ؟؟ . . . لننظر ! . . . .

---

(١) صحيفة [الحياة]- لندن- فى ٢٦-٢-٢٠٠٢ م وصحيفة [الشرق الأوسط]-لندن-فى ٣-٣-٢٠٠٢ م.

(٢) محمد السماك [الدين فى القرار الأمريكى]ص . ٦ طبعة بيروت سنة ٢٠٠٣ م.

(٣) انظر دراستنا عن «صورة الإسلام فى خطاب الهيمنة الغربية» بكتابنا [الغرب والإسلام]: أين الخطأ؟ وأين الصواب؟ [ص ٥٥-٩٧] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٤م. ودراستنا عن «الهجمة الأمريكية على الإسلام» بكتابنا [فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام] ص ٩١-١١٣ . طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٣م.

-٢-

فى أوائل العقد الأخير من القرن العشرين - أى قبل ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م باثنى عشر عاما - تداعت أركان المنظومة الشيوعية، وانهارت حكوماتها وأحزابها، وانفرط عقد معسكرها وحلفها العسكرى - حلف وارسو - . وبدأت فى «النظام الدولى» مرحلة جديدة، تميزت بزوال التناقض الحاد الذى استمر أكثر من سبعين عاما - [١٩١٧ - ١٩٩١ م] - فى داخل الحضارة الغربية - بين الشمولية الشيوعية والليبرالية الرأسمالية - فتوحدت قبضة الحضارة الغربية، وبدأت فيها الدعوات لاتخاذ الإسلام عدوا للغرب، يحل محل العدو الشيوعى الذى تهاوت أركانه.

ويومئذ - فى يوليو سنة ١٩٩٠ م - سئل «جيانى ديميكلس» رئيس المجلس الوزارى الأوربى:

- ما مبررات بقاء حلف الأطلنطى - الناتو - بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالى والمعسكر الذى كان اشتراكيا؟.

- فأجاب: «صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربى والعالم الإسلامى».

فلما عاد السائل - مراسل «النيوزويك» - الأمريكية - ليسأل:

- وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة؟

أعلن «جيانى ديميكلس» - رئيس المجلس الوزارى الأوربى . . والمتحدث باسم حلف الأطلنطى . . الذى تقوده أمريكا - أن المطلوب لتجنب المواجهة مع العالم

الإسلامى، هو قبول العالم الإسلامى للنموذج الغربى ـ وهو ذات مطلب «الحملة الصليبية» الأمريكية، بعد ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م!! ـ فقال:

ـ «**ينبغى أن تحل أوربا مشاكلها، ليصبح النموذج الغربى أكثر جاذبية وقبولا من قبل الآخرين فى مختلف أنحاء العالم، وإذا فشلنا فى تعميم ذلك النموذج الغربى فإن العالم سيصبح مكانا فى منتهى الخطورة**»!!(١).

وسيرا على طريق هذه المواجهة بين حلف الأطلنطى ـ الآلة العسكرية الغربية ـ وبين العالم الإسلامى.. قرر مؤتمر حلف الأطلنطى المنعقد فى أمريكا فى الذكرى الخمسين لتأسيسه فى إبريل سنة ١٩٤٩ م ـ قرر فى إبريل سنة ١٩٩٩م ـ توسيع نطاق تدخله العسكرى.. فبعد أن كان هذا النطاق هو «**الدفاع عن أرض الدول المشتركة فيه**»، أصبح نطاق التدخل هو «**مصالح الدول المشتركة فى حلف الأطلنطى**»!.

وفى ذات التاريخ، الذى أعلن الغرب فيه اتخاذ الإسلام عدوا بديلا لإمبراطورية الشر الشيوعية.. نشرت مجلة «شئون دولية» ـ الفصلية المتخصصة ـ والصادرة فى «كمبردج» ـ بإنجلترا ـ عدد يناير سنة ١٩٩١ م «ملفا» عن الإسلام لاثنين من أبرز علماء الاجتماع السياسى الإنجليز ـ إدوارد مورتيمر» و«إرنست جيلنر» ـ قدما فيه الإجابة عن السبب فى اتخاذ الغرب الإسلام عدوا فور سقوط الشيوعية.. فإذا بهذا السبب هو ذات السبب الذى تحدثت عنه الحملة الصليبية الأمريكية بعد قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م سبب رفض الإسلام للعلمنة، واستعصاؤه على العلمانية.. والقبول بالقيم الغربية.. وقيم الحداثة والعلمانية على وجه الخصوص.. لقد قالت مجلة «شئون دولية»:

«**لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى. وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز فى المتناول!**

---

(١) [النيوزويك] ـ عدد يوليو سنة ١٩٩٠م.

إن أوربيين كثيرين يتساءلون عما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟أم أن رسوخ الإسلام فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحى ـ الغربى، الذى يميّز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقية أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها فى ديمقراطية علمانية؟

إن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقول :«إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يقوّض الإيمان الدينى، صالحة على العموم.. لقد تناقص التأثير السياسى والسيكولوجى للدين عمليا، فى كل المجتمعات وبدرجات متفاوتة، وأشكال مختلفة .. لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدا من هذا! .. فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية، وهى بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت. إن الإسلام مقاوم للعلمنة والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحا فى ظل مختلف النظم السياسية ـ راديكالية.. وتقليدية .. وبين النوعين ـ .

إن وجود تقاليد محلية للإسلام .. قد مكّن العالم الإسلامى من أن يفلت من المعضلة التى أرّقت مجتمعات أخرى «غير متطورة» أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال .. معضلة إضفاء الطابع المثالى على الغرب ومحاكاته .. لقد امتلك الإسلام مقومات الإصلاح الذاتى، باسم الإيمان المحلى، وذلك هو التفسير الأساسى لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة..

إن الإسلام، من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى للثقافة العلمانية الغربية»[1] .

* * *

---

(١) مجلة [شئون دولية] ـ عدد يناير سنة ١٩٩١ .

إذن .. فتاريخ العداء والافتراء والتحدى، ليس قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م.. كما يتصور الكثيرون .. وهنا نسأل ـ مرة ثانية ـ:

ـ هل كان انهيار الشيوعية، فى بداية تسعينيات القرن العشرين، هو تاريخ ميلاد هذا العداء والافتراء الغربى على الإسلام والمسلمين؟؟..

لننظر . . . .

- ٣ -

فى ثمانينيات القرن العشرين . . وقبل انهيار الشيوعية وحكوماتها وأحزابها . . كتب الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» ـ وهو مفكر إستراتيجى ـ كتابه [الفرصة السانحة]، وفيه حدد ـ بصراحة ووضوح ـ أن العدو هو الإسلام ـ الذى سماه الأصولية الإسلامية، التى تريد ـ بنص عبارته ـ **«استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة وتطبيق الشريعة الإسلامية .. والمناداة بأن الإسلام دين ودولة .. واتخاذ الماضى هداية للمستقبل ..»**.

كما أعلن «نيكسون» ضرورة تحالف أمريكا وأوربا وموسكو لمواجهة هذه الأصولية الساعية إلى هذا البعث الإسلامى الجديد، وضرورة دعم النموذج العلمانى «الأتاتوركى» فى العالم الإسلامى **«نموذج تركيا العلمانية، المنحازة نحو الغرب، والساعية إلى ربط المسلمين بالغرب سياسيا واقتصاديا ..»** ففى علمنة الإسلام وعالمه الضمان للمحافظة على مصالح أمريكا والغرب فى الشرق، التى هى **«النفط وإسرائيل، لأن أكثر ما يهمنا فى الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل .. وإن التزامنا نحو إسرائيل عميق جدا، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق!.. نحن مرتبطون معهم ارتباطا أخلاقيا..ولن يستطيع أى رئيس أمريكى أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل»!**.

كما أفصح «نيكسون» ـ فى هذا الكتاب ـ عن عمق كراهية «الكثيرين» من الأمريكيين «لكل» المسلمين واتخاذهم أعداء، أكثر من أى شعب أو حضارة على ظهر هذه الأرض . . فقال: **«إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون وغير منطقيين .. وأن سيوف محمد وأتباعه هما السبب فى انتشار**

الدين الإسلامى فى آسيا وأفريقيا، وحتى أوروبا .. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة حتي بالنسبة للصين الشيوعية، فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى .. ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان.. وأن الإسلام سوف يصبح قوة چيبوليتيكية متطرفة .. وأنه مع التزايد السكانى والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر كبيرة .. وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب .. وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدوانى للعالم الإسلامى»![1].

هكذا أعلن الرئيس الأمريكى والمفكر الإستراتيجى «ريتشارد نيكسون» عن عمق العداء الأمريكى والغربى للمسلمين، ولتيار البعث الإسلامى، الساعى لتطبيق الشريعة الإسلامية، وجعل الإسلام دينا ودولة وتوظيف التراث الإسلامى واستلهامه فى بناء المستقبل . . ودعا إلى تحالف الحضارة الغربية ـ من أمريكا إلى موسكو ـ ضد هذا البعث الإسلامى ـ الذى رآه «خطرا عدوانيا»!! . كما رأى فى العلمانية الغربية، البديل الذى يجب دعمه لإلحاق العالم الإسلامى بالغرب سياسيا واقتصاديا! . .

كتب «نيكسون» ذلك فى ثمانينيات القرن العشرين . . أى قبل قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م بنحو ربع قرن . .

وهنا نسأل ـ مرة ثالثة ـ:

ـ هل كانت ثمانينيات القرن العشرين ـ التى شهدت تصاعد الجهاد الإسلامى فى أفغانستان . . والانتفاضة الفلسطينية الأولى سنة ١٩٨٧م . . وشهدت صمود الثورة الإسلامية فى إيران ـ هل كانت هذه الحقبة هى تاريخ ميلاد العداء الغربى للمسلمين . . والافتراء الغربى على الإسلام؟؟

لننظر . . . .

---

(١) نيكسون [الفرصة السانحة] ص ٢٨، ١٤٠، ١٤١، ١٥٢، ١٥٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩ . ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة دار الهلال القاهرة سنة ١٩٩٢ م.

- ٤ -

فى مايو سنة ١٩٧٨م انعقد فى «كولو رادو» - بأمريكا - مؤتمر جمع الرءوس والخبراء فى الكنائس الغربية - وامتداداتها - لتدارس خطة أكثر فاعلية فى تنصير جميع المسلمين، وطى صفحة الإسلام من الوجود! .

ولقد نشرت الأبحاث الأربعون التى قدمت إلى هذا المؤتمر، مع الخطب والمناقشات التى دارت فيه والتى اقتربت صفحاتها من الألف صفحة . . وفى هذا المؤتمر برزت - مرة أخرى - نزعة العداء الغربى للإسلام . . فجاء فى أبحاث ومقررات هذا المؤتمر :

«إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية .. والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيا وسياسيا .. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاختراقة فى صدق ودهاء!.. ولذلك لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين.. فعلى مديرى إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعملها المنظم للوصول إلى المسلمين.

لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة فى العالم الإسلامى.. إن نصارى البروتستانت - فى الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا - منهمكون بصورة عميقة فى عملية تنصير المسلمين .. ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم .. وعلى المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير

الأجنبية العمل معا، بروح تامة، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين .. إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم .. ويفضَّل النصارى العرب فى عملية التنصير .. إن تنصير هذه البلاد سيتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنيسة المحلية، ويتم ذلك بعد تكوين جالية محلية نصرانية قوية.

ولكى يكون هناك تحوّل إلى النصرانية، فلابد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس ـ أفرادا وجماعات ـ خارج حالة التوازن التى اعتادوها!.. وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية كالفقر والمرض والكوارث والحروب وقد تكون معنوية كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعى المتدنى.. وفى غياب هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية!.. ولذلك، فإن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمرا مهما فى عملية التنصير!!.. وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى، فأصبحت أكثر تقبلا للنصارى!!.

إن بيانات مجلس الكنائس العالمى، التى تشدد على «حرية الإقناع والاقتناع» لا تلزم المجلس!! فالحوار ـ عند مجلس الكنائس العالمى ـ ليس بديلا عن تحويل غير النصارى إلى النصرانية .. وهذه البيانات ـ عن «حرية الإقناع والاقتناع» ـ لا تعنى تخلى المجلس عن مواقفه المناصرة «للجهود القسرية والواعية والمتعمدة والتكتيكية لجذب الناس من مجتمع دينى ما إلى آخر»!!.

وإنه بينما يوافق المنصّرون على أن التحول إلى دين آخر لا يجب ولا يمكن أن يتم بالقوة، فإنهم ما زالوا يشعرون أيضا بأننا ينبغى أن نجبرهم على الدخول فى النصرانية !!.

إن الإسلام ـ منذ ظهوره فى القرن السابع ـ إنما يمثل تحديا لكنيسة يسوع المسيح.. ولقد كانت عملية تنصير المسلمين من أعظم التحديات التى واجهت الكنيسة على مر العصور، وأصبح ذلك التحدى أكثر وضوحا بسبب الأحداث السياسية التى تشد

الأنظار نحـو الأراضى الإسـلاميـة .. فـالصـراع بين المسلمين التـقليـديين والاتجـاهات العلمانـية كاد أن يفـرض تطبيق الشـريعـة الإسـلامية فـى مصر.. كـما ستـقـوم باكسـتان بتطبـيق الدسـتـور الإسـلامى لأول مـرة فى تاريخـهـا ابتـداء من مـارس سنة ١٩٧٨ م .. والصحوة الإسـلامية التى تجيش فى أعـماق ملايين المسلمين قد بلغت شأوا لـم تبلغه لعدة قرون مضت!!»[١].

* * *

حدث هذا التخطيط لتنصير المسلمين .. وتحدى الإسلام، والعمل على طى صفحته من الوجود سنة ١٩٧٨م .. أى قبل نحو ربع قرن من أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ .. وقبل الثـورة الإيرانيـة .. والجهـاد الإسـلامى فى أفـغانسـتـان .. وقـبل بروز جمـاعـات العنف الإسلامى.

ومرة أخرى نسأل:

ـ هل هذا هو تاريخ ميلاد العداء الغربى للإسلام ؟؟.

لننظر.....

---

(١) [التنصيـر : خطة لغـزو العـالم الإسـلامى] ص ٤٥٢، ٢٢، ٢٣، ٧٨٩، ٧٩٠، ٥٣، ٥٦، ٤، ٥، ٦٢٧، ٦٣٠، ٣٨٣، ٨٤٥، ٢٢٤، ٨٢٦، ٨٢٧، ٤٦٩، ٣٦٤، ١٤٧، ٧٧٠، ٣٢٩، ٨، ١، ٠ طبعة مالطا ـ مركز دراسات العالم الإسلامى سنة ١٩٩١م. وانظر ـ كذلك ـ كتابنا [الغارة الجديدة على الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م.

- ٥ -

وحتى لا نطيل فى تقليب صفحات كتاب العداء الغربى للإسلام . . والافتراء الكاذب على ديننا وأمتنا، نذكّر بكلمات الجنرال - والمفكر - الإنجليزى «جلوب باشا» اللفتنانت جنرال جون ياجوت [١٨٩٧ - ١٩٨٦م]، صاحب كتاب [الفتوحات العربية] . . والذى عمل قائدا للجيش الأردنى حتى العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦م . . نذكّر بكلماته التى أصاب بها كبد الحقيقة فى تحديد التاريخ الحقيقى لميلاد العداء الغربى للإسلام - الذى سماه «مشكلة الشرق الأوسط» - فقال «**إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد**»! . . أى إلى ظهور الإسلام!! .

وحتى نقدم «الحيثيات» وحيثيات الشهادات الغربية تحديدا - على صدق وعمق هذا الحكم الغربى - الذى شهد به ونطق شاهد من أهلها - نقدم شهادة المستشرق الفرنسى الشهير - اليهودى الأصل - «مكسيم رودنسون» [١٩١٥ - ٢٠٠٤]، والتى يعلن فيها عن صورة الإسلام - المشوهة - فى الثقافة الغربية، والتى رسمها الغرب، وأسس عليها وراكم مخزون الكراهية الغربية للإسلام والمسلمين، منذ فجر الإسلام . . وكيف أن الغرب - فى كثير من دوائر «النخبة» وفى القاعدة العريضة للجماهير الشعبية - قد صوّر:

● العرب والمسلمين باعتبارهم «الوباء الموجع، والشعب الهائج، الذى عُرف بالسلب والنهب والتخريب»!! .

● وصوّر الإسلام باعتباره: وثنية شرقية، وهرطقة مسيحية، يعبد أهلها الثالوث: محمدا . . وترفا جانت . . وأبولو!! . .

● وصوّر رسول الإسلام ﷺ : ساحرا، مخادعا، أباح الاتصالات الجنسية، وهو كبير آلهة العرب، الذى تُصنع تماثيله من مواد ثمينة، بأحجام هائلة!!.

● وكيف أن هذه الصورة، التى تبلورت وشاعت فى الثقافة الغربية القديمة.. قد جدّدتها الإمبريالية الحديثة، والتمركز الأوربى حول الذات، فاتسمت الصورة الغربية الحديثة بالازدراء الواضح للمسلمين باعتبارهم شبكات من التنظيمات الخطرة، التى تغذيها أيديولوجية عدوانية وحقد بربرى على الحضارة!!.

● وعلى حين ربطت هذه الصورة المسيحية بالتقدم، فإنها قرنت الإسلام بالتخلف والركود.

● ثم أشاعت - هذه الإمبريالية الغربية - هذه الصورة المفترية على الإسلام والمسلمين - بفضل الصحافة والأدب الشعبيين، وكتب الأطفال، فأصبحت هذه هى النظرة التى تتسرب إلى عقول الجماهير الغفيرة.. ولم تخل هذه النظرة الكاذبة من التأثير على العلماء الذين يشيرون على الحكومات الاستعمارية الغربية!

أى أن الافتراء على الإسلام، وتشويه صورة رسول الإسلام ﷺ والأمة الإسلامية، قد استخدم قديما لشحن العامة والدهماء فى الحروب الصليبية التى أرادت استعمار الشرق بعد أن حرره الإسلام من قهر الإغريق والرومان.. ثم أعادت الإمبريالية الغربية الحديثة استخدام ذات السلاح - ثقافة الافتراء والكراهية السوداء - لشحن جماهير الشعوب الغربية وراء المشروع الإمبريالى الساعى لاحتلال الشرق ونهب ثرواته فى العصر الحديث.

شهد المستشرق الفرنسى «مكسيم رودنسون» - اليهودى الأصل.. والخبير فى الثقافتين الغربية والإسلامية - على ذلك كله، فقال: **لقد صوّر الأوربيون التحول الذى أحدثه ظهور الإسلام فى الشرق، باعتباره «تحولا حدث فى القوى وفى الأقسام البعيدة من الشرق، عندما قام شعب هائج (هم العرب أو السراسنة) - [البدو] -، عُرف بالسلب**

والنهب وهو عـلاوة على ذلك شعب غيـر مسيحـى، فاجـتاح وخـرب أراضى واسعـة، وانتزعها من قبضة المسيحية..

وعنـدما قـام «آدم بيـد المبـجل» [٦٧٢ ـ ٧٣٥ م] بمـراجعـة التاريخ الكنسى لـلإنجليز قبيل وفـاتـه سنـة ٧٣٥ م لـخص الأحـداث الأخـيرة بهـذة الكلمات: «وفى ذلك الوقت، قـام الـوباء المـوجـع الـمتـمثل بـالسراسنـة (المسـلمين) بتخـريب مملكة بلاد الغـال بعـد مـجـازر أليـمـة وبائسـة، لكنـهم سـرعـان مـا لقـوا عـقـابهـم الـذى يسـتـحـقـونه على غدرهم»!!.

● والإسلام، الذى بلغ فى التوحيد قمة التنزيه والتجريد، صوّروه ـ كما يقول «مكسيم رودنسو» ـ باعتباره وثنية تثليث!!.. «إسلام متحد فى عبادة محمد، وترفا جانت (tervgant) وأبولو» [ألوهية وثنية شرقية]!.

● أمـا رسـول الإسـلام ﷺ فـإن «مكسـيم رودنسـون» يـمـضى ليكشف عن الافتراء الـذى افتراه الكتاب اللاتين عليه، فيقول: «لقـد حدث أن الكتاب اللاتين، الذين أخـذوا بين سنـة ١١٠٠ م وسنـة ١١٤٠ م على عـاتقـهم إشبـاع هذه الحـاجـة لدى الإنسـان العامى، أخـذوا يوجهـون اهتـمامهم نحو حيـاة محمـد، دون أى اعـتبار للـدقة، فأطـلقـوا العنـان «لـجهل الـخيـال المنتـصر» ـ كـما جـاء فى كلمـات «ر.وسـاوثرن» ـ، فكـان محمـد (فى عـرفهم): ساحرا، هدم الكنيـسة فى إفريقيا والشـرق عن طريق السحر والـخديعـة، وضمن نـجاحـه بأن أبـاح الاتصـالات الجنسيـة .. وكان محـمـد (فى عرف تلك المـلاحم) ـ هو صنمهم الرئيسى، وكـان مـعظم الشـعراء الـجوالة يعتبرونه كـبير آلهة السـراسنـة ـ [البدو] وكـانت تـمـاثيـله (حـسب أقـوالهم) تصنع من مـواد غنيـة، وذات أحجام هائله ..

لقد اعـتبر الإسـلام فى العصور الوسطى نوعـا من الانشقاق الدينى، أو هرطقـة ضمن المسيحية. وهكذا رآه «دانتى» [١٢٩٥ ـ ١٣٢١ م]..

ثم كانت الظاهرة التى لعبت الدور الأكبر فى تحـديد طبيعة النظرة الأوربية إلى الشرق، وخصوصا بعد منتصف القرن التاسع عشر، هى الإمبريالية..

وكان من المحتم أن يؤدى هذا كله إلى تشجيع التمركز حول الذات، وهى صفة طبيعية فى الأوربيين، كانت موجودة دائما، ولكنها اتخذت الآن صبغة تتسم بالازدراء الواضح للآخرين..».

● ويشير «مكسيم رودنسون» إلى دور «التبشير بالنصرانية» فى العالم الإسلامى فى تكريس هذه الصورة الكاذبة عن الإسلام والمسلمين . . فيقول: «وقد شجع الوضع المهين الذى وجد العالم الإسلامى نفسه فيه، المبشرين المسيحيين، وفتح لهم طرقا جديدة. ففى إطار الميول الإنسانية الطبيعية، بل وحسب الأفكار العامة للعلم العصرى فى ذلك الحين، عزا المبشرون نجاحات الأمم الأوربية إلى الدين المسيحى، مثلما عزوا إخفاق العالم الإسلامى إلى الإسلام، فصُوّرت المسيحية على أنها بطبيعتها ملائمة للتقدم، وقُرن الإسلام بالركود الثقافى والتخلف. وأصبح الهجوم على الإسلام على أشد ما يكون. وبُعثت حجج العصور الوسطى بعد أن أضيف إليها زخارف عصرية، وصورت الجماعات الدينية الإسلامية بصورة خاصة على أنها شبكة من التنظيمات الخطرة، يغذيها حقد بربرى على الحضارة .. فكانت حركة «الجامعة الإسلامية» هى الغول المرعب فى ذلك العصر، على نفس الطريقة وفى نفس الزمن اللذين انتشر فيهما الرعب من «الخطر الأصفر». فكانت كل ظاهرة مناهضة للإمبريالية، حتى ولو كان مبعثها مشاعر محلية خالصة، تعزى إلى تلك الحركة الإسلامية. وكانت الكلمة نفسها ـ «الجامعة الإسلامية»ـ توحى بالتطلع الإسلامى للسيطرة، وبأيديولوجية عدوانية، وبمؤامرة على نطاق عالمى.

وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال، أخذت هذه النظرة تتسرب إلى عقول الجماهير الغفيرة من الأوربيين، ولم تخل من تأثير على العلماء أنفسهم، وخصوصا حين كانوا ينبرون لتقديم النصح إلى أولئك الذين كانوا يوجهون سياسات الحكومات الاستعمارية.

أما أولئك العلماء الذين اهتموا كثيرا بالدراسات المعاصرة من أمثال «سنوك هوركرونيه» [١٨٥٧ ـ ١٩٣٦ م] أو «سى . هو. بيكر» [١٨٧٦ـ ١٩٣٣] والذين كانت فكرة «الجامعة الإسلامية» تشغل اهتمامهم، فإنهم فى تحليلاتهم التى كانت تتصف

بدرجات متفاوتة من الدقة، كانوا يميلون لأن يروا فيها حركة رجعية. ومع أنهم لم يكونوا يؤمنون بجميع الأساطير الشائعة حول هذا الموضوع، فإنهم كانوا يميلون إلى أن يضفوا على هذه الحركة، التى كانت تتألف فى الواقع من عدة اتجاهات مهلهلة شديدة التشعب، وحدة وتنظيما يفوقان ما كان موجودا فيها بالفعل..»[١].

تلك هى شهادة «مكسيم رودنسون» على جناية التراث الغربى على صورة الإسلام والمسلمين . . وعلى أن تاريخ هذا الافتراء إنما نبع من العداء - غير المبرر - للإسلام، منذ فجر ظهور الإسلام! .

* * *

● وغير شهادة «مكسيم رودنسون» . . يشهد على هذه الحقيقة - حقيقة قدم وتجذر الافتراء الغربى على الإسلام والمسلمين - المستشرق الإيطالى الشهير «فرانشسكو جابر ييلى» . . فيقول: «**لقد كانت العصور الوسطى الغربية تنظر إلى ظهور الإسلام وانتشاره باعتباره تمزقا شيطانيا فى صدر الكنيسة المسيحية التى لم يكد يمر على انتصارها على الوثنية ثلاثة قرون، وانشقاقا مشئوما قام به شعب بربرى**»! [٢].

* * *

● وغير شهادة هذين العلمين من أعلام الاستشراق، يشهد على هذه الحقيقة - أيضا - المفكر الألمانى «هوبرت هيركومر» فى دراسته عن [صور الإسلام فى الأدب الوسيط] . . والتى يقول فيها: «**إن الأوربيين ادعو أن رسول الإسلام كان كاردينالا كاثوليكيا، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى**

---

(١) مكسيم رودنسون «الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية» - بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «شاخت» و«بوزورت» - القسم الأول. ص ٢٧، ٢٨، ٣٢، ٣٤، ٣٥، ٧٥، ٨٣، ٨٦. ترجمة: د. محمد زهير السمهورى. مراجعة: د. شاكر مصطفى. طبعة الكويت - عالم المعرفة - أغسطس سنة ١٩٧٨ م.

(٢) فرانشسكو جابر ييلى «الإسلام فى عالم البحر المتوسط» - المرجع السابق. ص ١٠٤، ١٠٥.

الشرق انتقاما من الكنيسة. واعتبرت أوربا المسيحية ـ فى القرون الوسطى ـ محمدا المرتد الأكبر عن المسيحية الذى يتحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية»!! [١].

● وكيف تحدث أكبر فلاسفة اللاهوت الكاثوليكى: القديس «توما الأكوينى» [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤] عن رسول الإسلام ﷺ، فقال عنه «إنه هو الذى أغوى الشعوب من خلال وعوده الشهوانية، وقام بتحريف جميع الأدلة الواردة فى التوارة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالة محمد إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون فى البادية»! [٢].

● أما رأس البروتستانتية «مارتن لوثر» [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦] فلقد وصف القرآن الكريم «بأنه كتاب بغيض وفظيع وملعون، وملىء بالأكاذيب والخرافات والفظائع».. معتبرا أن «إزعاج محمد، والإضرار بالمسلمين يجب أن تكون المقاصد من وراء ترجمة القرآن وتعرّف المسيحيين عليه .. وأن على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضا ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب ضد الأتراك المسلمين، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم فى هذه الحروب»! [٣].

● فلما جاء «دانتى» [١٢٩٥ ـ ١٣٢١ م] ـ صاحب «الكوميديا الإلهية» ـ رأيناه يضع رسول الإسلام ﷺ، وعلى بن أبى طالب، كرم الله وجهه، «فى الحفرة التاسعة فى ثامن حلقة من حلقات جهنم وقد قطعت أجسامهم وشوهت أجسادهم فى دار السعير، لأنهم كانوا فى الحياة الدنيا ـ [بكذبه وافترائه] ـ أهل شجار وشقاق»! [٤].

* * *

---

(١) هوبرت هيركومر [صورة الإسلام فى التراث الغربى] ص ٢٣، ٢٤. ترجمة: ثابت عيد. تقديم: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(٢) المرجع السابق. ص ٣٢، ٣٣.

(٣) المرجع السابق. ص ٢١.

(٤) المرجع السابق. ص. ٢٤.

ثم . . هناك شهادة العالمة الجليلة والمستشرقة الألمانية «سيجريد هونكة» ـ الخبيرة فى الدراسات المقارنة للديانات والحضارات ـ . . شهادتها على قِدم وتجذر الافتراء الغربى على الإسلام وأمته . . وفيها تقول :

● «لقد استقر فى أذهان السواد الأعظم من الأوربيين الازدراء الأحمق الظالم للعرب، الذى يصمهم جهلا وعدوانا بأنهم «رعاة الماعز والأغنام، الأجلاف، لابسو الخرق المهلهلة . . وعبدة الشيطان، ومحضّرو أوراح الموتى، والسحرة وأصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود، والذين حذقوا هذا الفن واستحوذ عليهم الشيطان، تحرسهم فيالق من زبانيته من الشياطين . . وقد تربع على عرشهم الذهبى «ما هومد» ـ «مخميد» ـ وقد ركعت تحت أقدامه قرابين بشرية يذبحها أتباعه قربانا وزلفى إليه . . »! .

● «ولقد وصف «جى . توينبى» [١٨٨٩ ـ ١٩٧٥م] العرب ـ فى كتابه [دراسة فى التاريخ العلمى] سنة ١٩٤٩م ـ بأنهم : «غير متحضرين . . وخلق غريب مستعبد من العالم الهللينى . أو المتطفلين على الحضارة اللهللينية الإغريقية . . أولئك المحمدون البدائيون . . وأقصى القول فيهم : أنهم تقليد بربرى جاهل زائف لديانة السريان الغريبة عنهم . . وهم ـ لبدائيتهم وقصورهم ـ لا يسعون إلى اعتناق النصرانية» .

كما صورهم «وليام» ـ من سالسبرى ـ «بأنهم يعبدون الدرك الأسفل من الشياطين» .

فهم «الكفرة الفجرة» الذين لا يدينون بالمسيح أو الله، لأنهم لم يعبدوه بعد، على أنه فى الإمكان تنصيرهم . . فهم ليسو سوى ديدان حقيرة . . وسفلة أوغاد . . أعداء الله . . وأعداء المسيح . . مستبيحو قبر المسيح»!![1] .

● «ولقد صورت الكنيسة الأوربية رسول الإسلام ساحرا كبيرا . . وصورت

---

(١) سيجريد هونكة [الله ليس كذلك] ص ٨، ١١، ١٤، ١٩، ٢٣ . ترجمة د. غريب محمدغريب . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م .

«قرطبة» - فى الأندلس - وطن عُباد الشيطان، المتوسلين بالموتى، الذين قدموا لمحمد الصنم الذهبى الذى كانت تحرسه عصبة من الشياطين، تضحية بشرية»!!. «فبلاد الإسلام هى عالم الخرافات والأساطير، عبدة الشيطان، والسحرة المتضرعين إلى الشيطان.. بلاد الأضاحى البشرية من أجل صنم ذهبى، تسهر على سلامته عصبة من الشياطين، اسمه محمد»!![1].

• ولقد خطب البابا «أوربان الثانى» [١٠٨٨-١٠٩٩م] فى فرسان الإقطاع الأوربيين يحثهم على الحرب الصليبية المقدسة ضد المسلمين، فقال: «أى خزى يجللنا وأى عار، لو أن هذا الجنس من الكفار، الذى لا يليق به إلا كل احتقار، والذى سقط فى هاوية التعرى عن كرامة الإنسان، جاعلا من نفسه عبدا للشيطان، قد قُدر له الانتصار على شعب الله المختار»؟![2].

• «ونظم شاعر الكنيسة القسيس «كونراد» سنة ١٣٠٠م - فى ريجنزبورج - «ملحمة رولاند».. التى وصف فيها المسلمين بأنهم «الشعب الذى لا يُروى تعطشه لسفك الدماء، والذى لعنه رب السماء.. فهم كفرة وكلاب.. وخنازير فجرة.. وهم عبدة الأصنام التى لا حول لها ولا قوة.. الذين لا يستحقون إلا أن يُقتلوا وتطرح رممهم فى الخلاء، فهم إلى جهنم بلا مراء»!.

وفى هذه «الملحمة - الشعبية» يخاطب القسيس «كونراد» الشعب المسلم، فيقول: «إن مخمت.. قد أرسلنى إليك لأطيح رأسك عن كتفيك وأطرح للجوارح جثتك وأمتشق برمحى هامتك. ولتعلم أن القيصر قد أمر كل من يأبى أن تعمده الكنيسة «ليس له إلا الموت شنقا، أو ضربا، أو حرقا» إن أولئك جميعا دون استثناء حزب الشيطان اللؤماء، خسرو الدنيا والآخرة، وحل عليهم غضب الله، فبطش بهم روحا وجسدا، وكتب عليهم الخلود فى جهنم أبدا»![3].

---

(١) سيجريد هونكة [العقيدة والمعرفة] ص ١٦١، ١٦٢، ٩٩. ترجمة: عمر لطفى العالم. طبعة دمشق سنة ١٩٨٧م.

(٢) [الله ليس كذلك] ص ٢٣.

(٣) المرجع السابق. ص ٤٤.

• ولقد تجاهل الأوربيون حقائق التاريخ وتلقفوا زعم أحد النصارى العرب ـ فى القرن الثالث عشر الميلادى ـ بعد الحروب الصليبية ـ عندما افترى على عمرو بن العاص، فزعم أنه هو الذى حرق مكتبة الإسكندرية، تنفيذا لوصية عمر بن الخطاب!! . . متجاهلين حقائق التاريخ التى تقول إن النصارى هم الذين أحرقوا هذه الكنوز!! . . ذلك «إن المجمع العلمى الذى ضم أكاديمية الإسكندرية، التى شيدها الملك بطليموس الأول سوتر سنة ٣٠٠ ق. م. كان مصدر إشعاع علوم الإغريق الهلينية بمكتبته الضخمة التى حوت قرابة مليون مخطوطة . . على أن ألسنة النيران قد أتت على هذا المجمع ومكتبته سنة ٤٧ ق. م. إبان حصار قيصر للإسكندرية.

ثم إن كليوباترة أعادت تشييد المكتبة وتزويدها بعدد لا يستهان به من المخطوطات من مكتبة برجمانون المصرية.

على أن القرن الثالث الميلادي كان بداية التدمير المخطط لهذا التراث العلمى:

ـ فنرى القيصر «كارا كلا» يلغى الأكاديمية ويحلها، ويسفك دماء علمائها فى مذبحة وحشية فظيعة.

ـ كما أن البطريرك النصرانى سنة ٢٧٢ م يغلق المجمع ويشرد علماءه، آمرا بحرق «مؤلفات الكفرة» فيبيدها المشتعلون حماسا دينيا من النصارى.

ـ وفى سنة ٣٦٦ م يحول القيصر «فالنس» «السيزاريوم» إلى كنيسة، وينهب مكتبته، ويحرق كتبها ويضطهد فلاسفته ويلاحقهم بتهمة ممارسة السحر والشعوذة.

ـ وفى سنة ٣٩١ م ـ مواصلة لاستئصال شأفة الكفرة ـ أى غير النصارى يفلح البطريرك «تيوفيلوس» فى الحصول على إذن القيصر «ثيودوز يوس» لهدم السرابيوم، كبرى الأكاديميات وآخرها، وموئل حكمة العصور القديمة والقبلة الذائعة الصيت التى يحج إليها طالبوا الحكمة من كل صوب، ويترك مكتبتها بما حوته من ثلثمائة ألف مخطوطة ـ نهبا للنيران قرير العين بتشييده ديراو كنيسة على أنقاضها.

ـ أما ما نجا ومن نجا فقد أمسى غرضا لعصابة نصرانية من الغلاة المراهقين انتشرت فى الإسكندرية فى القرن الخامس الميلادى تولت مواصلة تدمير علوم الكفرة وفلسفتهم وتحطيم مراكز ثقافتهم وآثارهم ومكتباتهم والهجوم على علمائهم، كما اعترف بذلك ـ فى قحة ودون خجل ـ «سيفروس الأنطاكى» ـ الذى صار فيما بعد بطريك القبط، وكذا صديق له.

وهكذا نرى أن المكتبات القديمة فى مصر جميعا لم يكن لها وجود أيام دخول العرب الإسكندرية سنة ٦٤٢ م [١].

ومع ذلك . . ورغم جميع هذه الحقائق التاريخية . . ذهب الأوربيون ليفتروا على الإسلام . . والفتوحات الإسلامية . . متهمين عمرو بن العاص [٥٠ ق هـ ـ ٤٣ هـ ـ ٥٧٤ ـ ٦٦٤ م] وعمرو بن الخطاب [٤٠ ق هـ ـ ٢٣هـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤ م] بأنهم هم الذين دمروا تراث مكتبة الإسكندرية، وذلك استغناء عن هذا التراث بالقرآن الكريم!! . .

* * *

● وفى الميدان العلمى . . يذهب الافتراء الغربى على الإسلام وأمته، إلى حيث يحكم على العرب بالعقم العلمى والفكرى . . فيزعم أنهم لم يكونوا مبدعين، وإنما كانوا ـ فقط ـ وسطاء وسعاة بريد . . فيقول «آرثوركو ستلر» ـ فى كتابه [قصة نشوء معرفتنا العالمية ـ السراة فى نعاسهم] المنشور سنة ١٩٥٩م ـ:

«لم يكن العرب سوى وسطاء، حَفَظَة نقَلَة رواة للتراث، ولم يمتلكوا سوى قدر ضئيل من الأصالة العلمية والقدرة الإبداعية. وعندما كانوا وحدهم حراس ذلك الكنز لم يقوموا بجهد يذكر للإفادة منه . . وهم كذلك لم يشجعوا العلم النظرى. وإنها لحقيقة جديرة بالملاحظة أن ذلك الاحتكار العربى ـ اليهودى الذى دام قرنين أو ثلاثة قرون ظل عقيما . . »!! [٢].

---

(١) المرجع السابق. ص ٧٣ ـ ٧٥. وانظر للمؤلفة ـ كذلك ـ: [فضل العرب على أوربا] ص ٢٦٦، ٢٦٧. ترجمة: د. فؤاد حسنين على. طبعة القاهرة ١٩٦٤ م.

(٢) المرجع السابق. ص ٧٩.

تلك إشارات - مجرد إشارات - إلى قطرة من محيط ثقافة الافتراء والكراهية السوداء للإسلام والمسلمين، التى تبلورت وتراكمت واستقرت فى تراث الثقافة الغربية، منذ فجر الإسلام . . والتى أصبحت المبرر للعدوان الاستعمارى الغربى على الشرق الإسلامى - فى الحروب الصليبية القديمة . . وفى الغزوة الإمبريالية الحديثة والمعاصرة - . والتى استخدمت أداة لشحن العامة والدهماء بالعداء للإسلام والمسلمين، وذلك حتى يضحوا فى سبيل هذا الاستعمار - كما يقول «مارتن لوثر» «بأموالهم وأنفسهم فى الحرب ضد المسلمين»! .

فنحن - إذن - أمام وقائع وشهادات قد قامت وتقوم بدور «الحيثيات» على صدق مقولة الجنرال «جلوب باشا» التى قال فيها: «إن مشكلة الغرب مع الشرق إنما يعود تاريخها إلى القرن السابع للميلاد»! .

القسم الثانى

إنصاف العلماء

﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ (يوسف : ٢٦).

• شهادات غربية لكوكبة من علماء الاستشراق .. فى إنصاف الإسلام:

١ ـ شهادة «سير توماس أرنولد».

٢ ـ شهادة «دافيد دى سانتيلانا».

٣ ـ شهادة «مونتجمرى وات».

٤ ـ شهادة «شاخت».

٥ ـ شهادة «برنارد لويس».

٦ ـ شهادة «مارسيل بوازار».

٧ ـ شهادة «لامبتون» (أ. ك . س).

٨ ـ شهادة «ألفريد جيوم».

٩ ـ شهادة «نلينو».

١٠ ـ شهادة «الأب قنواتى».

١١ ـ شهادة «جابر بيلى» (فرانسسكو).

١٢ ـ شهادة «بكر» (كارل هينرش).

١٣ ـ شهادة «مكسيم رودنسون» .

١٤ ـ شهادة «جورج سارتون» .

١٥ ـ شهادة «مايرهوف» (ماكس) .

١٦ ـ شهادة «كارادى فو» .

١٧ ـ شهادة «بلسنر» (مارتن) .

١٨ ـ شهادة «فيرنيه» (جوان) .

١٩ ـ شهادة «كاربنسكى» .

٢٠ ـ شهادة «جب» .

٢١ ـ شهادة «روزنتال» (فرانز) .

٢٢ ـ شهادة «نيكلسون» (رينولد ألين) .

٢٣ ـ شهادة «أتنجهاوزن» (ريتشارد) .

٢٤ ـ شهادة «كريستى» (أى . أج) .

٢٥ ـ شهادة «أرنولد» (سير توماس) .

٢٦ ـ شهادة «فارمر» (هنرى) .

٢٧ ـ شهادة «جرابار» (أوليج) .

٢٨ ـ شهادة «بريكز» (مارتن إس) .

٢٩ ـ شهادة «كرمرز» (ج . هـ) .

٣٠ ـ شهادة «باركر» (سير أرنست)

٣١ شهادة «براند تراند» (جون) .

٣٢ ـ شهادة «سيجريد هونكة» .

لقد صدق الله العظيم، عندما قال فى قرآنه الكريم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ (آل عمران: ١١٣).

ليعلّم الناس العدالة التى تكتشف الفروق والتمايزات فى مواقف الآخرين، والتى لا تعمم الأحكام فتظلم المنصفين والمجتهدين، عندما تضعهم فى سلة واحدة مع المغرضين والمزيفين.

فالغرب ليس كتلة واحدة صماء.. وهو لا يمكن اختزاله فى «مشروع الهيمنة الإمبريالية»، والاحتلال والاستغلال، الذى ناصب الإسلام العداء منذ ظهور الإسلام، ولا يزال يناصبه العداء حتى هذه اللحظات.. والذى حاول ويحاول، طوال ذلك التاريخ، إعادة اختطاف الشرق من الإسلام وأمته وحضارته.

ورغم أن صناعة القرارات، والممارسات التى عانى منها الشرق الإسلامى، ولا يزال يعانى منها حتى الآن، هى بيد قوى الهيمنة الغربية، وتوجهاتها الفكرية والدينية، وبيد المؤسسات السياسية والاقتصادية والإعلامية والكنسية المعبرة عن هذه القوى والتوجهات.. تلك التى تمسخ وتشوه صورة الشرق الإسلامى فى عقول ووجدانات جماهير الشعوب الغربية ذاتها، لتبرر مشاريع الهيمنة الإمبريالية على الشرق فى أوساط هذه الجماهير، وصولا إلى كسب تأييد هذه الجماهير لمقاصد الإمبريالية الغربية فى إعادة اختطاف الشرق، وحرمان أهله من حقهم الفطرى فى الحرية والاستقلال وتقرير المصير.

رغم هذه الحقيقة - التى قامت عليها الشواهد فى القسم الأول من هذا الكتاب - إلا أن العدالة والإنصاف يدعواننا إلى إبراز الوجه المشرق للغرب الحضارى.. والذى تمثل فى العلماء الغربيين، الذين عبروا عن حقيقة الإنسان الغربى، وموضوعية العلم الغربى، وأثمن ما فى الثقافة الغربية، عندما درسوا الإسلام وحضارته دراسة العلماء المجتهدين فأنصفوه، وشهدوا له شهادات صدق، نتعلم منها نحن المسلمين.. ونقدمها للإنسان الغربى - الذى ضلله الإعلام الغوغائى، عندما شحن عقله ووجدانه «بثقافة الكراهية السوداء» للإسلام

والمسلمين، قائلين لهذا الإنسان الغربى : **إننا ندعوك إلى كلمة سواء.. إلى أن تقرأ شهادات هؤلاء العلماء الغربيين العدول، العلمية والموضوعية التى أنصفت الإسلام وأمته وحضارته .**

وإذا كان استقصاء هذه الشهادات الغربية يحتاج إلى العديد من المجلدات ، فإننا نقف ـ فى هذا المقام ـ عند شهادات نفر متميز من العلماء الغربيين ، الذين يمثلون عمدا من أعمدة الثقافة الغربية ، وحججا فى دراسة الحضارة الغربية والإسلامية جميعا . . والذين كتبوا فى الإسلام دراسات يتعلم منها علماء الإسلام أنفسم . . وهى دراسات حرىّ أن يتعلم منها الغربيون قبل المسلمين .

- ١٠ -

وفى مقدمة هؤلاء العلماء الغربيين، العالم الإنجليزى «سير. توماس أرنولد» [١٨٦٤ ـ ١٩٣٠م] Arnold,sirthomas وصاحب الكتاب الفريد الذى درس مسيرة وسيرة انتشار الإسلام فى العالم، عبر التاريخ . . كتاب [الدعوة إلى الإسلام].

وعن هذا العالم الحجة يقول المستشرق الإنجليزى البرفسر «ألفريد جيّوم» AlfredCuittaume رئيس دائرة الشرق الأدنى والأوسط لمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية لجامعة لندن:

«إنه من أعاظم المستشرقين البريطانيين. تعلم فى كمبردج، وقضى عدة سنوات ـ ١٨٨٨ ـ ١٨٩٨ م ـ فى الهند أستاذا للفلسفة فى كلية عليكرة الإسلامية. وأستاذا للفلسفة فى لاهور ـ ١٩٩٨ ـ ١٩٠٤ م ـ ومساعدا لأمين مكتبة ديوان الهند ـ ١٩٠٤ ـ ١٩٠٩م ـ وهو أول من جلس على منبر الأستاذية فى قسم الدراسات العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بلندن سنة ١٩٠٤ م ـ ثم اختير عميدا لها. ولقد ذاع صيته بكتابيه [الدعوة إلى الإسلام] ـ لندن سنة ١٨٩٦ م ـ و[الخلافة Caliphate] ـ أكسفورد سنة ١٩٢٤ م ـ . كما كتب دراسته الإجمالية عن الإسلام بعنوان [العقيدة الإسلامية theIslamicfaith] وكتابه الفخم عن [التصوير فى الإسلام -paintin ginIslsm]. وهو صاحب فكرة كتاب [تراث الإسلام] والمشرف على تنسيقه وإخراجه ولقد كان ملما باللغتين العربية والفارسية، إلى جانب إلمامه بمعظم اللغات الأوربية. مالكا لمفاتيح عالم العصور الوسطى وعالم العصر الحديث. ولقد

خلت كتاباته من أية أغلاط، أو حتى هفوات لا حظها عليها المتخصصون من الغربيين أو المسلمين[(١)]».

وإذا كانت هذه هى مكانة «الشاهد» - سير . توماس أرنولد - فيكفى فى الإشارة إلى مكانة شهادته - كتابه [الدعوة إلى الإسلام] - الذى نقدم منه شهادته للإسلام - أن يقول فيه المستشرق الإنجليزى «ر . ا. نيكلسون [١٨٦٨ - ١٩٤٥ م] R. A. Nicholson:

«إنه كتاب يفوق حد الوصف من كل ناحية .. وهو مؤلف لا يمكن الاستغناء عنه، ويعد حجة ثابتة.. وهو من أوله إلى آخره، برغم طابعه التاريخى ومنهجة العلمى، إنما هو حجة أرنولد أقامها على الجور والتعصب. وإن آراءه فى الجملة خليقة بأن تؤثر حتى فى هؤلاء الذين قد يظنون أن هذا الكتاب مصدر خطر، عندما يقدرون بواعث الحماسة فى نشر الدعوة الإسلامية ونتائجها، تاركين بصفة قاطعة مظهراً من نشاط هذه الدعوة لم يحسبوا له حسابا، كما فعل أرنولد.. إنه ليستولى علينا الدهش كيف استطاع أرنولد أن يجمع وينقد هذا القدر الهائل من المواد المتنوعة التى تتعلق بالكتب والمراجع التى استخدمها فى الطبعة الأولى من كتاب [الدعوة إلى الإسلام]، وإن نظرة واحدة فى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف، تكفى لنتحقق قيمة الكتاب باعتباره مستودعا وصورة للحقائق التى تتعلق بموضوعه.. إنه كتاب زاخر بالحياة .. وبينما نجده ينقلنا على التوالى من بلاد العرب إلى آسيا الغربية وإفريقيا وإسبانيا وفارس والهند والصين والملايو، فإننا نحس من وراء سطحه الهادئ عمق الحجج المقنعة وقوتها، تلك الحجج التى تبعث فيه الحياة» [(٢)].

❊ ❊ ❊

وبعد هذه الإشارات إلى مكانة «الشاهد» ومكانة «الشهادة» . . نقدم شهادة

---

(١) نيكلسون . ر . ا . [تراث الإسلام] ص ١٦٨ - ترجمة : جرجيس فتح الله . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ . ومقدمة الطبعة الثالثة لكتاب [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٥ - ١٧ ترجمة : د . حسن إبراهيم حسن، د . عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٢) نيكلسون - مقدمة كتاب [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٦ ، ١٧ .

«سير . توماس أرنولد» . على زيف دعاوى انتشار الإسلام بالسيف والعنف والحرب والإكراه - تلك الدعاوى التى روج لها، ولا يزال مشروع الهيمنة الغربية - فيعلن، بالحقائق الموضوعية، أن انتشار الإسلام إنما حدث، بهذه الصورة المدهشة فى سرعتها وقوتها، لسببين أساسيين:

أولهما: الضعف الذاتى والمزمن الذى أصاب النصرانية، والإفلاس الذى أصاب كنائسها المتناحرة كأثر من آثار جناية الثقافة الهلينية الغربية على النصرانية الشرقية -، وما أثمرته من الانقسامات الحادة والتناقضات العدائية فى صفوف المؤسسات الكنسية إبان مراحل الظهور والانتشار للإسلام.

وثانيهما: سماحة الإسلام . . وبساطته . . ومنطقه العقلانى . . والقوة الذاتية التى امتلكها وتميز بها هذا الدين عن غيره من الديانات.

● كما يشهد «سير . توماس أرنولد» - ومعه كوكبة العلماء الغربيين الذين استشهد بدراساتهم - على الحقيقة التى تمثل «مفارقة غريبة» . . حقيقة انتشار النصرانية - التى هى ديانة السلام المتصوف، والصوفية المسالمة - بالسيف والعنف والقهر والإكراه . . بينما تم انتشار الإسلام - الذى هو دين ودولة . . وعقيدة وشريعة - بالسماحة، والدعوة التى تتوجه إلى العقول وتجتذب القلوب.

يشهد العلامة «أرنولد» على هذه الحقائق الموضوعية والتاريخية . . وما لنا فى هذا المقام، إلا تقديم نصوصه الموثقة التى نقدمها للقارئ الغربى - الظالم للإسلام . . أو الجاهل بحقيقته - ليراجع موقفه من الإسلام . . كما نقدمها للقارئ المسلم ليزداد يقينه بعظمة الإسلام . . وسمو سماحته . . وليزداد عزمه على الدفاع عن الإسلام فى مواجهة الحملة البربرية الظالمة لهذا الدين.

ونحن نقدم هذه الشهادة الأولى - شهادة «سير . توماس أرنولد» - تحت هذه العناوين:

أ - حال النصرانية إبان ظهور الإسلام.

ب ـ العوامل الذاتية لتفوق الإسلام . . وسرعة انتشاره .

ج ـ سماحة الإسلام .

د ـ نشر المسيحية بالعنف .

* * *

يشهد على ذلك كله العلامة «سير . تومارس أنولد» . . فيقول :

(أ) حـال النصرانيـة إبّان ظهور الإسلام.

[لقد صادفت شريعة محمد ترحيبا لا مثيل له فى العالم . . وإن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما ينخدعون انخداعا عظيما] .

جـــورج ســـيل Sale. C [١٦٩٧ - ١٧٣٦]
مترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية .

« العوامل التى ساعدت على نشر الإسلام:

إن حالات المجتمع المسيحى نفسه قد جعلت الجهود التى تنطوى على الغيرة والحماسة الدينية فى اكتساب مسلمين جدد أشد أثرا وأعظم قيمة .

ويعد تدهور الكنيسة الإغريقية فى مقدمة هذه الحالات جميعا . وإلى جانب طغيان الدولة البيزنطية فى الشئون الزمنية ، نشأ استبدا د فى الأمور الدينية جعل الحياة العقلية ترزح تحت عبء القرار الحاكم الذى حرم كل مناقشة فى شئون الأخلاق والدين . والشىء الوحيد الذى أقض مضاجعهم هو المجادلات العنيفة التى قامت حربا عوانا على الكنيسة اللاتينية مقرونة بكل ما فى المناقشات النظرية والكراهية العنصرية من شدة ومرارة . وتدهورت ديانة الشعب فأصبحت تراعى المظاهر الخارجية مراعاة تقوم على كثير من الوهم والريبة . ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفسا فى عبادة العذراء والقديسين والصور والمخلفات الأثرية ، وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية إلى الحضيض . ولما ملوا

مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة، كالانبثاق المزدوج لروح القدس، وأخرى تافهة - كاستخدام الخبز الخمير أو الفطير فى القربان المقدس - تقبلوا بصدر رحب تعاليم الإسلام الواضحة المفهومة التى تقوم على الوحدانية.

وقد انتهت إلينا أخبار عن طوائف كبيرة من الناس أسلموا، ولم يكونوا بسطاء عامتهم فحسب، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم، وأخبار عن الطريقة التى أجرى بها الأتراك أرزاقا أسخى على هؤلاء الرهبان والقساوسة الذين اعتنقوا الإسلام حتى يكونوا قدوه قد تدفع غيرهم إلى اعتناق الإسلام.

وبينما كانت «أدرنة» لا تزال العاصمة التركية [أى قبل سنة ١٤٥٣م] كان البلاط قد اكتظ بالذين أسلموا، ويقال إنهم كانوا يؤلفون السواد الأعظم من أصحاب الجاه والسلطان هناك. وكثيرا ما انحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المسلمين، ووجدوا منهم ترحيبا كبيرا.

وبعد سقوط القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحى من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان.

وفى الكنيسة الإغريقية أصبح الدين الإسلامى الملجأ الطبيعى لأفراد الكنيسة الشرقية، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط..» (١).



فساد رجال الدين المسيحى كان من أسباب اعتناق الإسلام:

وفى عهد صلاح الدين الأيوبى فى مصر [٥٦٤ - ٥٨٩ هـ - ١١٦٩ - ١١٩٣ م] تمتع المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير، فى ظل ذلك الحاكم الذى عرف بالتسامح الدينى، فقد خففت الضرائب التى كانت فرضت عليهم، وزال بعضها جملة. وملئوا الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة.

---

(١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٨٥ - ١٨٧.

وفى عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية، قرابة قرن من الزمان، ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط، فقد فشت السيمونية (١) بينهم، فبيعت مناصب القسيسين، الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، على حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة فى احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا من الجديرين بشغل هذا المنصب، وكان من أثر ذلك أن أهمل تثقيف الناس روحيا وخلقيا إهمالا تاما وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال . . كما بلغ من فساد الكنيسة أنه عند وفاة يوحنا الرابع والسبعين من بطارقة اليعاقبة فى سنة ١٢١٦ م، كان لا بد من انتخاب خليفة له، وقام بين الجماعات المتعادية المتناحرة التى لجت فى إثارة حقوق المرشحين المتنافسين، نزاع عنيف استمر نحو عشرين سنة. إلا أنه لم يكن من سبيل إلى إصلاح ذات البين بين هذه الجماعات، فقد كان اهتمامهم طوال ذلك الوقت بما قد يترتب على ذلك من نتائج محزنة مخزية ضارة، أقل من اهتمامهم بالمحافظة على روح التحزب التى تنطوى على العناد وإثارة الشقاق. وفى أكثر من مناسبة حاول السلطان الجالس على العرش أن يصلح بين هذه الفرق المتخاصمة، ورفض ما عرضته عليه من رشا ضخمة بلغت ثلاثة الآلاف وخمسة الألاف، بل عشرة الآلاف قطعة من العملةَ الذهبية ليغروه بأن يكفل لهم اختيار أحد المرشحين بالضغط وباستعمال نفوذه الرسمى، بل لقد عرض عليهم هذا السلطان أن يتجاوز عن المطالبة بالرسوم التى اعتاد أن يؤديها البطريق الذى يفوز حديثا بالانتخاب، لو أنهم طرحوا منازعاتهم ووصلوا إلى شىء من الاتفاق. ولكن هذه الجهود لم تحقق أى غرض من الأغراض وخلا فى الوقت نفسه كثير من الأسقفيات، ولم يكن هناك من يحل محل الأساقفة والقسيسين الذين ماتوا فى تلك الفترة.

---

(١) نسبة إلى سيمون الساحر، والمراد: محاولة الارتقاء عن طريق المال إلى الرتب الروحية والكهنوتية، وبيع الأشياء الروحية بالأثمان الدنيوية.

ومما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعا إلى الاضطهاد، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصيلة، وهو أنه فى الوقت الذى شغر فيه كرسى البطرقية، تمتع المسيحيون بالحرية التامة فى إقامة شعائرهم وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم، بل ببناء كنائس جديدة، وتخلصوا من القيود التى حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال، وحوكموا فى محاكمهم الخاصة، على حين أعفى الرهبان من دفع الجزية، ومنحوا امتيازات معينة.

* * *

«إن سرعة انتشار الإسلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة إلى عجز ديانة - كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام. وإن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين [1] طائفة منفصلة، والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ بها وقتا طويلا، ودفعوا ثمنا غاليا فى هذا السبيل، قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضا وإبهاما من الناحية الميتافيزيقية. ولا شك أن كثيرا من هؤلاء قد تحولوا، وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم من حولهم، إلى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة، ورسالة نبيه محمد. بل إننا نجد فى داخل الكنيسة القبطية نفسها فى عصر متأخر شواهد تنبئ عن حركة، إن لم تكن إسلامية خالصة، فقد كانت على الأقل وثيقة الصلة بها، وربما ساعد عدم وجود أى نظام كنسى مستقل يجد طريقة لإيضاحه والتعبير عنه، على زيادة عدد الذين دخلوا فى الإسلام.

إن نظرية الحياة المسيحية التى وجدت أقصى ما يمكن إدراكه والتعبير عنه فى التقشف فى أكبر صوره، قد استطاعت أن تظهر بعض الميل نحو الآداب الإسلامية

(١) أو اليعاقبة: فرقة مسيحية، تنسب إلى يعقوب، وهى إحدى فرق ثلاث اختلفت حول طبيعة المسيح - اليعقوبية والملكانية، والنساطرة - واليعاقبة يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح، أى أنه هو الله والإنسان اتحدا.

الأكثر إنسانية . . ولكثرة عدد الأقباط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين أخذ أتباع النبى [محمد] يعتبرونهم أشد ميلا لقبول الدين الإسلامى من أية طائفة أخرى .

والظاهر أن الأمية كانت متفشية فى السواد الأعظم من رجال الدين المسيحى، فإن معظمهم لم يعرف كيف يكتب برغم إلمامه الضعيف بالقراءة، وكانوا على جانب كبير من الجهل بواجبات مهنتهم المقدسة إلى حد أنهم لم يستطيعوا حتى إعادة صيغة الغفران عن ظهر قلب . وعلى الرغم من أنه كان من واجبهم أن يلقوا القداس وسائر الخدمات باللغة اللاتينية، كان هناك عدد قليل جدا يستطيع أن يدرك شيئا منها . كما كانوا على جهل بأية لغة عدا لغتهم الأصلية، وكانوا لا يعرفون عن حقائق دينهم إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر[١] .



«إن اليعاقبة، الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسى التابعين للبلاط ـ [البيزنطى] ـ الذين ألقوا فى قلوبهم بذور السخط والحنق الذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم ـ كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم فى اليم . وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لينجوا من أيدى مضطهديهم، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية، وتظاهر بقبول قرارات مجمع خلقدونية[٢] . . ولقد قيل إن «جستنيان» [٤٨٣ ـ ٥٦٥ م] أمر بقتل مائتى ألف من القبط فى مدينة الإسكندرية، وأن اضطهادات خلفائه قد حملت كثيرين على الالتجاء إلى الصحراء . وقد جلب الفتح الإسلامى إلى هؤلاء القبط . . حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها من قبل ذلك بقرن من الزمان . . ويظهر أن حالة القبط فى الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة نوعا ما .

---

(١) المصدر السابق . ص ٢١١ـ٢١٢ .

(٢) المجمع المسكونى الرابع ـ سنة ٤٥١ م ـ وهو الذى أقر عقيدة الطبيعتين للمسيح ـ وهى العقيدة الكاثوليكية ـ.

وليس هناك شاهد من الشواهد على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم فى الإسلام على نطاق واسع كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ، لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة [١].

* * *

«ويزعم كثير من علماء اللاهوت المسيحيين أن حالة الكنيسة الشرقية التى تدهورت فى ذلك الوقت ـ من الناحية الخلقية والروحية ـ لا بد وأن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جوا روحيا أسلم وأصح فى ذلك الدين الإسلامى الذى جاءهم وهو فى أشد ماتكون الحماسة الغضة قوة وعنفا.

وعلى سبيل المثال، يتساءل «ملمان» Deanmilman : «ماذا كانت حال العالم المسيحى فى الأقاليم التى تعرضت لأولى غزوات الإسلام؟ كانت الأحزاب الدينية يناوئ بعضها بعضا، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهاما وأكثرها غموضا، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة فى العقيدة الدينية. والأرثوذكس والنساطرة وأتباع أو طيخوس [٢] واليعاقبة يضطهد بعضهم بعضا، وقد استحكمت بينهم العداوة التى لا تفتر ولا تنقطع، ولا نكون مبالغين فى الحكم على مساوئ الجدل الدينى إذا افترضنا أن كثيرين ربما فرحوا بوقوع خصومهم فى إسار الكفار ـ [يقصد المسلمين!] إذ كان هذا أفضل عندهم من أن يجمع بينهم هدف مشترك فى سبيل الدفاع عن المسيحية التى تربط بينهم.

---

(١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٢٣، ١٢٤.

(٢) أوطيخوس Eutyches [٣٨٨ ـ ٤٥٤ م] راهب يونانى عاش فى القسطنطينية، وقال بوحدة الطبيعة فى المسيح «مونوفيزية» فحرمه المجمع الخلقيدونى سنة ٤٥١ م.

فكم من أناس لا بد أن يكون هذا الجدل قد زعزع أسس عقيدتهم! . وكم كان يكون غريبا لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يلتمسوا، وهم فى ضجرهم وحيرتهم، ملجأ من هذه المجادلات التى لا تنتهى عند حد ولا تعرف اللين والتسامح، فى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، حقيقة الوحدانية، مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة محمد ونبوته.

وشبيه بهذا ما يراه «كيتانى» Caetani [١٨٦٩ - ١٩٢٦ م] من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحى. أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أهلّت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى اختلطت بالغش والزيف وغرقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الرّيب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبى بلاد العرب.

أضف إلى هذا قول «تايلور CunonTuylor [١٧٥٣ - ١٨٢٤م]» [١]: «إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشر [هذا الدين الجديد] بهذه السرعة فى أفريقيا وآسيا. كان أئمة اللاهوت فى إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة، ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة فى السماء وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة فكان اعتزال العالم هو الطريق

---

(١) جون تايلور[١٧٥٣ - ١٨٢٤ م] فيلسوف سياسى أمريكى، يعرف بـ«جون تايلور الكارولينى»، له مؤلفات هامة فى الحقوق الخاصة بالولايات.

إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم، فأزال الإسلام، بعون من الله، هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويوما للحساب، وأعد للأشرار عقابا أليما، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المنازعين فى الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية، التى تقوم عليها الطبيعة البشرية. . ».

«أضف إلى، ذلك أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنه در فعل ضد النظام الكنسى البيزنطى، الذى كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية فى الأعالى، وينظر إلى الإمبراطور نفسه لاعلى أنه الحاكم الدنيوى الأعظم فحسب، بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك. . ».

«أضف إلى ذلك أيضا أنه كان لتعميم استعمال اللغة العربية فى كافة أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية، وبخاصة المدن والمراكز الكبرى الآهلة بالسكان، كما كان كذلك للتماثل الذى تم تدريجيا فى الأخلاق والعادات، والذى أدى فى خلال ما يقرب من قرنين إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم - كان لهذا كله من غير شك صدى فى الحياة الدينية والفكرية لدى كثيرين من أفراد الديانات التى دخلت فى حماية العرب الفاتحين. ومن المحتمل جدا أن تكون الحركة الفكرية التى أثرت فى العقيدة الإسلامية تأثيرا بالغا، ابتداء من القرن الثانى حتى القرن الخامس للهجرة، قد أثرت فى المفكرين المسيحيين وصرفتهم

عن ديانة كان روح عقيدتها السائدة تلوح فى ذلك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية . . »[١] .

«لقد اتسعت الكنيسة المسيحية - [فى شمال إفريقيا] - قبل الإسلام - . . ومع ذلك ، فلقد تلقت من اضطهاد الوندال [٢] ضربة لم تفق منها أبدا فقد ظل الوندال الآريون ، قرابة قرن من الزمان ، يضطهدون الأرثوذكس اضطهادا عنيفا لا هوادة فيه ، فشردوا أساقفتهم ، وحرموا الجهر بإقامة شعائرهم الدينية ، وقسوا فى تعذيب هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا فى ديانة من فتحوا بلادهم . . »[٣] .

«ولكننا لم نسمع - [فى ظل الإسلام] - عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام ، أو عن أى اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحى . ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرديناند ferdinand [١٤٥٢ - ١٥١٦م] وإيزابلا Isabella [١٤٥١ - ١٥٠٤م] دين الإسلام من إسبانيا ، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر Lo usxiv [١٦٣٨ - ١٧١٥ م] المذهب البروتستانتى مذهبا يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا ، أو بتلك السهولة التى ظل بها اليهود مبعدين من إنجلترا مـــدة خمسين وثلثمائة سنة . .

لقد كانت الكنائس الشرقية فى آسيا قد انعزلت انعزالا تاما عن سائر العالم المسيحى الذى لم يوجد فى جميع أنحائه أحد يقف فى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين . ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم .

---

(١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٨٩ - ٩٢ .

(٢) قبيلة جرمانية قديمة ، استوطنت - مع قبائل جرمانية أخرى - وادى أودر ابتداءمن حوالى القرن الخامس قبل الميلاد

(٣) [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

إنه يجب ألا نفرض أن حالة القبط كانت على الدوام حالة طائفة مضطهدة، بل على العكس، كانت هناك فترات كانوا يترقون فيها إلى المناصب التي يتمتع أصحابها بالشهرة والغنى في الدولة. فملئوا مناصب الوزراء والكتاب في دواوين الحكومة، وحددوا قيمة الضرائب التي تُجبَى على الأرض التي تُعطَى على سبيل الالتزام [1] وجمعوا ثروة ضخمة في بعض الحالات. ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم، ونعم القبط في عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة.

صحيح أن بعض الخلفاء قد قام بمحاولات غير مجدية لإقصائهم عن الوظائف العامة، فأصدر المنصور [١٣٦ - ١٥٨ هـ ٧٥٤ - ٧٧٥ م] والمتوكل [٢٣٢ - ٢٤٧ هـ ٨٤٧ - ٨٦١ م] والمقتدر [٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ٩٠٨ - ٩٣٢ م] والآمر [٤٩٤ - ٥٢٤ هـ ١١٠١ - ١١٣٠ م] - وهو أحد الخلفاء الفاطميين في مصر - مراسيم بهذا الصدد، وصدرت مثل هذه المراسيم في عهد سلاطين المماليك في القرن الرابع عشر الميلادي، ولكن مجرد تجديد هذه المراسيم الخاصة بإقصاء الذميين من الوظائف الحكومية دليل على أن مثل هذه الأساليب التي تنطوي على التعصب لم تكن توضع موضع التنفيذ دائما. والحق أنه يمكن أن تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام إما إلى سخط شائع أثاره السلوك الخشن المتعجرف الذي يسلكه الموظفون المسيحيون، أو إلى سورات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة التي ظهر بها الحكم الإسلامي، ولكن مصير هذه الأعمال التعسفية قد آل إلى الزوال في أسرع وقت..

إن هذه المراسيم لم تكن إلى حد كبير أثرا لشعور ديني بحت بقدر ما كانت أثرا

---

(١) نظام في استغلال الأرض الزراعية، تطرح فيه الدولة القرى والأرض في المزاد على من يتقبل الالتزام بخراجها، فيدفع الملتزم ضمان هذا الأداء، ثم يقوم بالإشراف على زراعة الفلاحين - والأقنان - لها لقاء ما يتعيشون به محصلا الفوائض بين ما يدفعه للدولة وما يستغله من الأرض لنفسه.

للظروف السياسية التى سادت هذا العصر . . ويمكن أن نرجع كثيرا من اضطهادات المسيحيين فى البلاد الإسلامية إما إلى الشك فى ولائهم، الذى كانت تثيره دسائس المسيحيين الغرباء وأعداء الإسلام وتدخلهم فى شئونهم، أو إلى الشعور السيئ الذى أثاره المسلك القائم على الخيانة والقسوة، الذى ظهر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين، على أن التعصب الدينى مسئول عن كثير من أمثال هذه الاضطهادات، كما حدث فى عهد الخليفة المتوكل [٢٣٢ - ٢٤٧ هـ ٨٤٧ - ٨٦١ م] الذى اتخذ نحو المسيحيين إجراءات شديدة من التعسف . . ومما هو جدير بالذكر أن مؤرخى الكنيسة النسطورية - التى لم يكن بد من أن تقاسى الكثير من هذا الاضطهاد - يعدونه أمرا حديث العهد، انفرد به المتوكل وانتهى بوفاته . . (١).

ولكن مثل هذا التعسف كان منافيا لروح الإسلام السمحة، وللتعاليم التى أثرت عن النبى . . ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها فى بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية فى خدمة الحكومة من جراء إساءة استعمال سلطتهم، فأثاروا على أنفسهم بظلمهم المسلمين شعورا قويا من الاستياء. وقد قيل إنهم استغلوا مناصبهم العالية فى سلب أموال المؤمنين ومضايقتهم ومعاملتهم بشىء كثير من الغلظة والقحة، وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم. وقد تقدم المسلمون بالشكوى إلى الخليفة المنصور [١٣٦ - ١٥٨ هـ ٧٥٤ - ٧٧٥ م] والمهدى [١٥٨ - ١٦٩ هـ ٧٧٥ - ٧٨٥ م] والمأمون [١٩٨ - ٢١٨ هـ ٨١٣ - ٨٣٣ م] والمتوكل [٢٣٢ - ٢٤٧ هـ ٨٤٧ - ٨٦١ م] والمقتدر [٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ٩٠٨ - ٩٣٢ م] وإلى كثير من خلفائهم. كما تعرضوا أيضا لبغض كثير من المسلمين باستخدامهم عيونا للدولة العباسية ومطاردة أشياع البيت الأموى الذى أقصى عن الحكم. وفى عصر متأخر أتهم المسيحيون فى زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين اتصالا

---

(١) لقد شمل اضطهاد المتوكل كثيرا من المسلمين أيضا، واضطهد المعتزلة والشيعة اضطهادا فاق اضطهادة لغير المسلمين.

ينطوي على الخيانة، فجلبوا على أنفسهم قيودا شديدة الحرج، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد ديني.

يقول السمعاني [(١)] [٥٠٦ـ٥٦٢هـ ١١١٣ـ١١٦٧ م] ـ جـ ١ القسم الأول ص ٩٨، ١٠٦ ـ حين يتحدث عن الأسباب التى أدت إلى اضطهاد المسيحيين فى ظل الحكم الإسلامى ـ:

«كثيرا ما أثارت المنازعات المتبادلة بين المسيحيين أنفسهم، وتصريحات رجال الدين وكبراء قادتهم، وسلطة أقطابهم العاتية، عاصفة من الاضطهاد، وخاصة المجادلات بين الأطباء والكتاب بصدد السيطرة المطلقة على أمتهم».

وفى خلال الحروب الصليبية طالما وقع مسيحيوا الشرق فى تهمة العمل على ممالأة الغزوات التى قام بها إخوانهم فى الدين من المسيحيين الذين وفدوا من الغرب.

وفى تركيا الحديثة، نجد حركة استقلال اليونان، وما أثارته هذه الحركة من العواطف الدينية فى أوربا المسيحية ساعدت على جعل نصيب الشعوب المسيحية الخاضعة، أشق مما كان يمكن أن يكون لو أنهم لم يتهموا بالخيانة، ونفورهم من حاكمهم المسلم.

وقد أوضح «جوبينو» DeGoboneau [١٨١٦ ـ ١٨٨٢ م] [(٢)] فكرته إيضاحا قويا جدا فيما يتعلق بمسألة تسامح الإسلام، حين قال:

«إذا انفصلت العقيدة الدينية عن الضرورة السياسية التى طالما تحدثت وعملت باسمها، فإننا لا نجد دينا أكثر تسامحا، بل يمكن أن يقال على وجه التقريب، أكثر بعدا عن الاكتراث للعقيدة الفردية من الإسلام. هذا التكوين الآلى قوى إلى حد

---

(١) أبوسعيد، عبد الكريم بين محمد التميمى، مؤرخ ورحالة، ومن حفاظ الحديث. له آثار هامة فى التاريخ والأنساب. وكتابه [تاريخ مرو] يزيد عن عشرين جزءا.

(٢) جوبينو ـ جوزيف آرثر ـ كاتب وسياسى فرنسى، يعد كتابه عن [التفاوت بين الأجناس البشرية] أهم مؤلفاته.

أننا إذا استثنينا الحالات التى كان كيان الدولة الواقع فى خطر يحمل الحكومات الإسلامية على اتخاذ كل الأساليب للوصول إلى توحيد العقيدة، فقد كان التسامح إلى أقصى حد هو القاعدة المستمدة من الأصول الإسلامية . . . ولا يجوز أن نقف عند ألوان القسوة والعنف اللذين ارتكبا فى أية مناسبة . . . والتى إذا نظرنا إليها عن قرب لن نتردد فى معرفة أن أسبابها كانت سياسية محضة، أو راجعة إلى الأهواء البشرية، أو إلى المزاج المسيطر على الحاكم أو الشعوب. إن الفعل الدينى لم يلجأ إلى هذه الوسائل إلا من حيث هى حجة ولكنه فى الواقع لا يدخل فى نطاقها».

ولقد عرض «مارى بن سليمان» (١) تعليلا لحالات الارتداد عن النصرانية إلى الإسلام - حول نهاية القرن العاشر - بقوله: «وأسلم خلق كثير، وكان أصل ذلك تجوّز الناس فى أديانهم، وقبح سيرة الكهنة فى المذابح والبيع وبيوت المقدس» «ولم يتعرض أحد لمعظم كنائسهم وأديارهم إلا فى المدن الكبيرة، حيث تحوّل بعضها إلى مساجد، وهو تصرف كان من العسير أن يُعترض عليه نظرا لتزايد عدد المسلمين الهائل وما كان يقابله من تناقص فى المجتمع المسيحى. . » (٢).

---

(١) مارى بن سليمان [منتصف القرن الثانى عشر الميلادى] مولف نسطورى جمع علوم النساطرة وتاريخهم فى كتابه [المجدل للاستبصار والجدل]

(٢) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٩٨، ٩٩، ١٢٨، ٩٤، ٩٨، ٤٦٢، ٨٣.

(ب)

العوامل الذاتية لتفوق الإسلام .. وسرعة انتشاره

«لقد باشر محمد سلطة زمنية كالتى كان يمكن أن يباشرها أى زعيم آخر مستقل، مع فارق واحد هو أن الرباط الدينى بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الدم. وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام، ولو من الوجهة النظرية على الأقل، كما سن دائما، نظاما سياسيا بقدر ما هو نظام دينى.

كانت رغبة محمد ترمى إلى تأسيس دين جديد. وقد نجح فى هذا السبيل، ولكنه فى الوقت نفسه أقام نظاما سياسيا له صفة جديدة متميزة تميزا تاما.

وكان دخول مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية فى ظل الأخوة الإسلامية فى المجتمع العربى قد بدأ منذ حين فى إضعاف القوة الرابطة للفكرة القبلية القديمة، تلك الفكرة التى أقامت بناء المجتمع العربى على أساس قرابة الدم. وكان إسلام الفرد ودخوله فى المجتمع الجديد هدما لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية، كما كانت كثرة دخول العرب فى الإسلام من العوامل القوية التى أدت إلى تفكيك النظام القبلى وتركه ضعيفا أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية التماسك، كتلك الحياة التى صار إليها المسلمون.

إن دخول الإسلام فى المجتمع العربى لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابا كاملا لمثل الحياة التى كانت من قبل.

كذلك نجد أن أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير، سواء

فى جذب الناس أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم . وقد أحسن «مونتسكيو» [١٦٨٩- ١٧٥٥ م] (١) فى قوله : «إن المرء لأشد ارتباطا بالدين الحافل بكثير من الشعائر، منه بأى دين آخر أقل منه احتفالا بالشعائر، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التى تسيطر دائما على تفكيره . . » .

إن دين المسلم يتمثل دائما فى مخيلته، وفى الصلوات اليومية، يتجلى هذا الدين فى طريقة نسكية خاشعة مؤثرة، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين .

يتحدث سعيد بن الحسن - أحد يهود الإسكندرية، الذى اعتنق الإسلام فى سنة ١٢٣٨ م - عن مشهد صلاة الجمعة فى مسجد باعتباره عاملا حاسما فى تحوله إلى الإسلام . فى خلال مرض شديد قد انتابه، رأى فى المنام أن صوتا يأمره بأن يجهر بالإسلام : «وعندما دخلت المسجد - [ويستمر حديثه إلى أن يقول] - : «ورأيت المسلمين يقفون صفوفا كأنهم الملائكة، سمعت هاتفا يقول : هذه هى الجماعة التى أخبر الأنبياء (صلوات الله عليهم) بقدومها . ولما ظهر الخطيب مرتديا عباءته السوداء، استولى علىّ شعور عميق من الرهبة . . ولما ختم خطبته بالكلمات : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون . ولما بدأت الصلاة أحسست بقوة تدفعنى إلى النهوض، لأن صفوف المسلمين بدت أمامى كأنها صفوف الملائكة، الذين يتجلى الله القدير فى سجداتهم، ثم سمعت هاتفا يهتف بى : إذا كان الله قد تحدث مرتين إلى بنى إسرائيل فى كل العصور، فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة فى كل وقت من أوقات الصلاة . وأيقنت فى نفسى أنى خلقت لأكون مسلما» .

أما «رينان - إرنست» [١٨٢٣ - ١٨٩٢ م] (٢) فإنه يقول : «ما دخلت مسجدا قط،

---

(١) كاتب وفيلسوف فرنسى . يعد مؤلفه [روح القوانين] من معالم النهضة الأوربية، بسط فيه الحديث عن أشكال الحكومات، والفصل بين السلطات والديمقراطية النيابية .

(٢) مؤرخ وناقد ومستشرق فرنسى . كتب عن نشأة المسيحية وله كتاب [ابن رشد والرشدية] وهو من الذين نزعوا إلى تقسيم البشر تقسيما عنصريا حسب السلالات .

دون أن تهزنى عاطفة حادة، وبعبارة أخرى: دون أن يصيبنى أسف محقق على أننى لم أكن مسلما».

ومن كلمات أسقف مسيحى مشهور: «ما من فرد يتصل بالمسلمين لأول مرة إلا أُخذ بمظهر دينهم هذا. . وحيثما يمكن أن توجد فى الطريق العامة، أو فى محطة السكة الحديدية، أو فى الحقل، فإن من أكثر الأشياء شيوعا أن ترى الرجل منهم، يترك فى اللحظة التى يقوم فيها بأداء أعماله أيا كانت، بدون أدنى تأثر بالرياء أو الظهور، وفى سكينة وتواضع لكى يؤدى صلواته فى أقاتها المحددة، وأكثر من ذلك، أنه ما من فرد رأى يوما ساحة الجامع الكبير يوم الجمعة الأخيرة من شهر رمضان، وهى غاصة بما قد يربو على ١٥,٠٠٠ مصل، وكلهم جميعا منهمكون فى صلاتهم، مظهرون أعمق أيات الإجلال والخشوع فى كل إشارة يبدونها، إلا تأثر تأثرا عميقا بهذا المشهد، أو أخذ فكرة عابرة على تلك القوة التى ينضوى مثل هذا النظام تحت لوائها على حين نجد النظام الدقيق الذى يتجلى فى دعوة الناس اليومية إلى الصلاة عندما يؤذن الداعى فى وقت السّحر، قبل أن يتنفس الصبح، أو بين ضوضاء ساعات العمل وضجيجها، أو عندما يرخى الليل سدوله كذلك، مفعما بتلك الرسالة ذاتها.

ولا حاجة إلى القول بأن صيام شهر رمضان جزء من دليل ثابت يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام دينى يجذب الناس عن طريق مراودتهم فى ملذاتهم الشخصية، وكما قال «كارليل» [١٧٩٠ ـ ١٨٤٣] [(١)]: «إن دين محمد ليس بالدين السهل، فإنه بما فيه من صوم قاس، وطهارة، وصيغ معقدة صارمة، وصلوات خمس كل يوم، وإمساك عن شرب الخمر، لم يفلح فى أن يكون دينا سهلا [(٢)]».

* * *

---

(١) مصلح ومفكر إنجليزى حر. له كتابه المشهور [العظماء مائة أولهم محمد].

(٢) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٥٢، ٥٩، ٦١، ٥٥٨، ٥٥٩، ٤٥٩، ٤٦٠.

«ويرجع انتشار الإسلام فى تلك الرقعة الفسيحة من الأرض إلى أسباب شتى اجتماعية وسياسية ودينية على أن هناك عاملا من أقوى العوامل الفعالة التى أدت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هى الأعمال المطردة التى قام بها دعاة من المسلمين وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدى الرسول مثلا أعلى وقدوة صالحة.

لقد حمل الإسلام، منذ البداية، طابع الدين الذى يقوم على الدعوة، ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه، وحثهم على الدخول فى زمرة المؤمنين. وكما كانت الحال فى مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم.

ولم يكن نشر الإسلام من عمل الرجال وحدهم، بل لقد قامت النساء المسلمات أيضا بنصيبهم فى هذه المهمة الدينية.. وقد أنشأ دعاة السنوسية[١] الذين قدموا لنشر دعوتهم بين التوبو [٢] شمال بحيرة تشاد، مدارس للبنات، واستغلوا ما كانت تحدثه النساء من نفوذ قوى بين القبائل (كما كان لهن هذا النفوذ بين جيرانهن من البربر) فبذلوا جهودهم لجذبهن إلى صفوف الإسلام.

إنه يجب ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية فى قسوة المضطهد، أو عسف المتعصب، ولا حتى مآثر المحارب المسلم ذلك البطل الأسطورى الذى حمل السيف فى إحدى يديه، وحمل القرآن فى اليد الأخرى - وإنما نلتمسها فى تلك الأعمال الوديعة الهادية التى قام بها الدعاة وأصحاب المهن الذين حملوا عقيدتهم فى كل صقع من الأرض. على أن هؤلاء الدعاة لما يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية فى نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع، بخلاف ما زعم بعضهم، حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمرا مستحيلا يتنافى مع الأساليب

---

(١) طريقة صوفية مجددة تعد من حركات اليقظة الإسلامية الحديثة، تنسب إلى مؤسسها محمد بن على السنوسى الإدريسى [١٢٠١-١٢٧٥ هـ ١٧٨٧-١٨٥٩ م].

(٢) من القبائل الإفريقية.

السياسية. فقد جاء القرآن مشددا فى الحض على هذه الطرق السلمية، فى غير آية منه، مثال ذلك:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ (المزمل: ١٠-١١). ﴿ إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ ﴾ (الجن: ٢٣).

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الجاثية: ١٤). ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النحل: ٣٥). ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النحل: ٨٢).

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ (الشورى: ٤٨). ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩). ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨).

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المكية، وإنما وردت أيضا بكثرة فى الأيات المدنية، كقوله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (التغابن: ١٢). ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النور: ٥٤). ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحج: ٤٩). ﴿ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: ١٣).

* * *

وإذا كان المسلمون قد بلغوا مثل هذه الحماسة فى نشر الدعوة . . فلنسرد الآن بعض العوامل التى ساعدت على نجاحهم : فى مقدمة هذه الأسباب : بساطة العقيدة الإسلامية ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وكل ما يطلب من الذى يدخل فى الإسلام ، قبول هاتين الشهادتين . . إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان ، ولا تثير فى العادة مصاعب عقلية خاصة . . لما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية ، كان من الممكن أن يشرحها أى فرد ، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية .

ولا يستطيع أى فرد أن يوضح الطابع العقلى للعقيدة الإسلامية ، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة فى نشر الدعوة ، توضيحا يبعث على الإعجاب ، بأكثر مما وضحه البروفسور «مونتيه» [١٨٥٦ - ١٩٢٧] [1] فى العبارات التالية :

«الإسلام فى جوهره دين عقلى ، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية ، فإن تعريف الأسلوب العقلى Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق ، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق . والحق أن محمدا ، الذى كان متحمسا لدينه ، كما كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان ، ونار الاقتناع تلك الصفة القيمة التى بثها كثير جدا من أتباعه - قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحى وإلهام : على أن هذا النوع من الوحى ليس إلا صورة من العرض والتفسير ، وإن لدينه كل العلامات التى تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل . وتتلخص العقيدة الإسلامية ، من وجهة نظر المؤمنين ، فى الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه ، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلا لا روح فيه ، فنعتقد فى الله وفى الحياة الآخرة وهذان المبدآن هما أقل ما ينبغى للاعتقاد الدينى ، وهما أمران يستقران فى نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق وتلخصان كل تعاليم العقيدة التى جاء بها القرآن . وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه

---

(١) إدوارد مونتية . مستشرق فرنسى ، ترجم القرآن إلى الفرنسية . ومن مؤلفاته [حاضر الإسلام ومستقبله] .

التحقيق من أظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام . . لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل ، باعتباره النقطة الأساسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة ، وقد جهر القرآن دائما بمبدأ الوحدانية ، فى عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول ، ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا . وإن هذا الإخلاص لمبدأ الدين الأساسى ، والبساطة الجوهرية فى الصورة التى يصاغ فيها هذا الدين ، والدليل الذى كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشرها اقتناعا يلتهب حماسة وغيرة ، إن هذا كله يكوّن الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين . وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد ، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هى تبعا لذلك فى متناول إدراك الشخص العادى ، أن تمتلك ، وإنها لتمتلك فعلا ، قوة عجيبة ، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس . . » .

* * *

«وقد أكد «مراتشى» Marracci [١٦١٢ - ١٧٠٠ م] [1] هذا القول فى القرن السابع عشر ، بقوله : «لو قارن كافر بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التى فاقت طاقة الذكاء البشرى ، أو التى هى - على الأقل - من الصعوبة بمكان ، إن لم تكن مستحيلة - [العقيدة المسيحية] - وبين عقيدة القرآن ، لانصرف عن الأولى فى الحال ، وأسرع إلى الثانية فى ترحيب وقبول . . » .

«وإذا قبل الذى يدخل فى الإسلام هذه العقيدة البسيطة وتعلّمها ، لم يكن بد عندئذ من أن يتعلم فرائض الدين الخمس :

١ - النطق بالشهادتين .

٢ - وإقام الصلوات الخمس فى أوقاتها .

٣ - وإيتاء الزكاة .

---

(١) الأب ماراتشى . مستشرق إيطالى ، ومن رجال اللاهوت . نشر القرآن متنا وترجمة ، بالإيطالية ، وله [دراسة عن الإسلام] . كما أسهم فى ترجمة العهدين القديم والجديد .

٤ ـ وصوم رمضان.

٥ ـ والحج إلى مكة.

وطالما اعترض بعض الناس على أداء هذا الفرض الأخير باعتباره بقية غريبة من بقايا الوثنية، ظلت من جملة تعاليم النبى التى تدعو إلى الوحدانية، ولكن ينبغى ألا يعزب عن الأذهان أن الحج قد اقترن بإبراهيم، فهو إعادة دين إبراهيم. ولكن فوق ذلك كله ـ وهنا تكون أهميته العليا فى تاريخ نشر الدعوة فى الإسلام ـ ينظم الحج اجتماع المؤمنين فى كل سنة، على اختلاف شعوبهم ولغاتهم، من كافة أنحاء العالم للصلاة فى ذلك المكان المقدس الذى يولون وجوههم شطره فى كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة فى أوطانهم النائية. ولم تستطع أية محاولة يقوم بها عباقرة أى دين أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع فى عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة، وأخوتهم التى ارتبطت بروابط الدين، وفى ذلك المكان، حيث نجد عملا ساميا من أعمال العبادة المشتركة، نرى زنجى ساحل أفريقية الغربى يلتقى بالصينى من أقصى الشرق، ويتعرف التركى الرقيق المهذب على أخيه المسلم من أهل الجزائر المتوحشين الذين يسكنون أبعد أطراف بحر الملايو. وفى هذا الوقت نفسه تتطلع قلوب المؤمنين فى كافة أنحاء العالم الإسلامى، فى عطف وحنين إلى إخوانهم الأسعد حظا منهم، الذين تجمعوا فى المدينة المقدسة، فيحتفلون فى أوطانهم بعيد الأضحى ـ العيد الكبير ـ وإن زيارتهم المدينة المقدسة، قد أصبحت فى نظر كثير من المسلمين التجربة التى حثتهم على الجهاد فى سبيل الله. ولقد قامت طبقة الحاجى ـ الحجاج ـ بنصيب فعّال فى أعمال نشر الدعوة الإسلامية.

وإلى جانب نظام الحج، نجد إيتاء الزكاة فرضا آخر يذكّر المسلم دائما بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠). وهى نظرية دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهش فى المجتمع الإسلامى، وقلما تعجز عن أن تتجلى فى أعمال الشفقة إزاء المسلم الجديد. ومهما يكن جنسه ولونه

وأسلافه، فإنه يُقبل فى زمرة المؤمنين، ويتبوأ مكانة على قدم المساواة مع أقرانه المسلمين».

* * *

«لقد روعى فى تأليف هيئة الكنيسة المسيحية، منذ بدء تاريخها نشر التعاليم المسيحية بين الكفار، وكان مبشروها ـ فى أغلب الأحيان ـ قساوسة ورهبانا، يعينون لهذا الغرض بانتظام.

أما فى الإسلام، فإن عدم وجود أى لون من ألوان الكهنوت أو أية هيئة دينية منظمة أيا كانت، قد جعل نشاط الدعوة عند المسلمين يتجلى فى صور مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التى تظهر فى تاريخ البعوث التبشيرية المسيحية فليس هناك جمعيات للدعوة، ولا موكلون مدربون لهذا الغرض، كما أنه قلما نجد مواصلة الجهود فى هذه السبيل . . إن عدم وجود فكرة عن نظام الكهنوت، أو أية نظرية ترى فصل المعلم الدينى عن عامة المؤمنين، أو ترى ضرورة العكوف على تأدية الوظائف الدينية والتصريح بها ـ كل ذلك يجعل الاختلاف الأساسى فى النظامين ـ يظل قائما فى كل مكان فى وضوح وجلاء . . ».

* * *

« ولم يكن النشاط الروحى للإسلام، كما زعم عدد كبير جدا من الناس، متمشيا مع سلطانه السياسى. بل على العكس من ذلك، نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادى، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التى تعد أصدق البواعث التى تحفز على القيام بأعمال الدعوة» (١).

● **ففى فارس**: «لما تشتتت الجيوش الفارسية لم يلق المسلمون مقاومة تذكر من الشعب الفارسى الذى كان قد استبد بحكمه ممثلوا الدولة الساسانية فى أواخر أيامها

---

(١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٢٧، ٦٢، ٤٥، ٢٨ ـ ٣٠، ٤٥٤ ـ ٤٥٧، ٤٤٩، ٤٦٩.

استبدادا امتاز بكثير من ضروب الفوضى والعنت . ومما أثار غضب الأهلين ، وجعلهم ينظرون إلى حكامهم نظرة تنطوى على الكراهية والبغضاء ، وزادت شقة الخلاف بينهم ، أن هؤلاء الحكام كانوا يناصرون ديانة زرادشت التى غدت الدين الرسمى فى الدولة ، وصاروا على جانب عظيم من القوة فى مجالس الملك ، وادعوا أن لهم نصيبا كبيرا فى إدارة الشئون المدنية ، واستغلوا نفوذهم فى اضطهاد كل الديانات المخالفة لهم (وكانت كثيرة) . . وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهية المريرة الذى أحسه الشعب الفارسى نحو هذا الدين الذى تغلغل فى بلاد الفرس ، ونحو تلك الدولة التى وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع ، كما كان كذلك علة ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى ، وجعله يظهر فى صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه .

وما أن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه ، حتى تنفس الفرس أنفسهم الصعداء ورحبوا بالعرب حبا فى الخلاص من ظلم الحكام أولا ، ورغبة فى إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيا ، ثم أملا فى تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر . . إنه حتى فى عهد احتضار الأسرة الساسانية ، ثارت ثائرة خسروا الثانى واشتد حنقه جراء الهزيمة التى أنزلها به الإمبراطور المسيحى هرقل [٦١٠ - ٦٤١ م] فأمر باضطهاد المسيحيين المقيمين فى داخل حدود مملكته ، والذين تحملوا على اختلاف مذاهبهم كثيرا من ألوان العنت والآلام . . .

وإلى جانب الاضطراب السياسى فى الدولة ، ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التى ملأت عقول المسيحيين ، الذين وقفوا أمام هذه المصائب المتراكمة والآلام المعنوية التى أثارها قيام الصراع العنيف بين هذه العقائد المتنافرة ، فمالوا إلى هذا النظام الإسلامى العجيب من التنسيق العقلى الذى ينمو فيه هذا الدين الجديد فى سهولة ويسر ، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى ، ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد . وبعبارة أخرى ، كان أهالى فارس والأجناس السامية بوجه خاص ، قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد والترحيب باعتناقه فى حماسة ملحوظة ، لما يمتاز به من البساطة . وهكذا قدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم ، وأن يفتح أمام الناس

سبلا واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يعدهم بتخليصهم فى أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة . .

على أن سكان المدن، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة، قد رحبوا بالدين الإسلامى، واعتنقه عدد عظيم منهم فى حماسة كبيرة، وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت، وتقبيح عبادة النار والأرض والماء، وهم الذين كان ينظر إليهم أما م القانون باحتقار وازدراء، ولما فى اعتناقهم الإسلام أيضا من تركهم فى الحال أحرارا، ومساواتهم فى المذهب الدينى . . .

ولم تكن القوة أو العنف السبب فى اتساع نطاق تحويل الناس إلى الإسلام، بدليل هذه المعاملة التى عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بدينه القديم . . ومن المستحيل قطعا أن نقول إن اضمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الإسلام . .

وعلى الرغم من قلة المعلومات التى وصلت إلينا عن تحوّل الناس إلى الإسلام، يظهر أن انتحالهم هذا الدين كان بمحض إرادتهم، كما يظهر أن أتباع ديانة زرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية إلى نهاية العصر العباسى . حتى إذا جاء الغزو المغولى بدأ فى تاريخهم عصر أكثر إظلاما من العصر الذى سبقه . .

إننا نقرأ أن أحد قواد المسلمين - [فى عهد الخليفة المعتصم] [٢١٨ - ٢٢٧ هـ ٨٣٣ - ٨٤٢ م] - أمر بجلد إمام ومؤذن لأنهما اشتركا فى هدم أحد معابدهم فى بلاد الصغد، واستخدما حجارته فى بناء مسجد مكانه . وفى القرن العاشر الميلادى، أى بعد فتح الفرس بثلاثة قرون، وجدت معابد النار فى العراق وفارس وكرمان وسجستان وخراسان وجبال أذربيجان وأرّان، وبعبارة أخرى فى كل كورة من كور فارس تقريبا . كما لم تخل أى مدينة أوكورة فى فارس من المجوس أو معابد النار . وقد ذكر الشهرستانى أيضا (حين ألف فى عصر متأخر - فى القرن الثانى عشر) اسم معبد للنار فى أسفينية بجوار بغداد نفسها [١] . . »

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٣٥ - ٢٤٠ .

«ولقد شهدت الفترة التى أعقبت الفتح العربى تحول جماعات كبيرة من نصارى خراسان إلى الإسلام، كما نقف على ذلك من رسالة لأحد رجال الكنيسة المعاصرين - وهو البطريق النسطورى «يشوع ياق الثالث Ishovabh وكان قد بعث بهذه الرسالة إلى سمعان simeon مطران ربفاردشير Revardashir ورئيس أساقفة فارس، وتحمل هذه الرسالة الدليل الساطع على طابع الهدوء والمسالمة فى نشر هذا الدين - الإسلام - أضف إلى ذلك أن المؤرخين المحدثين لم يفطنوا إلى هذه الرسالة إلا قليلا، لهذا لا نرى بأسا من أن نذكرها هنا كاملة:

«أين أبناؤك، أيها الأب الذى ثكل أبناءه؟ أين أهل مرو العظام، الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفا ولا نارا ولا تعذيبا، ولم يسيطر على نفوسهم إلا حب التجارة والأخذ منها بنصيب، تنكبوا الطريق المستقيم، وكبكبوا فى هوة الضلال - فى الهلاك المقيم، وسيقوا إلى الفناء ولم ينج إلا قسيسان (قسيسان بالاسم على الأقل) من نار الكفر المحرقة كما تنتزع جمرتان من اللهيب؟ واحسرتاه! واحسرتاه! على هذه الآلاف المؤلفة التى تحمل اسم المسيحية، والتى لم يتقدم حتى واحد منها ليهب نفسه ضحية للرب ويريق دماءه فى سبيل الدين الحق.

أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس جمعاء؟. إن الذى أنزل بهم الخسران والدمار لم يكن وساوس إبليس ولا إرادة ملوك الأرض ولا أوامر حكام البلاد - ولكنه نفثة ضعيفة من نفثات شيطان تافه حقير لم تعده الشياطين التى بعثته فى مهمته جديرا بشرف الشياطين، ولم يمنحه إبليس قدرة على الخداع الشيطانى حتى يستطيع أن يبثه فى بلادكم، ولكنه بإشارة من أمره هدم جميع الكنائس فى بلادكم فارس.

وإن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا، يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم، كما تعلمون ذلك حق العلم، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية، بل على العكس يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسى الرب، ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار. فلماذا إذن هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل

هؤلاء العرب؟ ولماذا حدث ذلك أيضا فى وقت لم يرغمهم فبه العرب، كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم على ترك دينهم، بل تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمنا مصونا إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم. ولكنهم هجروا العقيدة التى تجلب الخلاص الأبدى إبقاء على نصيب من عرض هذه الدنيا الزائلة. تلك العقيدة التى اشترتها وتشتريها حتى هذا اليوم شعوب بأسرها بإراقة دمائها حتى ترث بذلك حياة أبدية. إن شعبك من أهل مرو، قد قبلوا عن رغبة أن يغيروا دينهم من أجل جزء من تجارتهم بل من أجل ما هو أقل من ذلك. . »(١).

* * *

● وفى بلال المغول: «فإن كيوك بن أجتاى، إن لم يعتنق الدين المسيحى إلا أنه أظهر كثيرا من العطف على ذلك الدين الذى كان يدين بعقائدة رئيس وزرائه وأحد كتابه. وكان القساوسة النسطوريون محل رعايته السامية، فى الوقت الذى استقبل فى بلاطه السفراء من قبل البابا «إنوسنت الرابع InnocentIv [١٢٤٣ ـ ١٢٥٤ م]. وكانت السلطتان المسيحيتان فى الشرق والغرب تتطلعان إلى المغول، لمساعدتهما فى حروبهما مع المسلمين. وكان «هيتون» Hayton ملك أرمينية المسيحى هو العامل الرئيسى فى إقناع «مانجوخان» [١٢٤٨ ـ ١٢٥٧ م] بإرسال تلك الحملة التى دمرت بغداد بقيادة هولاكو [١٢٥٦ ـ ١٢٦٥ م] الذى حملته زوجته المسيحية، بما كان لها من نفوذ، على أن يظهر عطفا شديدا للمسيحيين، وللنساطرة منهم بوجه خاص. ومن ثم اعتنق كثير من المغول، الذين احتلوا بلاد أرمينية وجورجيا، الدين المسيحى وعمدوا على أيدى مسيحيى هذه البلاد. .

ولقد تزوج «أباقا خان» [١٢٦٥ ـ ١٢٨١ م] ـ ابن هولاكو ـ من ابنة إمبراطور القسطنطينية ـ المسيحية ـ وامتلأ بلاطه بالقسيسين المسيحيين، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوربا، فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا [١٢١٤ ـ ١٢٧٠ م] وشارل [١٢٢٦ ـ ١٢٨٥ م] ملك صقلية، وجيمس ملك أرغونة، يطلب إليهم

---

(١) المصدر السابق. ص ١٠١، ١٠٢.

التحالف معه على المسلمين، كما أرسل لهذا الغرض أيضا بعثا من ستة عشر سفيرا من المغول إلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤م، حيث دخل رئيس أولئك السفراء فى المسيحية وعُمد مع بعض رفاقه . .

ولقد ضيّق «جغطاى» على رعاياة من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج، التى ضيقت على شعائرهم الدينية . . ويذكر «الجوز جانى» أن جغطاى هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب فى أن ينطق أحد بكلمة مسلم فى حضرته، اللهم إلا إذا أُريد بها التحقير والحط من شأنها . .

فلما أسلم «طرمان شيرين Tarma shlrin حول سنة ١٣٢٦ م بدأ انتشار الإسلام بين المغول . . وكان أوزبك خان Uzbek khun زعيم القبيلة الذهبية من سنة ١٣١٣ حتى سنة ١٣٤٠ م شهيرا بتحمسه لنشر تعاليم الدين الإسلامى، وحرصه على تحويل كثير من الأهلين إليه . . ويقال إنه وضع خطة لنشر الإسلام فى كافة أرجاء بلاد الروسيا . . وعلى الرغم من تحمسه فى نشر الإسلام وتفانيه فى الإخلاص له، فإنه كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين، فقد منحهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء، وذهب فى تسامحه إلى أبعد من هذا، فسمح لهم بموالاة التبشير لدينهم ونشره فى بلاده.

ومن أهم الوثائق التى تسترعى الانتباه عن التسامح الإسلامى، ذلك العهد الذى منحه «أوزبك خان» المطران بطرس فى سنة ١٣١٣ م وقد جاء فيه :

«بمشيئة الله العلى القدير وعظمته ورحمته! . من أوزبك إلى أمرائنا، كبيرهم وصغيرهم، وغيرهم. إن كنيسة بطرس مقدسة، فلا يحل لأحد أن يتعرض لها ولا لأحد من خدامها أو قسيسيها بسوء، ولا أن يستولى على شيء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها، وأن لا يتدخل فى أمورها لأنها مقدسة كلها. ومن خالف أمرنا هذا بالتعدى عليها، فهو أثيم أمام الله، وجزاؤه منا القتل ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة، ولندعه (أووكيله) يقرر وينظم كل المسائل الكنسية بقلب سليم وفؤاد عادل قويم. وإننا نعلن فى حزم أننا نحن وأولادنا وأمراء دولتنا وولاة أقاليمنا

لن نتدخل بأى حال فى شئون الكنيسة ولا فى شئون المطران، ولا فى شئون المدن والمراكز والقرى والأراضى المخصصة للصيد فى البر والبحر، ولا فى الأراضى والمراعى والصحارى، ولا فى المدن والأماكن الداخلة فى أملاكها الخاصة، ولا فى الكروم والطواحين، ولا فى مراعى الشتاء، ولا فى أى شىء من ممتلكات الكنيسة وأمتعتها. ولندع بال المطران فى راحة دائمة خاليا من كل تعب أو نصب، ولندع قلبه سليما قويا، ولندعه يصلى لله من أجلنا ومن أجل أولادنا وأمتنا، حتى إذا وضع أحد يده على شىء مقدس، ثبتت عليه التهمة، وباء بغضب من الله، وكان جزاؤه القتل حتى يلقى مصيره الرعب والفزع فى قلوب الآخرين. وإذا فرض الخراج أو غيره من الضرائب كالرسوم الجمركية، والمكوس وضرائب الطرق والأراضى غير المزروعة، أو إذا أردنا حشد الجنود من بين رعايانا، فلا يجمع شىء بالقوة والإكراه من الكنائس التابعة للمطران بطرس، أو لأى أحد من رجال الدين التابعين له، وكل ما يوخذ من رجال الدين بالقوة والإكراه، يرد إليهم أضعافا ثلاثة.. ولتكن شرائعهم وكنائسهم وأديارهم ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم. وكل من يتهم أو يحط من شأن هذا الدين فلن يقبل منه أى عذر ولا أن يطلب العفو، بل يكون جزاؤه القتل. وسوف يتمتع أخوة القسيسين والشمامسة الذين يجلسون إلى مائدة واحدة وفى دار واحدة بنفس هذه المزايا والحقوق...».

«وكان الروس - فى ظل حكم المغول المسلمين - إذا أدوا الضرائب المفروضة عليهم، تركت لهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية كيف شاءوا» (١).

* * *

● **وفى الهند:** «استجاب كثير من أمراء السند لدعوة الخليفة عمر بن عبد العزيز [٦١ - ١٠١ هـ ٦٨١ - ٧٢٠ م] إياهم إلى اعتقاد الإسلام... ويمكن أن نحكم على أن حالات التحول هذه كانت فى جوهرها بمحض إرادة الذين أسلموا، من ذلك التسامح الدينى الذى أظهره العرب لرعاياهم الوثنيين بعد غزوتهم الأولى التى

---

(١) المصدر السابق. ص ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٠، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٠ - ٢٧٣.

امتازت بشىء من العنف مثال ذلك : أنه سمح لشعب برهمن أباد ، وكانت مدينتهم قد فتحت عنوة ، بإصلاح معبدهم الذى كان مصدر عيش البراهمة ، وما كان لأحد أن يحرم من إقامة شعائر دينه الخاصة . وكان الفاتحون ، بوجه عام لا يترددون فى تخصيص حى من أحياء المدينة لأصحاب الديانات الأخرى ، كما كانوا يسمحون للشعب بإقامة عقائده وشرائعه الخاصة .

وفى اللحظة التى كان المسلمون فيها فى انحلال من الناحية السياسية ، كان الإسلام لا يزال يحرز نجاحا متواليا فى نشر الدعوة وقد ظهر عامل التحول إلى الإسلام ، عندما وقف اعتقاد الناس لديانة الوثنية عقبة دون التقدم بين رجال البلاط عند المسلمين . . وقد قيل إن الضغط الحكومى لم يكن قط أشد على الهندوس منه فى عهد «أورنج زيب» Aorangzeb . . وينبغى أن نلاحظ أن مصدر هذا التحول الذى تم عن طريق الإكراه إنما هو وليد أسطورة قبلية أو محلية . وليس هناك إشارة (بقدر ما أمكننى الوصول إليه) إلى ذلك فى العبارات التاريخية الخاصة بحكم «أورنج زيب» ولعل «تيپو سلطان» [١٧٥٣ - ١٧٩٩م] هو الحاكم المسلم الذى أخذ على نفسه مهمة تحويل الناس إلى الإسلام بالإكراه . ففى سنة ١٧٨٨ م أذاع المنشور التالى على أهالى «مليبار» :

«بعد انقضاء أربع وعشرين سنة على غزو بلادكم ، لا تزالون على عصيانكم وتمردكم ، ولا زلتم مصدر القلق والاضطراب ، وفى الحروب التى نشبت خلال فصلكم الممطر ، كنتم أنتم السبب فى استشهاد كثير من جندنا . وليكن هذا فإن ما فات مات . وإنى مستعد لأن أتناسى الماضى ، وقد حان الوقت الذى يجب أن تعدلوا عن خطتكم ، وتلزموا السكينة والهدوء ، وتؤدوا ما عليكم من الضرائب كما يفعل الرعايا الأخيار . وما دامت المرأة فيكم لا تقنع برجل واحد ، بل تعاشر عشرة رجال . وما دمتم تذرون أمهاتكم وأخواتكم ينغمسن فى حمأة الرذيلة ، فإن جميع الناس يولدون من سفاح ، وما دمتم فى علاقاتكم أكثر قحة من الوحوش الضارية ، لذلك أرى لزاما علىّ أن أنهاكم عن هذه العادات الأثيمة ، وأنصح لكم أن تكونوا كسائر البشر . وإذا عصيتم أمرى وخالفتم نصحى ، فقد أقسمت قسما حقا غير

حانث فيه ولا آثم، أن أحملكم على الصراط المستقيم، وأن أنيلكم شرف الإسلام أجمعين، وأن أسوق جميع عظمائكم كبيركم وصغيركم إلى مقر حكومتي . . ».

ويمكن أن نحكم على مبلغ ضآلة تأثير انتشار الإسلام بالإكراه من جانب الحكام المسلمين من هذه الحقيقة، وهي: أنه حتى في المراكز التي يسود فيها النفوذ الإسلامي مثل دهلي وأجرا، لا يكاد يعدو عدد المسلمين في العصور الحديثة على العشرة في المائة من سكان الإقليم الأول على حين أن عدد المسلمين في الإقليم الثاني لا يكاد يبلغ ربع السكان . . وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن تحويل الناس المطرد إلى الإسلام بالطرق السلمية كان من بين الطبقات السفلى، كما هي الحال في الوقت الحاضر حين يزداد دخول الناس من حين إلى حين من بين أفراد قبيلة «تيان» Tiyans الذين يقال إنهم يكونون إحدى الجماعات التي تعد من أكثر الجماعات تقدما في الهند، وجماعة «مكهة وتر» Makkavans أي طبقة السماكين، وكذلك من طبقة «تشرومن Cherumans أي حراث الأرض، وغيرها من طبقات الرقيق الذين يخلصهم الإسلام من القيود التي تلحق بالمنبوذين في نظام الهند الاجتماعي . . ففي «تراونكور» Travancore لا يسمح لبعض الطبقات السفلى أن تقترب من البرهمي بأكثر من أربع وسبعين خطوة، كما يجب عليهم أن يصيحوا بصوت كصوت الخنزير وهم في الطريق إيذانا بدنوهم. وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع للتدليل على صحة هذا القول. لذلك لا نعجب إذا رأينا الأهالي المسلمين يزداد عددهم بسرعة بسبب دخول الناس في الإسلام من بين هذه الطبقات السفلى الذين يحررون أنفسهم بذلك من مثل هذا الظلم الذي يحقر من شأنهم، والذين يرفعون منزلتهم ومنزلة ذرياتهم في المجتمع.

ويقال في الواقع، إنه قد بلغ من ازدياد عدد المابيلا الذين يقيمون على الساحل الغربي بسبب من دخل في الإسلام من الطبقة الهندوكية السفلى، أن أصبح في الإمكان أن تتحول كافة الأجناس السفلى التي تقيم على الساحل الغربي إلى الإسلام في سنوات قليلة.

«إن الهندوكى الذى نبذته طبقته بطريقة ما، وطردته تبعا لذلك أسرته وجماعته التى اعتاد أن يتنقل بينها، كان طبيعيا أن ينجذب نحو دين يقبل جميع الناس من غير تمييز، وأن يبوئه فى المجتمع منزلة تماثل فى المستوى الاجتماعى تلك المنزلة التى كان قد أقصى عنها. وإن مثل هذا التحول كان يقترن فى العادة بإيمان صادق بهذا الدين وعقائده».

«. . فى مقاطعة البنجاب الشرقية مثلا، قامت نهضة دينية عظيمة بعد إعلان العصيان والثورة. وتنقل الدعاة فى طول البلاد وعرضها، يدعون المؤمنين إلى نبذ شعائرهم الوثنية، ويبسطون لهم مبادئ العقيدة الخالصة، وكان من أثر ذلك أن بنيت الآن مساجد فى معظم القرى التى يمتلك فيها المسلمون أى نصيب لا يستهان به، على حين أن الأهالى أخذوا يكفون الآن عن إقامة العبادات الوثنية التى كانت أكبر مظهرا وأكثر علانية».

«إن سكان الهند ينقسمون إلى خمس طبقات: **البراهمة**، وهم طبقة العلماء ورجال الدين. **والشترى**، وهم الجند. **ويش أو بش**، وهم التجار ورجال الأعمال. **وشودر**، وهم الطبقة الدنيا. **وجندال**، وهم لا يفترقون عن الحيوانات. ولا يختلط بعض أفراد هذه الطبقات ببعض بحال من الأحوال».

«وقلما سجلت حالات التحول الإجبارى إلى الإسلام. بيد أن ما أحرزه الإسلام من نجاح مستمر فى البنغال السفلى لم يكن راجعا إلى القوة والعنف، فقد راق الإسلام نظر الأهالى، كما انتزع السواد الأعظم من الذين تحولوا إلى هذا الدين من طبقة الفقراء، وأدخل فى أذهانهم تصورا أرقى لمعنى الإله، ومثلا أسمى للأخوة الإنسانية، وقدم للعشائر المنحطة التى غصت بها البنغال، والتى ظلت أجيالا دنيئة وضيعة، أبعد ما تكون عن حظيرة الجماعة الهندوكية، منفذا حرا، تقدمت منه إلى نظام اجتماعى جديد».

❊ ❊ ❊

«لقد قال الأسقف لفروى» lefroy [١٨٧٧ ـ ١٩٢٥] [١] إن طابع تعاليم الإسلام الواقعية ، قد جذب عقولا لم تقنع بنظام الفكرة الحلولية التى تتميز بالغموض والنسبية ، فلما اصطدم الإسلام مع ما عرف عنه من تمثيل قوى لحقيقة وجود الله ، وتلك الحقيقة التى انبعثت منها ، وهى طابع الحق الذى يتميز بالثبات المطلق والمحسوسية البحتة ـ اصطدم بعقيدة الحلول ، التى تقوم على الغموض ، وبما قامت عليه هذه العقيدة من نسبية ، تبع ذلك بالضرورة أن الإسلام لم ينتصر فى هذه المعركة فحسب ، بل لقد غدا البلسم الشافى الذى سرى فى شريان الحياة والفكر فى بلاد الهند العليا . وسرعان ما أحيا عقولا كثيرة ، وبث فيها حياة أكثر قوة ونشاطا ، تلك العقول التى لم تقبل من تلقاء ذاتها أن تتأثر بمثل هذا التأثير الفكرى . . . » .

«ولو أن إمبراطورية المغول بقيت ، لكان من المحتمل أن تؤدى هذه النزعات التى تجنح نحو الإسلام إلى تحول أمراء راجه پوت نهائيا إلى الإسلام» [٢] .

* * *

● وفى أندونسيا : «إن هناك شواهد كافية تدلنا على وجود جهود سلمية فى الدعوة لنشر عقيدة الإسلام فى خلال السنوات الستمائة الأخيرة . حقا إن السيف كان يمتشق أحيانا لتأييد قضية الدين ، ولكن الدعوة والإقناع ، وليس القوة والعنف كانا هما الطابعين الرئيسين لحركة الدعوة هذه . وإن النجاح الرائع هو الذى أحرزه التجار بنوع خاص ، الذين كسبوا السبيل إلى قلوب الأهالى . . وإلى جانب التجار ، كان هناك جموع ممن يصح أن نسميهم الدعاة المحترفين ـ وهم الفقهاء والقضاة والحجا ـ [الحجاج] ـ . وقد حاولت الحكومة الهولندية ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، أن تضع العراقيل فى سبيل الحجاج . . » .

---

(١) هارولد ماكسويل . قس إنجليزى ، وعالم حشرات ، كتب كثيرا عن حشرات النهد .

(٢) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٢٩١ ـ ٢٩٤ ، ٣٥١ ، ٣٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٢ ، ٣١٤ ، ٣٢٧ ، ٣٩٠ .

«ففى جاوة، كان ما أحرزه الإسلام من تقدم نتيجة أعمال الدعاة أكثر من أن يكون نتيجة أعمال الأمراء. . «وفى ملوكس ـ بأرخبيل الملايو ـ جعلت غزوة البرتغاليين تقدم الإسلام أبطأ مما قد يكون لو أن هذه الغزوة لم تحدث. فقد طردو القاضى، الذى وجدوه يفقه الناس فى عقائد محمد، ونشروا المسيحية بين الأهالى الوثنيين، ولقوا فى ذلك شيئا من النجاح، وإن كان قصير الأمد. . ».

«وفى سليبيس، فإن التحول إلى الإسلام ـ فيما يظهر ـ قد حدث بطريقة سلمية. . » «وفى جزائر مندناو وسولو، قاوم الأهالى على وجه الإجمال، كل الجهود التى بذلها المسيحيون فى الغزو والتبشير حتى نهاية القرن التاسع عشر مقاومة ناجحة، إلى حد أن المبشرين الإسبان يئسوا من الاستمرار فى القيام بأعمال التبشير.

ويرجع نجاح الإسلام إلى حد بعيد، إذا ووزن بالمسيحية، إلى الصورة المختلفة التى عرضت بها هاتان الديانتان على أهالى هذه البلاد، فقد انطوى اعتقادهم بالمسيحية على فقد الحرية السياسية كلها والاستقلال القومى، ومن هنا أصبح الناس ينظرون إليها على أنها رمز العبودية. . » [1].

❊ ❊ ❊

● **وفى الصين**: «ومن المحتمل جدا، على الرغم من قلة الشواهد التاريخية الصريحة، أن الإسلام دخل الصين أول ما دخل مع التجار الذين كانوا يسلكون الطريق البحرى القديم. ولكن أسبق النصوص التى يمكن أن نثق بصحتها تشير إلى علاقات سياسية تبادلوها برا عن طريق بلا د فارس. .

ولقد تمخضت فتوح المغول عن حركة هجرة واسعة النطاق هاجر فيها المسلمون على اختلاف قومياتهم من عرب وفرس وأتراك وغيرهم، إلى الإمبراطورية الصينية. .

---

(١) المصدر السابق. ص ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٣٨، ٤٤٠.

وفى سنة ١٨٦٧م عبر كاتب روسى [vasil'ev] ـ فى كتاب هام كتبه عن الإسلام فى الصين ـ عن الفكرة التى تقول بأن الإسلام مهيأ لأن يصبح الدين القومي للإمبراطورية الصينية، ولأن يقلب تبعا لذلك الأوضاع السياسية فى العالم الشرقى رأسا على عقب».

* * *

● **وفى الشام وأسيا الوسطى:** «لما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن، وعسكر أبوعبيدة بن الجراح [٤٠ ق هـ ـ ١٨ هـ ٥٨٤ ـ ٦٣٩] فى فحل، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب، يقولون: «يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا. ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا».

وغلّق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش «هرقل» [٦١٠ ـ ٦٤١ م]، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم. . »

«ويقول «كايتانى» Caetani [١٨٦٩ ـ ١٩٢٦ م] [١]: «لقد قبل السكان عن رضى ظاهر تغيير الحكومة، وذلك بمجرد أن علموا أن العرب سيحترمون حقوقهم الشخصية، وسيتركون لهم الحرية العامة فى إقامة شعائرهم الدينية.

وفى سورية أسرعت مدن ومقاطعات بأكملها إلى التفاهم مع العرب حتى قبل أن تقع هزيمة الروم النهائية، وفى السواد أذعنوا دون أية معارضة، وقبلوا السيادة الجديدة دون شرط ولا قيد. ومن المحتمل أن يكون هذا قد تم بالنسبة إلى كثير من المناطق السورية النائية عن طريق المواصلات الكبرى. . ».

«أما ولايات الدولة البيزنطية، التى سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم،

---

(١) ليون كايتانى. أمير ومستشرق إيطالى، اشتهر بدراساته فى التاريخ الإسلامى. وله [تاريخ الإسلام] فى عشرة مجلدات و[دراسات فى تاريخ الشرق] فى ثلاثة مجلدات. ونشر [تجارب الأمم] لابن مسكويه.

فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية، فقد سُمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد».

«وفى سنة ١٢٤٤ م عندما وقع بيت المقدس نهائيا فى أيدى المسلمين، رحب المسيحيون من أهل فلسطين بالسادة الجدد واطمأنوا إليهم، ورضوا بحكمهم.

وكذلك دفع هذا الشعور نفسه، شعور الاطمئنان إلى الحياة الدينية فى ظل الحكم الإسلامى، كثيرا من مسيحيى آسيا الصغرى، فى إبان هذه الفترة ذاتها إلى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة، باعتبارهم مخلّصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده، ولكن بسبب روح الاضطهاد التى ظهرت بها الكنيسة الإغريقية، والتى قمعت بمثل هذه القسوة بدع أصحاب بولس ومحطمى الصور والتماثيل Icemoclasts كذلك.

وطالما دعا الأهلون الأتراك، فى عهد ميخائيل الثامن [١٢٢٤ - ١٢٨٢ م] إلى الاستيلاء على مدنهم الصغيرة فى داخل أسيا الصغرى، تخلصا من استبداد الدولة، وكثيرا ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلى الولايات التركية» (١).

* * *

• وفى تركيا: «من أولى الخطوات التى اتخذها محمد الثانى [٨٣٣ - ٨٨٦ هـ ١٤٣ - ١٤٨١ م] بعد سقوط القسطنطينية [٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م] وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامى الكنيسة الإغريقية، فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا ومنح البطريق الجديد مرسوما يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التى كانوا يتمتعون بها فى العهد السابق.

---

(١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٣، ٧٤، ١١٦، ١١٧.

ولم يقتصر المسلمون فى معاملة رئيس الكنيسة على ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم، بل كان متمتعا أيضا بسلطة أهلية واسعة . . وكان من أثر ذلك أن الإغريق، ولو أنهم كانوا يفوقون الأتراك عددا فى كل من الولايات الأوربية التابعة للدولة العثمانية، قد جعلهم التسامح الدينى الذى رخص لهم، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم، يسرعون فى الموافقة على تغيير سادتهم وإيثار سيادة السلطان على سيادة أية سلطة مسيحية. وكان الغزاة العثمانيون فى بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيبا من جانب الإغريق ويعدونهم مخلِّصين لهم من الحكم الظالم المستبد. . ».

«ولا شك أن الولايات التركية كانت أحسن حكما وأكثر رخاء من معظم جهات أوربا المسيحية، وأن جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضى كانوا ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية، كما كانوا ينعمون بثمار جهودهم فى ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم فى ظل كثير من الحكام المسيحيين. أضف إلى ذلك عاملا كبيرا كان من أهم العوامل فى زيادة نشاط المملكة التجارى، ذلك أن السلاطين الأولين كانوا دائما على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم، وأن كثيرا من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهارا كبيرا عندما خلصها الفتح التركى مما أصابها فى عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التى عرقلت نهضتها وشلت حركتها «إن المعاملة التى أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين - على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين - لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفا فى سائر أوربا. وإن أصحاب «كالفن» Calvin [١٥٠٩ - ١٥٦٤ م] فى المجر وترا نسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد Unitarian من المسيحيين الذين كانوا فى ترا نسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع فى أيدى أسرة هابسبورج المتعصبة. ونظر البروتستانت فى سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامى. وحدث أن هرب اليهود الإسبانيون المضطهدون فى جموع هائلة فلم يلجئوا إلا إلى تركيا فى نهاية القرن الخامس عشر. كذلك نرى القوزاق Cossaks الذين

ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء Dld Believers الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية، قد وجدوا من التسامح فى ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم فى المسيحية.

وربما كان يحق لمقاريوس، بطريق أنطاكية فى القرن السابع عشر، أن يهنىء نفسه حين رأى أعمال القسوة الفظيعة التي أوقعها البولنديون من الكاثوليك Catholic poles على روسيي الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية. قال مقاريوس: «أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد.. فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين، يهود أو سامرة. أما البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس، ولا بأن يتركوا لهم قسسا يعرفون أسرار دينهم..».

«وحتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى الترك لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أية حكومة مسيحية. وهنا قد يلوح أن الإسلام لم ينتشر بالقوة فى أملاك سلطان تركيا..».

«**تفوق العثمانيين الأدبى**: وبينما كان فى المجتمع المسيحى فى ذلك الحين ما يدعو إلى الصد والنفور، كان فى أخلاق الأتراك وحياتهم ما يبعث على التقريب والاجتذاب. وكان تفوق العثمانين فى عصوهم الأولى إذا ما قورن بانحطاط زعماء الكنيسة المسيحية ومعلميها، لا بد أن يؤثر بطبيعة الحال فى العقول الزاهدة التى سئمت الأطماع المنبعثة من الأنانية، وبيع الوظائف الكنسية، وفساد أفراد الكنيسة الإغريقية.. وكثيرا ما قدم الكتاب المسيحيون الذين لا يكنون للعثمانيين محبة ولاودا، تقدمة المدح والثناء على فضائل الأتراك، فمن أولئك كاتب كان له رأى سيىء فى عقيدتهم - هو الكسندر روس Alexandeuross - يتحدث عنهم بقوله: «حتى بين توافه القرآن نجد بعض جواهر من الفضائل المسيحية، وفى الحق لو قرأ

المسيحيون باهتمام شريعة المسلمين وتاريخهم وتدبروها، لاستولى عليهم الحياء حين يشاهدون إلى أى حد هؤلاء المسلمين ذوى غيرة على عبادتهم وتقواهم وتصدقهم، وإلى أى حد متفانون فى إخلاصهم، قانتون فى مساجدهم وإلى أى حد هم مطيعون لرئيسهم الروحى، حتى إن التركى العظيم نفسه لا يحاول أمرا إلا بعد مشورة المفتى، وإلى أى حد هم مهتمون بمراعاة أوقات الصلوات الخمس فى كل يوم حيث وجدوا وأيا كانت مشاغلهم؟ . ما أشد مراعاتهم دائما لصومهم من الصباح حتى المساء طوال أيام الشهر بلا انقطاع، وما أكثر تواد المسلمين وتراحمهم، وما أعظم ما يُرى من عنايتهم بالغرباء فى نُزُلهم، سواء بالفقير النازح أو المسافر! . لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم وسائر فضائلهم الخلقية لخجلنا من جمودنا، سواء فى عبادتنا أو فى تراحمنا، ومن جورنا وإفراطنا وتعسفنا، فلاريب أن هؤلاء الناس سيقيمون الحجة علينا، ولا شك أن عبادتهم وتقواهم وأعمال الرحمة فيهم، هى الأسباب الرئيسية لنمو الدعوة المحمدية . . » .

«وقد وصل مؤرخ حديث إلى مثل هذه النتيجة حين قال: نجد كثيرين من الإغريق من ذوى المواهب العالية والميزات الخلقية قد بلغ من تأثرهم بتفوق المسلمين، أنهم حتى عندما كانوا يتجنبون الاندماج فى خدمة السلطان بأداءضريبة الأبناء، كانوا يدخلون فى دين محمد بمحض إرادتهم . ولا بد أنه كان لتفوق المجتمع التركى من الناحية الخلقية شأن كبير فى هذا التحول إلى الإسلام الذى كان كثير الوقوع فى القرن الخامس عشر بقدر ما كان للطموح الشخصى للأفراد من أثر فى هذا السبيل» .

«إن بعض الناس بدأ يسأل: «هل من الجائز أن يأذن الله للمسلمين بأن يبلغوا ما بلغوه من هذا العدد الذى لا يدخل تحت حصر بدون سبب معقول؟ هل من المتصور أن مثل هذه الآلاف المؤلفة تتعرض للهلاك الأبدى كما يتعرض الرجل الواحد؟ كيف يمكن أن يكون أمثال هذه الجماهير الزاخرة مناوئة للدين الحق؟ إنه إذا كان الحق أقوى من الباطل، وكان الناس جميعا يحبون الحق ويرغبون فيه أكثر مما يحبون الباطل، فليس من المحتمل أن تُجمع أقوام كثيرة كهؤلاء على محاربته . كيف استطاعوا أن يقووا على الحق ما دام الله يعين على الحق ويؤيده؟ كيف

استطاع دينهم أن ينتشر بهذه الصورة العجيبة لو أنه قام على أساس فاسد من الباطل؟».

«وبعد أن نظمت الشريعة الإسلامية مسألة الرق، انتزع عن الرقيق كثير من أشد مظاهره غلظة وفظاظة ويظهر أنه لم يكن على الأقل فى تركيا شىء من أمثال تلك الأعمال الوحشية والفظائع التى كانت فى ولايات القرصنة فى أفريقيا الشمالية. كان للرقيق، كما لسائر المواطنين حقوقهم. بل قيل إنه كان للعبد أن يقاضى سيده إذا أساء معاملته، وأنه إذا تحقق القاضى من اختلاف طباعهما اختلافا بينا إلى حد تعذر الاتفاق بينهما، فله أن يرغم السيد على بيعه».

«وينبغى أن نقرر، فيما يتعلق بالترك أنهم عاملوا خدمهم ومواليهم معاملة أحسن من تلك التى كان النصارى يعاملون بها خدمهم وعبيدهم . . فكان الخادم الماهر فى فن من الفنون يتمتع بكل ما يرجوه الحر، ولا ينقصه إلا التحرر. »[1].

* * *

● **وفى البوسنة**: «احتفظ البوسنيون المسلمون بقوميتهم، وظل السواد الأعظم منهم يحملون أسماء صربية ولا يتكلمون إلا بلغتهم الوطنية، وفى الوقت نفسه كانوا يبرهنون دائما على غيره متدفقة على دينهم الجديد، وسرعان ما تبوأ أشراف البوسنة بفضل شجاعتهم العسكرية وتقديسهم للإسلام وما كان لهم من نفوذ قوى، مكانة سامية فى القسطنطينية، وأصبح كثير منهم موضع ثقة فى مناصب الحكومة الهامة، مثال ذلك أن تسعة من رجال السياسة الذين ينتمون إلى أصل بوسنى شغلوا منصب كبير الوزراء فى الفترة التى تقع بين سنتى ١٥٤٤ م و١٦١١ م . . »[2].

* * *

---

(١) المصدر السابق. ص ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤، ١٨١، ١٨٣، ١٩٦، ٢٠١.

(٢) المصدر السابق. ص ٢٢٩.

● **وفى كريت**: «كان مسلموا «إقريطش» يكثرون من اتخاذ البنات المسيحيات زوجات لهم، وكن من بنات أصدقائهم المسيحيين . وقد زاد فى توثيق الارتباط الاجتماعى بين هاتين الجماعتين الزى المشترك بينهما، فقد كان أهالى إقريطش من المسلمين والنصارى على سواء متشابهين فى الزى . لقد كان من العسير على المقيمين بينهم فترة طويلة، أو على اليونان من أهالى الجزر المجاورة أن يميزوا بين الفريقين فى كثير من الأحيان . . »[1].

* * *

● **وفى أوربا الشرقية**: «وحتى المسلم الأسير، يغتنم الفرصة فى المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه فى الأسر إلى دينه . .

وقد تسرب الإسلام إلى أوربا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم سيق أسيرا، ربما فى إحدى الحروب التى نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين، وجىء به إلى بلاد پتشنج pechenegs - [فى منطقة الدانوب الأدنى] - فى مستهل القرن الحادى عشر . ولقد بسط - [هذا الفقيه الأسير] - بين يدى كثير منهم تعاليم الإسلام، فاعتقدوه فى إخلاص حتى إنه أخذ فى الانتشار بين هذا الشعب .

أما سائر «البيتشنج» الذين لم يكونوا قد قبلوا دين الإسلام فقد ارتابوا من تصرف مواطنيهم، وانتهى بهم الأمر إلى نشوب القتال بينهم، وقاوم المسلمون، وكان عددهم يبلغ نحوا من اثنى عشر ألفا، هجمات الكفار فى نجاح مع أن هؤلاء كانوا أكثر منهم عددا بما يزيد على الضعفين . ودخلت فلول المهزومين فى دين المنتصرين . . ولم تأت نهاية القرن الحادى عشر حتى كان الشعب بأسره قد اعتقد الإسلام وكان من بينهم مسلمون تعلموا الفقه والتوحيد . . »[2].

* * *

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٣٣، ٢٣٤ .

(٢) المصدر السابق . ص ٤٥٣، ٤٥٤ .

● وفى إسبانيا: «ولما قدم المسلمون أول الأمر إلى إسبانيا حاملين دينهم، وجدوا المذهب الكاثوليكى قد استقر فى هذه البلاد بعد انتصاره على المذهب الآرى. وقد أصدر المجمع السادس فى طليطلة قرارا يقضى بأن يقسم كل الملوك بأن لا يسمحوا بانتشار أى مذهب آخر غير المذهب الكاثوليكى، وأن ينفذ القانون بالقوة على الخارجين عليه وقد تلا هذا القانون قانون آخر يحرم كل شخص أن يتطرق إلى ذهنه أى شك فى الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، وفى النظم الإنجيلية وتفاسير الآباء الروحيين والمراسيم الكنسية والقرابين المقدسة إذا ما صودرت أملاكه أو حكم عليه بالسجن المؤبد. وقد كسب رجال الدين لطائفتهم نفوذا راجحا فى شئون الدولة، وجلس الأساقفة وكبار رجال الدين فى المجالس الوطنية التى كانت تجتمع لإقرار الشئون الهامة فى الدولة والمصادقة على انتخاب الملك، وادعت لنفسها الحق فى عزله إذا أبى الإذعان لقراراتهم.

واتخذ القسس من وراء هذه القوة التى وصلوا إليها سبيلا لاضطهاد اليهود، الذين كانوا طائفة كبيرة العدد فى إسبانيا، وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من امتنع عن الدخول فى المسيحية.

وكان من أثر هذه الاضطهادات أن رحب اليهود بالعرب الغزاة وعدُّوهم مخَلِّصين لهم مما حل بهم من المظالم، فساعدوهم على فتح أبواب المدن، كما استعان بهم الفاتحون فى حماية المدن التى وقعت بأيديهم.

كذلك رحب بالمسلمين هؤلاء الأرقاء الذين حل بهم البؤس والشقاء فى عهد المسيحيين الكاثوليك، الذين كانت معرفتهم بأصول المسيحية سطحية، إذا ما ووزنت بذلك التسامح الدينى وهذه المزايا الكثيرة التى حصلوا عليها بإلقاء زمامهم للمسلمين.

وكان هؤلاء الأرقاء الذين وصلوا إلى الحضيض أول من تدين بالإسلام فى إسبانيا، ولا يبعد أن يكون عدد كبير من هؤلاء الأهلين الذين كانوا لا يزالون على الوثنية، والذين ورد ذكرهم فى سنة ٦٩٣ م قد ساروا على منهاج هؤلاء الأرقاء.

كما اعتنق هذا الدين الجديد كثير من أشراف المسيحيين عن عقيدة راسخة أو عن بواعث أخرى، يضاف إلى ذلك عدد كبير من أهالى الطبقات الدنيا والوسطى تدينوا بالإسلام عن إيمان ثابت، متحولين إليه من ديانتهم القديمة التى أهمل رجالها مصالحهم، ولم يحفلوا بتلقينهم أصولها، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا، فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم .. فأخذ هؤلاء المسيحيون يبحثون عن بيئة أكثر ملاءمة لحياتهم الدينية والدنيوية بدخولهم فى حظيرة الإسلام..

إن سياسة التسامح الدينى التى أظهرها هؤلاء الفاتحون المسلمون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر فى تسهيل استيلائهم على هذه البلاد.

ولقد كان المسيحيون المدنيون، فى القرن التاسع الميلادى على الأقل يلبسون نفس ملابس العرب، كما سمح لهم فى وقت من الأوقات أن يبنوا كنائس جديدة. كذلك نقرأ عن بناء عدة أديار جديدة بالإضافة إلى الأديار الكثيرة المزدهرة التى أقام بها الرهبان والراهبات الذين عاشوا فى أمن وطمأنينة لا يتعرض لهم حكام المسلمين بسوء، وكان الرهبان يستطيعون الظهور على ملأ الناس فى وشاحهم الصوفى وفق نظامهم الكنسى، ولم يكن ثمة ما يدعوا القسيس إلى إخفاء شارته الدينية. وفى الوقت نفسه لم تخل المناصب الدينية دون تقلد المسيحيين المناصب العالية فى البلاط أو اندماجهم فى سلك الرهبنة أو انتظامهم فى جيش المسلمين.

إن سياسة التسامح الدينى التى سارت عليها الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين فى إسبانيا، وحرية الاختلاط بين المتدينين قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين، وقد كثر التصاهر بينهم .. هذا إلى أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء عربية، وقلدوا جيرانهم المسلمين فى إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم وساروا وفق رسوم غير المعمدين - [أى المسلمين] - فى أمور الطعام والشراب.

وإن إطلاق لفظ «مستعربين» muzarabes على الإسبان المسيحيين الذين عاشوا فى ظل حكم العرب، ليدل دلالة ظاهرة على مدى الميول والاتجاهات التى كانت تعمل بنشاط وهمة فى هذا السبيل، فسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية فى جميع أرجاء البلاد حتى أن لغة الدين المسيحى قد تطرق إليها الإهمال والنسيان شيئا فشيئا . . ففى سنة ٨٥٤ م نرى أحد كتاب الإسبان يعلن هذه الشكوى ضد مواطنيه المسيحيين فيقول: « . . واأسفاه! لقد جهل المسيحيون نظم شريعتهم، وأصبحت الأمم اللاتينية لا تعير لغتها اهتماما، حتى لا تكاد تجد جماعة المسيحيين كافة رجلا من كل ألف رجل يستطيع أن يستفسر عن صحة صديق بعبارات واضحة جلية، وأنت واجد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصا لا يحصى عددهم، يحيطون إحاطة تامة بالعبارات الفصيحة التى خلفتها اللغة العربية فى عصورها الذهبية حتى لقد استطاعوا أن ينظموا القصائد المقفاة، تلك القصائد التى يتجلى فيها أسمى مراتب الجمال، بل لقد كان بعضهم أمهر من العرب أنفسهم فى قرض الشّعر . . ».

ونجد بين المسيحيين مثل «الفار» Alvar ـ الذى عرف بتعصبه على الإسلام ـ يقرر «أن القرآن قد صيغ فى مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى أن المسيحيين لا يسعهم إلا قراءته والإعجاب به».

وقد بلغ من تأثير الإسلام فى نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحيى إسبانيا مبلغا عظيما حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته، وفنه الذى استولى على عقولهم وبهر خيالهم، كما وجدوا فى الفروسية العربية الرفيعة مجالا فسيحا لإظهار بأسهم، وما تكشفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق كريم . .

إن تاريخ إسبانيا فى ظل الحكم الإسلامى يمتاز ببعده بعدا تاما عن الاضطهاد الدينى . . ولكن، فى عهد دولة المرابطين التى تولت حكم بلاد الأندلس، انفجر بركان التعصب الدينى، فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى من جانب المتحمسين

من رجال الدين الإسلامى، وقاسى من جراء ذلك المسيحيون واليهود وطائفة الأحرار المسلمين الذين نادوا بحرية الفكر كالفلاسفة والشعراء ورجال الأدب. ولكن هذه الحوادث لم تكن إلا استثناء للتسامح الدينى الذى اتسم بذلك الطابع الذى عرف به أمراء المسلمين فى إسبانيا نحو رعاياهم من المسيحيين..»(١).

* * *

● **وفى الصليبيين**: «إن علماء اللاهوت المسيحى، حين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطا شخصيا إلى تكوين رأى أكثر إنصافا عن ديانة المسلمين، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس وأثار ألوان الزندقة، لم يكن بالغريب أن ينجذب كثيرون إلى حظيرة الإسلام.

وكان عدد المرتدين [عن المسيحية] فى القرن الثانى عشر الميلادى كثيرا كثرة نلاحظها فى سجلات الصليبيين القانونية التى يطلق عليها «مجالس قضاء بيت المقدس» Assisesof gerusalem والتى لم تقبل بموجبها كفالتهم فى حالات معينة.

ويظهر أن أخلاق صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧ - ١١٩٣ م] وحياته التى انطوت على البطولة، قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيرا سحريا خاصا، حتى أن نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية، وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين.

وكان خطر الدخول فى الإسلام - وهو ما كان يستهدف له حجاج الأراضى المقدسة - قد شاع أمره فى ذلك العصر بصورة واضحة، حتى إن «أمورى دى لاروش Amaury dela roche رئيس فرسان المعبد the kinghts Templur التمس من البابا ونوابه فى فرنسا وصقلية، فى «مذكرة» دونها حوالى سنة ١٢٦٦م،

---

(١) المصدر السابق. ص ١٥٤، ١٦٢، ١٦٧.

أن يمنعوا الفقراء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين، لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يتعرضون إما إلى القتل أو الأسر أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم . .

وفى الصراع مع السلاجقة، تخلى الإغريق الصليبيون عن إخوانهم فى الدين . . وكتب المؤرخ القديم : «لقد جفوا إخوانهم فى الدين الذين كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار - [يقصد المسلمين السلاجقة!] - الذين كانوا رحماء عليهم . ولقد بلغنا أن ما يربوا على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا، إلى صفوف الأتراك . آه! إنها لرحمة أقسى من الغدر! . لقد منحوهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم . ولو أنه من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحدا من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قدموا لهم من خدمات . . »[1] .

* * *

● وفى إفريقيا: «إن الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية فى إفريقية . ومع أن الإسلام كثيرا ما شهر السيف كأداة يستعين بها على تقدم فتوحاته الروحية، نجد أن مثل هذا الالتجاء إلى القوة وسفك الدماء كان يسبقه فى معظم الحالات جهود سلمية فى نشر الدعوة . كان الداعية يتعقب الفاتح ليكمل النقص فى تحويل الناس إلى الإسلام . والحق أن نجاح الرواد المسلمين نجاحا دنيويا سهل إلى حد كبير جدا نجاح الإسلام فى جهات كثيرة من إفريقية، كما سهله تأسيس دولة إسلامية على أنقاض دولة وثنية . .

إن لدينا الدليل القاطع الذى شهد به الرحالون وغيرهم على نشر الدعوة الإسلامية بالطرق السلمية، وقيام الداعى المسلم بأعمال تنطوى على الرفق والأناة، تلك الأعمال التى عملت فى سبيل انتشار الإسلام سريعا فى إفريقية الحديثة أكثر مما عمل أى أسلوب من أساليب العنف، وربما استأصل الإسلام حقا شأفة مقاوميه

---

(١) المصدر السابق . ١١٠ - ١١٢، ١٠٩ .

بالأساليب الأخيرة، ولكنه عن طريق الأولى بصفة خاصة أنجز عملية تحويل الناس إلى الإسلام.

إن الداعى المسلم، كان منذ اللحظة الأولى يعترف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة، يسير سيرا عمليا على المبادئ القائمة على إخاء المؤمنين جميعا وتساويهم أمام الله، وهى مبادئ يشترك فيها الإسلام مع المسيحية، غير أن هذا الداعى المسلم بصفة عامة أسرع وأحسم فى القيام بهذا العمل من المبشر المسيحى الذى يشعر فى أغلب الأحيان بأنه مضطر إلى المطالبة بدليل قوى على إخلاص المتنصر قبل أن يصافحه مصافحة التآخى فى المسيحية، والذى كان دائما يثير تعصبا جنسيا لم يكن محتملا أن يزول فى جيل واحد، حيث كان يُعد المسيحى الأبيض، طوال أجيال سيدا، كما كان يعد الوثنى الأسود عبدا. .

ومن المهم أيضا أن نلاحظ أن لون الزنجى وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجدد فى الدين الإسلامى على أن يتعصبوا عليه. ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم فى إفريقية الزنجية Nigritid تقدما جوهريا بسبب انعدام كل إحساس باحتقار الأسود. وفى الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منحطة، كما كان الحال - لسوء الحظ - فى كثير من الأحيان، فى العالم المسيحى.

إن الأسود المتنصر يميل إلى الإحساس بأن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلى لون من الحضارة لا يلائم طبائعه فى الحياة، على حين يشعر فى المجتمع الإسلامى بأنه أكثر تعلقا به واطمئنانا إليه. وقد أجاد أحد المشاهدين المحدثين توضيح ذلك فى الرسالة التالية:

«إن الإسلام . . لا يتطلب من أهل نيجيريا، أن يفقد أحدهم قوميته باعتبار أن ذلك شيء يصحب الدخول فى الإسلام، ولا يستلزم تغييرات انقلابية فى الحياة الاجتماعية يستحيل تحقيقها فى المرحلة الحاضرة من تطور أهل نيجيريا، ولا هو يقوض نفوذ الأسرة وسلطة الجماعة، وليست هناك هوّة بين الداعى إلى الإسلام والمتحول إليه فكلاهما متساو أحدهما مع الآخر لا نظريا، بل عمليا أمام الله

وكلاهما إفريقى، وهما من أبناء أرض واحدة. وينفذ مبدأ التآخى الإنسانى تنفيذا عمليا، ولا يعنى الدخول فى الإسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شئونه وأسرته وحياته الاجتماعية، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين . . وليس هناك من لا يعجب بسلوك المسلم النيجيرى ووقاره - بل بسلوك مسلمى إفريقية الغربية عامة وإن هيئة الرجل العامة لتنم عن شعور بالقومية واعتزاز بالجنس، يخيل إليك أنه يقول: إن كلاًّ منا يختلف عن الآخر، ولكننا جميعا بشر.

وإن انتشار الإسلام الذى نشهده اليوم فى نيجيريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيرا اجتماعيا ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يتصلون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان من العالم المحيط به، ويحرره من ربقة إلف الأوهام الخرافية . . ».

وقد أجاد شخص كان نفسه زنجيا فى توضيح الفارق بين الطريقة التى تقدم بها كل من المسيحية والإسلام إلى الإفريقيين . . وذلك فى العبارات الآتية:

« . . بينما تنسب البعوث التبشيرية قيام قساوسة من الوطنيين إلى عصر معين، نجد الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب إفريقية ويصلون فى سهولة إلى الوثنيين ويحولونهم إلى الإسلام. وبذلك أصبح الزنوج اليوم ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود، والمسيحية على أنها دين البيض، ويرون أن المسيحية تدعو الزنجى إلى الخلاص، ولكنها تضعه فى مكان منحط إلى حد أنه يقول فى نفسه وقد استولى عليه القنوط: ليس لى نصيب ولا حظ فى هذا الدين. أما الإسلام فإنه يدعو الناس إلى الخلاص، ويقول له: إن بلوغك أسمى الدرجات الممكنة إنما يتوقف عليك. ومن ثم أقبل الزنجى بدافع من الحماسة على هذا الدين بروحه وجسده . . ».

ومما يساعد فى نفس الوقت مساعدة كبيرة جدا على تفسير نجاح الإسلام، أن مجرد الدخول فيه يدل ضمنا على الترقى فى الحضارة وأنه خطوة جد متميزة فى تقدم القبيلة الزنجية عقليا وماديا. وكانت القوى المحشودة جنبا إلى جنب مع العقيدة الإسلامية تبلغ من القوة والبأس إلى حد أن البربرية والجهل والخرافة الدينية تلك

الأمور التى كان الدين يجدّ فى القضاء عليها، لا تجد إلا فرصة يسيرة فى إطالة المقاومة. وقد اتضح ما تقدمه حضارة إفريقية إسلامية إلى الزنجى الذى تحول إلى الإسلام، وضوحا يبعث على الإعجاب فى العبارات الآتية:

«إن أقبح الرذائل، وهى أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قربانا، ووأد الأطفال أحياء - تلك الرذائل التى نجد ما يبرر الاعتقاد بأنها كانت فى وقت ما منتشرة فى كل إفريقية، ولا يزال فى بقاع كثيرة منها حتى تلك الجهات التى لا تبعد عن ساحل الذهب وعن مواطننا - قد اختفت فجأة وإلى الأبد. والمساكنون الذين يعيشون حتى ذلك الوقت عراة بدءوا يرتدون الملابس، بل يتأنقون فى ملابسهم، والمساكنون الذين لم يغتسلوا قط من قبل بدءوا يغتسلون، بل يكثرون من الاغتسال، لأن الشريعة المقدسة تأمر بالطهارة.. وقل السلب المطلق الذى لا يقوم على تفرقة بين من يسلبونهم، كما أصبح تأمين الناس على أملاكهم وأرواحهم أكثر من ذى قبل..

وقد أصبح المسجد الجيد البناء النظيف، بما فيه من أذان للصلاة خمس مرات فى اليوم، وقبلة تتجة إلى مكة، وإمام وصلاة جمعة، مركزا للقرية بدلا من دار عبادة الأوثان أو اليويو Juiu ذات المنظر البشع. وقد طغت عبادة الله الواحد القهار، الكائن فى كل مكان، العليم، الرحيم، على كل ما لقن الأهالى عبادته من قبل طغيانا لا حد له. وبلغت اللغة العربية، وهى اللغة التى تكتب بها دائما الكتب الدينية الإسلامية حدا يفوق كل وصف من المعنى والجمال. وإذا ما تعلموا هذه اللغة، أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة. وتستخدم كمقدمة لدراسة الأدب بل هى أدب فى ذاتها. وهى إلى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوبة حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية وهذا تغير يعتبر فى ذاته تقدما هائلا فى الحضارة. وظهرت صناعات وتجارة، لا كالتجارة الصامتة التى تقوم الإشارة فيها مقام اللغة فى التفاهم، ولا كالمبادلة البدائية فى الخامات، تلك المبادلة التى نعرف من «هيرودوت» [٤٨٤ - ٤٢٥ ق. م] أنها وجدت فى إفريقية منذ أقدم العصور، ولا كالمقايضة بالودع، أو البارود أو الطباق والخمر، تلك المقايضة التي لا تزال تستخدم

على طول الساحل وسيلة أساسية فى التبادل، ولكنها صناعات تنطوى على مهارة فائقة وتجارة منظمة تنظيما محكما.

وظهرت هذه المدن الكبيرة فى أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة، وتأثير الحكومات الأكثر استقرارا التى جاء بها الإسلام . . فمن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام يمد السود الذين أسلموا حديثا بالنشاط والعزة والاعتماد على النفس واحترام الذات، وهذه كلها صفات يندر جدا أن نجدها فى مواطنيهم الوثنيين أو المسيحيين.

وقد كتبنا هذه العبارات السابقة - التى اقتبسناها قبل تقسيم الجزء الأكبر من إفريقية بين حكومات أوربا المسيحية - إنجلترا وفرنسا وألمانيا وقتذاك - ولكن طابع الحضارة الإسلامية الغالب لم ينقطع عن التأثير فى العقلية الزنجية، أو عن العمل باعتباره أحد المؤثرات التى تساعد على تحويل عبدة الأوثان الإفريقيين إلى الإسلام ولما مست هؤلاء الثقافة الأوربية فجأة مضوا قدما فى طريق الحضارة، ولكنهم وقد عجزوا عن أن يقيموا جسرا على البرزخ الذى يفصلهم عن حكامهم الأجانب، وجدوا فى الإسلام ثقافة ملائمة لحاجاتهم، وجديرة بتكييف مطالبهم ومطامحهم، ولذلك كان بعيدا كل البعد على انتشار السيادة الأوربية أن تعوق نشاط الدعاة المسلمين، بل إن انتشار هذه السيادة قد ساعد إلى حد كبير على تقدم الإسلام . . ».



ومن المهم أن نلاحظ أن الانتصارات الحربية وفتح البلاد لم تكن أهم ما ساعد على تقدم الإسلام فى مناطق إفريقيا . . أما الأهمية الحقيقية لهذه الحركات العسكرية فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى غربى إفريقية، فهى ما أثاره هؤلاء المحاربون من حماسة دينية، تجلت فى نشاط الدعوة الواسع النطاق بين الشعوب الوثنية، ذلك النشاط الذى كان ذا طابع سلمى خالص . ولم تكن هذه الحروب الدينية، إذا ما نظرنا إليها نظرة صحيحة، إلا أحداثا عارضة فى النهضة الإسلامية

الحديثة، ولم تكن بحال ما صفة تميز القوى وألوان النشاط التى كانت تؤثر تأثيرا حقيقيا فى نشر الدعوة الإسلامية فى إفريقية.

لقد كان «المندنجو» - فى مالى - وهم من أعظم أجناس إفريقية رقيا، وأكثر جميع الزنوج مدنية، وأشدهم ذكاء وأجدرهم بالاحترام، وأمهرهم فى الصناعة وأشهرهم أمانة - كانوا أنشط الدعاة إلى الإسلام، الذى انتشر بواسطتهم بين الجماعات المجاورة لهم..

وعلى ساحل غينيا تنتشر المؤثرات الإسلامية بوجه خاص على أيدى تجار الحوصا الذين نجدهم فى كل المدن التجارية على هذا الساحل، وكلما أنشأوا لهم مقرا، أسرعوا إلى بناء مسجد، وأثروا فى السكان الوثنيين بمسلكهم القائم على الورع وثقافتهم المتفوقة. وقد دخلت فى الإسلام قبائل بأجمعها من عبدة الأوثان دون أن يبذل المسلمون أية جهود خاصة يستوجبها إغراؤهم، وإنما كان ذلك نتيجة لاقتدائهم بما يرون أنه حضارة أرقى من حضارتهم.

وإن العقول الورعة التقية لتعترف حتى فى الاسترقاق بهداية الله إلى الدين الحق، كما يروى عن الزنوج الساكنين فى بلاد النيل الأعلى الذين لقيهم «داوتى» [١٨٤٣ - ١٩٢٦ م] (١) فى بلاد العرب:

«لا يوجد فى نفوس أولئك الإفريقيين أى حقد من أنهم صُيِّروا عبيدا.. حتى ولو أن سُرّاق البشر القساة قد انتزعوهم من ذويهم. وكان العملاء الذين يدفعون ثمنهم يتخذونهم فى بيوتهم ويختتن الذكور منهم.. وإن الذى حرر أرواحهم من الحنين الطويل إلى أوطانهم، هو أن الله قد تفقدهم فى ملمتهم. إنهم يستطيعون أن يقولوا إن نعمة الله قد تداركتهم منذ أن دخلوا بفضلها فى الدين المنقذ، لذلك يرون أنهم فى بلد خير من بلادهم، فهم فى ذلك عتقاء الله، وهم فى بقاع تحيا حياة أكثر

---

(١) داوتى تشارلس، مستشرق ورحالة إنجليزى، تعلم العربية فى دمشق، وساح فى أواسط شبه الجزيرة العربية. ويعتبر كتابه [أسفار فى صحراء العرب] من بدائع النثر الإنجليزى.

مدنيـة، وهم فى تربة الحرمين الشريفين، وفى بلد مـحـمـد ـ لذلك يشكرون الله أن بيعت أجسادهم يوما ما بيع الرقيق»! .

***

وفى إفريقيـة الوسطى، حكم البلجيكيـون على زعيم عربى بالإعدام فقضى ساعاته الأخيرة، وهو يحاول أن يُدخل فى الإسلام ذلك المبشر المسيحى الذى كان قد أرسل إليه ليزجى إليه التعزيات الدينية . . »! (١) .

***

● **وفى الحبشة**: « يظهر أنه كان من أهم الأسباب التى أدت إلى نجاح الإسلام ما كان للمسلمين من تفوق أدبى إذا ووزنوا بسائر أهالى الحبشة من المسيحيين . .

يقول «ريبل» Ruppell : إنه كثيرا ما لاحظ فى خلال رحلاته فى بلاد الحبشة، أنه عندما يراد شغل منصب من المناصب التى تتطلب أن يكون الشخص الذى يشغلها أمينا كل الأمانة، موثوقا به تمام الثقة، كان اختيارهم يقع دائما على شخص مسلم .

وقد عقد الكاتب مقارنة بينهم وبين المسيحيين، فقال : إنهم [أى المسلمين] كانوا أكثر حيوية ونشاطا، فقد التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة، وفى الوقت الذى نرى فيه أبناء المسيحيين لا يتعلمون إلا عندما يزمعون القيام بأعمال الكهنوت . وإن ما ناله مسلمو الحبشة من هذا التفوق الأدبى على الأهالى المسيحيين ليفسر لنا إلى حد بعيد ما أحرزه الإسلام من تقدم مستمر، وإن كان بطيئا فى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وإن ما اتصف به رجال الكنيسة الحبشية من انحطاط وجمود، وما شجر بين زعماء الحبشة من منازعات لا حد لها، قد أفسحت

(١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٣٩٠، ٢٩١، ٣٩٤ـ ٣٩٩، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٥٦، ٣٧٦، ٥٥٨، ٤٥٣، ٤٥٤ .

للمؤثرات الإسلامية المجال لتعمل فى حرية واطمئنان . . إن المسلمين فى تلك البلاد لا يعرفون التعصب فى أية صورة من صوره، لا يضمرون للمسيحية أى نوع من العداء . . . »[1].

* * *

● **وفى النوبة**: «يظهر أن النوبيين قد انساقوا من المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفى بطء شديد. وكانت الحياة الروحية فى كنيستهم قد انحدرت إلى أقصى دركات الانحطاط. ولما وجد المسيحيون ألا أمل فى قيام حركة للإصلاح فى مجتمعهم، وأنهم قد فقدوا الاتصال بكنائسهم التى تقع فيما وراء حدودهم، لم يكن من الطبيعى إلا أن ينشدوا ما يشفى غلتهم ويسد رمقهم الروحى فى الدين الإسلامى الذى حمل أتباعه بين هؤلاء الدليل على قوة حيويته وقتا طويلا، كما كانوا قد ظفروا بفريق من مواطنيهم الذين قبلوا الدخول فى هذا الدين الجديد. . . ولما كانت أخبار تحول النوبيين إلى الإسلام شذرات غير كافية، فإننا نستطيع من غير شك أن نستخلص من كل ما نعرفه عن هذا الشعب الذى جبل على الاستقلال، والذى عرف بتشبثه بالدين المسيحى طالما كان هذا الدين قوة حية بينهم أن تحولهم عن دينهم قد تم تدريجيا وفى خلال قرون كثيرة . . »[2].

* * *

---

(١) المصدر السابق. ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢) المصدر السابق. ص ١٣٣، ١٣٥.

(جـ)

سماحة الإسلام

«يقول «كايتانى» [١٨٦٩ - ١٩٢٦ م]: «لم يضطهد العربُ أحداً فى السنوات الأولى من أجل الدين، كما أنهم لم يعملوا على ضم أحد إلى دينهم، ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون، فى ظل الإسلام بعد الفتوحات الأولى، بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة . . ».

«وما أُثر عن عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] من أنه أمر أن يُعطى قوم مجذومون من النصارى من الصدقات، وأن يجرى عليهم القوت - [البلاذرى ص ١٢٩] - . . وهو لا ينسى الذميين حتى فى أُخرى وصاياه، إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغى القيام به فى هذا المنصب السامى، فقال: «أوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم، وألا يكلفوا إلا طاقتهم».

«وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قلما كانوا فى عهد الفتوح الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم».

«وقد امتاز عهد الخليفة عمر الثانى - ابن عبد العزيز - [٩٩ - ١٠١هـ ١٧ - ٧٢٠ م] بحركة تحول إلى الإسلام واسعة النطاق . . ».

❊ ❊ ❊

«ونستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة . وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على التسامح .

يقول «لايارد» L ayard : إنه صادف مخيما من العرب المسيحيين فى مدينة الكرك شرقى البحر الميت. لا يختلفون عن العرب المسلمين بحال ما، سواء فى الزى أو العادات».

«ولا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا لشىء إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية، وعندئذ كان على الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلا من الجزية الصدقات الشرعية، وهى الزكاة التى كانت تفرض سنويا على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية. وقد قل إلى حد بعيد ما كان يحدث من إغراء مادى للتخلص من عبء الضريبة عن طريق التحول إلى الإسلام، وذلك حين اضطرت بعض الاعتبارات المالية، الحكومة العربية، حول نهاية القرن الأول، إلى أن تشدد على المسلمين الجدد فى أن يوالوا دفع الجزية حتى بعد دخولهم فى زمرة المؤمنين».

«ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة - [الجزية] - على المسيحيين كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة فى الجيش، فى مقابل الحماية التى كفلتها لهم سيوف المسلمين . . ومن الواضح أن أى جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت فى خدمة الجيش الإسلامى، وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة، وهى قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين، وتعهدت أن تكون عونا لهم، وأن تقاتل معهم فى مغازيهم، على شريطة ألا تُوخذ الجزية وأن تُعطى نصيبها من الغنائم . .

ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس فى سنة ٢٢ هـ أُبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التى تقيم على حدود هذه البلاد وأُعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية.

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية، فى حالة المسيحيين الذين عملوا فى الجيش أو الأسطول فى ظل الحكم التركى. مثال ذلك ما عومل به أهل «ميغاريا» Migaris وهم جماعة من مسيحيى ألبانيا الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال Geranes Cithaeron التى كانت تؤدى إلى خليج كورنثة. وكان المسيحيون الذين استُخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركى لإصلاح الطرق وإقامة الجسور، قد أُعفوا من أداء الخراج ومُنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب. وكذلك لم يدفع أهالى Hydre المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان، وإنما قدموا فى مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشد رجال الأسطول التركى كان ينفق عليهم من بيت المال فى تلك الناحية. وقد أُعفى أيضا من الضريبة أهالى رومانيا الجنوبية، الذين يطلق عليهم Armaloli وكانوا يؤلفون عنصرا هاما من عناصر القوة فى الجيش التركى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ثم المرديون Mirdites وهم قبيلة كاثوليكية ألبانية كانت تحتل الجبال الواقعة شمالى اسكدار Scaturi وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة فى زمن الحرب. وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الرءوس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر التى أمدت القسطنطينية بماء الشرب ولا على الذين كانوا فى حراسة مستودعات البارود فى تلك المدينة نظرا إلى ما قدموا للدولة من خدمات. ومن جهة أخرى أُعفى الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام، وفرضت عليهم الجزية فى نظير ذلك، كما فرضت على المسيحيين».

***

«إن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق . . إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى . .

وعلى الرغم من أن صفحات التاريخ الإسلامى قد تلونت بدماء كثير من الاضطهادات القاسية، ظل الكفار على وجه الإجمال، ينعمون فى ظل الحكم الإسلامى بدرجات من التسامح لم نكن نجد لها مثيلا فى أوربا حتى عصور حديثة جدا. وإن التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم، طبقا لتعاليم القرآن ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة : ٢٥٦). ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس : ٩٩). ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (يونس : ١٠٠). وإن مجرد وجود كثير جدا من الفرق والجماعات المسيحية فى الأقطار التى ظلت قرونا فى ظل الحكم الإسلامى، لدليل ثابت على ذلك التسامح الذى نعم به هؤلاء المسيحيون، كما يدل على أن الاضطهادات التى كانوا يدعون إلى معاناتها بأيدى الطغاة والمتعصبين، إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة وإقليمية، أكثر من أن تكون منبعثة من مبدأ مقرر من التعصب..».

«ولما هرب موسى بن ميمون [٥٢٩ ـ ٦٠١ هـ ١١٣٥ ـ ١٢٠٤م] ـ الذى كان قد تظاهر بالدخول فى الإسلام فى عهد الموحدين الذين كان حكمهم ينطوى على التعصب الدينى ـ إلى مصر، وأعلن هناك أمام الملأ أنه يهودى، اتهمه أحد فقهاء المسلمين من إسبانيا بالارتداد عن الإسلام، وطلب بأن يوقع عليه أقصى عقوبة يقضى بها الشرع لهذا الجرم. ولكن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على [٥٢٩ ـ ٥٩٦ هـ ١١٣٥ ـ ١٢٠٠ م] ـ وهو من أشهر قضاة المسلمين، وكبير وزراء صلاح الدين العظيم [٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م] ـ ألغى هذا الحكم، وأعلن بصفة جازمة، أن رجلا قد أُرغم على الدخول فى الإسلام، لا يصح شرعا أن يُعد مسلما.

وبهذه الروح نفسها نجد «غازان» [٦٩٤ ـ ٧٠٣ هـ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤] [1] عندما اكتشف أن عبدة البوذية الذين كانوا قد دخلوا فى الإسلام فى مستهل حكمه (حينما خربت معابدهم) لم يتحولوا إلى هذا الدين إلا تظاهرا ونفاقا، يسمح لجميع هؤلاء

---

(١) هو غازى محمود، أحد سلاطين المغول، اعتنق الإسلام وجعله دين الدولة، وشيد عددا من المؤسسات فى تبريز.

الذين كانوا جد راغبين فى العودة إلى التبت، حيث يستردون حريتهم مرة أخرى بين مواطنيهم البوذيين ويتبعون ديانتهم القديمة.

ويقص لنا تافرنيير Tavernier [١٦٠٥ـ ١٦٨٩ م] [1] قصة مماثلة عن بعض يهود أصفهان الذين كان الحاكم قد اضطهدهم اضطهادا شديدا إلى حد أنه جعلهم يتحولون إلى الإسلام بالقوة والخديعة كلتيهما، ولكن الملك [الشاه عباس الثانى] [١٦٤٢ـ ١٧٦٧ م] أدرك أن القوة والرهبة وحدهما قد أرغمتاهم على هذا التحول فأذن لهم أن يستردوا ديانتهم، وأن يعيشوا فى هدوء وأمان».

«حتى الحاكم المجنون ـ [الحاكم بأمر الله] [٣٨٦ـ ٤١١ هـ ٩٩٦ـ ١٠٢٠ م]ـ الذى حملت اضطهاداته كثيرا من اليهود والمسيحيين على أن يتركوا دينهم ويدخلوا فى الإسلام، قد سمح فيما بعد لهؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام عن غير رغبة أن يعودوا مرة أخرى إلى دينهم، وأن يعيدوا بناء أماكن عبادتهم المخربة..

لقد كان من السهل على أى حاكم من حكام الإسلام الأقوياء أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين أو ينفيهم من بلادهم، كما فعل الإسبان بالعرب والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريبا. وكان من الممكن تماما أن ينفذ سليم الأول [٨٧٥ـ ٩٢٦ هـ ١٤٨٠ـ ١٥٢٠م] ـ فى سنة ١٥١٤م ـ أو إبراهيم [١٠٤٩ـ ١٠٥٨ هـ ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨م] ـ فى سنة ١٦٤٦ م ـ تلك الفكرة البربرية التى تصورها للقضاء على رعاياه المسيحيين.. ولكن طبقة المفتى الذين صرفوا أذهان سادتهم عن مثل هذا الغرض الذي ينطوى على القسوة، إنما فعلوا ذلك باعتبارهم أئمة الشريعة الإسلامية والتسامح الإسلامى..

إن المبدأ الذى وجد قبولا عظيما فى ألمانيا فى القرن السابع عشر ـ وهو أن لكل منطقة دينها الخاص ـ لم يقبله قط أى عاهل مسلم..».

* * *

---

(١) تافرنيير ـ جان باتست. رحالة فرنسى، قام بست رحلات فى آسيا ووصل إلى جاوه وجزر الهند الشرقية، ومنحه الملك لويس الرابع عشر لقب «بارون»، ومات فى رحلته السابعة إلى الشرق.

«وقد استطاع «ميخائيل الأكبر» Michael theElder بطريق أنطاكية اليعقوبى، أن يحبذ فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، ما قرره إخوانه فى الدين، وأن يرى أصبع الله فى الفتوح العربية. حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامى خمسة قرون. وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات «هرقل» [٦١٠-٦٤١]:

«وهذا هو السبب فى أن إله الانتقام الذى تفرد بالقوة والجبروت، والذى يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضيع -لما رأى شرور الروم الذين لجئوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم. وفى الحق أننا إذا كنا قد تحملنا شيئا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا، وإعطائها لأهل خلقيدونية، فقد استمرت هذه الكنائس فى حوزتهم. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتها (وفى ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران). ومع ذلك لم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام».

«ونجد «ركلدوس دى مونت كروسيس» Ricoldus de monte - وهو مبشر دومينقانى، زار الشرق فى نهاية القرن الثالث عشر- ينطلق بالثناء على المسلمين، الذين كان قد اشتغل بين أظهرهم يقول:

«استولى علينا الدهش، كيف أن أعمالا تتصف بمثل هذا الكمال يمكن أن تحيا فى ظل شريعة تصطبغ بمثل هذه النزعة الإلحادية -[كذا؟!]-. لهذا نستعيد الآن فى إيجاز أعمال العرب، تلك المتصفة بالكمال.. من ذا الذى لا يعجب إذا تأمل جيدا أية عناية فائقة بالدراسة يمكن أن توجد بين العرب، وأى إخلاص فى الصلاة وأية رحمة بالفقير وأى تبجيل لاسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة. وأى وقار فى أخلاقهم وفى معاملتهم للغرباء، وأية مودة تربط بين جنسهم؟..».

❊ ❊ ❊

«لقد كان الأخطل [١٩ ـ ٩٠ هـ ٦٤٠ ـ ٧٠٨ م] ـ وهو عربى نصرانى ـ شاعرا للبلاط الأموى . . وكان القديس يوحنا الدمشقى [٥٥ ـ ١٢٢ هـ ٦٧٥ ـ ٧٤٠ م] مستشار الخليفة عبد الملك بن مروان [٦٥ ـ ٨٦ هـ ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م] . . وكان فى خدمة الخليفة المعتصم [٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م] أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين، أحدهما يدعى «سلمويه» . . وأخيه «إبراهيم» . . وشغل الأول منصبا يشبه منصب الوزير فى العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها، على حين عهد إلى إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة، كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال فى البلاد . . واختار عبد الملك بن مروان عالما مسيحيا من مدينة الرها، يدعى أثناس Athansias مؤد با لأخيه عبد العزيز . . وفى نهاية القرن الثامن، نرى رجلا يدعى أبا نوح الأنبارى، كاتب أبى موسى بن مصعب والى الموصل . . وفى عهد المعتضد [٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م] كان عمر بن يوسف والى الأنبار مسيحيا . . ولقد عهد الموفق ـ وكان صاحب السلطان المطلق على أخيه المعتمد [٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ ٨٧٠ ـ ٩٢٠ م] ـ بأمر تنظيم الجيش إلى مسيحى، يدعى إسرائيل واتخذ ابنه المعتضد نصرانيا آخر كاتبا له وهو ملك بن الوليد . . وفى عصر متأخر، تولى ـ فى أيام المقتدر [٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ ٩٠٨ ـ ٩٣٢م] ـ نصرانى آخر أمر ديوان الجيش . . وكان نصر بن هارون مسيحيا، وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهى [٣٣٧ ـ ٣٧١ هـ ٩٤٩ ـ ٩٨٢ م] .

وكان البطريق النسطورى «طيماوس» Timotheus يعقد المناظرات فى المسائل الدينية بحضرة الخليفة الهادى [١٤٤ ـ ١٧٠ هـ ٧٦١ ـ ٧٨٦ م] وهارون الرشيد [١٤٩ ـ ١٩٣ هـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩ م] . . ولما قدم شخص يدعى «يزدا نبخت»، زعيم المانوية [١] فى زيارة لبغداد، وعقد مناظرة مع المتكلمين المسلمين، وأفحمه فيها المتكلمون منهم، حاول الخليفة ـ [المأمون] [١٧٠ ـ ٢١٨ هـ ٧٨٦ ـ ٨٣٣ م] ـ أن يقنعه

(١) من فرق المذاهب الدينية الفارسية، نسبة إلى «مانى» الذى أدعى النبوة سنة ٢٤٢ م. وهى تتخذ إلهين أحدهما للخير والآخر للشر.

باعتناق الإسلام، ولكن «يزدا نبخت» أبى ذلك، وقال: «نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم». فلم يبد الخليفة شيئا من الاستياء لإخفاق محاولته، ووكل به من حفظه خوفا عليه من تعصب الغوغاء» - [الفهرست. جـ١ ص ٣٣٨] -.

* * *

«وأما فيما يتعلق بالسواد الأعظم من هؤلاء المسيحيين العرب، فإن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التى كانت تقيم فى بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلى شىء من التفصيل، والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامى الذى كان يحيط بهم عن طريق مايسمونه (الاندماج السلمى) الذى تم بطريقة لم يحسها أحد منهم، ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم فى الإسلام بالقوة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامى لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين..».

«.. وإن مجرد بقاء الكنيسة المسيحية القومية فى إفريقية الشمالية مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أى زعم بأن تحولهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه..».(١)

---

(١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٠، ٧٥-٨٢، ١٠٢، ٨٨، ٤٦١، ٤٦٣، ٧٢، ٤٦٧، ١٠٣، ١٠٥، ٦٨، ١٥٣.

(د)

نشر المسيحية بالعنف

● «لقد فرض «شارلمان» [٧٤٢ ـ ٨١٤ م] [1] التعميدات المسيحية على السكسونيين الوثنيين بحد السيف . .

● وفى الدانمرك استأصل الملك «كنوت» Cnut [٩٩٥ ـ ١٠٣٥ م] الوثنية من ممتلكاته بالقوة والإرهاب . .

● وجماعة إخوان السيف Bretheren of the sword وغيرهم من الصليبيين، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار فى تنصير البروسيين الوثنيين . .

● ولقد فرض فرسان Ordo fratrum Miliuechrist المسيحية على شعب ليڤونيا فرضا . .

● وفى سنة ١٦٩٩ م وجه «فالنتين» Valentyn إلى رجوات Rajas جزيرة أمبوينا Amboyna مرسوما يأمرهم فيه بإعداد طائفة معينة من الوثنيين لتعميدهم إذا ما طاف بهم راعى الكنيسة . . وربما حل الاضطهاد والتنصير الإجبارى محل الدعوة الهادئة إلى «كلمة الله».

● وفى ڤيكن Viken (القسم الجنوبى من النرويج) كان الملك «أولاف ترايجفيسون Olaftrygvesson [٩٦٣ ـ ١٠٠٠ م] يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول فى المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم أو بنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر الدين فى «ڤيكن» بأسرها . .

---

(١) إمبراطور الغرب وملك الفرنجة . توّجَهُ بابا روما إمبراطورا يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م .

● ووصية القديس لويس [١٢١٤ ـ ١٢٧٠ م] تقول : «عندما يسمع الرجل العامى أن الشريعة المسيحية قد أسيء إلى سمعتها ، فإنه ينبغى ألا يذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه ، الذى يجب عليه أن يطعن به الكافر فى أحشائه طعنة نجلاء» .

● ولقد ظل الإسلام قائما بين «الباشغردية» من أهل المجر حتى سنة ١٣٤٠ م ، حين أرغم الملك «شارل روبرت» جميع رعاياه الذين لم يكونوا مسيحيين بعد ، أن يعتنقوا الدين المسيحى أو يغادروا البلاد .

● وفى سنة ١٧٠٣م جمع «دانيال بيتروفتش D. petrovich الأسقف الحاكم فى ذلك الحين ، القبائل وأخبرهم أن الأمل الوحيد لإنقاذ بلادهم ودينهم ينحصر فى القضاء على المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم . وكان من أثر ذلك أن الذين لم ينقضوا عهد الإسلام وأبوا أن يدخلوا فى المسيحية من مسلمى الجبل الأسود قتلوا فى ليلة عيد الميلاد ، فى ثبات ورباطة جأش .

● وفى روسيا سنة ٩٨٨ م ـ جهر «فلاديمير» Vladimir ـ ملك روسيا فى ذلك الحين ـ بالمسيحية ، وفى اليوم التالى لتعميده ، أصدر مرسوما يقضى بأن يذعن الروس كافة ، سادة وعبيدا ، أغنياء وفقراء للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية . وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس . . ولم يفتح الباب أمام التدين بالإسلام ـ فى روسيا إلا بعد أن صدر مرسوم سنة ١٩٠٥ م الذي ينص على التسامح الدينى . . أما قبل ذلك التاريخ ، فلقد حاولت الحكومة الروسية فرض المسيحية على رعاياها المسلمين فى أوربا ـ بما فى ذلك التتار ـ وكان القانون الجنائى الروسى يتضمن دائما عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الأرثوذكسية ويعاقب كل شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحى إلى الإسلام بتجريده من كافة الحقوق المدنية ، وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثمانى سنين وعشر . .

ولقد دونت الأخبار كثيرا عن دخول الناس فى الإسلام أفواجا ، بعد صدور مرسوم الحرية الدينية سنة ١٩٠٥ م . . ولقد كان أكبر الفضل فى ذلك النجاح للدعوة الإسلامية راجعا إلى مستوى الحياة الأخلاقية فى المجتمع الإسلامى ، الذى

كان أكثر رقيا، كما يرجع أيضا إلى شعور التآخى الذى كان يشيع فى هذا المجتمع، والذى كان أكثر تماسكا وقوة. . وكان هؤلاء الذين أسلموا يلقون فى قراهم عنتا واضطهادا بتسميتهم «الكلاب المختونين».

ولقد أخذ الخوف من رجال الكنيسة الأرثوذكسية كل مأخذ، حتى أقاموا جمعية خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بين أهالى القوقاز والأبخازى Abkhazes أملا فى مناهضة النفوذ الإسلامى.

● وفى الحبشة اتخذ الملك «سيف أرعد» [١٣٤٢ - ١٣٧٠ م] - حاكم أمهرة - تدابير صارمة ضد المسلمين فى مملكته، تقضى بإعدام كل من أبى الدخول فى المسيحية أو نفيهم من البلاد. . وقد قيل إن الملك «بثيد ماريام» [١٤٦٨ - ١٤٧٨ م] قضى الجزء الأكبر من حكمه فى محاربة المسلمين الذين كانوا يقيمون على الحدود الغربية من مملكته. . وقد كان على مسلمى «هدية» أن يدفعوا جزية أخرى للملك، وهى أن يعطوه فى كل سنة بنتا ينصرها له، وجرت هذه العادة فى بلدهم بمقتضى معاهدة كان ملك الحبشة يحكم دائما بها. . ثم إنه حكم عليهم ألا يلبسوا عدة الحرب ولا يمسكوا السيف، ولا يركبون خيولهم بالسروج وإلا قتلهم وخرب مساجدهم. . ولقد كانوا مجبرين على تقديم الأموال إلى رسل الملك، ومعها البنت يخرجونها على السرير، بعد تغسيلها وتكفينها بثوب والصلاة عليها، بحسبانها قد ماتت!.

● وقبائل الجلا والسومال، أدخلوا كرها فى الديانة المسيحية. . أرغمهم ملك الحبشة على انتحال المسيحية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

● وفى سنة ١٨٧٨ م - بعد حرب [١٨٧٥ م] بين الحبشة ومصر - عقد الملك الحبشى «جون» مجمعا يضم رجال الكنيسة الحبشية، ونادوا به حكما أعلى فى المسائل الدينية، فقرر وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء المملكة. وأُعطى المسيحيون على اختلاف طوائفهم، ما عدا اليعاقبة، مهلة عامين ليصبحوا فيها متفقين فى الرأى مع كنيسة البلاد، وألزم المسلمون بالتسليم فى خلال ثلاث سنين، والوثنيون فى خلال خمس. وأذاع الملك مرسوما بعد ذلك بأيام قليلة،

أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث التى مُنحها المسلمون كانت قليلة الأهمية، وذلك أنه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس مسيحية متى كانوا فى حاجة إليها، ودفع العشور للقساوسة الذين فى مقاطعاتهم الخاصة، بل إنه أنذر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا فى خلال ثلاثة أشهر بين قبول التعميد أو التخلى عن مناصبهم. وكان مثل هذا التنصير الإجبارى عديم الأثر بطبيعة الحال، ففى الوقت الذى تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا فى الخفاء يؤكدون ولاءهم للإسلام.

وفى هذه الحملة أرغم الملك جون سنة ١٨٨٠ م ما يقرب من خمسين ألفا من المسلمين على التعميد . . كما أجبر عشرين ألفا من أفراد إحدى القبائل الوثنية . . ونصف مليون من قبائل الجلا على اعتناق المسيحية . . »[(١)] .

---

(١) [الدعــوة إلى الإســلام] ص ٣٠ـ٣٢، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤ ـ ٢٧٦، ٢٧٨ـ٢٨١، ٢٨٣، ١٢٢، ١٣٥، ١٣٦، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٧، ١٤١ـ١٤٣.

-٢-

أما الشهادة الغربية الثانية، فإنها - هى الأخرى - لعالم غربى مرموق، هو حجة فى تخصصه العلمى، وفى مكانته بين علماء الاستشراق، وفى الآثار العلمية التى أبدعها . . إنه العلامة «دافيد دى سانتيلانا» Devid de suatillana [١٨٤٥ - ١٩٣١ م].

وهو مستشرق إيطالى، ولد بتونس وتخرج من جامعة روما وأحرز درجة الدكتوراه فى القانون . . ولقد تفقه - إلى جانب القانون الرومانى والقوانين الغربية - فى الفقة الإسلامى، وخاصة فى مذهبى الأمام مالك [٩٣ - ١٧٩ هـ ٧١٢ - ٧٩٥ م] والإمام الشافعى [١٥٠ - ٢٠٤ هـ ٧٦٧ - ٨٢٠ م]. وذلك إلى جانب تاريخ الفلسفة . . والتاريخ الإسلامى . .

وهو الذى درّس ووضع القانونين المدنى والتجارى لتونس، وفق قواعد الشريعة الإسلامية، وبالاتساق مع القوانين الأوربية - فى حقبة الاستعمار الفرنسى لتونس - سنة ١٨٩٦م - . . كما درّس تاريخ الفلسفة الإسلامية واليونانية والسريانية - باللغة العربية - فى الجامعة المصرية الأهلية - سنة ١٩١٠ م - . . ودرّس فى جامعة روما التاريخ الإسلامى، وتاريخ الجمعيات الدينية الإسلامية.

ومن آثاره الفكرية - غير محاضراته -: [ترجمة وشرح الأحكام المالكية] و[الفقة الإسلامى المالكى ومقارنته بالمذهب الشافعى] - فى نحو ١٣٠٠ صفحة - و[القانون والمجتمع] - فى المقارنة بين الفقة الإسلامى والقوانين الأوربية . . و[القوانين المدنية والتجارية] - سنة ١٨٩٨ م - وهو مصنف كبير وبحث جامع لفقه الحقوق الإسلامية . . وله أيضا: [ملخص ابن الإنسان للشيخ طنطاوى جوهرى] و[الخلافة والسلطان فى الشرع الإسلامى] . . كما ترجم الجزء الثانى من كتاب [مختصر

خليل] - فى الفقة المالكى - لابن إسحاق - وفيه مجموعة الأحكام المالكية الأكثر شيوعا فى الحقوق المدنية والجزائية - مع تعليق عليه سنة ١٩١٩م.

* * *

وهذه الشهادة، التى نقدمها هنا لهذا العالم الحجة، تؤكد على تميز الإسلام - الدين . . والشريعة - عن الأديان الأخرى، فى :

أ - أن الإسلام دين ودولة، دون أن تكون دولته كهانة كنسية، تحكم بالحق الإلهى، كتلك التى عرفتها الحضارة المسيحية فى أوربا إبان عصورها الوسطى والمظلمة.

ب - وأن الشريعة الإسلامية متميزة بالقانون الجامع بين الأحكام وبين منظومة القيم والأخلاق الدينية، والرابط بين المنفعة والمصلحة الدنيوية وبين الدين والجزاء الأخروى.

* * *

ونحن نختار هذه الشهادة للعلامة «سانتيلانا» من بحثه عن [القانون والمجتمع] المنشور فى الكتاب العمدة [تراث الإسلام] الذى أشرف على التخطيط له والتأليف فيه العلامة «سير. توماس أرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠ م]. . وهو الكتاب الذى ضم مجموعة من الدراسات العلمية الرصينة التى كتبها أساطين الاستشراق الأوربى عن معالم الحضارة الإسلامية وإبداعات علماء الإسلام . .

فهى شهادة علم من أعلام الفكر - الغربى والإسلامى - نأخذها من مصدر متميز وجامع لشهادات أساطين علماء الاستشراق.

يقول العلامة «دافيد دى سانتيلانا» :

(أ)

الدولة الإسلامية

«إن رأس المجتمع الإسلامى . . يعمل كنائب دولة أو رئيس حكومة . . أو كخليفة الرسول . . وخلفاء الرسول ما هم بوارثى رسالته الروحية (وإن كان يُؤثر عنهم فى الحقيقة صفة النيابة أو الوكالة بتنفيذ رسالته وتعضيد المصالح الدينية والدنيوية للمجتمع الإسلامى) . لقد أبى (أبو بكر) [٥١ ق هـ - ١٣هـ ٥٧٣ - ٦٣٤ م] قبول لقب «خليفة الله» ، واكتفى باسم «خليفة رسول الله» ، ثم درج لقب «أمير المؤمنين» منذ زمن (عمر بن الخطاب) [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] ، فحدد بكل وضوح صفة ممثل السلطة العليا ، الذى هو فى الحقيقة ليس عاهلا - «ملكا» - بل هو (أمير) ، نظرا إلى المدلول الأصلى للعبارة الرومانية : «رئيس الأقران» . .

إن اسم الإمام ، الذى يطابق بمدلوله لفظة antistes أى قائد الصلاة ، بقى حتى الأخير عنوانا لأعظم وأسمى صفة فى العاهل الإسلامى ، وبكلمة أخرى ، كانت وظيفته الدينية أصل جميع وظائفه الأخرى وهى فى الشريعة الإسلامية : (العدل ، الجهاد ، الجباية ، تحكيم العادات والتقاليد) .

فإذا ذكر الكُتّاب لفظة «الإمام» غير موضحة فإنهم يقصدون أمير الدولة مطلقا ، ويريدون مصدر جميع السلطات التى تُصرّف شئون المملكة كافة باسمه . وليس فى هذه الأمور ما يضفى على الخليفة صفة القداسة أو يَسمُه بميْسَم الكنهوت ، كما ادعت بهذه السمة هيئات حاكمة معينة فى تاريخ العالم .

والحقيقة هى أن سلطة الخليفة - كرئيس دينى - لا يمكن أن تعتبر سلطة حَبْرِيَّة أو بابوية مثلا . فهو متجرد تماما من صفة الكهنوت . لأن حكومة المسلمين ما كانتَ فى أى زمن أو ظرف حكومة دينية hierarchy ولم يوجد فيها تعاقب رسولى ، والإمام

فى سلطانه الدنيوى ليس سيدا (ربا) . . فالأمير : وكيل جماعة المسلمين وأعماله تستمد قوتها وقانونيتها من المبدأ القائل إن الأمير يجب أن يضع نصب عينية مصلحة المجموع . فلهذه الغاية «أُمِّر الأمراء على الناس» . وكما يجب أن يقدم الوكيل حسابا صحيحا على ما أنجزه لموكِّله وسيده ، كذلك يتحتم على الخليفة أن يسترشد بالله . . » .

❊ ❊ ❊

«الزعيم والشعب ، الإمام والجماعة ، اصطلاحان بسيطان يجملان كل النظام السياسى الإسلامى ويفسران معنى الدولة كذلك . إنه تمثيل الدولة وسلطة الحكومة التنفيذية متمركزا فى شخص الخليفة الذى تحتم عليه وظيفته أن يمارس تلك السلطة عندما يكون القانون واضح المدلول صريحا . فهو من هذه الناحية لا يملك أية مقدرة على تحوير القانون ، بل هو مضطر إلى تطبيقه بحذافيره كما فى الأحوال التى لا يسوِّغ القانون للقاضى أن يجتهد . لكن حريته فى فض القضايا التى لم يرد فيها نص هى حرية غير محدودة ، لأنه ليس وكيلا عاديا ، بل محل ثقة ، كما وأن تنفيذ القانون موكول إليه بصورة خاصة . وبجانب حريته هذه فى التصرف القضائى ، تمتد سلطته إلى شئون عديدة عامة أخرى ، كإدارة دفة الحرب وتقسيم الغنائم ، وفرض الضرائب على الأموال وصرف أموال الدولة فى شتى الوجوه ، وتعيين العمال (الحكام) والموظفين . . » .

❊ ❊ ❊

«إن الرابطة التعاونية الموجودة بين الخليفة والشعب تبقى متينة وثيقة العرى ما دام الخليفة صالحا للقيام بواجبه فى حماية المجتمع الإسلامى ، فاذا لم يعد أهلا لمنح شعبه ما يريده منه ، بطل سلطانه وفسخ العقد شرعا بين المتعاقدين . ويتم هذا الفسخ والإلغاء عند العجز الجسمانى أو عند فقدان الحرية ، كوقوع الخليفة أسيرا فى يد المشركين والكفار . . » .

❊ ❊ ❊

«إن اختيار رئيس المجتمع الإسلامى لا يمكن تركه للظروف والصدف أو لأعمال العنف والطغيان. بل يجب أن يجرى انتقاؤه بعد التفكير الملىّ والتأمل الحكيم الناضج، وتقوم بانتقائه تلك الصفوة المنتخبة من أهل الرأى، الذين هم وحدهم يقدّرون أن المرشح للخلافة صالح لملء هذا المنصب الجليل أم لا؟.

فلا يمكن أن يكون مجموع الناخبين أمة المسلمين كلها. إن الناخبين هم أولئك الذين عُرفوا بعلمهم ومنزلتهم وتجاربهم فى أمور الدين والدنيا، وبأخلاقهم المتينة، هؤلاء وحدهم يصلحون لأن يكونوا المحكمين فى هذا الشأن وإليهم، أى إلى رجال السيف والقلم، يرجع أمر انتخاب الإمام، وأعنى بهم مشاهير الشخصيات المدنية والعسكرية، أصحاب الحل والعقد. هؤلاء مخولون باسم المجتمع كله أن يشترطوا بالاشتراك شكل الرباط أو الواجب الذى تنبثق منه سلطة الأمير، ويعينوا مقدار الطاعة الواجبة له من الرعية.

إن الانتخاب فى عرف القانون، إنما هو الفعل الذى يمنح به الشعب السلطة العليا لفرد ما بملء اختياره، ويتم هذا المنح بوساطة مشاهير رجاله نيابة عن مجموعه. إنه عروض للتعاقد (عُقاد) فإذا قبل به الشخص (المُنْتَخَب) أصبح (عقدا). . »[١].

---

(١) سانتيلانا: [القانون والمجتمع]-كتاب [تراث الإسلام] ص ٤٢٤-٤٢٧، ٤٢٢، ٤٢٣. ترجمة جرجيس فتح الله. طبعة بيروت-الثانية-سنة ١٩٧٢ م.

(ب)

الشريعة الإسلامية .. والقانون الإسلامى

«فى الإسلام، حل الله محل الآلهة البائدة الزائفة، وصار سيدا وحاميا لشعبه المختار، أمة المسلمين. عندما أسلم أحد شيوخ القبائل فى الجاهلية، بادر النبى بقوله:

ـ «أنت ربنا».

ـ فأسرع محمد يجيبه: «ربك الله».

فالإسلام هو دولة الله المباشرة، هو حكم الله الذى يرعى شعبه بعينه ويكلؤه بحسن تدبيره. . إن أساس الوحدة الاجتماعية، المسمى فى المجتمعات الأخرى «بولس» polis و«كيفيتاس» Civitas (أى حكومة) يمثله (الله) عند الإسلام. فالله هوالاسم الذى يطلق على السلطة العاملة فى حقل المصلحة العامة. وعلى هذا المنوال يكون بيت المال (هو بيت مال الله) والجند هم (جند الله). حتى الموظفون العموميون هم (عمال الله). .».

* * *

«وعبثا نحاول أن نجد أصولا واحدة تلتقى فيها الشريعتان الشرقية والغربية (الإسلامية والرومانية) كما استقر الرأى على ذلك. .

إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلا. وقد يحصل فى العادة خلط بين ناحيتين، فالإسلام كالمسيحية أو كأى دين آخر له عقائد

مخصوصة ينفرد بها، مما لا يمكن بالطبع أن يعرّضها أولئك الذين نزلت فيهم إلى النقد والبحث. ولكن من الظلم والتجنى أن نصمها بالجمود والشدة، كما لو ألصقنا بالمسيحية التهمة نفسها، إذ يوجد فى أى نظام دينى عظيم الخطر جليل الشأن شيء أكثر من محض العقيدة..».

❊ ❊ ❊

«**أسس المجتمع الإسلامى**: وهى القانون الإلهى (الشريعة). إن طبيعة هذه الجمعية الملتفة حول الدين والمستكنة تحت حكم الله، هى التى تحدد معنى الفقة والقانون، وهى بالنظر إلينا وإلى الأسلاف: مجموعة من القواعد السائدة التى أقرها الشعب، إما رأسا أو عن طريق ممثليه، وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم.

إلا أن التفسير الإسلامى للقانون هو خلاف ذلك، فإن صح أن الله هو رأس المجتمع الإسلامى وسائسه الأعلى، فالقانون لا شيء أمام إرادته. والقاعدة القانونية هى القاعدة التى يطبقها المشترع الأعظم (الله) على شعبه المختار. والخضوع لهذا القانون إنما هو واجب اجتماعى وفرض دينى فى الوقت نفسه. ومن ينتهك حرمته أو يشق عصا الطاعة عليه لا يأثم تجاه النظام الاجتماعى، بل يقترف خطيئة دينية أيضا لأنه «لا حق ثَمّ لما ليس لله فيه نصيب»...».

«فكل مسائل الفقة كان مرجعها الأخير علم الكلام (اللاهوت)..

❊ ❊ ❊

«**الإيمان الصحيح**: هذا القانون أو الشريعة التى توزع العدالة بالقسطاس على الجميع بلا تفضيل، تستند إلى الإيمان القويم أساسا. فعلى المسلمين أن يفوا بالعهود التى يقطعونها على أنفسهم، وليس لهم أن ينتفعوا بمال مسلم آخر لم يُجِزْهُم..».

«وهذا التفسير للإيمان القويم إنما هو تفسير خُلقى أدبى بصورة جوهرية، حتى إنه

ليـرتفع إلى فكرة «المطلق» ومبـدأ «الدوليـة». ومن المدهش أن يكون ذلك أقـرب لفـهمنا من التـفسير الألمانى الإقطاعى للإيمان الصحيح ذلك التفسير الذى يرى الإيمان منبثقا من الولاء والخضوع الشخصى، ولذلك فإن شريعة الإسلام تفسح أوسع المجال لتحكيم الإرادة البشرية، وتعلق أعظم الأهمية على القصد القانونى، لاعلى نص القانون الحرفى. إن إرادة البشر كافية مهما كانت لخلق رابطة قانونية، ولكن قلما كان بطلان أوصحة أى مبدأ قانونى مرهونا بأمر شكلى أو بنص حرفى فى الشريعة الإسلامية. يتجلى ذلك بمقارنته بما لا يُحصى من القواعد الشكلية فى قوانين الجرمان فقاعدة «الرضا فى العقود يجعلها ملزمة» هى قاعدة جوهرية فى نظر فقهاء القانون. . .».

❊ ❊ ❊

«المساواة: تحريم الربا بأى شكل كان، النفور من كل أنواع المضاربة، بطلان أى اتفاق أو عقد غير مؤكد النتيجة. كل هذه المميزات فى الشريعة الإسلامية انبثقت من هذا الأصل وبنيت على المبدأ العام (المساواة). وبكلمة أخرى: تكون العدالة رائدة المساواة فى كل مرحلة من مراحلها. والافتئات عليها إنما هو ضرب من المستحيل.

ولقد اعتاد الفقيه القانونى أن يضع نصب عينيه تثبيت كفتى الميزان كلما رجحت إحداهما على الأخرى. أعنى إلغاء وخنق كل محاولة ترمى إلى تطبيق النص الحرفى مدفوعا «بخدمة العدالة» كما جرى علماء القانون عندنا على تسميته . .».

❊ ❊ ❊

«. . ومن بين المسائل القانونية التى غنمناها من الشريعة الإسلامية، الأنظمة القانونية الخاصة بالشركة المحدودة (القيراط) وبعض المصطلحات القانونية الفنية فى قانون التجارة. وإننا لو ضربنا صفحا عن كل ما تقدم، فلا شك أن المستوى

الأخلاقى الرفيع الذى يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية، وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقى على مر الدهور . . ».

* * *

«أيكون معنى أن الشريعة الإسلامية مرجعيتها دينية، أن الفكرة الدينية قد أعاقت تطور القانون الإسلامى؟ . .

هذا الاستنتاج ليس إلا سوء فهم لتلك الوحدة الفكرية التي يتمثل فيها مصدر قوة الإسلام الرئيس. إن علم القانون ليس إلا جزءا من علم الكلام (الثيولوجيا)، وربما كانت الشريعة الإسلامية قد صرحت بالثيوقراطية أكثر من الشريعة المسيحية بمقارنتها مع الحكم المدنى، ولكن يجب ألا ننساق كثيرا وراء هذا التفسير، فلو ازددنا تأملا لوجدنا أن ما ذهبنا إليه هو المعنى الذى قصده فقهاء المسلمين.

إن الفارق بين حقوق الله وحقوق العباد ليس فيه من معنى أكثر من الفارق بين القانون العام والقانون الخاص. وللفكرة الدينية بلاريب أثر عظيم، ولكن ليس بالمقدار الذى يظنه المرء. هذا التأثير مستمد من الصبغة الأخلاقية التى تسود القانون، أى من العلاقة التى تقترب غالبا لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدا تاما. فأحكام الشركة والقرض وشروط الشهادة وعلاقة العبد بالسيد وعلاقة المدعى والمدعى عليه، وكل اتفاق أو عقد يتهيأ فيه موضوع علاقة قانونية ذات صبغة أخلاقية لهو أسمى درجة من أن يكون محض منفعة. فالرهن مثلا شكل من أشكال المعونة المتبادلة، لأن المرتهن يعين المالك على الاحتفاظ بملكة ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢). وفى الحديث: «الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه». رواه الإمام أحمد.

«وهكذا ترسم الأخلاق والآداب فى كل مسألة حدود القانون، وبذلك جاء الحديث النبوى: «ما ليس لله فيه سهم ليس للمرء فيه حق». وسهم الله هو إرادته

فى منحه كل شخص ما يستحقه، وليس له أن يجور على ما يعود لغيره. وإنا لنجد أنفسنا أخيرا وقد بلغنا مرحلة «الحق المطلق»، الذى هو أساس المجتمعات المتمدنة قاطبة..»

❊ ❊ ❊

«إن الفقه حقيقة اجتماعية، يتعلق قسم منها بالفرد وقسم بالمجتمع، فكل شيء لا ينضوى تحت لواء المنافع الشخصية يطلق عليه اسم (حقوق الله)، لأن الله فى الشرع الإسلامى يقوم مقام سلطة المدينة Civitas وهو المبدأ الرومانى القديم. ومن الحقوق الإلهية، القوانين المتعلقة بالعتق والوصاية والأنكحة وصلة الرحم وقانون الجزاء وتحريم الربا. هذه القوانين لا يمكن التغاضى عنها أو التقليل من شأنها لأنها متعلقة بمصلحة المجموع، أو بتعبير أصح «بالنظام العام»، وهى خارجة عن إرادة الفرد.

أما القسم الثانى من الحقوق، وهى الحقوق المتعلقة بالفرد وشئونه الخاصة فتسمى «بحقوق العباد». فإذا جعلنا الحرية نقطة البدء (الحرية هى أولى القواعد فى الشرع الإسلامى) وجدنا فقهاء المسلمين قد وصلوا إلى هاتين النتيجتين:

١ ـ نجد الحرية حدودها فى طبيعتها نفسها، لأن الحرية المطلقة معناها فناء البشرية. والحدود التى تقف عندها الحرية هى ما اصطلح على تسميته: بالقواعد القانونية (الشريعة).

٢ ـ ليس فى هذه الحدود اشتطاط أو غلو، لأن الغاية المتوخاة من فرضها هى المنفعة والصلاح والخير بأعظم ما يستطيع الفرد أو المجموع أن يجنى منها تلك المنفعة ـ وهى الغاية التى تهدف إليها الشريعة ـ إنها أيضا محدودة ومقيدة.

إن لمحة خاطفة نلقيها على مختلف الأنظمة القضائية، قد يكون لنا فيها بعض العون على تعريفنا بالقواعد العملية لهذه الشريعة.

لما كان الفرد خليفة الله فى أرضه، فقد وهبه خالقه ملكات تدرك الحقوق

وأسماها حق المرء - بوصفه فردا - فى السلامة والحرية . فالحرية هى الحق الطبيعى لكل مخلوق بشرى، أما الرق فهو استثناء لتلك القاعدة «كان آدم وحواء وكلاهما حر» . . من هذا المبدأ استخلص الفقهاء المبادئ العديدة . .

فللمرء أن يقتنى ما يشتهى، ويصنع بما له ما يريد . لأن متاع الدنيا جميعه خُلق لاستعمال البشر وانتفاعه . ولكن الله، مقرر حق الملكية والحيازة، وضع لهذا الحق حدا، وأتاح الفرصة لكل أمرئ فى معرفة المقدار المخصص له من مصادر الثروة العامة، صيانة للنظام الاجتماعى .

لكن يخطئ من يظن أن الملكية - باعتبارها حقا - إنما هى غير محدودة، فهى فى الواقع تجد حدودها فى طبيعتها نفسها، أو فى الهدف الذى تسعى إليه .

إن الله وهب المرء متاع هذه الدنيا ليصلح بها حاله ويكفى حاجته، وبمعنى آخر ليحسن الانتفاع به لا ليبدده أو ليبعثره نزولا عند أهوائه ونزواته الطارئة .

فلو نظرنا إلى الشريعة الإسلامية المستوحاة من القرآن الكريم والعُرف لوجدناها تتجاهل ما يسمى «بحق الاستعمال والتمتع» فهى ترى فى كل صرف لا نفع فيه تبذيرا، وهو إثم بالنتيجة . فالسفه فى نظر الشريعة هو نوع من الخلل العقلى يحجر على كل مبتل به شرعا . هذه الشريعة حريصة على الاعتدال والقسط فى كل شيء واتباع الطريق الوسط فى إنفاق الثروة، لكونه يتفق تماما مع حكمة الشارع وطبيعة الشريعة من حكمة الله فى إغداق آلائه ونعمه على البشر . . . » .



«ومما لا مراء فيه أن الشريعة لم تتدخل فى جميع التفاصيل . حسبها أن تتناول عددا معينا من القضايا ذات الطابع القانونى البارز فتبحثها وتشرحها . وقديما قال المشترعون الرومان : «إن قوة القانون هى فى الأمر والنهى والسماح والعقاب» . على أن الشريعة الإسلامية، ذات الطابع الدينى، لم تلبث أن أضافت مبدأين قانونيين إلى ما سبق ذكره، وهما : المقبولات والمستهجنات . فإذا أسقطنا القسم

العقابى من الشق الأول وأضفنا إليه المبدأين الجديدين، تم لدينا أوجه خمسة للقانون السائد بشكله التام.

إن هذه المبادئ القانونية، على تعدد أشكالها، تئول إلى غاية واحدة هى الرفاه العام (المصلحة). لذلك فليس لهذا القانون: الإلهى مصدرا والبشرى هدفا، إلا سعادة البشر ورفاهه. والعين النافذة لا يمكن أن تخطئ رؤية هذه الغاية وإن شق عليها أن تتوضحها لأول وهلة.

إن القانون السائد (الشريعة)- ومعناها بالعربية: «الطريق القويمة»- هو نظام لضروب أشكال النشاط البشرى الذى يهدف إلى تيسير الحاجات الدنيوية».

* * *

«إن الشريعة الجديدة ألغت القيود الصارمة والمحرمات المختلفة التى فرضتها شريعة موسى على اليهود، ونسخت الرهبانية المسيحية، وأعلنت رغبتها الصادقة فى مسايرة الطبيعة البشرية، والنزول إلى مستواها واستجابت إلى جميع حاجات الإنسان العملية فى الحياة..

«يسّروا ولا تعسّروا» تلك هى التعاليم والأوامر التى كان النبى يبلغها إلى من «أرسل إليهم». و﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

إن للإسلام بعض الميل إلى الصوفية، ولكن لا إلى الزهد. وبعبارة أحلى، إنه لا يقر تعذيب النفس وإماتتها بالتقشف وبسائر الوسائل الأخرى التى تضعف البدن وتكبت الغرائز البشرية الطبيعية. إنه يحض المؤمن على التمتع بـ[الطيبات] التى أنعم الله بها عليه، شريطة أن يقيم الحدود ويخضع للسنة التى وردت فى القرآن، وهى ليست بالكثيرة ولا بالصارمة.

إن الشريعة الإسلامية تحبذ كل نشاط عملى مجد، فهى تشجع الزراعة والتجارة وكل أنواع العمل، وتعزر أولئك الطفيليين الذين يعيشون على كواهل غيرهم،

وتحتم على كل فرد أن ينفق على نفسه من كدحه وكسبه، ولا تحتقر أى عمل متى أغنى صاحبه عن غيره وكفاه ذل السؤال .

يقول «رينان» [١٨٢٣ - ١٨٩٢ م] : «الإسلام هو دين الإنسان» فروح الشريعة الإسلامية تتسم بطابع جلى، هو إفساح أرحب المجالات للأعمال البشرية» .

* * *

«ولما كان الشرع الإسلامى يستهدف منفعة المجموع، فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة خلافا لشريعتنا - [الرومانية] - من بعض الوجوه. ثم إنها علْم ما دامت تعتمد على المنطق الجدلى الديالكتى وتستند إلى اللغة . إنها ليست جامدة، ولا تستند إلى مجرد العرف والعادة، ومدارسها الفقهية العظيمة تتفق كلها على هذا الرأى . فيقول أتباع المذهب الحنفى : إن القاعدة القانونية ليست بالشىء الجامد الذى لا يقبل التغيير إنها لا تشبه قواعد النحو والمنطق، ففيها يتمثل كل ما يحدث فى المجتمع بصورة عامة، وهى تتغير بتغير الظروف والأحوال، والقانون أيضا عرضة للتبديل والتغيير نظرا للاستعمال والتطبيق . وتتفق المالكية مع الحنفية فى هذا الصدد، ويقولون : «المنفعة هى مبدأ الفقهاء والمشترعين» . ولقد أدرك العرب بوضوح تام سر هذه المرونة، وهو الاستعمال بلاريب . فالمجتمعات بوصفها أعضاء حية تعترضها فى حياتها تغييرات مستمرة . . » .

«إن أسس السلطة العظيمة التى منحها الفقهاء المسلمون للعرف والعادة هذه، إنما هى شكل من أشكال القواعد غير المكتوبة التى تكمن فيها القدرة على صنع القانون وتبديله وتحويره «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن» فعندما يكون هذا الاستحسان (الاستعمال) ثابتا موافقا للنظام العام، غير مخالف للأخلاق الحميدة أو مضاد لقواعد الشريعة العامة، كان له إذ ذاك قوة القانون، لا بل كان الجزء المتمم له . . » .

إن الشريعة لم تقتصر على قبول العرف وحده، بل أخذت تتبعه فى كل تغيراته (القاعدة العامة تقضى بأن تكون الممارسة والعادة مصدر كل قانون، تلك العادة التى لا تتغير إلا بعادة)».

* * *

«تلك هى الميزات التى تسم الشريعة الإسلامية فى كبد حقيقتها. قد نجرؤ على وضعها فى أرفع مكان، وتقليدها أجل مديح علماء القانون، وهو خليق بها.

ومجمل القول، أنها سمت حتى أصبح علينا أن نترسم وجه مقارنة بينها وبين قواعد وإجراءات القوانين الإقطاعية السائدة - [يقصد فى الغرب] - أيام ازدهرت الشريعة الإسلامية.

أما ما يفتقر إليه الشرع الإسلامى، فهو ما كانت تفتقر إليه جميع الشرائع التى سبقتها وعاصرتها وكثير من الشرائع التى لحقت بها، أعنى وجود مسحة من الفوضى وعجز فى التبويب والتنظيم، تلك الأسباب التى أدت بالعرب إلى الضعف السياسى، وكانت فى الوقت نفسه مصدر الضعف الذى تخلل نظامهم القانونى...»[1].

---

(١) المصدر السابق. ص ٤٠٩، ٤٣١، ٤١١، ٤١٢، ٤٣٢، ٤٣٣ - ٤٣٥، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٣٦ - ٤٣٨، ٤١٦ - ٤١٨، ٤١٣، ٤٣٨.

-٣-

والشهادة الغربية الثالثة، المنصفة للإسلام وحضارته ، وثقافته . . بل والمؤكدة على صدقه . . وعلى رقيه وتفوقه على الديانات الأخرى . . هى لواحد من أعمدة الاستشراق المعاصر، وأعمدة الثقافة الغربية المعاصرة: المؤرخ والباحث الإنجليزى، النصرانى الإنجليكانى «مونتجو مرى وات Montgomery,watt وهو محاضر فى اللغة العربية وآدابها . . ومتخصص فى الدراسات الإسلامية الأكاديمية . . وفى علم الكلام الإسلامى . . وفى التاريخ الإسلامى . . وعميد لقسم الدراسات العربية فى جامعة «أدنبرا» . . وحاصل على الدكتوراه فى علم الكلام الإسلامى - بموضوع الكسب والجبر والاختيار . . وصاحب المؤلفات العديدة - ومنها: [عوامل انتشار الإسلام] سنة ١٩٥٥ م . . و[محمد فى مكة] سنة ١٩٥٨ م . . و[محمد فى المدينة] . . و[الإسلام والجماعة الموحدة] سنة ١٩٦١م . . و[محمد: النبى ورجل الدولة . . و[الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] سنة ١٩٦٩م . . إلخ . . إلخ . .

وهذه الشهادة المنصفة للإسلام وحضارته وثقافته . . والمؤكدة على تفوق صدق الوحى القرآنى، قد جاءت ثمرة لدراسات «مونتجو مرى وات» للإسلام - مقارنا بالديانات الأخرى - دراسات استمرت لأكثر من ثلاثين عاما - بدأت سنة ١٩٣٧ م - مع معايشة للواقع الإسلامى . . وحوارات مع العديد من علماء الإسلام . . حتى جاءت هذه الشهادة ثمرة لإبحار هذا العالم المرموق فى بحار الديانات والحضارات والثقافات، فى تاريخها المديد وواقعها المعاصر . . حتى لقد جاءت هذه الشهادة - كما يقول هذا العالم المرموق -: ثمرة لمراحل من التقدم والارتقاء نحو «نظرة حيادية لا تنحاز لأى من الدينين - المسيحية والإسلام - رغم مواصلة العيش على أرض الواقع

المسيحى، ممارسا لما تفرضه المسيحية على من يتدين بها».. مع ما استلزمه هذا الارتقاء وهذه الحيادية من معاناة وتوتر داخلى!.

● وهو فى هذه الشهادة، يتحدث عن:

أ ـ الأهداف المتوخاة من كتابته عن الإسلام مقارنا بالنصرانية . .

ب ـ ويقدم شهادة عالم نصرانى غربى على صدق الوحى الإلهى كما تجسد فى القرآن الكريم . . وعلى تميز الوحى فى القرآن عنه فى التوراة والإنجيل . . وعلى صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ .

ج ـ كما يشهد هذا العالم النصرانى الغربى على ثراء القرآن . . وجدته وأصالته . . وعلى أن جمعه إنما هو جمع إلهى . . وعلى الثقة فى النص القرآنى المتداول بين الناس . . وعلى أن تعدد القراءات لبعض أحرف القرآن لم يؤثر فى وحدة معانى النص القرآنى . . وعلى مركزية القرآن ومحوريته فى الثقافة الإسلامية . .

د ـ كما يشهد للغة العربية ـ لغة القرآن . . ولسان الشريعة الإسلامية ـ باعتبارها لغة حضارة وثقافة راقية ومتميزة . .

هـ ـ ويشهد لعالمية الإسلام . . وتفوقه . . ورقيه . . وبأنه منهاج شامل للحياة .

و ـ ويشهد ـ كذلك ـ على أن انتشار الإسلام، ووراثته للمسيحية ـ فى الشرق ـ إنما يرجع إلى الضعف الذاتى الكامن فى تلك المسيحية، وإلى فشلها فى تلبية احتياجات الإيمان الدينى الذى تطمئن به القلوب . وذلك على العكس من التوحيد الإسلامى، الذى حقق تفوقا لا يُجارى فى هذا الميدان . . وعلى استمرارية هذا الفشل ـ المسيحى ـ فى عصرنا الراهن، والذى يتخذ شكل تراجع المسيحية وتقدم الإسلام .

ز ـ كما يشهد على مكانة الإسلام، وعطائه المتميز فى «دين المستقبل» . . وتفرده ـ دون الأديان الأخرى ـ فى حل مشكلة العنصرية . .

ح ـ وعلى نزعة التعصب فى الحضارة الغربية . . وتمركزها حول ذاتها . .

ط ـ وعلى خطر النظرة العلمانية على القيم والأخلاق.

ى ـ كما يحدد ـ فى شهادته هذه ـ شروط الحوار المثمر بين أهل الأديان.

يشهد «مونتجومرى وات» على ذلك كله، فيقول:

(أ)

• الأهداف:

«إن هدفى الأساسى هو:

• أن أقدم الإسلام بأفضل شكل مبسط للقارئ الأوربى والأمريكى الذى ينظر للأمور بمنظور دينى أو بمنظور علمانى..

وإنى أقصد بذلك أن أبطل مفعول الآثار الباقية من دعايات حروب العصور الوسطى [الحروب الصليبية]. كما أنى حاولت أن أجعل القارئ يتحقق، على نحو أفضل من ذى قبل، من أهمية الإسلام، التى تجلت طوال مئات السنين التى أعقبت حروب العصور الوسطى هذه.

• والهدف الثانى: هو أن أوضح للمسلمين أن الدارسين الغربيين ليسوا بالضرورة معادين للإسلام كدين بل إنه من الممكن أن نجمع بين هذه الاتجاهات..» [1].

(ب)

الوحى القرآنى:

«إن جزءا من أهداف هذه الدراسة هو تعريف المسيحيين بمفهوم الإسلام للوحى،

---

(١) مونتجومرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ٢٣. ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. طبعة القاهرة ـ مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠١م.

وتعريف الذين لم يدركوا منهم حتى الآن أن الوحى الإسلامى مسألة لا بد من تناولها بجدية..

إن القرآن الكريم ليس بأى حال من الأحوال كلام محمد، ولا هو نتاج تفكيره، إنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محمدا ليس أكثر من «رسول» اختاره الله لحمل هذه الرسالة إلى أهل مكة أولا ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربى مبين، وهناك إشارات فى القرآن إلى أنه موجه للجنس البشرى قاطبة، وقد تأكد ذلك عمليا بانتشار الإسلام فى العالم كله، وقبله بشرٌ من كل الأجناس تقريبا.

وهذه الفكرة نفسها عن «الوحى» اعتنقها مسيحيون كثيرون عبر القرون، فاعتبروا كلمات الكتاب المقدس هى كلمات الله نفسه، إلا أنهم ـ عادة لا يفترضون أن كلمات الله قد جلبها مصدر خارجى ممثل فى ملك أو ملائكة يملونها على كُتّاب الأناجيل، وإنما يُلقَى فى روع هؤلاء الكتّاب أن ما يكتبونه إنما هو كلام الله حقا. فالأنبياء الوارد ذكرهم فى العهد القديم يعلنون دون تردد: «هكذا يقول الرب..» لذا فلا بد أنهم كانوا يعتقدون أن ما ينطقون به من كلمات إنما هو بمعنى من المعانى كلمات الله حقا..

إننى أعتقد أن القرآن بمعنى من المعانى صادر عن الله، وبالتالى هو وحى..

وكما رأى المسيحيون أن تاريخهم شهد «حوارا» بين المسيحية وبين العلمانيين المناهضين للدين، فإن هذا يعنى أنه من المستحيل الاستمرار فى الأداء بوجود «وحى» أو «رسالة» أو «ديانة» مسيحية دون الاعتراف «بشىء» من الصحة «للوحى» أو «الرسالة» أو «الديانة» الإسلامية..

والمنهج الذى أتخذ فى هذه الدراسة، هو أن أصل بقدر ما أستطيع إلى مستوى الحقيقة الخالصة، ولن أتعرض للقرآن باعتباره من إنتاج محمد، وإنما باعتباره وحيا..

* * *

كيف وصلت هذه الكلمات التى كوّنت التجربة الأولى إلى وعى محمد أو شعوره؟

إننا نؤمن بصدقه وإخلاصه عندما يقول إنها ليست نتيجة أى تفكير واع منه.

إن التجربة النبوية مع الوحى يمكن إيجاز ملامحها الرئيسية فيما يلى:

١ ـ محمد يشعر، وهو فى حالة وعى، أن هناك كلـمات بعينها تلقى فى روعه أو تحضر فى قلبه أو عقله الواعى.

٢ ـ وأن هذه الكلمات والأفكار لم تكن أبدا نتيجة أى تفكير واع من جانبه.

٣ ـ أنه يعـتقـد أن هذه الكلمـات قـد أُلقيـت فى روعه (عـقله) من قـبل «مندوب» أو «مبعوث» خارجى يتحدث إليه كملَك.

٤ ـ أنه يعتقد أن هذه الرسالة قادمة من الله تعالى.

هذه الملامح الأربعة الـرئيسيـة موجودة فى كل حـالات الوحى كمـا وردت فى القرآن الكريم.. إن الكلمـات المنزلة على مـحـمـد كانت تحـضـر فى عـقله الواعى، وإن تفكيـره الشخصى لم يكن له دور فى ذلك، وإن يقينا جازما كان يتملك فؤاده أن هذه الكلمات هى من الله..

لقد وجد محمد الكلمات أو المحتوى الشفهى حاضرا فى وعيه، فلما تمت كتابته شكّل النص القرآنى الذى بين أيدينا. وكان محمد واعـيا تماما أنه لا دخل لتفكيره الواعى فى هذه الرسالة القرآنية التى تصله، وبتعبير آخر فقد كان يعتقد أنه يمكنه أن يميز(أو يفصل) بين هذه الرسالة القـرآنية وبين تفكيـره الواعى ... الأمر الذى يعنى أن القـرآن الكريم لم يكن ـ بأية حال من الأحوال ـ نتاج تفكير محمد. وهذا يعنى أنه سيكون من الخطأ أن نقول، فى مجال حديثنا عن آيات القرآن الكريم: إن محمدا قال...

إلا أن بعض الدارسين الأوربيين فى الماضى تحـدثوا كمـا لو أن محـمدا قد فـعل ذلك، وهذه الطريقـة فى الحديث تدعو للأسف. فـهى طريقة غـير علميـة، لم تضع فى اعتـبارها الملامح الأساسية الظاهرة لتجربة محمد فى تلقى الوحى..

لكن فى مجتمعنا المعاصر، الذى يسـوده جو التداخل بين الأديان، يحسن بغير المسلمين أن يتجنبوا الحديث والتفكير على هذا النحو..

إن القرآن لا ينبغى النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية..

وعندما تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسورة من مثل السور التى أُوحيت إليه، كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدى، لأن السور التى تلاها محمد هى من عند الله، وما كان لبشر أن يتحدى الله، وليس من شك فى أنه ليس من قبيل الصدفة أيضا أن كلمة (آية) تعنى علامة على القدرة الإلهية وتعنى أيضا فقرة من الوحى..

* * *

ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم فى حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التى ألقاها الله إليهم عن طريق محمد، تماما كما فعل «ورقة بن نوفل» [١٢ ق.هـ ٦١١ م] (الذى أفادت الروايات أن استجابته كانت إيجابية لمحمد). ومن هنا يمكن أن نقول: إن إشارة القرآن إلى (تحريف) لحق اليهودية والمسيحية ـ وبصورتهما الموجودة أيامه ـ قول صحيح.. »[١] .

(جـ)

ثراء القرآن .. وجدته .. وأصالته .. وحفظه .. ومحوريته فى الثقافة الإسلامية:

«ثمة عدة نقاط تعد بمثابة عناصر أصالة وتميز فى القرآن، نظرا لأن فكرة الوحى وتلقى الرسالة قد تطورت فى القرآن ..

إنه إذا اكتشفنا شيئا من عدم التناسق المنطقى inconsistency فى القرآن، فهذا دليل على ثرائه وخصوبته، ودليل على سمو مثمر (تجاوز) يعلو فوق الفكر المجرد العاقر، أو غير المجد barren Conceptua lthougnt ومن هنا قد نجد (معنيين) أو (تقريرين) مختلفين inconsistent لأن أحدهما فقط لا يعبر عن الحقيقة بشكل تام ..

لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (مودة) تقديم القرآن للقارئ الأوربى باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة، ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة.

---

(١) المصدر السابق . ص ٣٤، ٣٥، ٣٩، ٤٠، ٢٠٦، ٥١-٥٥، ٨٣، ١٧٠ .

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التى سادت فترة الحروب الصليبية عندما كان على أوربا الغربية ـ التى كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام ـ أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام .

وإذا نظرنا للأمور بعيدة عن سياقها التاريخى، حتى بصدد مجرد المقارنة بين القرآن والتوراة والإنجيل، لوصلنا إلى نتائج خاطئة، وعلى أية حال فافتراض أن محمدا قام بدعوته فى فراغ، أى دون مراعاة لظروف العالم وقتها، فرض غير علمى. عندما ننظر للقرآن والعهدين (القديم والجديد) فى السياق التاريخى، نجد أن الأمور تسير فى اتجاه آخر، أو تصل بنا إلى نتائج أخرى، أو تتخذ ملامح مختلفة، فنبى العهد القديم ـ هو بدوره ـ لم يحدثنا من فراغ عقلى، وإنما راعى الحياة العقلية والثقافية السائدة، وبالمقياس نفسه يجب أن ننظر إلى محمد ودعوته، فالرسالة الأصيلة والجديدة لكل نبى هى تلك الرسالة التى تتواءم مع كثير من الأفكار، وتعبر عن نفسها باستخدام مصطلح هذه الأفكار السائدة، وتتعامل مع القضايا المعاصرة لها..

وهكذا يظهر القرآن أصالته، ولو لم يكن إلا هذه الاستجابة الفعالة لمتطلبات موجودة بالفعل لكفاه دليلا على الأصالة..

لدينا إذن أرضية ثابتة نقف عليها باطمئنان، أن القرآن لم يكن مجرد ترديد لأفكار يهودية ومسيحية وإنما كان به إضافات تتسم بالجدة والأصالة..

يؤكد القرآن الكريم أن الرسالة التى حملها محمد لشعبه كانت هى نفسها الرسالة التي حملها الأنبياء الآخرون لشعوبهم، وعلى أية حال، فإن هذا التماثل ينطبق على أساسيات الرسالة كالإيمان بالله واليوم الآخر وبالأنبياء والملائكة والكتب المنزلة .. وحتى الأفكار التى اشترك فيها الإسلام مع اليهود والمسيحية، فإنها قد اتخذت شكلا عربيا واضحا..

إن القرآن كان يمهد لانتقال مرن ناعم من الصور الراقية لأديان موجودة بالفعل لدين جديد (الإسلام).. على أن تفحص العلاقة بين القرآن والبيئة المكية أو العربية عامة، يوضح لنا بجلاء أن رسالة الإسلام كانت ملائمة تماما للبشر الذين ظهر محمد بين ظهرانيهم، ولم

تكن مجرد عقائد سابقة (يهودية أو مسيحية).. وثمة ما يؤكد أن الإسلام كان بمثابة مستودع لدين إبراهيم فى مرحلة نقائه الأولى .. إن القرآن يقرر لنا أن الإسلام هو دين مطابق لدين إبراهيم الخالص، وهو قول يستحق النظر إليه بجدية..

❊ ❊ ❊

إن كلمة (جمع) ـ [فى الحديث عن جمع القرآن] ـ قد استخدمت فى آيات قرآنية مهمة ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٦ ـ ١٩) .

ومن الممكن أن يكون التفسير الطبيعى لهذه الآيات أن محمدا ما دام يتبع تلاوة من يتلو عليه (جبريل) فإن الله متكفل بجميع الآيات المتفرقة أو التى أوحى بها فى أوقات مختلفة لجعلها فى سياق واحد.

وإذا لم يكن محمد هو الذى رتب القرآن بناء على وحى نزل عليه، فمن الصعب أن نتصور زيدا ـ [زيد بن ثابت] [١١ ق. هـ ـ ٤٥ هـ ٦١١ ـ ٦٦٥ م] ـ أو أى مسلم آخر يقوم بهذا العمل. ومن هنا، فإن كثيرا من السور قد اتخذت شكلها الذى هى عليه منذ أيام محمد نفسه .. إن القرآن كان يسجل فور نزوله، وقد جمع رسميا حوالى سنة ٦٥٠ م ..

❊ ❊ ❊

ورغم كثرة القراءات، فإن أيا منها لم يؤد إلى جنوح معانى القرآن بحيث تجعلها بعيدة عن المعانى المفهومة من القراءات الأخرى.

والشىء نفسه يمكن أن يقال بشأن المصاحف السابقة على مصحف عثمان، فلم تكن الخلافات بينها وبين مصحف عثمان ذات شأن بحيث تحدث ردود أفعال مختلفة فى المجتمع الإسلامى..

❊ ❊ ❊

ومهما كان الطريق الذى دخلت عن طريقه الثقافة اليونانية فإن المجتمع الإسلامى لم

يقبل منها إلا ما هو مناسب وموائم لنسيج الحياة الإسلامية وللنظرة العقلية للعالم والكون التى يقرها القرآن. وبمرور الوقت تحقق أن حياة المجتمع الإسلامى بشكل عام قائمة على استمرار القرآن وتبوئه مكان المركز أو القطب أو المحور..

ولقد أدت سهولة المواصلات وتطور الاتصالات السلكية واللاسلكية إلى أن أصبح إسلام المناطق البعيدة عن المركز متوافقا ومتوائما مع إسلام المناطق المركزية أو الوسطى..» (١).

(د)

العربية: لغة حضارة وثقافة متميزة:

«إن اللغة العربية ليست لغة صحراوية بالمعنى الضيق للكلمة، فالروايات التى لا تخلو من حقائق تخبرنا عن حياة زراعية باكرة قبل أن تشرع المنطقة فى التصحر، كما تخبرنا عن انهيار نظام الرى فى اليمن وهجرة قبائل مختلفة من هذا اليمن الذى كان سعيدا..

وهذه التجارب لا بد أن نفترض أنها تركت آثارا فى مضامين الكلمات المختلفة، كما أن كثيرا من العرب ارتبطوا بالأعمال التجارية، فقد كان تجار مكة الكبار يتحكمون فى القوافل التى كانت تتجه بانتظام إلى الشام وإلى اليمن، وارتبطت القوافل المتجهة إلى اليمن بطرق التجارة المتجهة إلى جزر الهند والمتجهة إلى شرق إفريقيا، وقد تركت هذه التجارة أيضا بصماتها على اللغة العربية.

وعلى هذا فاللغة العربية قد ارتبطت بوسط ثقافى خاص يمتاز بكثير من الملامح التى تميزه عن الأوساط الثقافية الأخرى. وهذه الحقيقة ذات أهمية كبرى خاصة فى عالم متداخل الأديان إنها تعنى أنه لا وجود لإنسان معيارى standardman أى أن هناك أنماطا كثيرة معيارية يمثل كل نمط منها منطقة ثقافية أو حضارية محددة..» (٢).

---

(١) المصدر السابق. ص ١٠١، ٨١، ٩٨، ٩٩، ١١١، ١١٢، ٦٦، ١٠٤، ١٠٢، ١٠٥، ١١٠، ١١١، ١٦٦، ٦٠، ٦١، ١٢٨، ٦٣، ١٧٦، ١٧٨.

(٢) المصدر السابق. ص ٦٥.

(هـ)

عالمية الإسلام .. وتفوقه ... ورقيه:

«إن الإشارات القرآنية «الخاصة» أو «اللصيقة» بالعرب لا تنفى أنه عالمى النزعة، أو ذو طبيعة عالمية، فالقرآن يخاطب البشر عامة، وليس الإنسان العربى فى الوسط الثقافى أو الحضارى العربى فحسب. وتلك حجة قوية لأن الإسلام قد انتشر بالفعل انتشارا واسعا خارج نطاق الوسط الثقافى العربى بمعناه الضيق أو الأصلى، فاعتنقه أجناس مختلفة من أوساط ثقافية مختلفة..

إن رسالة الإسلام، التى وجهت فى البداية لأهل مكة والمدينة كانت تحمل فى طياتها بذور العالمية أو أنها كانت منذ البداية أو منذ مضمونها الأول ذات أبعاد عالمية..

إن القرآن يحظى بقبول واسع بصرف النظر عن لغته، لأنه يتناول القضايا الإنسانية.

ولقد كان إحكام النظرة العالمية للإسلام (كونه دينا عالمى النزعة) مما جعله يستوعب ثراث المسيحية الباقى بين شعوب الشرق الأوسط التى كانت مسيحية، ومن هنا فقد أصبح المفكرون المسلمون هم حملة الثقافة العقلية لكل المنطقة..».

* * *

«لقد حاولت الحركة التبشيرية ـ [المسيحية] ـ الحديثة أن تخترق مناطق العالم الثقافية التى تسيطر عليها الأديان الأرقى، وقد رغب سكان هذه المناطق فى التكنولوجيا الأوربية، وفى الجوانب المادية من الحضارة الأوربية، لكنهم ـ فى غالبهم ـ فى الوقت نفسه كانوا مرتبطين ارتباطا عميقا بدينهم الذى كانوا يشعرون أنه أرقى من دين الأوربيين. ومن هنا فقد كان نجاح الحركة التبشيرية المسيحية فى هذه المناطق محدودا تماما، فمعظم من تركوا دينهم فى هذه المناطق ودخلوا دين الأوربيين لم يكونوا أصلاء، ولم يكونوا من صلب

التكوين الثقافى الأصلى لبلادهم، وإنما كانوا من جماعات تعيش على هامش ثقافة بلادها، أو كانت لا تحظى بوضع اجتماعى مريح فى نطاق هذه الثقافة السائدة ..

وهناك اهتمام فى الإحصاءات الإرسالية بعدد المتحولين للمسيحية، وبزيادة الأعضاء المنتمين للكنائس المحلية. والمسيحية فى هذا الصدد تختلف إلى حد التناقض مع الإسلام، فرغم أنه دين دعوة كالمسيحية، إلا أنه أقل تباهيا بالداخلين فيه، فالمجتمع الإسلامى يجذب أناسا إلى الإسلام لمجرد قبولهم كإخوة «فى الإسلام» وهذا الاتجاه لا يتخذه إلا أصحاب دين واثقون من دينهم ثقة عظيمة ثقة لا تجعلهم يؤكدونها بالإحصاءات، بينما نجد أن المسيحيين الغربيين يمرون بأزمة ثقة فى النفس..».

* * *

«إن عبارة «إرادة الله أو مشيئته» the will of Cod موجودة فى الديانتين - [المسيحية والإسلام] - لكن ارتباطها بحياة المسيحيين والمسلمين مختلف، فبالنسبة للمسيحى عادة ما تعنى إرادة الله المفهوم المعنوى للإرادة the moralwill كما تجلت فى الوصايا العشر Command ments أو تتجلى فى الفطرة السليمة للفرد (الحدس أو البديهة) (فإرادة الله بالنسبة لى فيما يتعلق بعمل).

بينما نجد أن المسلم يطبقها على كل ما يحدث، فكل ما يحدث إنما يحدث بإرادة الله ومشيئته. ومرة أخرى نجد أن الدين بالنسبة للمسلم يغطى تقريبا كل جوانب الحياة، بينما هو بالنسبة للمسيحى الأوربى العادى لا يغطى إلا جانبا يسيرا منها، مع أن كلمة (الدين) العربية هى المقابل لكلمة .. religiovi الإنجليزية، إلا أن المفهومين مختلفان كما رأينا. لا يمكننا إذن عقد مقارنة، رغم أن الألفاظ واحدة، ومن هنا فليس ثمة معيار أو مقياس Criterion بسيط للفصل بين ما هو حقيقى صادق، وما هو زائف خادع..

* * *

لقد أكد الإسلام نفسه بالفعل كدين مستقل عن الدينين الأقدمين (اليهودية والمسيحية)، ونقول عن حق: إنه بالفعل كان يفوقهما أو أنه فعلا كان متفوقا عليهما، أو أرقى منهما ..» [(١)].

(و)

فشل المسيحية فى الشرق الأوسط:

«إن الجانب المهم فى إنجاز الإسلام فى الشرق الأوسط هو أنه حل محل المسيحية التى كانت محور الحياة الثقافية فى هذه المنطقة. مناطق شاسعة كان سكانها فى غالبهم يشكلون قلب العالم المسيحى فأصبحوا يشكلون قلب العالم الإسلامي. إنه من الضرورى أن نتمعن فى أسباب هذا التغير بعناية.

لقد تحدثنا كثيرا ـ فى هذه الدراسة ـ عن قوة الإسلام. وإذا كان علينا أن نحذو حذو «توينبى» Arnold toynbee [١٨٨٩ ـ ١٩٧٥ م]ـ على أية حال لقلنا إن السبب الجوهرى هو الضعف الداخلى للمسيحية (أو ضعف المسيحية من الداخل، أو كمون بذور الضعف فى قلب المسيحية).

يتعين علينا أن نبحث عن جذور فشل المسيحية بمعالجة موضوع المسيحيين الشرقيين .. إن كثيرين من المسيحيين الشرقيين، خاصة اللاهوتيين منهم، استخدموا أيضا اليونانية فى الكتابات الجادة، لكن طريقة تفكيرهم كانت بشكل أساسى بعقليتهم فى لغاتهم الأصلية (السريانية، القبطية، الأرمنية إلخ)..

وقد أدى الاختلاف فى العقليات إلى اختلاف فى الصيغ اللاهوتية فى قضايا مختلفة، وعندما كانت تطرح هذه القضايا اللاهوتية المختلف عليها أمام المجامع المسكونية (العالمية) كان (اليونانيون) يستبعدون المسيحيين الشرقيين (الناطقين باللغات آنفة الذكر) من حق التصويت. وبمرورالوقت وجد المسيحيون الشرقيون أنفسم وقد اعتبرهم الأخرون هراطقة

---

(١) المصدر السابق. ص ٦٧، ١٠٦، ١٣١، ١٨٨، ٢٢٣ ـ ٢٢٦، ٣٣، ١٩١.

مخـرفين، بل واعـتبـرتهم الإمبـراطورية البيـزنطية طريدى عـدالة ومحـرومين من حمـاية القانون.

وعندمـا تم طرد هذه الطوائف من الكنيسـة المسيـحيـة (للدولة البيـزنطية) قـامت هذه الطوائف بتـأسيس عـقائد تحاشـت فيهـا الهرطقـات الأكثـر خطورة (ما اعـتبـره الأخرون هرطقـات خطيرة)، التى اتهـمـهـم مناوئوهم بها. ولـم يكن هذا كافـيا لرأب الصـدع بين الطـوائف المسيـحيـة، فقـد تنامت لـدى الأطراف المتنـازعـة الرغبة فى عدم التـوحد، ومن هنا كان طرد المسيـحيين الشرقيين من الكنيـسة ومن الـمجامع الـمقـدسة على أساس أنهم (هراطقة) أدى إلى قـيام الـمسيـحيين الشـرقيين بتـأسيس منظمات كنسيـة منفصلة، وأدى هـذا إلى إضعاف المسيـحيين الشرقيين، والجهاز الكنسى الرئيسى (لـلدولة البيزنطية) على السواء .. وهكذا تـحـولت الخلافات اللاهـوتيـة إلى شعارات سيـاسية.. لذا فعندمـا فتح المسلمون سـوريا ومصر رحب بهم السـكان باعـتبارهـم محـررين لهم من سطوة اليونانيين (البـيزنطيين) المـقـوتـين .. وقد لخص «كـريستـوفر داوسـون»Christopher Dawson [١٨٦٧ ـ ١٩٠٠] بعض هـذه النـقـاط بأسلوبه الـموجز الـمـفعم بالمعانـى، عنـدما قـال: «إن محـمدا كـان هو إجابة الشرق على تحـدى الإسكندر» ـ [٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق. م] ـ.. فقد كان مـحمـد هو مؤسس الدولة الإسـلامـية التى سـرعان مـا اتسعت لتـصبح دولة كـبرى (إمبراطورية) أصـبح لها ثقافتـــها الـخاصة وحضـارتها المتـميزة فى مـواجهة الهيلينـستـية بوجه عام.

لقد دخل الإسـلام إذن فى منطقة لم تحـقق فيهـا المسيـحية نجاحا، أو لنقل إنهـا فشلت بالفعل، فالبلاد التى كان يسيطر عليها المسيحيون الشرقيون فى وقت من الأوقات أصبحت الآن بلادا إسلامية عميق إسلامها ..

وعلى أية حال، ففى كل مكان تـحول نسل المسيـحيـين الشرقيين إلى الإسلام، بل لقد تحول عـدد كبيـر منهم أنفسـهم لاسلالاتهم فقط، ولا يمكن أن نـعزو ذلك لمجرد الضـغوط المادية والاجتماعـية، كاعتبار المسـيحيـين فى الدولة الإسلامية مواطنين مـن الدرجة الثانية. ولن يفـهم المسيحى فهـمـا كـاملا ما حدث بالضـبط إلا إذا أُعد لتقبل حـقيقة أن هنا ـ أى فى هذه المنطقة ـ كـانت المسيـحيـة فى وضع أقل (من الديانات الأخـرى) أو بتعبيـر آخر،

ربما كانت المسيحية فى هذه المنطقة تحظى بقبول أقل، ربما حتى من الناحية الروحية، أو على الأقل أنها نظرية مقبولة ظاهريا أن المسيحيين الشرقيين غدوا غرباء إلى حد ما عن المسيحية.

لذا فمن المقبول ظاهريا أن نجد معظم المسيحيين الشرقيين قد تحولوا للإسلام، لأنهم وجدوا فيه تعبيرا عن التوحيد أكثر ملاءمة لعقليتهم الواضحة أكثر مما وجدوا فى المسيحية ..

بل أكثر من هذا، إذ يمكن أن نقول إنه بينما فشلت المسيحية ـ على أساس من المفاهيم اليونانية ـ أن تقدم نفسها للعقول الشرقية، فإن الإسلام ـ على أساس من المفاهيم العربية ـ نجح فى إحراز بعض التقدم بتقديم الأفكار اليونانية. إنها لحقيقة معروفة جيدا أنه فيما بين القرنين التاسع والثانى عشر للميلاد قبل الوسط الثقافى والفكرى الإسلامى كثيرا من الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية..

ومن نافلة القول أن نقول إن هناك الكثير من الثقافة اليونانية نبذه الإسلام تماما، ليس أقله «التراجيديا اليونانية» والإنجازات الكبرى فى الخيال الشعرى، وهذا الإهمال يمكن أن يكون مجالا للتركيز لتوضيح الفارق بين العقليتين ..».

***

«إن تأثير المسيحية الفعلى، أو تأثير جوهر العقلية المسيحية يبدو فى تناقص مستمر رغم محاولات التوسع التى تقوم بها الحركة التبشيرية، وفى الوقت نفسه وجدنا «صحوة» أو «انبعاثا» أو «حركة نهضة» فى معظم أديان العالم الكبرى الأخرى«غير المسيحية»، بل وظهرت أيضا أديان جديدة. إذا رجعنا للإسلام وجدنا زيادة فى عدد معتنقيه فى نطاق منطقته الجغرافية، بل وظهرت حركات دعوة للإسلام فى أوربا ...»(١).

---

(١) المصدر السابق. ص ١٧٩ ـ ١٨٣، ١٨٥ ـ ١٨٨، ٤٥.

(ز)

الإسلام هو الهيكل الأساسى لدين المستقبل:

«فى المستقبل .. ستكون هناك حركة بطيئة ستتمخض فى النهاية عن ثقافة متجانسة للعالم أجمع. وفى مثل هذه الثقافة المتجانسة المنتشرة عبر العالم كله ستكون المقارنة الموضوعية بين الأديان أمرا ممكنا ..

إنه فى الحاضر والمستقبل المرئى، من الضرورى أن نعرف أن الأديان الكبرى لدى كل منها ما يتمم الآخر، فكل دين من هذه الأديان صحيح فى نطاق منطقة ثقافية خاصة، والأديان يكمل بعضها بعضا..

وعلى المدى البعيد ـ بطبيعة الحال ـ من المتوقع أنه سيكون هناك دين واحد للعالم كله، مع وجود اختلافات داخل نطاق هذا الدين الواحد، ويمكن تشبيه هذه الفروق الداخلية بالمذاهب الأربعة لدى المسلمين من أهل السنة، فهم جميعا مسلمون رغم اختلاف مذاهبهم.

ومعظم المسيحيين يميلون إلى افتراض أن المسيحية ستكون هى دين العالم فى المستقبل .. لكن هذا أبعد ما يكون عن أن يكون أمرا مؤكدا، ولنذكر عنصرا واحدا، فبعض الأمم المسيحية الكبيرة تعانى بشدة من العنصرية، والدين الذى لا يستطيع أن يحل مشكلة العنصرية بين أعضائه من المستبعد أن يكون قادرا على تقديم حلول كثيرة مجدية لمشاكل العالم الأخرى.

ومن بين مزايا الإسلام تعميقه لمفهوم الأخوة، وعمق حججه. إلا أن الثقة بالنفس، مصحوبة بعمق الحجج وقوتها قد تتحول إلى (عيب) وليس ميزة، عندما تعمى عين الإنسان عن رؤية ما هو جدير بالتقدير لدى الآخرين، لذا فقد يجد الإسلام صعوبة فى إدراج قيم أخرى من أديان أخرى ليستوعبها ويجعلها جزءا منه.

والإسلام - بالتاكيد - مناضل قوى، ومنافس عظيم الشأن، سيعمل على مد الدين الواحد - دين المستقبل - بهيكله الأساسى ..» [1].

(ح)

تعصب المركزية الأوربية:

«إن الحضارة الأوربية (أو العالم المسيحى) كانت، ولفترة طويلة، تتصرف كما لو أنها الوحيدة التى تستحق الاهتمام، واعتبر الأوربيون أنفسهم هم وحدهم - من بين كل البشر - الجديرين بالاعتبار (ينظر الكتاب المعاصرون لحضارة أمريكا الشمالية باعتبارها امتدادا للحضارة الأوربية، ويرى آخرون ضرورة النظر إليها كحضارة مستقلة).

وفى القرن التاسع عشر كانت الثقافة الأوربية حضارة، وكلما تقدمت تكنولوجيا وسياسيا، أصبحت مناطق أخرى من العالم متحضرة، ونتيجة لهذه الفكرة أُهمل بالفعل تاريخ الحضارات العالمية الكبرى قبل اتصالها بأوربا.

وعاملت الحضارة الأوربية أديان العالم المعاملة نفسها، فكانت تنظر إلى التطورالدينى الرئيسى للجنس البشرى من خلال نظرها للمسيحية، وإن كانت قد أعطت مساحة قليلة من الاهتمام لليهودية، وفيما عدا ذلك كان الأوربيون ينظرون إليه باعتباره غير متطور وبدائى .. ومن هنا، فهناك افتراض مؤداه أن الأديان الأخرى الآن (غير المسيحية)، بما فى ذلك الأديان الكبرى، سوف تخلى مكانها سريعا للمسيحية.

وقد يكون الأبرشيون parishioners قد توارثوا فكرة أن كل من هم غير مسيحيين لا يزيدون عن كونهم أفضل قليلا من الجماعات البدائية التى لم تتعد مرحلة الهمجية، لكن أفكار هؤلاء الأبرشيين بدأت تنهار وتتساقط حولهم شذر مذر إذا أنهم قد اكتشفوا أن غير المسيحيين يمكنهم أن يعيشوا حياة حضارية راقية، وأنهم مهتمون - بعمق - برفاهية أبنائهم، وأنهم يخضعون معتقداتهم لبناء عقلى، مثلهم فى ذلك مثل المسيحيين .

---

(١) المصدر السابق. ص ٢٢، ٢٣٧، ٢٣٨.

لكل هذه الأسباب، فإن الحقيقة الكبرى المتمثلة فى «عالم متداخل الأديان» بسبيلها إلى التأثير فى حياتنا اليومية بشكل متزايد..

وتحاول هذه الدراسة أن تتناول جانبا واحدا من قضية التداخل بين الأديان، وهو بالتحديد العلاقة بين المسيحية والإسلام..

إن الإسلام منافس قوى للمسيحية فى قيادة عالم اليوم - إن جاز لنا استخدام مثل هذه المصطلحات الإستراتيجية - ولا بد أن نتحقق من أن كثيرا من عقائد الآباء عن تفوق المسيحية لم يكن فى الواقع سوي مجرد اعتقاد فى تفوق الحضارة الأوربية المادية، أما على المستوى الدينى، فالحقيقة أن الإسلام كان دوما ندا للمسيحية فالإسلام مثله مثل المسيحية لديه «كتاب» لعالمنا المعاصر» (١).

(ط)

العلم .. والعلمانية .. والقيم:

«إن المناهج العلمية لا تصلح لمجال القيم vulues. وإن قبولنا للمنهج العلمى واعترافنا بجدواه يؤدى بنا إلى نظرة علمانية للعالم، حيث لا مجال للقيم الدينية والأخلاقية..

وكثير من المسيحيين الآن يقبلون كثيرا من جوانب هذه النظرة العلمانية للعالم، ويحتفظون فى الوقت نفسه بعقائد دينية بعينها تبدو متناقضة مع نظرتهم العلمانية الآنف ذكرها، أو يؤدى وضعهما متجاورين - العقائد الدينية والنظرة العلمانية - إلى نوع من المفارقة.

ويشعر المتدينون من مختلف الأديان، بصعوبة الجمع بين النظريتين (الموقفين) بأشكال مختلفة» (٢).

---

(١) المصدر السابق. ص ٢٨-٣١، ٣٤، ٣٥.

(٢) المصدر السابق . ص ٣٢.

(ى)

شـروط الحوار بين أهل الأديان:

«إن الحوار ـ كما أرى ـ يتضمن الاستعداد للقبول الإيجابى بمقولات الدين الآخر رغم عدم التحول إليه، وبدون شيء من الاستعداد ليتعلم أصحاب كل دين من أصحاب الأديان الأخرى، يصبح الحوار نوعا من الهداية المعطلة.

إننا نحاول أن نعطى براءة لحوار حر (مفتوح) من هذا النوع.

إن كثيرين يفهمون الحوار بطرائق مختلفة، فهو بالنسبة للبعض مؤتمرات ذات سلطات قد تنتهى بقرارات تم الاتفاق عليها.

وهو بالنسبة لآخرين، لا يعدو أن يجتمع عدد من اللاهوتيين المسيحيين والعلماء ليصدروا قرارات فيما يتعلق بالمسائل الخلافية فى العقائد.

بل هناك من يتحدث عن الحوار بشكل منغلق وكأنما ليس هناك إلا طرف واحد ـ مثل كاتب سويسرى اختتم كتابه الموسوم باسم Dialogue with Islum بهذا النداء الذى وجهه للمسلمين:

«إننا نطلب منكم بشكل خاص جدا، نطلب منكم يا من تؤكدون بشدة القرابة القوية بين ديننا، أن تؤمنوا أن لدى الغرب شيئا أكثر وأفضل، أفضل من ثقافتكم: إنه كلمة الحياة، رؤية مملكة الرب، وأمل لا نهائى، أمل لا ينتهى، نعبر عنه بكلمة واحدة وباسم واحد: إنه يسوع المسيح».

* * *

إن مثل هذا الكلام ليس (حوارا) بأى معنى من المعانى ذات الأهمية. فمثل هذه العبارات لا تعنى شيئا أو لا قيمة لها حتى بالنسبة للمسلم الذى وصل إلى درجة عالية من التعليم. إنه ببساطه،.. سيجيب عن مثل هذه النداءات غير المجدية بأن لديه بالفعل (كلمة

الحياة) ممثلة فى القرآن، وأنه يعتقد أن إرادة الله ومشيئته هى التى تحقق العدالة على ظهر الأرض.

وإذا وضعنا فى اعتبارنا أن (الحوار) المقصود هنا يكون بين أشخاص ينتمون إلى ثقافات مختلفة، اتضح لنا ضرورة أن يكون المشاركون فى هذه الحوارات أناس على درجة عالية من التفتح وتقبل ما يقوله الآخرون، فلا يمكن أن يكون هناك حوار من أى نوع ما لم يتكلم أحد الأطراف بينما يصغى الطرف الآخر لما يقال محاولا أن يفهم، وهذا ليس بالأمر اليسير بين ثقافات غريب بعضها عن الآخر، لأسباب منها اختلاف المفاهيم والقيم والأفكار، فإذا راح طرفان أحدهما مسيحى والآخر مسلم يبحث كل منهما للآخر عن حجج وبراهين لدعم الخلاف بينهما، فهما سيجدان بسهولة كثيرا من العناصر لدعم الخلاف، لكن هذا لن يؤدي إلى قيام حوار حقيقى. فمن شروط الحوار الرغبة فى التعلم، وإذا كان الأمر متعلقا بثقافات مختلفة، فهذا يعنى صبرا عظيما ومحاولة التآلف والتعارف بكل جوانب العقلية الأخرى، أو العقلية الغريبة. والتدرب على فهم عقليات الآخرين يجعل المرء أكثر تفتحا، فإذا تقبل القيم الموجودة فى الدين الآخر، فإنه سيبدأ فى البحث عن سبيل لإدماجها فى دينه.فالمؤلف المسيحى السويسرى ـ الذى اقتبسنا من كتابه تلك العبارات ـ كان يشجع المسلمين ـ بلطف ودماثة ـ على أن يضيفوا إلى دينهم شيئا دون أن يتخلوا عن الجزء الأساسى من تراثهم، ولكنه فشل فى أن يرى ـ كمسيحى ـ أنه لا بد أن يسأل نفسه فيما إذا كان لدى الإسلام شىء يقدمه ليضاف إلى المسيحية؟.

ربما كانت ثقة المسلم العادى العميقة فى الله، هى الفكرة التى يجب أن تأخذها المسيحية من الإسلام.

* * *

ويبدو ضروريا لحوار حقيقى أن يفرق كل مشارك فى الحوار بين رسالة دينه الإيجابية، وبين حججه الدفاعية، فتكرار الحجج الدفاعية يعنى الرغبة فى منع معتنقى هذا الدين من الخروج منه، كما يحفز معتنقى الديانات الأخرى على صياغة حجج مضادة،

والدفاعات والحجج المختلفة قد تنشأ بين أصحاب دين واحد على تفسير نص، مع أن هذا النص يلقى اعترافا من الطرفين المتجادلين.

* * *

وفى الحوار مع الإسلام يجب أن يتخلى المسيحيون عن فكرة أن محمدا لم يتلق وحيا ، والأفكار الشبيهة..»[1].

(١) المصدر السابق. ص ٢٤، ٢٢٧ـ ٢٣٠.

- ٤ -

والشهادة الرابعة يقدمها واحد من أعلام المستشرقين الألمان، الذين مثلوا - إلى جانب المكانة المرموقة فى الثقافة الغربية - حجة فى الدراسات الاستشراقية بالدوائر الغربية . . وهو المستشرق العلامة «شاخت - جوزيف» Shacht,J [١٩٠٢ - ١٩٦٩م] . . والذى شغل - بعد تخرجه من جامعتى «برسلاو» و«ليبزج» - كرسى الأستاذية فى جامعات : «فرايبورج» سنة ١٩٢٧م، و«كونسبرج» سنة ١٩٣٢ م و«الجامعة المصرية» سنة ١٩٣٤م، و«أكسفورد» سنة ١٩٤٨ م، و«الجزائر» سنة ١٩٥٢ م، و«ليدن» سنة ١٩٥٤ م، و«كولومبيا» سنة ١٩٥٧م، سنة ١٩٥٨م . . كما شغل عضوية المجمع العلمى العربى بدمشق . . والكثير من المجامع والجمعيات العلمية . . كما أشرف على مجلة الدراسات الإسلامية .

وهو متخصص فى الشريعة الإسلامية . . ومحقق للعديد من كتب الفقة الإسلامى . . ومترجم للعديد منها إلى الألمانية، مع كتابة الدراسات والتعليقات عليها - بالألمانية والإنجليزية والفرنسية - . . وله - كذلك - مؤلفات فى نشأة الفقة الإسلامى . . وتاريخه . . وفى تبويب أحكام الشريعة الإسلامية على المذهب الحنفى . . وفى علم اجتماع القانون الإسلامى . . وفى علم الكلام الإسلامى . . كما حقق ونشر العديد من النصوص التراثية الإسلامية فى الطب والتاريخ . .

يشهد «شاخت» - شهادة الخبير الحجة - على :

- تميز الإسلام بأنه دين ودولة . .

- وعلى تميز الشريعة الإسلامية والفقة الإسلامى بالشمول . .

- وعلى الوحدة والتنوع فى الفقة الإسلامى . .

ـ وعلى أن سلطة القانون الإسلامى هى فوق سلطة «الدولة» . .

ـ وعلى قوة تأثيرات الفقة الإسلامى فى الثقافات القانونية التى جاورته أو اتصلت به أو انفتحت عليه . .

يشهد «شاخت» على ذلك كله فيقول :

«إن النزاع بين الدين والدولة اتخذ أشكالا مختلفة: ففى المسيحية كان هناك صراع من أجل السلطة السياسية من جانب هيئة كنسية منظمة تنظيما متدرجا ومتماسكا ينتهى إلى رياسة عليا، وكان القانون الكنسى أحد أسلحتها السياسية.

أما فى الإسلام، فلم يكن هناك قط ما يشبه «كنيسة» فالشريعة الإسلامية لم تستند مطلقا إلى تأييد قوة منظمة، وعلى ذلك فلم ينشأ قط فى الإسلام اختبار حقيقى للقوى بين الدين والدولة .. وظل المبدأ القائل بأن الإسلام من حيث هو دين ينبغى أن ينظم الناحية القانونية ـ فى حياة المسلمين ـ قائما لا يتحداه أحد ..

* * *

ومن أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضر قانونه الدينى، الذى يسمى «بالشريعة».

والشريعة الإسلامية تختلف اختلافا واضحا عن جميع أشكال القانون .. إنها قانون فريد من بابه .. إن الشريعة الإسلامية هى جملة الأوامر الإلهية التى تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها، وهى تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية، كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية (بالمعنى المحدود)، وعلى تفاصيل آداب الطهارة وصور التحية وآداب الأكل وعيادة المرضى.

والشريعة الإسلامية هى أبرز ما يميز أسلوب الحياة الإسلامية، وهى لب الإسلام ولبابه ... والخاصية الرئيسية التى تجعل التشريع الإسلامى على ما هو عليه، وتضمن وحدته مع كل ما فيه من تنوع، هى نظرته لجميع أفعال البشر وعلاقاتهم بعضهم ببعض، بما فى ذلك ما نعتبره قانونيا (Tegsl) على أساس المفهومات التالية: الواجب ، والمندوب، والمتروك، والمكروه، والمحظور. وأدمج القانون بمعناه الدقيق فى هذا النظام من الواجبات الدينية إدماجا تاما ..

لكن على الرغم من أن المادة القانونيـة قد أدخلت فى ذلك النظام، فإنها لم تتـمثل تمثلا كامـلا، كمـا أن العلاقـات القانـونية بين الناس لم تتـحدد تحـديدا تاما وتوضع فـى صورة واجبـات دينية وأخـلاقية. وقـد احتـفظ ميدان القـانون بطابع فنى خاص به أيـضا، وأمكن للاستدلالات القانونية أن تسير فى طريقهـا الخاص ..ونتيجة لذلك، فهناك تمييز واضح بين المجال الدينى الخالص والمجال القانونى بمعناه الخاص الحقيقى..

* * *

وبالرغم من أن التشريع الإسـلامى قانون دينى فإنه من حيث الجـوهر لا يعارض العقل بأى وجـه من الوجوه. فـهـو لم ينشأ من عـمليـة وحى متـواصل فـوق العقل .. وإنما نشـأ التشريع الإسلامى من منهج عقلانى فى فهم النصوص وتفسيرها، ومن هنا اكتسب مظهرا عقليا مـدرسيا (scholastic) .. إن قواعد التـشريع الإسلامى إنما تصدق بفـضل وجودها فقط لا من أجل عقـلانيتها ـ [المجردة] ـ وهى لا تدعو إلى مراعـاة النص الحرفى للأحكام دون روحها.

والتـشريع الإسـلامى ذو منهج منظم، وهو يؤلف مـذهبا مـتـماسكا، ونظمـه المتعـددة مترابطة بعضها مع بعض ..

* * *

ويتـجلـى فى الشـريعـة الإسـلاميـة نموذج بليـغ لما يمكن أن يسـمى «قانـون الفقـهـاء» (jurist's luw). فقد أنشأ هذا القانون وطوره فقهاء متخصصون أتقياء بجهود خاصة ..

* * *

إن التشـريع الإسلامى يقـدم مثالا لظاهرة فـريدة يقوم فـيها العلم القـانونى، لا الدولة، بدور المشـرع، وتكون فيهـا لمـؤلفات الـعلماء قوة القـانون. وكان هذا يعـتمد علـى توفر شرطين هما:

١ ـ أن العلـم القانونى كان هو الضامن لاستقرار ذاته واستمراره.

٢ ـ وأن سلطة الدولة حلت محلها سلطة أخرى (هى سلطة الفقة والفقهاء)، وكانت هذه السلطة من العلو بحيث فرضت نفسها على الحاكم والمحكوم.

وقد تحقق الشرط الأول بفضل مبدأ الإجماع الذى له السلطة العليا بين أصول الفقة الإسلامى. وحقق الشرط الثانى القول بأن أساس الشريعة الإسلامية هو حكم الله.

* * *

وفيما يتعلق بالشيعة ـ بصفة خاصة ـ فربما يظن أن نظريتهم السياسية كان لا بد لها من أن تؤدى إلى وضع نظرية ـ [فى الفقة] ـ مختلفة فى الجوهر عن غيرها. ولكن ذلك لم يحدث. ذلك لأن فقههم الوضعى ـ [الاجتهاد] ـ شأنه شأن فقة الخوارج، إنما هو على اتصال وثيق بفقه السنة، كما أن الجماعات التى أخذت بهذه المذاهب ظلت على اتصال وثيق أيضا بعضهم مع بعض اجتماعيا وثقافيا فى معظم العصور. ولم يتعرض التشريع الفقهى الإسلامى (لدى أصحاب هذه المذاهب) إلا فى تعديلات ظاهرة بعض الشىء كانت تقتضيها مذاهبهم الدينية الخاصة..

* * *

إن التشريع الإسلامى قد أثر تأثيرا عميقا فى جميع فروع القانون فى إقليم الكرج (جمهورية جورجيا)، وذلك خلال فترة تمتد من عصر السلاجقة إلى عصر الصفويين (٤٩٤ هـ ١١٠٠ م/ ٩٠٦ هـ ١٥٠٠ م).

ثم هناك تأثير التشريع الإسلامى على قوانين أهل الديانات الأخرى، من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا فى الدولة الإسلامية.

* * *

فبالنسبة للجانب اليهودى يبدو أن «موسى بن ميمون» [ت ٦٠١ هـ ١٢٠٤ م] قد تأثر ببعض ملامح المؤلفات الإسلامية فى تنظيمة للمادة القانونية فى مدونته بعنوان «مشنة توراة»(mishnah torah) وهو عمل لم يسبقه إلى مثله أحد من اليهود. ويقول أيضا فى

تعليقه على «المشنة» الذى كتبه بالعربية (وذلك فى تقديمه لما يسمى بالفصول الثمانية)، يقول: وإنه إلى جانب التلمود والمدراش، قد أفاد من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين وكثير غيرهم، إنه ينبغى على المرء أن يقبل الحقيقة من أى إنسان يقولها ـ لكن هذه المسألة كلها لم تبحث بحثا كاملا حتى الآن.

ومن جهة أخرى فإنه بالنسبة للجانب المسيحى، فليس هناك شك فى أن الفرعين الكبيرين للكنيسة المسيحية الشرقية، وهما: اليعاقبة والمونوفيزية (monophysites) ـ [أصحاب الطبيعة الواحدة] ـ والنسطوريون (Nestorians) لم يترددوا فى الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامى»[1].

---

(١) شاخت [تراث الإسلام] ـ بحث بعنوان «الشريعة الإسلامية» القسم الثالث ـ ص ١١ ، ١٢ ، ٩ ، ١٥ـ ١٧ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ١٤ ، ٢٧ ـ ٢٩ـ وكتاب [تراث الإسلام] هذا هو مشروع لدراسات المستشرقين فى مختلف مناحى تراث الإسلام. صنفه «شاخت» و«بوزورث». ترجمة : د. محمد زهير السمهورى. تعليق وتحقيق : د. شاكر مصطفى. مراجعة : فؤاد زكريا . طبعة الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة » سنة ١٩٧٨ .

- ٥ -

والشهادة الخامسة هى للمستشرق الشهير «برنارد لويس» (Lewis, B.) فى [١٩١٦-] وهو مستشرق معاصر، إنجليزى الأصل . . أمريكى الجنسية والإقامة حاليا . . تخرج فى جامعتى لندن وباريس، وعمل أستاذا للتاريخ الإسلامى فى جامعات لندن وكاليفورنيا . . وهو صاحب الدراسات العديدة فى الفرق الإسلامية ـ وخاصة الإسماعيلية ـ والتاريخ التركى الحديث . . وفى السياسة والدبلوماسية العربية الحديثة . . وفى التاريخ الاقتصادى للشرق الإسلامى . . وفى المقارنة بين الشيوعية والإسلام . .

وبالرغم من أن هذا المستشرق الكبير ـ برنارد لويس ـ يهودى الأصل، ومناصر للصهيونية، وشديد العداء والافتراء على المسلمين ودينهم وقضاياهم الوطنية والقومية . . وشديد الاستعداء لصانع القرار الأمريكى ضد الإسلام وأمته . . إلا أن ذلك كله لم يمنعه من أن يشهد للإسلام بالتميز كدين ودولة . . وبالسماحة فى الانتشار السلمى . . وبالعدل الذى تميز به الحكم الإسلامى مع الشعوب غير المسلمة . . بل والشهادة على الطابع الصليبى للحملات الاستعمارية التى تمددت بها أوربا فى العالم الإسلامى منذ اقتلاع الإسلام من الأندلس أواخر القرن الخامس عشر الميلاد .

يشهد «برنارد لويس» على ذلك كله، فيقول :

«لقد نادى مؤسس المسيحية أتباعه: أن «أعطوا ما لقيصر لقيصر وماالله لله»..

أما مؤسس الإسلام فقد جعل من نفسه «قسطنطين» ـ [٢٧٤ ـ ٣٣٧ م] ـ. ففى حياته أصبح المسلمون جماعة سياسية ودينية كان الرسول سيدها المطلق ـ يحكم أرضا وشعبا،

ويقضى بين الناس، ويجمع الضرائب، ويقود الجيوش، ويسيّر الدبلوماسية، ويخوض الحرب ـ..

* * *

ولقد كانت الخلافة نظام حكم حدده الإسلام. وحل الدين مكان القرابة كأساس للهوية الجماعية والولاء، كما حل محل العرف، أو أقره بوصفه قانون الجماعة.

وبينما كان شيخ القبيلة يحتل منصب الرئاسة على أساس الموافقة الطوعية للقبيلة، وهى موافقة يمكن إلغاؤها، فإن محمدا ﷺ جاء إلى الحكم على أساس من الامتياز الدينى المطلق، واستمد سلطته ليس من الطرف المحكوم، بل من الله.

* * *

ومن الأمور التى تسترعى النظر، أنه بينما تتحدث السياسة الغربية عن «المدينة» و«التاج» و«الدولة» أو «الشعب» كمصدر للسلطة، فإن الإسلام التقليدى يعتبر الله هو المصدر النهائى للسلطة. فالجماعة أُمة الله، وممتلكاتها مال الله، وكذلك الحال بالنسبة للجيش والغنائم الحربية. وأما أعداؤها فهم بالطبع «أعداء الله».

وبما أنه لا يوجد إلا إله واحد وقانون إلهى واحد، يجب أن يكون هنالك حاكم أعلى واحد على الأرض، ليمثل الله ويطبق القانون.

* * *

ففى عهد الخلفاء الراشدين نجد أن الحكومة هى المؤسسة الدينية، ولا يوجد غيرها. لقد وجد الغزاة الجرمان فى الغرب دولة ودينا «سابقين لهم»، هما الإمبراطورية الرومانية والكنيسة المسيحية، وكل منهما قد تطور فى اتجاهات مختلفة، بدءا من أصول متباينة، واحتفظ كل منهما بمؤسساته وطبقاته الحاكمة وقانونه، وقد اعترف الغزاة بكليهما

وقبلوهما وعبروا عن أهدافهم وحاجاتهم الخاصة بهم فى إطار الندية المزدوجة للكيان الرومانى والمسيحى.

أما العرب الفاتحون فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، فقد جاءوا بدينهم وأوجدوا نظام حكم خاص بهم، لا فرق فيه بين الكنيسة والدولة لكونهما شيئا واحدا، والرئيس المطلق لهذا النظام هو الخليفة.والواقع أنه لم يكن يوجد فى المفهوم الإسلامى مقابل حقيقى لمثل تلك الأضداد: دينى ودنيوى، روحى وزمنى، كهنوتى وعلمانى، وحتى المقدس والمدنس، ولم يظهر مثل هذا التضاد إلا بعد وقت طويل جدا، حين استحدثت كلمات جديدة للتعبير عن مفاهيم جديدة، أما فى العهد الأول للإسلام، فلم تكن الثنائية التى تدل عليها تلك الكلمات معروفة، لذا لم يكن هنالك من كلمات للتعبير عنها.

ولقد قيل إن الخليفة يجمع فى آن واحد بين شخصيتى البابا والإمبراطور، على أن التشبيه مضلل، فلم تكن للخليفة وظائف بابوية أو حتى كهنوتية، ولم يكن يتلقى التعليم الرسمى لرجال الدين من العلماء، ولم يكن واجبه عرض الدين ولا تفسيره، بل كان واجبه هو دعمه وحمايته، وإيجاد الظروف التى من شأنها أن تمكن الناس من العيش حياة إسلامية صالحة فى هذه الدينا، وبذلك يعدون أنفسهم للحياة الآخرة. ولتحقيق ذلك يتوجب عليه أن يحافظ على القانون والنظام ضمن حدود الإسلام، وأن يدافع عن هذه الحدود ضد الهجمات الخارجية، وكان من واجبه ـ ما أمكنه ذلك ـ توسيع تلك الحدود حتى يصل العالم كله، عندما يحين الوقت إلى اعتناق الإسلام.

* * *

والواقع أن الذى غزا أتراك أسيا الوسطى، لم يكن المسلمون، بل كان الإسلام ذاته، فقد كان المتصوفون والمبشرون المتجولون، ومعظمهم من الأتراك، يتنقلون بين القبائل التى لم يتم إخضاعها فيما وراء النهر، ينشرون الدين البسيط، دين الكفاح الذى ازدهر على الحدود بين الإسلام والوثنية.

وحين قال «ريتشارد نولز» Knolles, R. [١٥٥٠ ـ ١٦١٠م] وهو مؤرخ الأتراك فى

عصر الملكة اليزابيث [١٥٣٣ ـ ١٦٠٣ م] بأن الإمبراطورية التركية هي «الرعب الحالي للعالم»، كان يعبر في ذلك عن الشعور العام في أوربا .. ففي حالة الصراع بين أوربا والأتراك كان هناك ترفع وتزمت من كلا الجانبين .. وكان الأتراك هم الجانب الأكثر تسامحا.

وعندما انتهى الحكم العثماني في أوربا، كانت الأمم المسيحية التي حكمها العثمانيون خلال عدة قرون لا تزال هناك بلغاتها وثقافاتها ودياناتها وحتى ـ إلى حد ما ـ بمؤسساتها، كل هذه الأمور بقيت سليمة وجاهزة لاستئناف وجودها الوطني المستقل. أما إسبانيا وصقلية فليس فيهما اليوم مسلمون أو ناطقون باللغة العربية.

إن الفلاحين في المناطق التي غُزيت ـ [من الأتراك] ـ قد تمتعوا، بدورهم بتحسن كبير في أوضاعهم، وقد جلبت الحكومة الإمبراطورية العثمانية الوحدة والأمن مكان الصراع والفوضى، كما ترتبت على الغزو نتائج اجتماعية واقتصادية هامة.

ففي خلال حروب الفتح قضى على قسم كبير من الأرستقراطية الوراثية القديمة المالكة للأراضي، ومنحت أملاكها التي لم يعد لها مالك على شكل إقطاعات للجنود العثمانيين . على أن الإقطاعات في النظام العثماني كانت بصورة أساسية منحة تعطى لصاحبها الحق في تحصيل العائدات، وكانت من الناحية النظرية على الأقل، تمتد طول الحياة أو لفترة أقصر، ولكن كان يسقط الحق فيها عندما يتوقف صاحبها عن القيام بالخدمة العسكرية. ولم تكن تنطوي على حقوق وراثية ولا سيادة إقطاعية. ومن جهة أخرى كان الفلاحون يتمتعون بنوع من الامتلاك الوراثي للأرض، وكان النظام العثماني يحمي هذا التملك من التفتيت ومن تركيز الملكية معا. وكان الفلاحون يتمتعون بقدر من الحرية في حقولهم أكبر بكثير من ذي قبل، وكانت الضرائب التي يدفعونها تقدر بصورة مخففة وتجمع بطريقة إنسانية، وذلك بالمقارنة بما كان يجري في أنظمة الحكم السابقة والمجاورة.

هذا الأمن والازدهار كان لهما دور كبير في جعل الفلاحين يتقبلون النواحي الأخرى الأقل جاذبية في الحكم العثماني، وهما يفسران إلى حد كبير الهدوء الطويل الذي ساد الولايات العثمانية حتى تفجرت الأفكار القومية التي جاءت من الغرب.

وحتى عملية «الدواشرمة» Deushrime ـ وهى عملية الجمع القسرى للأولاد من بين الفلاحين المسيحيين من أجل تجنيدهم فى الجيش العثمانى وفى خدمة الدولة ـ لم تخل من نواح إيجابية، فبهذه الوسيلة كان أقل القرويين شأنا يستطيع أن يرتقى إلى أعلى المراكز وأكثرها نفوذا فى الإمبراطورية (العثمانية). وقد ارتقى الكثيرون بالفعل، وأحضروا أسرهم معهم ـ وهو شكل من أشكال المرونة الاجتماعية كان مستحيلا فى المجتمعات الأرستقراطية للعالم المعاصر للعثمانيين.

كانت الإمبراطورية العثمانية بالإضافة إلى كونها عدوا خطرا، ذات سحر قوى: فقد كان المستاءون والطموحون ينجذبون إليها بالفرص التى تتاح لهم فى ظل التسامح العثمانى. وكان الفلاحون المسحوقون يتطلعون بأمل إلى أعداء أسيادهم. وحتى «مارتن لوثر» [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ م] فى مؤلفه المسمى [النصح بالصلاة ضد الأتراك] ـ الذى نشر سنة ١٥٤١ م ـ قد حذر بأن الفقراء المضطهدين على يد الأمراء وأصحاب الأملاك والمواطنين الجشعين يفضلون على الأرجح العيش فى ظل الأتراك بدلا من المسيحيين من أمثال هؤلاء.

صحيح أن فرسان أوربا قد حاربوا بشجاعة ضد الأتراك. لكن فلاحيهم لم يكونوا يهتمون بانتصارهم. وحتى المدافعون عن النظام القائم كانوا يعجبون بالفعالية السياسية والعسكرية للإمبراطورية التركية. وكان جزء كبير من الأدب الغزير الذى أنتج فى أوربا حول التهديد التركى، يهتم بمزايا النظام التركى والحكمة الكامنة فى تقليده.

* * *

عندما وصل «فاسكو داجاما» [١٤٦٩ ـ ١٥٢٤ م] إلى «كلكوتا» قال: إنه أتى بحثا عن المسيحيين والتوابل. وكان هذا تلخيصا صادقا للدوافع التى أرسلت البرتغاليين إلى آسيا. كما أنه يلخص مع بعض التعديل، موقفهم من «الجهاد» الذى كانت رحلات (البرتغاليين)، بمعنى من المعانى، جوابا متأخرا عليه. كان الشعور الدينى قويا لدى البرتغاليين الذين ذهبوا إلى الشرق، فكانت الرحلات الاستكشافية تعتبر نضالا دينيا، أى

استمـرارا لحملة استعادة البـلاد المحتلة والحروب الصليبيـة، وكفاحا ضـد العدو الإسلامى نفسه.

وعندما وصل البرتغاليـون إلى المياه الشرقية كان خصومهم هم القـوى الإسلامية لمصر وتركيا وفارس والهند، وكانت هيمنة هذه القوى هى التى أطاحوا بها .

وبعد البرتغـاليين جاء الإسبان والفـرنسيون والإنكليز والهـولنديون، وقد أسسوا فـيما بينهم سيطرة أوربية غربية على إفريقيا وجنوب آسيا دامت حتى القرن العشرين..»[(١)].

(١) برنارد لويس «السياسة والحرب» - دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] القسم الأول. ص ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٣، ٢٧٩، ٢٨٦-٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢. تصنيف «شاخت» و«بوزورث» ترجمة: د. محمد زهير السمهورى. تعليق وتحقيق: د. شاكر مصطفى. مراجعة: د. فؤاد زكريا. طبعة الكويت - سلسلة عالم المعرفة سنة ١٩٧٨ م.

-٦-

والشهادة السادسة هى للمستشرق السويسرى «مارسيل بوازار» . . الذى يشهد للإسلام بالتميز كدين ودولة معا . . وللقانون الإسلامى بالتميز عن القانون الوضعى العلمانى، سواء فى المصدر . . أو فى المقاصد . . الأمر الذى يعنى تميز المنظومة القانونية فى الحضارة الإسلامية . . وخطر وخطأ محاولات علمنة القانون وحركة الحياة والاجتماع فى عالم الإسلام ـ لما فى ذلك من مصادمة للتصورات الفلسفية للإسلام إزاء الكون . . ولمكانة الإنسان فى هذا الوجود ـ كما يحددها الإسلام .

يشهد «مارسيل بوازار» على هذا التميز والامتياز الإسلامى فيقول :

* * *

«ومن المفيد أن نذكر فرقا جوهريا بين الشريعة الإسلامية والتشريع الأوربى الحديث، سواء فى مصدريهما المتخالفين أو فى أهدافهما النهائية..

فمصدر القانون فى الديمقراطية الغربية هو: إرادة الشعب، وهدفه: النظام والعدل داخل المجتمع. أما الإسلام، فالقانون صادر عن الله، وبناء عليه يصير الهدف الأساسى الذى ينشده المؤمن هو البحث عن التقرب إلى الله، باحترام الوحى، والتقيد به.

فالسلطة فى الإسلام تفرض عددا من المعايير الأخلاقية .. بينما تسمح فى الطابع الغربى أن يختار الناس المعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة فى عصرهم..» (١) .

---

(١) لواء أحمد عبد الوهاب [الإسلام فى الفكر الغربى] ص ٨١ ـ ٨٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م . وانظر كتابنا [الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية] ص ٣٧ . طبعة القاهرة سنة ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣ م .

-٧-

وعلى هذا الدرب - درب تميز الإسلام بأنه دين ودولة، ومنهاج شامل للحياة . . وامتيازه - مع ذلك - بالرفض للكهانة التى عرفتها الدولة الكنسية الأوربية . . على هذا الدرب تأتى هذه الشهادة للمستشرق «لامبتون» (أ . ك . س) . . الذى يقول :

«إن الدين - فى الإسلام - لم يكن منفصلا عن السياسة، كما أن السياسة لم تكن منفصلة عن الأخلاق .. ولقد تبلورت فى الدولة الإسلامية - بالتدريج - مجموعة من الأفكار السياسية الإسلامية.

إن سلطة الإمام كانت، ببساطة، تفويضا يهدف إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، والدفاع عنها، فقد ورث عن الرسول ﷺ السلطتين القضائية والتنفيذية فحسب، أما السلطة التشريعية، فلم يكن له منها شيء، بل إن سلطته فى الاجتهاد كانت محدودة، إذ أن هذه السلطة، فيما يبدو، قد آلت إلى الأمة فى مجموعها، بالرغم من أن الإجماع يميل إلى حصرها فى العلماء...» [1] .

(١) لامبتون «الفكر السياسى عند المسلمين» دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] القسم الثالث . ص ٣٣، ٣٤، ٤٩ . تصنيف : «شاخت» و«بوزورث» . ترجمة : د. محمد زهير السمهورى» . تعليق وتحقيق : د. شاكر مصطفى . مراجعة : د. فؤاد زكريا . طبعة الكويت سنة ١٩٧٨ م .

-٨-

أما الشهادة الثامنة فهى للمستشرق الإنجليزى البارز «ألفريد جيوم» Guil . A ,laume [١٨٨٨ - ١٩٦٥] . . خريج جامعة أكسفورد . . والمحاضر فى المعهد الملكى بلندن سنة ١٩٢٠م . . وأستاذ اللغات الشرقية فى جامعة درهام (١٩٢٠ - ١٩٣٠م) . . وفى معهد كولهم (١٩٣٠ - ١٩٤٥ م) . . وفى جامعة لندن (١٩٤٥ - ١٩٤٧م) . . وفى جامعة إستانبول (١٩٤٧ - ١٩٥٥ م) . . وجامعة برنستون (١٩٥٥ م) . . وعضو المجمع العلمى العربى بدمشق . . والمجمع العراقى . . والمشرف على دراسات تراث الإسلام . . وصاحب التآلف والتحقيقات فى علم الكلام الإسلامى . . وفى المقارنة بين اليهودية والإسلام، وبين النصرانية والإسلام . . والدراسات فى علم الحديث . . والتشريع الإسلامى . . والسيرة النبوية . .

وهذا المستشرق البارز يشهد على تميز الإسلام :

- بالسماحة التى جعلت الفتوحات الإسلامية إنقاذا وتحريرا للنصرانية الشرقية من الاضطهاد والقهر الرومانى والبيزنطى . .

- وعلى عبقرية اللغة العربية - لغة العلم العالمى - وتأثيرها على غيرها من اللغات . .

- وعلى إبداع الإسلام لعقلانية مؤمنة متميزة عن العقلانية اللادينية . .

- وعلى عروبة الفلسفة الإسلامية . . وتأثيرها فى اليهودية . . وتأثير الإسلام فى النهضة الأوربية بوجه عام .

- كذلك على تأثير الطب الإسلامى فى أوربا .

يشهد «جيوم» على عبقرية الإسلام ولغته وفلسفته وعلمه . . فيقول :

سماحة الإسلام:

● «لقد استُقبل العرب ـ على الأغلب ـ فى سوريا ومصر والعراق بترحاب، لأنهم قضوا القضاء المبرم على الابتزاز الإمبراطورى، وأنقذوا البيع المسيحية المنشقة من الضغط الكريه الذى كانت تعانيه من الحكومة المركزية وبرهنوا بذلك على معرفة بالمشاعر والأحاسيس المحلية أكثر من معرفة الأغراب.

كان الإسلام فى بادئ الأمر عقيدة واضحة لا تعقيد فيها، فإيمانه البسيط بإله واحد، لم ينطو على أى تعارض مع العقيدة المسيحية(١) .

❊ ❊ ❊

عبقرية العربية:

● «وكانت اللغة العربية والديانة، فى أيام الخلافة الإسلامية العظمى وحدة غير قابلة للانفصام فالعربية هى (يونانية) العالم الإسلامى. ولحظّ الإسلام نزلت رسالته فى وقت نضوج اللغة التام، وكانت الآرامية مجدبة ومملقة إذا قورنت بالعربية. حتى العبرية القديمة فى ذروة مجدها فإنها لم تطال العربية بمرونتها واشتقاقها العجيب، فمن معينها الخالص، أمكن نحت تعابير واشتقاق مصطلحات فى غاية الدقة وفقا لمتطلبات الفنون والعلوم الجديدة.

أفلم يكن من أعجب العجائب أن تستوعب لغة كهذه كل علوم العالم الإغريقى وفنونه، بدون أن تقوم شبهة ما على قصور لها أو جهد تحملته مصادرها فى سبيل النهوض بتلك التبعة؟ .

لقد صلح اللسان العربى للتعبير عن العلاقات بإيجاز أكثر من اللغات الآرية، لمرونته وقابليته الاشتقاقية الفائقة فى الاسم والفعل.

---

(١) جيوم : «الفلسفة وعلم الكلام» دراسة منشورة فى كتاب [تراث الإسلام] ـ تصنيف أونولد ص ٣٦٣ . ترجمة : جرجيس فتح الله . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

إننا ندين للغة العرب ـ بجانب هذا ـ بدين كبير فى حقل دراسات الكتاب المقدس، إذ ما أصبحت اللغة العربية لغة عالمية حتى أدرك اليهود صلتها الوثقى بالعبرية، فقلدوا النحو العربى. وكتاب النحو العبرى لواضعه «رابى قمحى» [ت ١٢٣٥م] الذى كان له تأثير عميق فى دراسة العبرانية بين المسيحيين فى أوربا ـ استمد ما لا يحصى من المصادر العربية.

ومنذ بداية القرن التاسع والاستمداد من معين اللسان العربى لا ينقطع، فى تفسير الكلمات النادرة والتعابير الغريبة فى العبرية، حيث إن العربية، وإن صغر سنها عن العبرية بألف عام بوصفها لغة آداب، فهى أكبر سنا من ناحية البلاغة وفقه اللغة بقرون لا تعد ولا تحصى، وكثيرا ما يستدل على معانى التعابير المحيرة غير المفهومة فى هذه اللغة بوصفها تعابير منفردة مندثرة الأصول ـ من أشباه عربية لها شائعة الاستعمال الآن!. فما أسهل ما تجد للكلمات والمصطلحات التى ضاعت مدلولاتها الدقيقة تفسيرا وافيا متهيئا من المصدر العربى.

والواقع أنه يتعذر على باحث جاد فى الكتاب المقدس أن يستغنى عن معرفة مباشرة باللغة العربية. إن صحائف كل شروح معتبرة على الكتاب المقدس تجدها مزدانة بصورة من الدّيْن الذى يدين به شراحه للغة العرب وتراثها الذى لما يزل باقى الأثر حتى الآن..» [1].

* * *

العقلانية الإسلامية المتميزة:

«إن عبارة: «قال الله تعالى» ما كانت تقوى على إسكات المعتزلة، بالعكس فقد كانوا يلحون فى أن يفسر لهم المقصود بكلمة «الله» وبكلمة «قال».. فعندهم أن علم الكلام يجب أن يكون موضوع التحقيق العقلى. وقوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما فى طوقهم إقامة علم الكلام الإسلامى على أسس ثابتة من الفلسفة،

---

(١) المصدر السابق. ص ٨، ١١، ١٢.

مصرين فى الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التى يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية ..».[(١)]

* * *

عروبة الفلسفة:

«إن «روجر بيكن» [١٢٢٥ ـ ١٢٩٢ م] لم يتردد فى القول: «إن الفلسفة إنما هى أرومة عربية.. لذلك فإن اللاتينى لا يستطيع أن يكون على وقوف بالكتب المقدسة ولا على الفلسفة إلا إذا عرف اللغة التى نقلت عنها..

وبالتراجم التى أنجزها «دومنيك كوند يسالفى» أسقف سيكوفيا، فى أولى سنى القرن الثانى عشر، أصبح الغرب المسيحى يعرف «أرسطو» [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م] عن طريق «ابن سينا» [٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ ـ ١١٣٧م] و«الفارابى» [٢٦٠ ـ ٣٣٩ هـ ٨٧٤ ـ ٩٥٠ م] و«الغزالى» [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]. فالموسوعة الفلسفية التى ألفها «كوند يسالفى» تعتمد بصورة رئيسية على المعلومات المستقاه من المصادر العربية .. إن الغرب مدين بإحياء فلسفة «أرسطو» إلى العرب. وقد يقال إنه لم يكد يُعرف حتى زمن «كوند يسالفى» فيلسوف باسم «أرسطو».. إن «بيكن» [١٥٥١ ـ ١٦٢٦م] يخبرنا بأن «بويوس» [ت ٥٢٥ م] هو أول من عرّف الغرب بأرسطو، فترجمته (للمقولات: القاطيغور ياس) و(العبارة) مع رسائله فى المنطق وتعليقاته، كانت فعلا جملة ما وصل أوربا من الفلسفة الأرسطية حتى السنة ١١٥٠ م.

والحق أن الغرب لم يكن ليعرف عن «أفلاطون» [٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق. م] أكثر مما عرف عن «أرسطو» بنتيجة الاتصال المباشر مع اليونان، لكن «الأفلاطونية» تمتعت بامتياز اندماجها فى الفكر المسيحى.

ومما لا ريب فيه أنه إن لم يكن أول تأثير خطير عربى الأرومة، فكيف يتسنى لنا تفسير

---

(١) المصدر السابق. ص. ٢٧٨، ٢٧٩.

امتزاج أراء «أرسطو» بالتعاليم المعزوة إلى «ابن رشد» [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] طوال قرون متعاقبة؟.. وابن رشد نفسه كان يجهل اليونانية، وقد اكتفى بالاعتماد على تراجم أسلافه، وطريقته فى البحث كانت شائعة تماما عند اليهود. هذه التعاليم أوغلت فى الفكر المسيحى إيغالا، ونفذت عميقا حتى أصبحت خطرا على تعاليم الكنيسة، وإلى «القديس توما» [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ م] على الأخص يعزى الفضل فى فصل «أرسطو» عن شارحه، ونقد التفاسير العربية لفلسفته..».

* * *

«إن العدل يقتضى أن ننوه بدَيْن العرب على اليهود هنا. وما على المرء إلا أن يتذكر أنه لم تكن توجد ترجمة عبرانية «لأرسطو»، وأن اليهود كان يكفيهم الترجمات التى قدمها «الفارابى» و«ابن سينا» و«ابن رشد»، ليدركوا كم تأثرت اليهودية بالحضارة العربية.

لقد تمتع المعتزلة بنفوذ عميق على مفكرى اليهود، والواقع أنه يستحيل أحيانا أن نتعرف على كاتب من نص ورد فى كتاب موضوعه علم الكلام، أكان كاتبه يهوديا أم محمديا..

لقد اهتمت الفلسفة اليهودية ـ من وقت «سعدية بن يوسف الفيومى»[٨٩٢ ـ ٩٤٢ م] حتى «يوسف أليو» [١٣٨٠ ـ ١٤٤٤ م] بالمسائل والمناظرات التى ورثتها من العرب، ولا حاجة بنا إلى تنظيم قائمة بأسماء الرجال الذين تصدروا بصورة عامة ديوان الفلسفة فى ذلك الزمان أو برزوا فيه، وكان أعظمهم طرا وأبعدهم صيتا «موسى بن ميمون» [١١٣٥ ـ ١٢٠٤ م] الذى استخدم القديس «توما الأكوينى» نقده العلمى للمتكلمين العرب بلا حدود ولا تعفف. اقتدى «ابن ميمون» على آثار «الفارابى» و«ابن سينا» فى العودة إلى «أرسطو» لاستمداد المواد اللازمة للبرهنة على وجود الله وعلى وحدانيته وعدم تجسده.

ومن بين علماء المسيحيين، أصاب «ابن جبرول» [٤١٦ ـ ٤٦٣ هـ ١٠٢١ ـ ١٠٥٨ م] شهرة رفيعة مدهشة بعد أن ترجم له «أفنديث: ابن داود» و«دومنيك كوند يسالفس» كتابه

[ينبوع الحياة] رأسا من العربية إلى اللاتينية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر. وقد وقعت المدرسة الفرنسسكانية كلها تحت سحر كتاب [ينبوع الحياة].

* * *

إن أعظم شارح للفلسفة هو «ابن رشد» [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] الذى يدعيه الفكر الأوربى وقارة أوربا لهما أكثر مما تصح نسبته إلى الشرق، بقى تأثيره يسود إيطاليا حتى القرن السادس عشر، وتسبب فى إثارة الجدال الفلسفى الأشهر بين «أجللينى» [١٤٦٧ ـ ١٥١٢ م] و«بمبوناجى» [١٤٦٢ ـ ١٥٢٥ م]. ظلت فلسفة ابن رشد عاملا حيا فى الفكر الأوربى حتى ميلاد العلم التجريبى الحديث. ولقد حفظ اللسان اللاتينى أكثر من تأليف واحد لابن رشد فقدت أصوله العربية، وكان لفلسفته فى الغرب خلال فترة من الزمن أن تفخر باجتذابها اهتمام أعظم مفكرى العصر.

* * *

إن الاتفاق بين لاهوت القديس «توما» و«ابن رشد» كثير لا يمكن حصر وجوهه، وليس ما يفوقه أهمية النظرية القائلة بأن علم الله يشمل الجزئيات، وجميع النتائج والفرضيات المقدمة لدعمها. إن الفرضية المشهورة للمعلم الملائكى ومؤداها بأن (علم الله) هو علة الأشياء، ليست إلا نظرية ابن رشد نفسها: «العلم القديم، هو سبب للموجود».

والتشابه بين ابن رشد والقديس توما كثير بحيث يستأهل التعقيب والبحث عن شيء ينفى كون هذا التشابه هو محض اتفاق صدفى. إن الرغبة المشتركة للتوفيق بين الفلسفة واللاهوت أمر لم يولياه اهتماما عظيما كلاهما. ولكن عندما نتلمس الخطة سبيلا مستقيمة واحدة فمن الطبيعى أن نستنتج بأن ابن رشد خلف شيئا أكثر من شروح أرسطو لعلماء المسيحيين. إننا لنجد لدى المؤلفين كليهما مقتبسات من القرآن الكريم والكتاب المقدس بعد البراهين الفلسفية على العقيدة، وكلاهما يبتدئ بعرض حجج تنطوى على الشك أو التناقض الظاهر. كما أننا نجد البرهان نفسه على وجود الله فى

الحركة، وعلى العناية الإلهيـة للعالم، وفرضية كليهمـا أن وحدة الله هى من وحدة العالم، وهما يتفقـان فى فرضهما بأن علينا استخـدام طريقة التنزيه لأجل التوصل إلى إدراك الله. وكلاهما استخدما طريقة القياس والتشبيه».

* * *

«من سنة ١٢١٧م فصاعدا أصبحت شروح ابن رشد فى متناول المدارس الغربية بفضل «ميـخـائيل سكوت» [ت ١٢٣٥م] فى طليطلة، وإنـك لواجد كـثـيـرا من آراء ابن رشـد مجتمعة فى كتاب ابن ميمون العظيم الذى كـان يستشهد به القديس توما الأكوينى أحيانا، فينوه مثـلا فى كتابه [مسائل جدلية] بأقوال ابن رشد فى مـوضوع المناقشة الخاصة بطبـيعة معرفة الله..

* * *

«إن الغـرب كـان يريد أن يسـتـرجع من العـرب تراثه الضـائع. وقـولنا هذا ليس فـيـه ارتخاص أو تقليل من قيمة ما أنجزه العرب فإنهم أبقوا نور العلم دائم الاتقاد.

قـد نكون جـد واثقـين بأن أولئك الذين يتـهـمون الـعلمـاء المسلمين بافـتـقـارهم إلى الإبداع وضعف المستوى التفكيـرى لم يقرأوا ابن رشد، أو يلقـوا نظرة على آثار الغزالى، لكنهم تبـنوا أحكام غـيـرهم بدون تمحـيص. ووجـود أفكار ذات أصل إسـلامى فى قلعـة المسيـحيـة الغـربية، وأعنى بهـا كتـاب [الخلاصـة] لتومـا الأكوينى، يكفى لتفنيـد الاتهام القائـل بفقر الـعرب الإبداعى وضـحولتهم الـعقليـة. وعلينا أن نكتب تاريخـا لـحـضارة القـرون الوسطى جديدا، وأن نثـير شـتى البحـوث الجدليـة بشكل واسع إن شئنا إنـصاف التراث العربى»

* * *

«لقد قام غيوم ليون الثانى يحث رعـاياه الذين كان أغلبهم مسلمين على توجه دعوتهم إلى «الله»، وقلد خلفاؤه النقود الـعربية وتقاليد البلاط وزخـارف القصور، وطرق الإدارة، حتى الحريم على ما يقال».

إن الشرق والغرب حققا فى القرن الثالث عشر اتصالا ثقافيا فياضا متقاربا أكثر من أى وقت مضى، ما خلا العقيدة الرئيسية وهى سر التثليث والتجسد فإن فلاسفة العصور الوسطى ـ كما رأينا ـ كانوا يجدون لهم معارضين من بين صفوفهم نفسها عددا كثيرا لا يربو عليه إلا عدد المشايعين الذين يجدونهم فى المعسكر المقابل. وعندما ترى ضوء النهار جميع المواد النفيسة المختزنة فى مكتبات أوربا فسيتضح لنا أن التأثير العربى الباقى فى الحضارة الوسيطة لهو أعظم بكثير مما عرف عنه حتى الآن»[١].

❊ ❊ ❊

تأثير الطب العربى:

«كانت «سالرنو» بوصفها جامعة طبية، فيها نفوذ عظيم للطب العربى، إن لم يكن تأثيرا ابتداعيا خلاقا فهو على أقل تقدير تأثير تغذية وإدامة.. كانت أول جامعة عربية فى أوربا تدين بقيامها إلى الدراسات الإسلامية ولا تدين إلى الإسلام بتأسيسها، كما أنها جاءت فى وقت متأخر جدا. لقد استخدم «الفونسو الحكيم» [١٢٥٢ ـ ١٢٨١م] رجلا اسمه «أبو بكر الزقوطى» وهو أعلم أعلام عصره، فبنى له مدرسة قام بتدريس جميع العلوم للمسيحيين واليهود والمسلمين»[٢].

---

(١) المصدر السابق. ص ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٨٣-٣٨٥، ٣٩٢, ٣٩٣, ٣٩٧, ٣٩٩، ٣٥٤، ٤٠١.

(٢) المصدر السابق. ص ٣٥٣، ٣٥٤.

-٩-

أما الشهادة التاسعة فإنها للمستشرق الإيطالى البارز «نلينو» (كارلو ألفونسو) Nallino Garlo alfonso [١٨٧٢ ـ ١٩٣٨] أستاذ اللغة العربية بالمعهد العلمى الشرقى بنابولى (١٨٩٤ ـ ١٩٠٢ م) وأستاذ الدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامى بجامعات بالرمو وروما (١٩١٥) ومدير لجنة تنظيم المحفوظات العثمانية . . والمحاضر بالجامعة المصرية ـ فى الفلك والأدب العربى ، وتاريخ جنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام (١٩٢٧ ـ ١٩٣١م) وصاحب التحقيقات لجغرافية الشرق العربى .

وهو منشىء مجلة الشرق الحديث ـ برعاية المعهد العلمى الشرقى ـ فى روما ـ . . والضليع فى اللغة الفارسية . . ونائب رئيس مجمع لنشاى سنة ١٩٣٢ م . . وعضو المجمع العلمى الإيطالى ، والمجمع العلمى العربى ـ بدمشق ـ والمجمع اللغوى ـ بالقاهرة ـ منذ تأسيسهما . . وغيرهما كثير من المجامع والجمعيات العلمية . . والمشرف على مجلة الدراسات الشرقية . . وصاحب التآليف فى الفلك والجغرافيا والحساب والأدب العربى ، والقرآن ، والفرق الإسلامية ، والتصوف ، والفلسفة ، والتاريخ ، والسيرة النبوية ، والفقة الإسلامى ، والتراجم الإسلامية ، والبلدان ، والآثار ، واللهجات ، والمقارنة بين الفقه الإسلامى والمنظومات الفقهية الأخرى .

ونحن نسوق ـ هنا ـ شهادته على أصالة الفلسفة الإسلامية . . وعلى تميّز الحكمة المشرقية عن الفلسفة اليونانية . . وفيها يقول «نلينو» :

«إن المسائل الكلامية فى القرنين الأول والثانى للهجرة نشأت كلها تقريبا عن

اختلافات فى تفسير عبارات والفاظ وردت فى القرآن، ومن هذه الألفاظ القرآنية اشتقت دائما تقريبا المصطلحات الفنية المتعلقة بهذه المسائل ..

إن «فخر الدين الرازى [٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ ١١٥٠ ـ ١٢٠٩م]ـ أى بعد قرن من وفاة «ابن سينا» [٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م]ـ يعارض المذاهب الفلسفية «المشرقية» بالمذاهب الفلسفية المغربية «اليونانية» ويقصد بالأولى المذاهب التى قال بها المتكلمون الإسلاميون وبالثانية بعض أفكار المشائين اليونانيين وخصوصا طريقتهم فى بحث المسائل، ومن قلدهم وسار على أثرهم من المسلمين. ومعنى هذا أن الكلام هنا عن معارضة مشابهة لتلك المعارضة التى يقول «ابن طفيل» [٤٩٤ ـ ٥٨١ هـ ١١٠٠ ـ ١١٨٥م] إن ابن سينا عملها بين كتابيه [الحكمة المشرقية] و[الشفا] .. وثمت معارضة مماثلة لهاتيك أورد ذكرها وبمناسبة «ابن سينا» دائما، ابن أبى أصيبعة [٥٩٦ ـ ٦٦٨هـ ١٢٠٠ـ ١٢٧٠م] فإنه يذكر من بين كتب ابن سينا «كتاب الإنصاف» عشرون مجلدا، شرح فيه جميع كتب أرسطو طاليس [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م] وأنصف فيه بين المشرقيين والمغربيين..[١].

* * *

«قال ابن سينا ـ فى مقدمة [الشفاء] :

«ولى كتاب غير هذين الكتابين ـ [الشفاء] و[اللواحق] ـ أوردت فيه الفلسفة على ماهى عليه فى الطبع، وعلى ما يوجبه الرأى الصحيح الذى لا يراعى فيه جانب الشركاء فى الصناعة، ولا يتقى فيه من شق عصاهم ما يتقى فى غيره وهو كتابى فى [الفلسفة المشرقية] .

وأما هذا الكتاب ـ [الشفاء] ـ فأكثر بسطا وأشد مع الشركاء من المشائين مساعدة .

ومن أراد الحق الذى لا مجمجة فيه فعليه بطلب ذلك الكتاب ـ [الفلسفة المشرقية] ـ

---

(١) نلينو : « بحوث فى المعتزلة» دراسة منشورة بكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] ص ٢٠١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م

ومن أراد الحق على طريق فيه ترض ما إلى الشركاء وتبسط كثير، وتلويح بما لو فطن له استغنى عن الكتاب الآخر فعليه بهذا الكتاب - [الشفاء] - ..»[1].

* * *

«وقال ابن طفيل الأندلسى [المتوفى ٥٨١ هـ ١١٨٥م] فى قصته الفلسفية المشهورة [حى بن يقظان]:

«سألت أيها الأخ الكريم الصفى الحميم - منحك الله البقاء الأبدى، وأسعدك السعد السرمدى - أن أبث إليك ما أمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها الشيخ (الإمام) الرئيس أبو على ابن سينا..

ثم كتب فى موضع آخر من هذه المقدمة:

«وأما كتب أرسطو طاليس فقد تكفل الشيخ أبو على بالتعبير عما فيها، وجرى على مذهبه وسلك طريق فلسفته فى كتاب [الشفاء] وصرح فى أول الكتاب بأن الحق عنده غير ذلك، وأنه إنما ألّف ذلك الكتاب على مذهب المشائين، وأن من أراد الحق الذى لا مجمجة فيه فعليه بكتابه فى [الفلسفة المشرقية].

ومن عُنى بقراءة كتاب [الشفا] وبقراءة كتب أرسطو طاليس ظهر له فى أكثر الأمور أنها تتفق، وإن كان فى كتاب [الشفا] أشياء لم تبلغ إلينا عن أرسطو. وإذا أخذ جميع ما تعطيه كتب أرسطو وكتاب [الشفا] على ظاهره دون أن يتفطن لسره وباطنه، لم يوصل به إلى الكمال، حسبما نبه عليه الشيخ أبو على فى كتاب [الشفا]..»[2].

* * *

«وقال «روجر بيكون» [١٢٢٥ - ١٢٩٢ م]..

«إن ابن سينا أحد كبار مقلدى أرسطو وعارضى مذهبه، والمتمم لفلسفته بحسب

---

(١) المصدر السابق. ص ٢٧٧، - (هامش) - (١) -

(٢) المصدر السابق. ص ٢٤٦ - ٢٤٨.

ما كان فى استطاعته، ألف كتبا ثلاثة فى الفلسفة، كما صرح هو بنفسه فى مقدمة كتاب [الشفاء] أحدها أُلف حسب المذهب السائد عند المشائين، الذين هم شيعة أرسطو، أما الآخر فقد أُلف حسب الحقيقة الخالصة فى الفلسفة، تلك الحقيقة التي لا تخشى طعنات رماح المعترضين، كما يقول، وثالثها ألفه أواخر أيام حياته، وفيه شرح المبادئ وأسرار الطبيعة والصناعة، ولكن لم يصلنا من هذه الكتب اثنان، أما الأول فعند اللاتينيين أجزاء منه واسمه [الشفاء]..»[1].

(١) المصدر السابق. ص ٢٧٧ـ(هامش) ـ(٢)ـ.

-١٠-

وإذا كنا قد سقنا شهادة المستشرق الإنجليزى «الفريد جيوم» ـ وهو المتخصص الخبير فى الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام الإسلامى ـ على تميز الفلسفة الإسلامية وعبقريتها . . وقدمنا ـ كذلك ـ النصوص ـ الوثائق ـ التى قدمها المستشرق الإيطالى «نلينو» على جهود المسلمين فى بلورة فلسفة مشرقية متميزة عن الفلسفة اليونانية . . وعلى الرغم من أننا نقف ـ فى هذه الشهادات ـ عند العلماء الغربيين الثقاة ـ فإننا نسوق هنا شهادة خبير بالفلسفة الإسلامية، وعلم الكلام الإسلامى، وإن لم يكن غربيا فإن ولاءه للفكر الغربى وللحضارة الغربية وتضلعه فيهما، يجعل شهادته إضافة ودعما لشهادات العلماء الغربيين . . ذلك هو القسيس الراهب الأب جورج شحاته قنواتى [١٣٢٣ ـ ١٤١٥ هـ ١٩٠٥ ـ ١٩٩٤ م] . . وهو راهب مصرى، سورى الأصل، دومينيكانى . حصل ـ قبل الرهبنة ـ على شهادة الهندسة الكيميائية من جامعة ليون، وانضم إلى الآباء الدومنيكان، وتولى إدارة معهد الدراسات الشرقية التابع لهم بالقاهرة وتخصص فى الفلسفة الإسلامية .

ومن آثاره الفكرية : المدخل إلى علم الكلام، والمدخل إلى التصوف الإسلامى، والمدخل إلى علم أصول الدين الإسلامى، وفلسفة الفكر الدينى بين المسيحية والإسلام، والمسيحية والحضارة العربية، ومؤلفات ابن سينا، ومؤلفات ابن رشد . . إلخ . . إلخ .

يشهد الأب قنواتى على :

ـ تميز الفلسفة الإسلامية بالطبيعة الإلهية . .

ـ وبالجمع بين السنن والسببية وبين قدرة مسبب الأسباب . .

ـ وبمركزية الإنسان الخليفة فى الرؤية الفلسفية الإسلامية . .

- وبوحدة هذه الفلسفة، لوحدة المصدر - وهو القرآن . .

- وبقدرة هذه الفلسفة الإسلامية على أسلمة الفلسفة اليونانية وتطويعها وتوظيفها فى الإيمان الدينى .

- وعلى تميز العقلانية فى هذه الفلسفة الإسلامية، حتى لقد جعلت الشك المنهجى فى خدمة الحقيقة الإيمانية . . يشهد الأب قنواتى على جميع ذلك فيقول :

«إن فلسفة الطبيعة فى الإسلام فلسفة غائية (finalistic)، بمعنى أن الطبيعة خلقت بحكمة فهناك إطراد وانتظام فى قوانينها، لكن ذلك لا يمنع الحرية الكاملة للإرادة الإلهية من التدخل فى هذا النظام.

وأخيرا فإن هذه الفلسفة تجعل الإنسان مدار نظام الطبيعة، فالطبيعة مسخرة للإنسان، وتلك الفلسفة تتناول عددا معينا من الموضوعات وخاصة موضوعات النور والماء والعهد الأول(Original Covenant) وهى موضوعات كفيلة بأن يقوم عليها علم كونى دينى ..»[١].

* * *

«إن الفلسفة الإسلامية، فى مجموعها، تمثل وحدة لا سبيل إلى إنكارها، على الرغم من اختلاف الأماكن التى ظهرت فيها والمؤلفات التى صنفت فيها. كما أن نفس الملامح الأساسية الموجودة عند فلاسفة المسلمين فى المشرق هى بعينها الموجودة عندهم فى المغرب. ونقطة البداية عندهم واحدة هى الحقائق القرآنية وتعاليم الإسلام المتعلقة بالحياة اليومية،ولم يكن بينهم من يبلغ به التهور أن يشك فيها، وأقصى ما فى الأمر أنهم كانوا يلجأون إلى التاويل المجازى فى موضوعات معينة..»[٢] .

«إن الفلسفة الإسلامية تنزع إلى أن تكون «حكمة» فقد كان «الفارابى» [٢٦٠ -

---

(١) قنواتى : «الفلسفة وعلم الكلام» دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام]- تصنيف «شاخت» و«بوزورث» - القسم الثانى - مصدر سابق - ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٠٥ .

٣٣٩ هـ ٨٧٤ ـ ٩٥٠ م] «وابن سينا» [٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م] و«ابن رشد» [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] مقتنعين بوحدة المعرفة التي تتوجها الإلهيات .

وإن نوع الحكمة التى تحاول هذه الفلسفة أن تأخذ بها كانت من حيث القصد على الأقل حكمة دينية، وهذه إحدى خواصها .. فهى تشتمل على عناصر دينية مأخوذة من القرآن الكريم، ولكنها بدلا من اقتباسها كعناصر دينية، تسعى فى إخلاص إلى «التوفيق» (reconcile) بين الدين والعقل بقصد إعطاء الدين صفة (Status) علمية. وهى تطبق بناء هيكل الفلسفة اليونانية على مبادئ الدين، وبذلك تضفى على الفلسفة اليونانية صبغة لم تكن لها عند الأقطاب من الإغريق، وهكذا استطاعت أن تصل إلى العقول المؤمنة، أو على الأقل تلك العقول التي ترغب فى التوفيق بين عقيدتها وبين العقل والعلم. وهذا يفسر لنا النجاح الذى حققته إلهيات (metaphysics) ابن سينا فى كتابه [فى النفس] (Deanima) فى العصور الوسطى المسيحية[١] .

«لقد بدأ الفكر الإسلامى من الوحى الدينى .. وتأثر بعوامل شتى.. ثم أخذ هذا الفكر يشق طريقه بقواه الخاصة. وفعل الفكر الإسلامى ذلك فى حركة دفاعية ضد الآراء المعادية التى كانت تهدد العقيدة الإسلامية قليلا أو كثيرا. وأراد نفر من المفكرين المسلمين الذين أحاطوا بالفلسفة اليونانية أن يضعوا قوى العقل فى نصرة عقيدتهم، وبذلك انتزعوا تلك الأسلحة من أيدى خصومهم ووجهوها إليهم. وهذا المنزع الفكرى المناضل يميز أولئك الذين يعرفون فى تاريخ الفكر الإسلامى باسم «المعتزلة»..»[٢].

❊ ❊ ❊

«يقول الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ/ ١٠٥٨ـ ١١١١م] عن أثر الشك فى التوصل إلى الحقيقة:

«إذ الشكوك هى الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال. نعوذ بالله من ذلك»[٣].

---

(١) المصدر السابق. ص ٢١٠، ٢١١.

(٢) المصدر السابق. ص ٢٠٢.

(٣) المصدر السابق.ـ هامش ـ ص ٢٤٤.

ـ ١١ـ

أما الشهادة الحادية عشرة من شهادات العلماء الغربيين المنصفين للإسلام وحضارته، فهى للمستشرق الإيطالى المعاصر ـ والعالم البارز ـ «جابرييلى» (فرانشسكو Gabrieli, Francesco [١٩٠٤ ـ ١٩٩٦م]. . وهو كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها فى جامعة روما . . والمبرز فى دراسة الشعر العربى ـ علي مر تاريخه ـ وفى تحقيق نصوص التاريخ الإسلامى . . وفى الدراسة للحضارة الإسلامية وتاريخها . . والفرق الإسلامية . . ومقارنة النصرانية بالإسلام . . وهو مترجم للعديد من نصوص الفكر الإسلامى إلى الإيطالية . . والعضو المراسل فى المجمع العلمى العربى بدمشق، وفى غيره من المجامع والجمعيات العلمية .

وهو ـ فى شهادته هذه ـ يقارن بين سماحة الإسلام وبين تعصب النصرانية!! . . ويؤكد على تحول سماحة الإسلام إلى واقع معيش ـ وليس مجرد فكر نظرى ـ . . كما يؤكد على التأثيرات الحضارية للإسلام فى صقلية . . وفى إيطاليا . . تلك التأثيرات التى دفعت أوربا إلى النهوض، والخروج من ظلمات عصورها الوسطى .

يشهد «جابر ييلى» على ذلك كله فيقول :

«إن الإسلام أضفى على «عقائد أهل الكتاب» أى المسيحية واليهودية مكانة خاصة يحميها الشرع، وإن تكن ذات مرتبة أدنى فى الدولة. ولم يدم التزمت والاضطهاد فترات طويلة إلا فى أوقات الشدة وعدم الشعور بالأمان. أما قانون المسيحية فليس فيه أى مكان لأى دين آخر، لذا فقد انتقل بسرعة وبتطور منطقى، عندما انتصر على الإسلام، إلى التعصب والاضطهاد..[1].

* * *

(١) جابر ييلى : «الإسلام فى عالم البحر المتوسط» دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] تصنيف «شاخت» و«بوزورث» القسم الأول ص ١٤٣ ـ مصدر سابق .

«لقد انتشر دين بلاد العرب الذى جلبه الفاتحون معهم فى شبه الجزيرة بسرعة، كما حدث فى جميع البلاد التى فتحها العرب، وأصبح هو السائد بسرعة بين سكان البلاد الأصليين الذين اعتنقوه (المولدين). وإن لم يصبح هو الدين الوحيد فإلى جانب إسلام الفاتحين الأجانب كان هناك تسامح مع الدين المسيحى الذى طورته إسبانيا بحيث أصبح لها أعيادها الدينية والثقافية وطقوسها الخاصة وكتابها وقدّيسوها. ورغم أن مكانته كانت دون الإسلام فقد كان له وضع قانونى كامل.

على أن هذه المسيحية قد استعربت بسرعة، لغويا وثقافيا، وأصبحت هناك كلمة عربية (المستعربة) (mozarbes, muta'riba) تدل على سكان البلاد الذين بقوا على دين أبائهم تحت الحكم الإسلامى لكنهم أصبحوا ناطقين بالعربية Arabophone أو يتكلمون اللغتين على الأقل. هذه الازدواجية اللغوية، هى خاصة أخرى من خصائص إسبانيا العربية.

* * *

«لقد احتاج العرب إلى أكثر من سبعين سنة (٨٢٧ ـ ٩٠٢ م) ليسيطروا تماما على صقلية، وحوالى ثلاثين عاما (١٠٦٠ ـ ١٠٩٠ م) ليفقدوها. وخلال المائة والخمسين سنة من الحكم الكامل، وكذلك بالطبع فى الفترتين الطويلتين من الغزو والتراجع، كان لديهم متسع من الوقت لجعل الجزيرة «دارا للإسلام» بكل معنى الكلمة .

أما فيما يتعلق بخصائص الحكم العربى ـ الإسلامي فى صقلية، والآثار التى خلفها لنا، فيمكن أن نلاحظ .. من وجهة النظر الغربية والإيطالية(ونحن هنا نتبع رأى أعظم مورخ لهذه الفترة، وهو «م . أمارى»Mamari [١٨٠٦ ـ ١٨٩٩ م] فان هذا الحكم يبدو إيجابيا ومفيدا، لأنه بعث بدم جديد تغلغل فى الكيان العرقى البائس لصقلية البيزنطية والأهم من ذلك بسبب التغييرات التى أدخلها ـ [الحكم العربى ـ الإسلامى] ـ على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى الجزيرة، حيث ألغى الإقطاعات الكبيرة، وشجع تمليك مساحات زراعية صغيرة وأحيا الزراعة الصقلية وأغناها بأساليب ومحاصيل جديدة.

وتظهر الأهمية الحاسمة للفترة العربية فى هذا المجال، فى وجود ألفاظ عربية كثيرة متعلقة بالحياة الاقتصادية، حفظت فى اللهجة الصقلية، ونقلت إلى الإيطالية، وهى فى معظمها تشير إلى المجال الزراعى وإلى الرى والأدوات المتعلقة بالمزارع والأدوات المنزلية، ومنتجات التربة[1].

❊ ❊ ❊

وفى أيام النورمانديين كانت فترة الانتكاسة.. التي بدأت فيها العملية الانتكاسية المتعلقة بإعادة الملكيات الزراعية الكبيرة، وذلك عندما رُدّت إلى الكنيسة ممتلكاتها الهائلة التى ازدادت ثراء بفضل تقوى الملوك وسياستهم، كما ظهر الإقطاع الذى سيكون له أثر غير حميد على الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الفترة اللاحقة.

وهكذا فإن الفترة العربية تظل بالفعل أعلى قمة وصلت إليها تلك الجزيرة الكبيرة الواقعة فى البحر المتوسط [صقلية] سواء من حيث استثمار مواردها والحياة المتعلقة به..[2].

❊ ❊ ❊

«وقد رأى بعض الباحثين ـ وإن لم يثبت ذلك حتى الآن ـ أنه ربما كانت هناك صلة خفية بين المظاهر الأخيرة للحياة الروحية العربية الإسلامية على الجزيرة وبين هذه الثمار الأولى لقصص الحب الرومانسية فى التربة الإيطالية. ولا زال العلماء يتناقشون فيما إذا كانت هذه الآثار لحضارة الإسلام قد زالت نهائيا أم أنها تعيش مرة ثانية مختفية وراء أشكال جديدة.

على أن ما بقى من الفن الإسلامى التصويرى figrative فى الجزيرة رائع وظاهر للعيان ..فالآثار العربية النورماندية ذات الشهرة العالمية (كنيسة بالاتين Capella pulatna بسقفها الذى زينه كله فنانون مسلمون، لعلهم كانوا من مصر، وقصر ريسا Zisa وقصر

(١) المصدر السابق. ص ١١٦ ـ ١١٨.

(٢) المصدر السابق. ص ١١٩.

كوبا Cuba وبقية فن العمارة المنتمى إلى هذه الفترة فى «باليرمو» وغيرها ـ هذه الآثار هي سجل محفوظ يثبت ارتباطها بالفن العربى للغرب (الإسلامى) .

ومن شأن التحليل المتجرد لعادات الشعب الصقلى ولنفسيته الفردية والجماعية أن يرجعنا إلى الإرث العربى، حتى فى بعض النواحى الأقل إيجابية، لكن رصيد حساب التاريخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى للفترة الإسلامية يشهد إلى حد كبير بفضل ذلك الإرث.. [(١)].

* * *

«ومن الأمثلة المعروفة «للعناصر العربية» فى فن جنوب إيطاليا، الأبنية الأثرية «ساليرنو» و«أمالقى» و«كانو سادى بوليا» Canosa di Boglia وكذلك فى وجود أعمال عديدة للفنون الإسلامية الفرعية لا فى كنوز كنائس الجنوب فحسب، بل فى وسط إيطاليا أيضا(لازيو Lazio) و(مارنشس Marches) و(توسكانى Tuscany ..[(٢)].

«لقد أخذت أعمال المترجمين ـ ومن بينهم تلك الشخصية الغامضة «قسطنطين الإفريقى» [١٠٨٧م] تكشف للثقافة اللاتينية فى إيطاليا ثمار علم الطب والصيدلة العربيين حتى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، أى قبل تدفق العلم الإسلامى على أوربا من خلال إسبانيا.

وبعد أن فُتح ذلك الطريق الأخير عَبَر العلم والفلسفة العربيان جبال البرانس إلى فرنسا وإيطاليا، وكذلك عبرتها أيضا ـ كما ثبت مؤخرا ـ أفكار شعبية إسلامية تتعلق بالتقوى والعالم الآخر، وربما كان لهذه العوامل تأثيرها حتى على الروائع الغربية الفكرية والفنية.

---

(١) المصدر السابق. ص ١٢١، ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق. ص ١٢٤ .

ولكن، ليكن الأمر واضحا، إن أفضل وأعظم ما جاء إلى إيطاليا بعد سنة ١٠٠٠م لم يأت من الشرق مباشرة، بل من رأس الجسر الثقافى الذى أُقيم فى شبه جزيرة أيبيريا، ومن ثم فهو إشعاع للتراث الشرقى من خلال هذا الطريق.

إن خلاصة التأثيرات العربية على الحضارة الإيطالية فى العصور الوسطى من خلال جميع هذه الطرق، إنما نجدها فى العناصر اللغوية العربية التى دخلت اللغة الإيطالية. وهذه الناحية كثيرا ما عولجت بطريقة غير جدية، ولم تعالج إلا مؤخرا فقط بطريقة علمية رصينة. هذه الدراسة المنهجية للعنصر اللغوى تتركز حسب ما يقرره أكبر الثقاة المعاصرين فى هذا المضمار اليوم، وهو «ج. ب. بللغرينى» G.p.pelligrini «على المبادلات التجارية ومفردات دار الجمارك والمنتجات المستوردة من المغرب ومن الشرق».

فمن الأمثلة التى يشيع الاستشهاد بها فى هذا المجال ألفاظ مثل «دكان»Dogana وتعنى (جمارك دار الجمارك)، و«مخزن» Magazzion، و«معونة» Maona (شركة تجارية)، و«مخاطرة» Moatra (نوع من القروض بفائدة). وأسماء العملات Turi والمقاييس (Rubbio أوالربعة). والأوانى (الزير ziro)، و(الجرة Giara)، و(الغرافة Gu-raffa). ومواد وأنواع الألبسة (الجبة Giubba) و(القفطان Guffutanuk)، و(البردة Borwaechino) وما شابه ذلك.

ولكن يجب أن يضاف إلى هذه النواة التى تمثل فى الأغلب المهن التجارية، كلمات تنتمى إلى ميادين أخرى مختلفة تماما، كالعلوم (علم الفلك التنجيم والرياضيات والكيمياء، وعلم الصيدلة والطب وأساليب الفن، والفلسفة)..»[1].

(١) المصدر السابق. ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

أما الشهادة الثانية عشرة فهى لواحد من كبار المستشرقين الألمان «بكَر»(كارل هيزش) Becher G. H [١٨٧٦ - ١٩٣٣م] وهو الذى تخرج من مدرسَة اللغات الشرقية وعين أستاذا لها فى هامبوج سنة ١٩٠٨ م وفى بون سنة ١٩١٣ م . . وهو ضليع فى التاريخ الإسلامى ، وفى دراسة العوامل - الداخلية والخارجية - المؤثرة فى هذا التاريخ . ولقد أنشأ مجلة الإسلام سنة ١٩١٠ م . . وتولى وزارة المعارف سنة ١٩٢١ م . . وشغل كرسى الأستاذية الفخرية فى جامعة برلين سنة ١٩٢٥ م .

ومن تحقيقاته وتآليفه وترجماته : نشر مناقب عمر بن عبد العزيز - لابن الجوزى سنة ١٨٩٩ م . ودراسة عن عمر بن عبد العزيز سنة ١٩٠٠ م . وسيرته - لابن عبد الحكم سنة ١٩٣٧ م . ومصر فى عهد الإسلام سنة ١٩٠٣م . . والنصرانية والإسلام سنة ١٩٠٧ م . . ودراسات عن الفتح العربى سنة ١٩١٢م . . ومجموعة بحوث فى الإسلام سنة ١٩١٦ م . . والطولونيون سنة ١٩١٠ م . . والخليفة الظاهر . . والإسلام فى إطار تاريخ الحضارة سنة ١٩٢٢ م . . وإسلاميات سنة ١٩٢٤ م . . والطب فى شمال إفريقيا سنة ١٩١٠ م . . وكتابات فى سوريا سنة ١٩١١ م . . والوقف سنة ١٩١١ م . . والشعائر الإسلامية ١٩١٢ م . . والحديث فى الفقة الإسلامى سنة ١٩١٣ م . . . والأدب الحديث فى شمال إفريقيا سنة ١٩١٣ م . . ومن القانون الإسلامى سنة ١٩١٤ م . . والجوامع فى الإسلام سنة ١٩٠٦ م . . وفتوح العرب سنة ١٩٠٩م . . والمماليك سنة ١٩١٠م . . والجدل العقائدى بين المسلمين والنصارى سنة ١٩١٢م . .

يشهد صاحب هذا الصرح الفكرى والعلمى . . وصاحب الدراسات المقارنة بين

المسيحية والإسلام . . يشهد على سماحة الإسلام وعلى ازدهاره فى مناخ الحرية التى أقامها . . فيقول :

«فالدين الإسلامى أقام بناءه المذهبى فى جو من التفكير الحر، بعكس الدين المسيحى، الذى تمثله كنيسة قائمة على طغمة، أى على نظام تصاعدى، وبيدها خلاص الناس..

ففى الإسلام كان مجال الاختلاف أوسع بكثير منه فى المسيحية، لأنه لم يكن به شىء يشبه القاضى الذى يصدر الحكم الفاصل لا استئناف له...» [1]

(١) بكر : «تراث الأوائل فى الشرق والغرب» دراسة منشورة بكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى - [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] - مصدر سابق - ص ١١ ، ١٢ .

-١٣-

أما الشهادة الثالثة عشرة فهى للمستشرق الفرنسى الشهير- والمعاصر - «مكسيم رودنسون».Rodinson,m. [١٩١٥ - ٢٠٠٤ م] . . الأستاذ بمدرسة الدراسات العليا بباريس . . ثم مديرها . . وصاحب الدراسات العديدة عن: أصول الإسلام . . وعلم الاجتماع الإسلامى . . وعن: رسول الإسلام . . وعن : المقارنة بين الإسلام والرأسمالية . . والإسلام والشيوعية . . وعن: تأثيرات اللغة العربية فى بعض اللغات الأوربية والتأثير الإسلامى فى الشاعر الإيطالى دانتى [١٢٦٥ - ١٣٢١ م] . .

وفى هذه الشهادة يتحدث «رودنسون» عن سماحة الإسلام، التى عندما وضعت فى الممارسة والتطبيق، جعلت الشعوب الأوربية المسيحية - فى إيطاليا والقفقاس - تتطلع إلى الحكم الإسلامى - العثمانى - لينقذها من جور الحكم الأوربى - المسيحى!! . .

كما يتحدث «رودنسون» عن الاستشراق . . وعلاقته بالتنصير . . واستخدامه سلاحا ضد الإسلام بدلا من السيف والقتال !! . . يتحدث عن ذلك، فيقول:

* * *

«ففى إيطاليا، عبرت كثير من الأقاليم لحكوماتها المستبدة عن أنها ترحب من كل قلبها بغزو تركى مثلما فعل بعض البلقانيين المسيحيين.

وهكذا فقد اندمج الأتراك، على الصعيد السياسى، فى الجو الأوربى. على أن هذا

لا يعنى أن اندماجهم كان من جميع النواحى. والذى حصل هو أن مرارة الحقد الدينى ضمن العالم المسيحى نفسه قد جعلت الإسلام يبدو أقل غرابة وأقل مدعاة إلى النفور..

لقد لجأ أتباع مذهب «كالفن» [١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م] فى هنغاريا وترنسيلفانيا، وبروتستنت سيليزيا، وقدماء المؤمنين من قفقاس روسيا إلى تركيا، أو تطلعوا إلى الباب العالى فى هروبهم من الاضطهاد الكاثوليكى أو الأرثوزكسى، وذلك مثلما فعل اليهود الإسبانيون قبل ذلك بقرنين..»(١).

* * *

«لقد ظهرت الترجمات اللاتينية لهذه الأعمال تدريجيا، وانتشرت ثروة العرب العلمية بحيث وصلت إلى إنجلترا واللورين وساليرنو، وخصوصا إلى إسبانيا حيث كان الاتصال يجرى بسهولة أكثر. ثم أخذت أعمال الترجمة تنمو وأصبحت أكثر تنظيما فى ذلك البلد بعد سقوط مدينة طليطلة العظيمة [٤٧٨ هـ ١٠٨٥م] وهى أحد مراكز النشاط الفكرى هناك. وبالطبع لم يجر البحث فى المخطوطات العربية عن صورة الإسلام أو العالم الإسلامى، بل عن المعرفة الموضوعية للطبيعة. ومع ذلك كان لابد من أن تتوفر بعض المعلومات عن المسلمين أصحاب هذه المعرفة..

* * *

وقد ظهرت كلمة «(مستشرق) فى إنجلترا حوالى سنة ١٧٧٩ م.. وكلمة Orientoi-liste فى فرنسا سنة ١٧٩٩م.. وأُدرجت كلمة «Orientalisme» (الاستشراق) فى قاموس الأكاديمية الفرنسية Dic.de I'Acodemie francaise سنة ١٨٣٨ م.. وأخذت فكرة إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق تلقى المزيد من التأييد.

فقد أدرك العلماء، فى الفترة التى نتحدث عنها أنه لا يمكن القيام بأية دراسة للشرق

---

(١) رودنسون: «الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية» دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] تصنيف «شاخت» و«بوزورث» ـ مصدر سابق ـ القسم الأول. ص ٥٦، ٥٧، ٦٥، ٦٦.

قبل القيام بدراسة سابقة للنصوص الأصلية التى تحتاج بدورها إلى معرفة عميقة باللغات الأصلية.

وقد تبين فى ضوء المادة التى تجمعت أن هذا العمل المسبق واسع جدا ويقتضى تحقيق النصوص وترجمتها، وكذلك وضع المعاجم وكتب القواعد المخطط لها بطريقة علمية، وشرح التاريخ السردى.. إلخ..

ولقد عقد أول مؤتمر للمستشرقين، بباريس سنة ١٨٧٣ م .. ومع أن «جوزيف فون هامربور غشتال . Von hammerpurgstall [١٧٧٤ـ ١٨٥٦] كانت تعوزه الدقة الفيلولوجية، فإنه لم يكن يضاهيه أحد فى نشر المعرفة بالشرق على نطاق شعبى، وقد أسس أول مجلة أخصائية للاستشراق فى أوربا «صندوق الكنوز الشرقية»fundgruben des Orients (١٨٠٩ ـ ١٨١٨ م) التى كان يكتب فيها معظم المستشرقين الأوربيين بالإضافة إلى بعض العلماء الشرقيين..

وتأسست جمعية باريس الآسيوية Sociote Asiatigue deparis سنة ١٨٢٠ م، وفى سنة ١٨٢٣م أصدرت دوريتها تحت اسم المجلة الآسيوية Journal Asiatigue.

وفى سنة ١٨٣٤م ظهرت مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لبريطانيا العظمى وأيرلندا .Journal of the royal asiatic society of greal

Britain and ireland بعد أن تأسست الجمعية نفسها اعتبارا من سنة ١٨٢٣م.

وفى سنة ١٨٣٩م حلت مجلة منتظمة فى صدورها هى مجلة الجمعية الآسيوية للبنغال .J.of the as. soc of Bengal مكان مجلة الأبحاث الآسيوية (Asiatic researches) فى الهند التى كانت تصدرها جماعة ويليام جونز».

وفى سنة ١٨٤١ م أصدر فرع بومباى مجلته الخاصة به.. وشهد سنة ١٨٤١ م تأسيس الجمعية الشرقية الأمريكية، التى كان لها بدورها مجلتها الخاصة. فى سنة ١٨٤٩ م صدرت مجلة الجمعية الشرقية الألمانية:

feitschrift der Deutschen morgenlandischen Gesellschaft

فى ليبزج. وقد أصدرتها الجمعية الشرقية الألمانية التى تأسست قبل ذلك بعامين.

وكانت الحركة التى أدخلت الثقافة الغربية إلى روسيا منذ النصف الثانى للقرن الثامن عشر، قد أنتجت بعض الأعمال فى حقل الاستشراق. فمنذ عام ١٨٠٤ م توسع تعليم اللغات الشرقية على المستوى الجامعى فى خاركوفkharkow والأهم من ذلك وصوله إلى قازان kazan التى كانت تقع ضمن الأراضى الإسلامية.

وهكذا أخذت تتشكل فى أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامى بوصفه مهدا لفلاسفة عظام. وكانت تلك الصورة مضادة تماما للصورة السابقة ..واستطاع علماء اللاهوت أن ينقلوا إلى المسيحية ما كان يذكره ابن سينا [٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م] عن الحضارة الإسلامية، فمثلا استخدم «روجر بيكون» R.Bacon [١٢١٤ ـ ١٢٩٢ م] تقريبا من أجل تفخيم منصب البابا، ما ذكره ابن سينا عن الإمام الإسلامى. وبدا أن «السراسنة» (العرب) أمة فلسفية فى بعض النواحى. بل لقد جاء وقت كان لفظ «الفيلسوف» يعني فعليا «المسلم» كما هو الحال بالنسبة إلى «أبلار»Abelard (الذى توفى سنة ١١٤٢ م) (والجدير بالذكر أنه كان صديقا لبطرس الموقر([١٠٩٢ ـ ١١٥٦ م].

إن تراكم المعلومات الصحيحة عن الإسلام وأصوله،وكذلك عن الشعوب الإسلامية، والاتصالات المتزايدة على الصعيدين السياسى والتجارى والتقدير الذى نشأ عن ذلك فى بعض الأحيان، والتقدير العميق للمذاهب العلمية والفلسفية التى صدرت عن البلاد الإسلامية، كل هذه الأمور انضافت إلى التطور الداخلى البطئ للعقلية الغربية، وأدت إلى إحداث تغيير فى الزاوية التى أصبحت تنظر من خلالها إلى العالم الأجنبى.

فلقد طرأ على الصورة «الهجومية الوحشية لعدو شيطانى» تغير تدريجى ليبرز بدلا منها مفهوم أدق فى ظلاله، على الأقل فى بعض الأوساط. لأن الصور التى زرعت فى عقول الناس فى أوائل العصور الوسطى، والتى تناولها الأدب الشعبى بالرعاية، كانت لا تزال تؤثر فى عقول الجماهير..(١).



(١) المصدر السابق. ص ٣٦، ٧٨، ٧٦، ٧٧، ٤٠، ٤١، ٤٧.

وهذا الاتجاه نحو فهم أعمق للفكر الإسلامى، وهو الاتجاه الذى نشأ فى هذه الظروف، لم يقدر له أن يطول أمده، فقد تحدث روجر بيكون وريمون ليل(Raymond) [١٢٣٥ - ١٣١٦ م] - تقريبا - عن إحلال الجهود التبشيرية، التى تستند إلى فهم عميق للعقيدة الإسلامية واللغات الإسلامية محل المساعى العسكرية..»[١].

(١) المصدر السابق. ص ٥٠، ٥١.

-١٤-

أما الشهادة الرابعة عشرة فهى لأبرز مؤرخى العلم العالمى - فى الغرب والشرق . . العالم الحجة «جورج سارتون» Sarton,G [١٨٨٤ - ١٩٥٦م] .

وهو مستشرق بلجيكى الأصل ، متخصص فى العلوم الطبيعية والرياضية ، استقر بالولايات المتحدة الأمريكية وتجنس بجنسيتها . . والمحاضر فى تاريخ العلم بجامعة واشنطن سنة ١٩١٦ م . . وهارفارد (١٩١٧ - ١٩٤٩ م) . . والمتفرغ للتأليف فى تاريخ العلم ، والمحاضرة عنه فى الجامعات الأمريكية والأوربية .

والذى درس اللغة العربية بالجامعة الأمريكية ببيروت (١٩٣١ - ١٩٣٢ م) وحاضر فيها وفى كلية المقاصد الإسلامية - ببيروت - عن فضل العرب فى الفكر الإنسانى .

وإلى جانب إجادته للإنجليزية والعربية ، تمكن من الفرنسية والألمانية واليونانية واللاتينية والإسبانية والإيطالية ، مع إلمام بالسنسكريتية والصينية واليابانية ، الأمر الذى جعل نظرته لتاريخ العلم العالمى شاملة ودقيقة .

وهو حامل لست دكتوراهات فخرية ، وعضو منتخب فى عشرة مجامع علمية دولية ، وفى عدد من الجمعيات العلمية العالمية فى التاريخ والعلم والفلسفة ، ورئيس الاتحاد الدولى لتاريخ العلوم بباريس وجمعية تاريخ العلوم الأمريكية والعضو المراسل للمجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٥٥ م . والمشرف على مجلة «إيزيس» ١٩٧٣م . ومنشىء مجلة «أوزيريس» ١٩٣٦ م . والذى بلغت أبحاثه أكثر من خمسمائة بحث . . ومن أهمها : [المدخل إلى تاريخ العلم] - ثلاثة أجزاء - فى خمسة مجلدات - وذلك غير دراساته عن العلم والأدب عند العرب ، والشرق

والغرب فى تاريخ العلوم، والثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط، وحياة العلوم، وغيرها من الدراسات التى أنصفت التاريخ العلمى للحضارة الإسلامية.

وهو - فى هذه الشهادة - يتحدث عن تميز العلم الإسلامى بكونه ثمرة للدين الإسلامى وللوحي القرآنى . . وليس كالعلم المادى الغربى ثورة على الدين ونقضا للوحى السماوى . . وفى هذه الحقيقة تميّز للإسلام، وللعلم الإسلامى معا.

كما يتحدث - سارتون - فى هذه الشهادة - عن العلم العربى باعتباره ثمرة للعبقرية العربية . . وعن اللغة العربية - لغة العلم - . . وعن التميز - فى المنهج - لهذا العلم الذى أبدعته الحضارة الإسلامية.

يتحدث سارتون عن ذلك فيقول:

الإسلام .. والمسيحية .. والعربية .. والفتوحات:

«حادثة واحدة من أخصب الحوادث نتائج فى تاريخ الإنسانية، ألا وهى ظهور الإسلام .. ولقد كانت الهجرة حدا فاصلا فى حياة الرسول وفى تاريخ الدين الجديد، إنها البدء الرسمى للإسلام كدين ودولة معا..

لقد كان محمد مثل إخوانه الأنبياء السابقين، ولكنه كان أعظم منهم نجاحا بما لا نسبة فيه .. كان الرسول رجلا .. ذا عبقرية عظيمة.

والإسلام يمكن أن يعد انشقاقا من اليهودية أو النصرانية، ولقد عده بعضهم كذلك.. فالإسلام، حسب هذا الرأى مكمل لليهودية وللنصرانية. إلا أن الدارسين العدول يقولون إن الإسلام ثالث الأديان الكبرى التى يتمم بعضها بعضا، والتى ترجع إلى مجموع واحد.

❊ ❊ ❊

ولقد اتفق (ولم يكن الرسول ليستطيع ذلك لو لم يكن مؤيدا بقبس من الوحى) أن اللغة الوحيدة التى عرفها رسول الله كانت من أجمل اللغات فى الوجود .. فالرسول، مع

أنه أميّ، كان يملك ناصية اللغـة، إذ آتاه الله بيانا، ووهب اللغة العربية مرونة جـعلتها قادرة على أن تدون الوحى الإلهى أحـسن تدوين بجـميع دقـائق معـانيـه ولفتـاته وأن تعبـر عنه بعبارات عليـها طلاوة وفيها متـانة.. وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربـية إلى مقام المثل الأعلى فى التعبير عن المقاصد..

* * *

«ولقـد أدرك الإسلام الحـاجـة إلى تنظيم شـديد كـيمـا يقـوي إيمان المسلمين وتتطهـر قلوبهم. من أجل ذلك كان شـهر الصيام، والحج من التمـارين التى تحمل على هذا التنظيم وتقوم به أحسن قيام.

إن كثيـرا من كـنائسنا نحن قـد ضعفت إلى درجـة التفـه لتساهلهـا ولفقـدان التنطيم فيـها ولقلة مـا تفرضه على أتبـاعهـا.. إن أتباع هذه الكنائس إذا دفعـوا اشتـراكاتهم (بدل جلوسهم على مقـاعد الكنيسة) عـدوا من المؤمنين حـقا. إن مثـل هذه الكنـائس قد تكـون غنية، ومع ذلك فإنها من حيث التأثـير فى حكم المفقودة. فـإذا كنتم تريـدون أتباع كنـائس ذوى إيمـان فـعليـكم أن تفـرضـوا عليـهم نظـامـا شـديدا، وأن تتطلبـوا منهم تضـحيـات حقيقية.

ولقد عـرف محـمد ذلك جيدا، وهذه عـلامة ثانية من عـلامات عـبقـرية النبوة فـيه.. وخلاصة القول:إن الرسول جاء بدين توحيدى قـبل أن يقوم فى النصرانية من يقول بشرعة التوحيد بتسعة قرون ـ [الإشارة للمذهب المسيحى الوحدانى ـ المنكر للتثليث]ـ. . إنه لم يتح لنبى من قبل ولا من بعد أن ينتصر انتصارا تاما كانتصار محمد.

* * *

إن الإصرار على تفـوق اللغة العربـية ـ خاصة ـ أو عـلى حاجة الدين إليـها، هو الذى جعل لها انتشارها الحاضر ثم حفظ لها هذا التفوق قرونا عديدة. ولولا هذا الدفاع الضمنى لبقيت اللغـة العربية لغة قبلية بلا قـيمة عامة، أو لاضمحلت تمامـا، ولكان شأن العرب فى ذلك شأن نصـارى الشرق الأوسط الذين تركـوا لغتيـهم المقدستين ـ السـريانية والقـبطية ـ

حتى زالتا. من أجل ذلك لم يكن محمد نبى الإسلام فحسب، بل نبى اللغة العربية والثقافة العربية على اختلاف أجناس المتكلمين بها وأديانهم.

* * *

إن الفرق بين القرآن والإنجيل عظيم جدا، وهو يرجع إلى أن القرآن الكريم قد صدع به النبى نفسه ..وإلى أن القرآن يشتمل على جميع الأسس الضرورية للحياة الإسلامية: الدين والفقه والتشريع والتقويم واللغة.. ثم إن الإنجيل لم يوجد تقويما، والتأريخ المسيحى(الميلادى) وضعه راهب سيثى Scythian اسمه:«يونيسيوس أكسيغوس» نحو عام ٥٢٥ م. ولقد كان قبول هذا التأريخ بطيئا وتدريجا حتي أن البلاط البابوى نفسه لم يستعمله استعمالا دارجا إلا فى القرن العاشر.. أما المسلمون، فلقد بدأوا التأريخ بالسنة الإسلامية بعد سبع عشرة سنة فقط من الهجرة..

* * *

إن الفتوح العربية لم تكن نتيجة صراع بين برابرة جياع وبين سكان مدن أخذوا يتقهقرون فى سلّم المدنية، بل كانت فى الأكثر صراعا بين دين جديد وثقافة جديدة ناشئة فى المحل الأول، ثم بين ثقافات منحلة متعادية قلقة فى المحل الثانى. هذه الفتوح كانت إلى حد بعيد تتخذ طبيعة حرب صليبية مضادة، لقد كانت انتصارا للهلال على الصليب..

لقد سبق لإيمان المسيحى أن تزلزل بالمنازعات اللاهوتية التى امتدت قرونا عديدة، وبالحرمانات المتبادلة، فقاد ذلك إلى استقبال النصارى فى الشرق الأوسط جيوش الفاتحين المسلمين على أنها منقذة لهم من استبداد الكنيسة الأرثوذكسية.

ثم إن الإسلام ـ فى الدرجة الثانية ـ كان لا يزال غضا موحدا، كما أن المجاهدين المسلمين كانت تملك عليهم لبهم آمال عظام: آمال بالثروة والسلطة فى هذا العالم وبالثواب الخالد فى العالم الآخر. وكان الإيمان فى الإسلام بسيطا، كريما ومعتدلا، ومع

ذلك فقد كان بالإمكان أن تشيع فيه الحماسة حين البأس إلى حد بعيد فينقلب المجاهدون حينئذ ذوى حمية، إما أن يبلغوا بها الظفر أو يسقطوا دونه شهداء. لقد كان الظفر والاستشهاد عندهم سيين..[1].

* * *

تاريخ العلم :

إن تاريخ العلم (أو تاريخ المعرفة) يجب أن يكون النواة لكل تاريخ للحوادث الإنسانية، والإجماع واقع على أن تاريخ العلم بدأ، على التحقيق، فى المكان الذى تواضعنا على أن نسميه بالشرق الأوسط، مع أنه من المستحيل علينا أن نجزم فى أى قسمى هذا المكان بدأ:أفى القسم الغربى منه فى مصر، أم فى القسم الموغل نحو الشرق، فى ما بين النهرين؟.. إن دَيْننا لمصر ولما بين النهرين عظيم، إنه عظيم جدا، حتى أن موجزا قصيرا فقط، لما بلغه هذان البلدان الموهوبان فى العلم، تضيق عنه هذه المحاضرة. ولكن دعونى أذكركم بحقيقة واحدة هى أن هذين البلدين كليهما اكتشفا وسائل الكتابة ..ونحن على كل حال مدينون للأمتين كلتيهما بنشوء الفن والأدب والرياضيات والفلك والكيمياء وبصناعات أخر. وإننا نحن الغربيين مدينون لهم بكتابنا المقدس نفسه وبديننا وقواعد أخلاقنا دينا كبيرا.

إن الحقيقة القائلة بأن مهد المدنية الغربية كان على ضفاف النيل والفرات ودجلة لم تكن تفهم حق الفهم قبل عصرنا الحاضر. أما الآن فإنها قد أصبحت واضحة أجلى الوضوح، بل نحن اليوم نستطيع أن نجزم بلا تردد بأن العلوم الغربية قد ولدت فى تلك البلاد المحظوظة.

وكذلك لم يمض بعد وقت طويل على الزمن الذى كان الدارسون يرون فيه أن جذور المدنية الغربية كانت فى اليونان، فيما يتعلق بالعلم وفى فلسطين بالدين ثم لم

---

(١) سارتون : [الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط] ص ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ـ٣٤، ٣٦ ـ ٣٨، ٤١ ـ ٤٤ ـ ٤٦ ، ٤٧ . ترجمة : د. عمر فروخ . طبعة بيروت ١٣٧٢هـ ١٩٥٢م .

يكـلف الداسـون أنفسهم أن يذهبوا إلى ما وراء ذلك. ولكننـا نحن اليـوم نعلم أن اليونان واليـهـود أنفـسم مـدينـون بذلك للمـصـرين والبـابليـين وربمـا لغـيـرهم أيضـا من الأمم القديمة.

إن العـلم اليـونانى لم يكن بدء الحـركـة العلمية ولكنه كـان ذروة لجهود علمـية ترجع إلى ما قـبـل ألفى عام قبل ذلك. وإن لـدينا رسـائل مصرية فى الرياضـيـات والطب تعود إلى القرن السابع عـشر ق. م، ولكنها مسـتقاة من كتابات أسـبق عليها ببضعـة قرون أُخر. وقد تعود أطباؤنا إذا ذكروا «أبو قراط» [٤٦٠ ـ ٣٧٧ ق. م] أن يسموه «أبا الطب»، ولكن قـد يكون مـن الخـيـر لهم أن يذكـروا أن «أبـو قـراط» ليس رأس الطب، ولكـنه يقف فى منتصف تاريخ الطب بين «إمحوتب» [عاش حوالى ٢٨٠٠ق. م] وبيننا. وكان «إمحوتب» هذا وزير فرعـون «زوسر» وطبـيبه، وقـد اشتـغل بالطب فى مصـر فى القرن الثـلاثين قبل الميلاد.

وكذلك يحـسن أن نلاحظ أن أقدم العلمـاءالطبيـعيين اليـونانيين (دارسى الطبيـعة) لم يكونوا فى أوربة، بل على الشواطـىء الغربية لآسيـة الصغرى وفى الجزر القـريبة من تلك الشواطىء. أجل إنهم كانوا ينتـمون إلى جوال يونانية، ولكنهم كانوا مـتأثرين بالشرق. ثم إن اليونانيين أنفسهم كانوا ينظرون جنوبا أو شرقا للبـحـث عن مهد المعرفة والحكمة، ولقد سافر كثيرون من هؤلاء إلى مصر وبابل لطلب العلم.

وإذا نحن رجعـنا إلى العلم اليونانى وجـدناه قد تشرب بمؤثـرات شرقيـة مختـلفة، من إيرانيـة وبابليـة ومصـرية. هذه المـؤثرات يـمكن أن يتـتبعـها البـاحث فى كتب أفـلاطون [٤٢٩ ـ ٣٤٠ ق. م] فـضـلا عن كتـاب يونانيين آخـرين كـان الأثر الشـرقى عندهم أشـد وضوحا..(١).

❊ ❊ ❊

العلم الإسلامى:

«إن الإمبـراطورية الإسلامـية قد شـيدت على التـعاون مع اليـونان والفرس والأقـباط

---

(١)المصدر السابق. ص ٢٠ ـ ٢٦.

وغيرهم: نصارى ومجوسا وصابئة ويهودا. والعرب لم يحتاجوا إلى معونة هؤلاء فى الدين والآداب ـ أو هكذا خيل إليهم ـ ولكنهم قد أدركوا بسرعة مدهشة أن التفوق الثقافى الذى امتاز به الأجانب إنما كان راجعا فى الأكثر إلى جهازهم الفنى والعلمى.

هذا الإدراك هو الذى فسح المجال لما يجوز أن نسميه معجزة العلم العربى، آتين بكلمة معجزة لترمز إلى تفسير ما بلغ إليه العرب فى الثقافة والعلم مما يخرج عن نطاق التصديق.

إن العلم العربى كان ثمرة للعبقرية السامية التى خمرت بالعبقرية الفارسية ..ويحاول نفر من المؤرخين أن يبخسوا قدر هذا الإنتاج العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكارما، وبأن العرب لم يكونوا سوي مقلدين. إن هذا الحكم ينكشف عن خطأ فادح، فمن بعض الوجوه ليس ثمة شيء يمكن أن يعد ابتكارا صحيحا أكثر من ذلك الظمأ الذى تملّك على القادة العرب حواسهم فى سبيل المعرفة. على أننا لا نشك فى أن قسما من هذه المعرفة قد احتاج إليه العرب حاجة مباشرة للإدارة والحكم غير أنهم مروا سريعا من هذا الطور النفعى إلى طور أسمى منه.

ولقد يعترض معترض فيقول:إن النَّقَلَة كانوا فى الأكثر أجانب غير مسلمين وغير عرب فى الأغلب أيضا، وهكذا وجب أن يكون كل فضل لهؤلاء النَّقَلَة لا لأولئك الذين استأجروهم. لا، إن الفضل يجب أن يكون للفريقين.. والحكام العرب كانوا عموما راغبين فى عمل النَّقَلَة، وكانوا كثيرا ما يتنافسون فى ذلك منافسة شديدة. لقد كانوا هم البادئون، والبادئ أفضل..

إن العرب لم يستغلوا الآثار اليونانية فحسب، لقد كانوا يتشوقون إلى أن ينهلوا من كل مورد، ثم إنهم لم يتأخروا كثيرا قبل أن يتفهموا تلك المعرفة ويستنبطوا منها أشياء جديدة.

إن أعظم الابتكارات العربية فى الرياضيات والفلك كانت شيئين: علم الحساب الجديد، وعلم المثلثات الجديد. ومما تحسن الإشارة إليه هنا أن هذين العلمين قد قاما على

أساس مزدوج من الآثار السنسكريتية واليونانية. ومثل ذلك كان شأن الطب، فقد عرف العرب الطب من طريق الهند ومن طريق اليونان معا.

غير أن أولئك الذين ينكرون محاسن العرب ويبخسونها قيمتها ليحتجون مرة ثانية بقولهم: إن الأخذ من مصادر متعددة ليس، على كل حال، خيرا من الأخذ من مصدر واحد. تلك طريقة فى المجادلة مضللة، وخصوصا إذا كان الكلام يتناول الرياضيات. ثم إن الرياضيين العرب ـ فى تلك الحالتين المذكورتين آنفا ـ لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخا، ولو أنهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة، ولكنهم جمعوا بين المصدرين ثم لقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية.

وإذا لم يكن هذا الذى فعله العرب ابتكارا فليس فى العلم إذن ابتكار على الإطلاق، فالابتكار العلمى فى الحقيقة إنما هو حياكة الخيوط المتفرقة فى نسيج واحد، وليس ثمة ابتكارات مخلوقة من العدم.

ولعل معترضا آخر يقول: إن العلماء العرب لم يفهموا مدى اكتشافاتهم تمام الفهم. ولقد بينت أنا مثلا أنهم لم يستخدموا الأرقام الهندية (العربية) فى المناسبات التى يمكن أن يكون استخدام هذه الأرقام فيها أحسن نفعا، فى الألواح الفلكية والجعرافية مثلا. ولكن،ماذا فى ذلك من الغرابة؟.

إن ما تنطوى عليه الاكتشافات ـ وخصوصا إذا كانت تلك الاكتشافات فعلا مهمة ـ يكون عادة مختلف المظاهر متسع المدى إلى درجة أنه ما من عالم، مهما كانت عبقريته عظيمة، يستطيع أن يفهم تمام الفهم كل ما يفعله. إن استثمار الآراء العلمية يقوم به عادة رجال أقل قدرا من الذين اكتشفوا الآراء، ولكن يكونون أحسن استفادة عملية منها. وعلى أساس هذه الحقيقة استغل «زنوبى غرام» [١٨٢٦ ـ ١٩٠١م] آراء «فارا داى» [١٧٩١ ـ ١٨٦٧ م] وطبق «ماركونى» [١٨٧٤ ـ ١٩٣٧م] آراء «كلارك ماكسويل» [١٨٣١ ـ ١٨٧٩ م]..[١].

* * *

---

(١) المصدر السابق. ص ٤٨، ٤٩، ٥١، ٢٢، ٥٤ ـ ٥٦.

الثقافة العربية .. ومفهوم التقدم :

إن الثقافة العربية الإسلامية كانت ذات أهمية بالغة، وذلك لأنها تؤلف الصلة الأساسية بين الشرق الأدني وبين الغرب، ثم بين الشرق الأوسط وبين آسية البوذية.

وفى أثناء العصور الوسطى كانت اللغة العربية فعلا أكثر اللغات التى تكلمها البشر انتشارا، ولم يتكلم اللغة العربية ويكتب فيها شعوب من أمم مختلفة (فى الشرق والغرب) فحسب بل (وهذا بخلاف اللاتينية) شعوب تدين بأديان متعددة.

لقد كانت الشعوب التى تتكلم العربية فى الشرق الأوسط نقلة العلم اليونانى إلى الغرب، غير أنهم لم يكونوا نقلة فقط ولكنهم على عكس ذلك، زادوا ذلك التراث اليونانى، ثم أورثوه إلى الشعوب اللاتينية أغنى مما كان. وتفوق العرب لم يكن فى ابتكارهم المبدع بقدر ما كان فى ثباتهم وفى شدة حبهم للعلم ..

إن شعوب الشرق الأوسط قد سبق لها أن قادت العالم فى حقبتين طويلتين ـ طوال ألفى سنة على الأقل.

قبل اليونان ثم فى العصور الوسطى مدة أربعة قرون على الأقل ـ ومن أجل ذلك ليس ثمت ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد.

أنا لا أزال أومن بالتقدم كما آمن «سنكا» [٤ ـ ٦٥م] لا كما يفعل أنصاف المتعلمين الذين يقيسون الرقى بالشاقول ـ [آلة يقاس بها استواء السطوح القائمة ـ القياس المادى] أو بمقدار ما فيه من الرفاهية. ولكن التقدم المادى الخالص مدّمر، وهو ليس تقدما على الإطلاق، بل تأخر أساسى.

إن التقدم الصحيح ـ ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة ـ لا يمكن أن يبنى على وثنية الآلات ولا على العتلات ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الفن، وفوق كل ذلك

على العلم، على العلم الخالص، على محبة الله ، على محبة الحقيقة وعلى حب الجمال وحب العدل.

إن المشكلة الأسياسة فى عالمنا اليوم (وفى كل يوم) هى مشكلة رفع المستوى الروحى لمجموع الناس»[1].

(١) المصدر السابق. ص ٥٧، ٥٩، ٦٩، ٧٢، ٧٤.

-١٥-

والشهادة الخامسة عشرة هى للمستشرق الألمانى الكبير «مايرهوف» (ماكس) Meyerhof,max [١٨٧٤ - ١٩٤٥ م] . . وهو من كبار أطباء العيون فى العالم، وفى طليعة مؤرخى الطب العربى . . درس الطب فى هايد لبرج وبرلين وستراسبورج. ونال الدكتوراه فى الطب سنة ١٨٩٧م . . وزار مصر سنة ١٩٠٠م . . واستقر بها ١٩٠٣ . . وتعلم اللغات التي يُتَحدَّثُ بها فى مصر، وعالج الفقراء مجانا، وانخرط فى دراسة الطب العربى . . وانتخب نائبا لرئيس المعهد المصرى والجمعية الطبية المصرية . . وحصل على الدكتوراه الشرفية - فى الفلسفة - من جامعة بون سنة ١٩٢٨ م. وعين أستاذا لتاريخ الطب فى جامعة ليبزيج سنة ١٩٣٠م . . ولكنه عاد إلى مصر واستقر بها، ومات ودفن بها .

وتعد اكتشافاته وكتاباته فى الطب العربي - بالفرنسية والإنجليزية والألمانية - مرجعا دقيقا وافيا فيه . . وله ما يقرب من خمسين عملا علميا - ما بين تحقيق وتأليف - فى الطب والصيدلة عند العرب .

وفى هذه الشهادة يتحدث «مايرهوف» عن :

- امتياز الإسلام وتميزه بالحرية مع العلم، ذلك الامتياز الذى جعل العلم ينزح من الغرب المسيحى إلى الشرق الإسلامى . . بل ويتحدث «مايرهوف» عن اضطهاد النصرانية المصرية للعلم، واحتضان الإسلام لهذا العلم، حتى فى العصور التى ضيق فيها بعض الخلفاء على الفلسفة . .

- كما يتحدث عن التعليم والمكتبات فى الحضارة الإسلامية .

- ثم يفيض فى الحديث عن الطب العربى الإسلامى . . والمنهج النقدى للأطباء العرب .

ـ ثم يتحدث عن الصيدلة العربية . .

ـ كما يتحدث عن البصريات . .

ـ ثم يتحدث عن العلوم : الفيزياء . . والجيولوجيا . . والكيمياء . . وعن العربية : لغة العلم . .

ـ ثم يتحدث عن المقاييس والموازين .

ـ كما يتحدث عن صناعة الورق .

ـ ويتحدث عن الموسيقى . .

ـ ثم يتحدث عن تأثيرات العلم الإسلامى فى النهضة الأوربية . .

يشهد «مايرهوف» على ذلك كله ، فيقول :

العلم بين المسيحية والإسلام:

«إلى «جند يسابور» فى جنوبى غربى إيران.. نزح علماء الإغريق من أثينا عندما أغلق «جو ستنيان» [٤٨٣ ـ ٥٦٥ م] جميع المدارس الفلسفية ٥٢٩ م، فالتقوا هناك بعلماء السريان والهند والفرس فنجم عن هذا نشاط علمى كان له أهمية فى تقدم الفكر الإسلامى.

لقد أرسل«كسرى أنوشروان» [٥٣١ ـ ٥٧٩ م] أطباءه إلى الهند للبحث فى الكتب، ونقلها إلى الفهلوية (لغة أواسط إيران) من لغتها الأصلية السنسكريتية. كذلك ترجمت كتب إغريقية علمية كثيرة إلى الفارسية والسريانية. وأُثر عن طبيب ـ [هو الحارث ابن كلده] ـ كان تلميذا فى معهد «جند يسابور»الطبى، وأحد أصحاب الرسول العربى أنه أول من تلقى دراسة علمية من معشر العرب، وقد ذكر خبره مفسرو القرآن وحفظته»..

❊ ❊ ❊

ومن المؤكـد أن مدرسة الإسكـندرية كانت لا تزال قـائمة وقت أن فـتح العرب مـصر، فكانت تبعا لهذا، المدرسة اليونانية البحتـة الوحيدة فى البلاد التى غزاها العرب فى دفعتهم الأولى .. ولما عـصـفت يد البلى«بمتـحف»الإسكـندرية، والمظنون أن ذلك كـان فى القـرن الثالث الميـلادى، وجدت أيضا مدارس لهـا مكتباتهـا، وسمعنا عن إحداها وهى المعـروفة بالقيصرية تلك التي نهـبت سنة ٣٦٦ م فى أيام ثورة «ثيوذو سيوس الأول» [٣٧٩ ـ ٣٩٥ م] حينئـذ ارتحل معلمـو الفلسفـة عن المدينة لمدة من الزمان ولم يعـد يشعـر الناس بوجود مكتبة فى العاصمة المصرية (الإسكندرية)..

ويبدو مؤكدا من الأخبار التى أوردها المؤرخون العـرب، بعد تمحيصها، أنه كانت هناك قبل دخـول الإسلام مـدرسة أو أكثـر بالإسكندرية، فيـها كـانت الفلسفة والـطب يدرسان بصورة مدرسية واضحة.

هذا النشـاط الذى وجد فـى القرن السـابع كان استـمرارا لحـركة الـعصـر السكندرى الذهبى، ولو أنه صبغ بصبغة المدرسية شيئا فشيئا وظلت تقاومه المنازعات الدينية ولا بد أنه كان مع المدارس مكاتب مـتصلة بها. ومع ذلك فإن «برتـشيا» [ ] على حق حين يقول: إنها لم تكن كبيرة ولا عامة.

والنتـيجة التى نـستخلـصها من روايات «الـفارابى» [٢٦٠ ـ ٣٣٩ هـ ٨٧٤ ـ ٩٥٠ م] و«المسعودى» [٣٤٧ هـ ٩٥٧ م] و«ابن أبى أصيبعة» [٥٩٦ ـ ٦٦٨ هـ ١٢٠٠ ـ ١٢٧٠م] هى أن مدرسة الإسكـندرية وجدت حتى بعد فتح الـعرب لمصر، وأنها انتقلـت بعد مضى ثمانين سنة تقريبا على الفتح الإسلامى إلى الشرق الأدنى..

❊ ❊ ❊

وعندما اجتاح العرب شمال إفريقيـة وغرب آسيا احترموا الإدارة المحلية (جند يسابور) المركز الثقافى للإمبراطورية الإسلامية الجديدة ليتخرج فيها العلماء والأطباء على الأخص، وليؤموا «دمشق» العاصمة أثناء حكم الأمويين [٦٦١ ـ ٧٤٩ م] ومعظم هؤلاء الأطباء هم نصارى ومن بينهم يهود ذوو أسماء عربية

وفى زمن الخليفة العباسى الثانى أبى جعفر المنصور [٧٥٤ ـ ٧٧٥ م] استؤنفت ترجمة كتب الطب اليونانى، وعلى الأخص فى «جند يسابور».

وبهذه الطريقة نقل إلى العالم الإسلامى كل التراث العلمى الضخم الذى خلفه جهابذة اليونان.

لقد كان هناك من المسلمين الكبراء فى قصور الخلفاء من قاموا إلى جانب الخلفاء بمعونة حركة الترجمة وتشجيعها بأن بذلوا المال من أجل الحصول على المخطوطات، وأجروا الأرزاق على المترجمين وتكفلوا بمعاشهم، ومن أشهر هؤلاء الذين عاونوا الحركة أحمد ومحمد ابنا موسى بن شاكر، اللذان كانا فى الآن نفسه فلكيين ورياضيين مشهورين وإلى جانب هؤلاء كان يوجد ثمت كثيرون..

لقد كانت الكتب الدراسية العلمية الموضوعة باللغة السريانية هى السائدة فى النصف الأول من القرن التاسع فما أن بدأ نجم هذا القرن فى الأفول حتى احتلت الكتب العربية مركز الصدارة وزاد انتشارها وصحب هذه الظاهرة اختفاء معهد «جند يسابور» وانتقال جميع العلماء والأطباء تدريجيا إلى بغداد وسامراء المصيف الزاهر للخلفاء.

وفى سنة ٨٥٦ م تقريبا جدد الخليفة المتوكل [٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م] مدرسة الترجمة ومكتبتها فى بغداد وألقى عبء إدارتها على عاتق حنين بن إسحق [١٩٤ـ ٢٦٠ هـ ٨١٠ ـ ٨٧٣ م] ومهد الخليفة ورجال دولته لتلاميذ النصارى سبل البحث العلمى وقدموا لهم جميع التسهيلات للسفر والتنقيب عن المخطوطات اليونانية وحملها إلى بغداد لترجمتها، وإننا لنجد(حنينا) يتحدث هو عن كتاب، الآن مفقود وفى ذلك الزمن نادر فيقول:

إننى بحثت عنه بحثا دقيقا وجبت فى طلبه أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر إلى أن وصلت إلى الإسكندرية، لكنى لم أظفر إلا بما يقرب من نصفه فى دمشق».

وكان يقول «إنه يود على الدوام لو يشتغل بالترجمة ـ على ثلاث نسخ يونانية من الكتاب المنقول على الأقل ليتسنى له المقابلة بينها واستخراج الأصل الصحيح منها.

إنه، وأيم الحق لإدراك حديث عصرى لواجب الكاتب المترجم.

أما عن الدراسة فى معاهد بغداد الطبية فتكفى فقرة مهمة واحدة نوردها من كتاب «حنين»المطبوع مؤخرا: باسم [رسالة فى تراجم جالينوس] لتظهر لنا طرق الدراسة اليونانية تبعث حية من جديد فى سنة ٨٥٦ م ولتعطينا الصورة الدقيقة عن الأسلوب الذى كانت تدرس به كتب (جالينوس) العشرين. قال (حنين):

«اقتصرت قراءة تلاميذ مدرسة الإسكندرية الطبية على هذه الكتب بالنظام والترتيب الذى اتبعته أنا، إنهم تعودوا أن يجتمعوا كل يوم ليقرأوا ويترجموا مقدارا مخصوصا من تلك المؤلفات. كما تعود إخواننا النصارى فى هذه الأيام، من اجتماعات يقصدونها فى المعاهد التدريسية المعروفة بالاسكلى (اسكول) ليبحثوا موضوعا معينا فى أحد كتب السلف، أما بقية كتب جالينوس فقد جرت العادة على دراستها كل واحد بنفسه بعد درس تمهيدى للكتب التى ذكرناها كما هو الشأن من إخوتنا فى تفسير كتب السلف».

وفى هذه الفترة وما بعدها كانت حرية التعليم مكفولة مؤمنة للجميع فى معاهد بغداد ومساجدها، إلى جانب تيسير المترجمات اليونانية ومقتبساتها..»[١].



التعليم .. والمكتبات:

«كان الحج إلى مكة المكرمة فريضة كل مسلم، مما ساعد على انتشار العلم، إذ لا مفر للتلاميذ القادمين من الهند وإسبانيا وآسيا الصغرى وإفريقية من المرور ببلاد مختلفة، فتتاح لهم زيارة المساجد والمعاهد العلمية والاتصال بمشاهير العلماء فضلا عن قدوم أكثرهم من تونس وفارس وسواحل بحر قزوين إلى القاهرة وقرطبة ليردوا مناهل العلم على يد مشاهير الأساتذة.

---

(١) مايرهوف «من الإسكندرية إلى بغداد» بحث منشور بكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] مصدر سابق ٤٥٠، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٥١، ٥٣، ٦٧، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٤، ٥٩. . و[العلوم والطب] دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «أرنولد» - مصدر سابق - ص ٤٥٦ - ٤٥٨.

إن الطريقة العلمية فى التدريس كانت آنذاك شبيهة بالطريقة المتبعة اليوم: يجلس الأستاذ مسندا ظهره إلى عمود أو ركن فى الجامع ويلتئم التلاميذ حوله على شكل حلقة، ويجد الرجال عادة فى جامع الأزهر القاهرى العظيم عشرين أو ثلاثين حلقة من هذه الحلقات المدرسية داخل الصحن المخروطى السقف. إنه ليرى فى ذلك صورة طبق الأصل للدروس العلمية كما كانت تعقد عند قدماء الإغريق وفى معاهد قرطبة المسلمة.

* * *

وكانت العلوم الأخرى غير الطب تلقن فى المساجد، وفى عصور الإسلام المتقدمة كانت المساجد توضع تحت تصرف العلماء بدون قيد أو شرط. وهناك روايات أيضا تنبئ بوجود مكتبات تعليمية أنشأها الخلفاء والأمراء وغيرهم. من عظماء رجال الدولة. ويتحفنا التاريخ العربى بمعلومات لا تحصى عن هذه المعاهد.

وكان لكل مسجد كبير وما يزال مكتبته الخاصة لا فى المواضيع الدينية وحدها بل فى الأبحاث الفلسفية والعلمية أيضا..»[1].

* * *

الطب العربى الإسلامى:

«فى نهاية عصر الترجمة والنقل كان أطباء العالم الإسلامى وعلماؤهم قد كتبوا وهم على أسس مكينة من المعرفة بعلوم اليونان المتزايدة بمقدار كبير من الأفكار والتجارب الفارسية والهندية كأصل.

وبحلول هذا الزمن أخذوا يعتمدون على مصادرهم ومنابع علومهم الخاصة ويتقدمون بها بأنفسهم. وهنا راحت العلوم ولا سيما الطب، تنتقل بسرعة من أيدى النصارى والصابئة إلى أيدى المسلمين ومعظمهم من سكنة بلاد فارس. ففى الطب صرنا نجد عوضا

---

(١) [العلوم والطب] ـ مصدر سابق ـ ص ٤٨٣ ، ٤٨٢ .

عن المجموعات المأخوذة من المصادر العتيقة، موسوعات منتظمة صنفت فيها معارف الأجيال السابقة تصنيفا دقيقا ووضعت مقابل المعلومات الجديدة.

كان الرازى [٢٥١ ـ ٣١١ هـ ٨٦٥ ـ ٩٢٣ م] عندما يريد الكتابة عن أى مرض، ينقل أولا جميع أقوال العلماء والمؤلفين اليونان والسريان والهنود والفرس، وبالأخير يدلى برأيه وتجاربه، حيث أنه كان يحتفظ بأمثلة عديدة رائعة جاءت نتيجة علاجه وتشخيصه الرائع.

* * *

لقد ترجم [الحاوى] إلى اللاتينية بأمر ورعاية «شارل الأول» [٧٤٢ ـ ٨١٤ م] سليل آنجو، ترجمه طبيب يهودى من صقلية اسمه «فرج بن سالم» (فراجوت الجرجنتى) الذى لم ينجز عمله العظيم إلا سنة ١٢٧٩ م، واستبدل لفظة [الحاوى] بمقابلها اليونانية Continens.

إن أعظم كتب الرازى هذا، انتشر فى القرون التالية على شكل مخطوطات لا عد لها، ثم أخذ يطبع باستمرار ابتداء من السنة ١٤٨٦ م. وما أن جاءت السنة ١٥٤٢م حتى كان يوجد من هذا الكتاب العظيم النفيس خمس طبعات عدا أجزاء منه كثيرة طبعت منفصلة، لذا كان أثره فى الطب الأوربى جد عظيم.

* * *

لقد خلّف لنا الكحال المسيحى على بن عيسى البغدادى، المعروف لدى اللاتين باسم (جيزو هالىJesu haly) والمسلم«عماد الموصلى» [٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م] المعروف باسم (كانا موصلى Ganamusali) رسالتين ممتازتين أضافا بهما إلى معلومات الإغريق فى قسم طب العيون زيادات وعمليات جراحية وملاحظات شخصية عديدة لا تحصى، ترجمت كلتاهما إلى اللاتينية وبقيتا من أحسن الكتب المدرسية فى أمراض العين حتي النصف الأول من القرن الثامن عشر عندما بدأ عهد الإحياء فى طب العيون بفرنسا.

* * *

« إن رسالة «أبى القاسم الزهراوى» [٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م] الجراحية وأغلبها مستند علي الكتاب السادس «لبولس الأجنيطى» لكن بإضافات وزيادات لا تحصى. وتضمن مصنفه وصفا وصورا للآلات الجراحية التى كان لها كبير تأثير على غيره من المؤلفين العرب، وساعدت على الأخص فى وضع أسس الجراحة فى أوربا. وترجمت إلى اللاتينية والبروفنسية والعبرية فى زمن متقدم، وعلق الجراحى الفرنسى العظيم «كى دى شولياك» [١٣٠٠ ـ ١٣٦٨م] على الترجمة اللاتينية فى إحدى مصنفاته ـ ولقد اعتمد على الطب العربى فى كتابه [التشريح الأكبر] ١٣٦٣ م، حتى عدد له أحد الباحثين أكثر من مائتى استشهاد بأقوال أبى القاسم الزهراوى..

* * *

«ولقد ظهر فى زمن الخلافة الشرقية (خلافة بغداد) جيل من الأطباء طبقت شهرته الآفاق نذكر منه «على بن العباس» ـ المعروف فى العالم اللاتينى باسم «هالى أبّاس Haly Abbas» [ت سنة ٩٩٤ م] فقد ألف موسوعة ممتازة متقنة سماها [كامل الصناعة الطبية] وعرفت عند اللاتين باسم [الكتاب الملكى] يعالج شئون الطب العملية والنظرية معا، ويبتدئ بفصل من أطرف الفصول وأجلها، يتضمن نقدا مبسطا للرسائل الطبية العربية واليونانية السابقة، وترجم هذا الكتاب مرتين إلى اللاتينية فى زمن متقدم.

* * *

«لقد ركز ابن سينا تراث المعرفة الطبية الإغريقية بالإضافة إلى معارف العرب، وصبها كلها فى كتابه الضخم [القانون فى الطب] وهو فى الحقيقة مفخرة التفكير العربى المنظم ونهاية ما وصل إليه من عبقرية. إن هذه الموسوعة الطبية كانت تشتمل ببحوثها الطب بصورة عامة والأدوية المفردة، والأمراض التى تنتاب جميع أجزاء الجسم من الرأس إلى القدم وأبحاث فى الباثالوجى والصيدلة.

ولقد ترجم «جيرار القرمونى» كتاب [القانون] إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر وترجمته موجودة فى نسخ خطية لا تحصى، وشدة الطلب عليه تتضح من كونه قد طبع فى

آخر ثلاثين سنة من القرن الخامس عشر ست عشرة طبعة واحدة منها باللغة العبرية والباقى باللاتينية، وفى غضون القرن السادس عشر أعيد طبعه أكثر من عشرين مرة ولا يدخل فى هذه الأرقام طبع أجزاء متفرقة من الكتاب. أما التعليقات باللغتين العبرية واللاتينية وباللغات المحلية الدارجة آنذاك على المطبوع منه سواء بسواء، فمما لا يدخل تحت حصر واستمر طبعه حتى النصف الأخير من القرن السادس عشر وربما لم يُكتب من قبل كتاب كان مثله موضع دراسة طويلة دائبة..

* * *

«أما المعاهد العلمية (البيمارستانات) .. فلدينا معلومات وثيقة لأربعة وثلاثين معهدا من هذه المعاهد على الأقل كانت منتشرة فى أنحاء العالم الإسلامى، من بلاد فارس حتى مراكش ومن شمالى سوريا حتى مصر ... وعرفت المستشفيات السيّارة فى القرن الحادى عشر.

* * *

«وعدوى الطاعون وصفها السياسى والمؤرخ والطبيب العربى المشهور «ابن الخطيب الغرناطى» [١٣١٣ ـ ١٣٧٤]، وصفها فى رسالة شهيرة عن الطاعون ـ [المقالة المسماة بمقنعة السائل فى المرض الهائل] التى وصف فيها طاعون غرناطة [فى سنة ٧٤٩ هـ ١٣٤٧م] ـ نجد فيها مثلا فقرة نفيسة:

«وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواترة؛ وهذه مواد البرهان.. و.. وقوع المرض فى الدار أو المحلة، لثوب أو آنية، حتى أن القرط أتلف من علق بأذنه وأباد البيت بأسره، ووقوعه فى المدينة فى الدار الواحدة، ثم انتقاله منها فى أفرادها المباشرين، ثم فى جيرانهم وأقاربهم وزوارهم خاصة، حتى يتسع الخرق، وفى مدن السواحل المستصحبة حال السلامة إلى أن يحل بها فى البحر من عدْوة أخرى قد شاع فيها خبر الوباء .. وصح النقل بسلامة أهل العهود والرحالين من العرب بإفريقية وغيرها لعدم انحصار الهواء وقلة تمكن الفساد منه».

وهذا تصريح متناه فى الجرأه فى أحلك أيام التزمت الدينى. ـ ولقد مهد له ابن الخطيب بقوله: «فإن قيل كيف نسلم بدعوى العدوى، وقد ورد الشرع بنفى ذلك قلنا ..».

وكتب الطبيب المراكشى ابن خاتمة، أبو جعفر أحمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى [٧٠٧ ـ ٧٧١ هـ ـ ١٣٠٦ ـ ١٣٦٩ م] كتابا عن الطاعون الذى اجتاح المرية فى إسبانيا [١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ م]. هذا الكتاب يعد أعظم وأعمق سائر الكتب التى ألفت عن الطاعون فى أوربا بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، نجتزئ منه الفقرة الآتية:

«وجدت بعد طول معاناة أن المرء إذا ما لامس مريضا، أصابه الداء وظهرت عليه علاماته. فإن نزف الأول دما، نزف من الآخر، وإن ظهر فى الأول ورم، ظهر على الآخر أيضا فى المكان نفسه، وإن تكونت قروح وسال منها قيح فى الأول، حصل للآخر مثله، وهذا هو سبيل انتقاله من المريض الثانى إلى الثالث..»

ولتقدير تعاليم هؤلاء الكتاب علينا أن نذكر بأن مبدأ وجود العدوى فى بعض الأمراض لم يبحثها أطباء اليونان، ولقد مر كُتّاب الطب فى القرون الوسطى غير منتبهين إليها تقريبا..[١].

❊ ❊ ❊

المنهج النقدى فى الطب:

«لقد ولد موسى بن ميمون [١١٣٥ - ١٢٠٤ م] فى إسبانيا، إلا أنه قضى معظم حياته الحافلة بالنشاط فى القاهرة بحمى ورعاية صلاح الدين الأيوبى الشهير وأولاده من بعده وكتابه [الأوليات فى الطب] هو خير ما كتب. لقد جرؤ فيه على نقد آراء «جالينوس» نفسه.

أما الند الأصغر لابن ميمون فهو المسلم عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادى

(١) المصدر السابق. ص ٤٦٢، ٤٦٥، ٤٧٦، ٤٧٤، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٧، ٤٨٨.

[٥٥٧ ـ ٦٢٩ هـ ١١٦١ ـ ١٢٣١م] الذى رحل من بغداد إلى القاهرة ليرى كبار العلماء وأرض مصر التى وصفها وصفه الشهير بعدئذ ، بعد أن وصف المجاعات والزلازل التى حدثت فيها بين ١٢٠٠ ـ ١٢٠٢ م.

تقدم بمعلومات عن خواص العظام، وبعد درسه لها فى مقبرة قديمة تقع شمالى غرب القاهرة، راجع وصحح وصف «جالينوس» لعظم الفك الأسفل وعظم العَجُز، فقال فى ص ٦٢ من كتاب [الإفادة والاعتبار]:

«من ذلك عظم الفك الأسفل، فإن الكل قد أطبقوا على أنه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك وقولنا: الكل نعنى به هاهنا«جالينوس». والذى شاهدناه من حال هذا العصر أنه عظم واحد ليس فيه درز ولا مفصل أصلا.. واعتبرنا.. فى أشخاص كثيرة تزيد على ألفى جمجمة .. ثم اعتبرت العظم أيضا بمدافن «بوصير» القديمة .. فوجدته على ما حكيت..»[١].

* * *

فى الصيدلة:

«ومن رسائل الأدوية البسيطة .. رسائل «ماسويه الماردينى البغدادى والقاهرى» [ت ١٠١٥ م] و«ابن وافد» [٣٨٥ ـ ٤٦٧ هـ ٩٩٤ ـ ١٠٧٤ م] فى إسبانيا، وكلاهما معروف معرفة جيدة بتراجمهما اللاتينية، وقد طبعا معا فى قرابة خمسين طبعة أو أكثر.

وكانت الرسائل المؤلفة فى علم الصيدلة خلال هذا العصر لا تحصى، وهى إما فى الأدوية المفردة..أو فى الأدوية المركبة.. ألف (ابن البيطار ـ ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ـ [ت ٦٤٦ هـ]) كتاب [جامع مفردات الأدوية] وكان يجلب أنواع النبات والأدوية من ساحل البحر المتوسط وإسبانيا وسوريا ويدرسها. ووصف فى كتابه أكثر من ألف وأربعمائة عقار طبى وقارنها بأوصاف أكثر من مائة وخمسين عالما عربيا

---

(١) المصدر السابق. ص ٤٨٤، ٤٨٥.

فكان ثمرة ناضجة لأعمق الدراسة ودقة الملاحظة وسعة الاطلاع.. ويعد أعظم ما ألف بالعربية عن النبات..

وقد انتقلت وصفات مركبة طبية قديمة عديدة من هذه الكتب إلى صيدليات أوربا، فدخلت الغرب من الشرق أدوية مختلفة، منها الروب rob ، لمحفوظ عصير الفاكهة الثخين ممزوجا بالعسل (المربى)، والجُليب juleb (بالفارسية الجلاب كُلْ ـ آب) أى ماء الورد، للجرعة الطبية المعطرة والسيروب sirup (بالعربية .. شراب)(١).

* * *

تأثيرات العلم العربى الإسلامى فى أوربا:

«إن المجموعة الكاملة لآثار «الكندى» [٢٦٠ هـ ٨٧٣ م] العلمية مفقودة، ولكن (بصرياته) التى وصلت إلينا بترجمتها الاتينية كان لها تأثير على «روجربيكن» [١٢١٤ ـ ١٢٩٤ م] وغيره من رجال العلم الغربيين .

لقد وصل علم البصريات إلى الأوج بظهور «ابن الهيثم، أبى على الحسن [٣٥٤ ـ ٤٢٩ هـ ٩٦٥ ـ ١٠٣٨ م] .. ولقد عارض ابن الهيثم نظرية «أقليدس» [القرن الثالث ق.م] و«بطليموس» [٩٠ ـ ١٦٨ م] فى أن العين ترسل أشعة الرؤيا إلى الجسم المرئى. وبحث أيضا فى انتشار الضوء والألوان وخداع البصر والانعكاسات الضوئية مع بعض التجارب فى قياس الزوايا المحدبة والانعكاسية. وما زال اسمه يقرن بما سمى عند العرب (مسألة ابن الهيثم) «فى المرايا الكروية المقعرة منها والمحدبة، والمرايا الاسطوانية والمخروطية لإيجاد الموقع الذى ينعكس فيه الجسم ذو البعد المعلوم إلى العين ذات الموقع المعلوم».

هذه النتائج تؤدى إلى معادلة من الدرجة الرابعة، حلها ابن الهيثم بواسطة القطع الزائد.

---

(١) المصدر السابق. ص ٤٧٥ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

واختبر ابن الهيثم انكسار الأشعة الضوئية داخل الأوساط الشفافة (كالماءوالهواء) واقترب كثيرا بتجاربه الطويلة فى القطوع الكروية (أوعية زجاجية مملوءة ماء) إلى الكشوف النظرية فى تكبير العدسات الذى تحقق عمليا فى إيطاليا بعده بثلاثة قرون، فى الوقت الذى مر أكثر من ستة قرون قبل أن يثبت «سنل» [١٥٩١ ـ ١٦٢٦ م] قانون الجيوب الهندسى.

إن «روجر بيكن» ـ من القرن الثالث عشر ـ وكل كتاب القرون الوسطى فى البصريات، وعلى الأخص «فيتلو أو وايتلو» الهولندى، بنوا أبحاثهم البصرية على كتاب البصريات لابن الهيثم بصورة رئيسية، لذلك بقى كتابه منهلا «لليوناردو دافنشى» [١٤٥٢ ـ ١٥١٩م] و«يوهان كبلر» [١٥٧١ ـ ١٦٣٠ م] الذى التزم التواضع بتسمية أعظم كتبه عن العدسات باسم [آثار فيتلو] ـ نشر فى فرانكفورت سنة ١٦٠٤ م ـ ..

وخلّف ابن الهيثم مؤلفات كثيرة صغيرة فى طبيعة البصر.. وفى ظاهرة الشفق ..وتعالج رسائل أخرى له قوس قزح والهالة، والمرايا المسطحة، والمرايا ذات القطع الزائد المجسم. هذه وغيرها من الكتب (فى الظلال والخسوف والكسوف) إنما تنم عن تفكير رياضى رفيع. ووضع بهدى من حساباته وتخميناته، مرايا من المعدن.

وأكثر هذه الكتب والمصنفات من منتوج السنوات العشر الأخيرة من حياته، كما توصل بدراسته العظيمة عن المرايا المحرقة إلى استنباط انعكاس شعاعى فاق فى قوته جميع ما توصل إليه اليونان. وكتابه يكشف عن إدراك عميق تام لطبيعة عمل البؤرة الحارقة، والصورة المنكوسة وعمل حلقات وألوان من الضوء بتجاربه.

وكتب فضلا عن ذلك شروحا على بصريات «أقليدس» و«بطليموس» وعلى [الطبيعيات] و[المسألة] لأرسطو [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م]. ولاحظ صورة الشكل النصفى للقمر فى الشمس أثناء الكسوف على جدار يقابل ثقبا صغيرا يتخلل درفتى النافذة، وكانت تلك التجربة الأولى للغرفة المظلمة...»[١].



(١) المصدر السابق. ص ٤٦٠، ٤٧٨ ـ ٤٨١.

«لقد كان «المسعودى» [ت فى القاهرة سنة ٩٥٧ م] «بلينى» العرب ـ [كايوس بلينوس سكندروس [٢٣ ـ ٧٩ م] أعظم مؤرخى الرومان وجغرافييهم وعلمائهم الطبيعيين] ـ بأدق ما فى التشبيه من معنى، ففى مؤلفه [مروج الذهب] وصف للزلزال ومياه البحر الميت وطواحين الريح الأولى التى ربما كانت من مبتكرات الشعوب الإسلامية، وقدّم ما وصف بعد ذلك بأنه أصل نظرية التطور..

وكان أبوالريحان محمد البيرونى [٣٦٢ ـ ٤٤٠ هـ ٩٧٣ ـ ١٠٤٨م] الملقب بالأستاذ .. أشهر شخصية من العباقرة المسلمين العالميين الواسعى الإطلاع، ومن أولئك العلماء الذين نشروا ظلهم الوارف على العصر الذهبى للإسلام وكسوه بطابعهم .. توصل البيرونى فى الفيزياء إلى تحديد الأوزان النوعية لثمانية عشر معدنا وحجرا كريما تحديدا صائبا.

ونحن مدينون «لابن سينا» [٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م] برسالته فى تكوّن الجبال والأحجار والمعادن وكان من الأهمية بمكان لتاريخ علم الجيولوجيا فى مناقشة تأثير الزلزال والريح والماء ودرجة الحرارة والرواسب والتحجر والتعرية..

وإن الكتابات الكيميائية التى حملت اسم «جابر» [٢٠٠ هـ ٨١٥ م] ما لبثت أن ترجمت إلى اللاتينية ..

ولقد أخذت فنون الميكانيكا تتقدم بخطى حثيثة فى بلاد ما بين النهرين ومصر حيث وُجدت أعمال الرى وشُقت القنوات لتنظيم المياه وخزنها وتأمين المواصلات النهرية. واشتد الاهتمام بنظريات الميكانيكا إلى أقصى درجة ووضعت كتب عديدة فى طرق رفع المياه وإدارة الدواليب المائية والمقاييس والساعات المائية، وأول رسالة فى الميكانيكا مسيورة ظهرت حوالى سنة ٨٦٠ م باسم [كتاب الحيل] لمؤلفيه الرياضيين «محمد وأحمد حسن» أولاد «موسى بن شاكر» الذين كانوا هم أنفسهم من أرباب الترجمة وحماتها ..

ولقد قُدر للسان العرب المبين المرن أن يصبح لسان العلم فى الشرق الأدنى ، كما كانت اللغة اللاتينية لغة الأوساط العلمية فى أوربا الغربية.

ولقد كانت دراسات المقاييس متقدمة جدا عند المسلمين فى العصور المتأخرة ولا سيما

تلك التى تبحث فى الأوزان. وقد ترك لنا «الخازنى، أبو الفتح عبد الرحمن المنصور» [كان حيا حوالى ٥٠٠ هـ ١١٠٧ م] كتابا نفيسا اسمه [ميزان الحكمة] طبع منه أجزاء فقط. وقد تناول فيه بحوث «ثابت بن قرة» [٢٤٨ ـ ٢٨٩ هـ ٨٦٢ ـ ٩٠١ م] بالشرح، وأكمل شرح ما يسمى بالميزان الرومانى أو القبان. ويشتمل مؤلفه فضلا عن ذلك، على أبحاث نفيسة فى الثقل النوعى، والوزن النوعى للخليط المعدنى، وبحث أيضا قضية الكثافة العظمى للماء عندما يكون قريبا من مركز الأرض قبل أن يعرض «روجر بيكن» لهذه الفرضية ويبرهنها ببعض زمن..

وثم مخطوطات رائعة جدا ملأى بالرسوم الجيدة عن آلات حفظ السوائل وتوازنها وعن الساعات وعلى الأخص تلك التى تشتغل بالماء أو الزئبق أو بالشموع الموقدة أو بالأثقال..

لقد كان الكُتاب يرجعون إلى «أرخميدس» أو «أبللو نيوس» و«كتسيبيوس»، ولكنهم كانوا ممتازين فى وصفهم الدقيق لكل التفاصيل الميكانيكية..

وكان العالم الإسلامى يستورد ورق الكتابة من الصين فى غضون القرن الثامن الميلادى، وفى العام ٧٩٤ م أُنشىء أول مصنع إسلامى لإنتاج ورق الكتابة ببغداد..

ولقد كان لرسالة «الفارابى» [٢٦٠ ـ ٣٣٩ هـ ٨٧٤ ـ ٩٥٠ م] فى الموسيقى أعظم الأثر فى نظرية الموسيقى ..

* * *

لقد كانت الحرب سجالا بين العالمين المسيحى والإسلامى فى كل من صقلية وإسبانيا فى حياة «قسطنطين الإفريقى» [١٠١٠ ـ ١٠٨٧ م] ففى سنة ١٠٨٥ م سقطت طليطلة، أعظم مركز للثقافة الإسلامية فى الغرب بأيدى الإسبان المسيحيين، وصار تلاميذ اللاتين يفدون إلى العاصمة الجديدة ليظهروا إعجابهم بما يرون من بقايا حضارة العرب، ولكى يدرسوا الفنون العربية. وكان الوسط الناقل للدراسة ثم الترجمة بعدئذ اليهود المتنقلون المتوطنون والإسبان الخاضعون للحكم الإسلامى (المستعربة mozarbs ولقد رسم

«شارلس ودروثيا سنكر» فى مجلد آخر من هذه السلسلة صورة حية لهذا التعاون الذى يعرض لنا فكرة واضحة عن الامتزاج العلمى العجيب، وكان أول شخصية علمية أوربية جاءت إلى طليطلة هى «أدلارد الباثى» [القرن الثانى عشر الميلادى] الرياضى الإنكليزى والفيلسوف. وكان يوجد كذلك يهودى إسبانى متنصر اسمه «بطرس الفونسى» ذهب إلى إنكلترة وصار طبيبا «لهنرى الأول» [١٠٦٨ ـ ١١٣٥م] ونشر علوم المسلمين هناك لأول مرة. هذان العالمان نقلا المؤلفات العربية الفلكية والرياضية إلى اللاتينية فى غضون النصف الأول من القرن الثانى عشر، وسار على نهجهما كثيرون غيرهم.

إن الحياة العلمية التى انتعشت فى طليطلة خلال القرن الثانى عشر تذكرنا من طرق شتى بفترة الترجمة فى بغداد قبلها بثلاثة قرون، فمثلما أنشأ الخليفة «المأمون [١٩٨ ـ ١٢١٨ هـ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م] «بيت الحكمة»، كذلك أسس «ريموند» [١١٨٠ ـ ١٢٧٥ م] رئيس الأساقفة مدرسة للترجمة بإشراف رئيس الشمامسة «الأرخلياقون دومنيكوكند يسالفى» [حوالى ١١٣٠ و١١٥٠ م]. وازدهرت هذه المدرسة فى طليطلة حتى القرن الثالث عشر. وإن الدور الذى لعبه العلماء المسيحيون والصابئة الملمون بلغات عدة فى بغداد لعبه فى طليطلة اليهود الذين يعرفون اللغة العربية والعبرية وأحيانا اللاتينية. فقد ترجم اليهودى المتنصر «ابن داؤد الإشبيلى» كتبا كثيرة جدا فى الرياضة والفلك والتنجيم من العربية إلى اللاتينية مثلما نقل «ثابت بن قرة الصابئ» [٢٢٨ ـ ٢٨٩ هـ ٨٦٢ ـ ٩٠١ م] كتب اليونان إلى العربية. وعمل «جيرار الفرمونى» [١١١٤ ـ ١١٨٧ م] للشعوب اللاتينية كما عمل «حنين بن اسحق» [٨٠٩ ـ ٨٧٧ م] للعرب فى ترجمة مؤلفات الفلاسفة والرياضيين والأطباء والطبيعيين .. فأصدر فى السنوات العشرين التى سبقت وفاته [١١٨٧م] حوالى ثمانين مترجما بعضها نفيس إلى درجة لا تقوّم ففتح بذلك أبواب الكنوز الثقافية اليونانية والعربية على مصاريعها، فضلا عن أنه أضحى مثالا لأتباعه ساروا على نهجه واحتذوه، فكان الأب الحقيقى للاستعراب فى أوربا..

❊ ❊ ❊

«لقد سقطت صقلية نهائيا بيد النورمان فى العام ١٠٩١ م بعد أن ظلت فى قبضة

الإسلام زهاء مائة وثلاثين سنة، وبقيت المركز الخصيب لانتشار العلوم العربية .. وكان ملوكها من «روجر الأول» [١٠٣١ ـ ١١٠١ م] حتى «فريدريك الثانى» [١١٩٤ ـ ١٢٥٠م] و«مانفرد» [١٢٣٢ ـ ١٢٦٦ م] و«شارل الأول» [١٢٢٦ ـ ١٢٨٥ م] من أسرة «آنجو»، يستقدمون العلماء إلى «بالرمو» مهما كان دينهم ولسانهم. فشرع جمهرة من العلماء فى «بالرمو» كما فى «طليطلة» ينقلون العربية واليونانية إلى اللاتينية، وكانت أغلب هذه التراجم فى الرياضة والفلك..

ولنا أن نميل إلى الاعتقاد بأن الفضل فى بناء مستشفيات أوربا خلال القرن الثالث عشر، تلك المستشفيات التى خرجت من احتكار رجال الدين، إنما يعود إلى تأثير الحروب الصليبية، لقد كانت تقليدا بلاريب للمارستانات الجيدة التى أنشأها معاصرهم السلجوقى الملك نور الدين زنكى [٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ ١١٤٦ ـ ١١٧٤ م] فى دمشق وسلطان المماليك فى القاهرة «المنصور قلاوون» [٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠]. وقد بقى المستشفى الأخير مثارا لإعجاب السياح الأوربيين فى القرون التى تلت..

لقد سارت عملية الترجمة ـ [إلى اللاتينية] ـ سيرا حثيثا حتى القرن السادس عشر.. وثم تراجم عديدة تعود إلى ما بعد ذلك التاريخ استخدمت بصورة واسعة فى التدريس الجامعى على الأخص فى فرنسا وشمالى إيطاليا.

بهذا الطريق انتقلت مئات من تراجم التراث العربى الإغريقى العلمى إلى تربة أوربا المجدبة. وكانت النتيجة زخات من المطر الوابل أحيا تلك الأرض الموات .. وأسس ما لا يعد ولا يحصى من الجامعات والمعاهد، ابتداء من القرن الثانى عشر فصاعدا ، وأصبحت مراكز الثقافة الجديدة جامعات «بللونا» و«بادو مونبيليه » و«باريس». وكما هو الشأن فى الإسكندرية البيزنطية وبغداد حاضرة الخلافة، لم تكن الدراسة إلا قراءة كتب الأقدمين، تلك الكتب التى صارت أخيرا ميسورة باللغة اللاتينية، ولم يكن العلم التجريبى قد ظهر حتى ذلك الوقت، وتأثرت علوم النبات والحيوان والطبيعة والكيميا حذو مناهج الأساليب العربية اليونانية مطلقا. ولم يجر تشريح الجسم البشرى علنا إلا فى نهاية القرن السادس عشر بمدينة «بللونا»، وكان أول السماح هو لغرض استحصال بعض الأدلة القضائية ـ [انظرسنكر] ـ فهى لم تكن تستخدم قطعا لتصحيح الأخطاء التشريحية

والعضوية التى وقع فيها «جالينوس» ونقلها «ابن سينا» كما هى، وبقى التقليد أقوى من التجربة..

نجد «البرت الكبير» [١٢٠٥ ـ ١٢٨٠ م] يردد تعاليم جابر الكيمية وغيره من كتاب العرب بكتابه [فى المعادن]، ولكنه كان مبتدعا فى دراساته النباتية والحيوانية، وحتى فى هذه فإنه كان يعتمد على بعض المترجمات اللاتينية من العربية. إن تأثير «جابر» كان واضحا فى موسوعة «فنست اليونى»المسماة [مرآة الطبيعة]، كما أن الرسائل المعزوة إلى «لارنالد الفيلانوفى» و«ريموند» [١٢٣٥ ـ ١٣١٥ م] كلها مشحونة بمقتبسات من «جابر»..

* * *

وبعد القرن السادس عشر صار الطب والعلم (فى شمالى إيطاليا على الأخص) يبتعد عن العربية ليدنو أكثر فأكثر من الترجمة عن اليونانية مباشرة.. على أن الاستعراب بقى يصير إلى الزوال على مهل، ففى «فيينا» إلى سنة ١٥٢٠ م و«فرانكفورت» (على نهر الأودر) إلى سنة ١٤٨٨ م ظل البحث العلمى لا يخرج عن نطاق [قانون ابن سينا] والجزء التاسع من [كتاب المنصورى] للرازى، وامتد هذا العمر إلى القرن السابع عشر حيث بقي الباحثون فى فرنسا وألمانيا متمسكين بالطريقة العلمية العربية، بينما استمر الكفاح بين أنصار الثقافتين العربية واليونانية حتى هزما معا بهجوم مبادئ العلوم الجديدة.

أما علم الصيدلة العربى، فقد عاش حتى مطلع القرن التاسع عشر فطبعت أجزاء من كتاب «ابن البيطار» فى الأدوية المفردة بترجمتها اللاتينية فى السنة ١٧٥٨ م بمدينة «كرمونا»، ودرست أبحاث «سيرابيون» [ ] و«ماسويه الماردينى (الأصغر)» ولخصت لإفادة مدارس الصيدلة فى أوربا السنة ١٨٣٠ م تقريبا، وأعيد طبع المجموعة الأرمنية الطبية التى جمعها «ميختار» من المصادر العربية والفارسية واليونانية فى العام ١٨٤١ م وكان طبعها فى البندقية السنة ١٨٣٢ م. وقد وجدت فى كتاب ألمانى قديم فى علم الحيوان كل الخرافات التى تدور حول المقدرة السمية لسام أبرص [وهو حيوان شرقى

غيـر مؤذ من زواحف البـيوت] مما يمكن العـثور عليـه بالنص في كتـاب [حياة الحـيوان] «للدميرى» [٧٤٢ـ ٨٠٨ هـ ١٣٤١ ـ ١٤٠٥ م]..

ولو التفتنا إلى الوراء قليلا، صح لنا القول بأن الطب والعلم العربي قبل أن تدول دولته كان يـعكس أشعـة الشمس اليـونانية ـ الهلينيـة. وكانت العلـوم الإسلاميـة، وهى فى أوج عظمتـها تضىء كما يضىء القـمر فتبـدد غياهب الظلام الذى كـان يلف أوربا فى القرون الوسطى . ولكن بعض النجوم أخذت تسطع على مبعـدة، فصارت أضواء القمر والنجوم الأخرى تبهت وتتـهافت مؤذنة بانبلاج يوم جديد وهو يوم (إحـياء العلوم)، ولما كان لتلك العلوم العربيـة سهمهـا الأوفى في توجيه هذا العـهد الجديد وحث خطواته، فـعلينا أن نقر مذعنين بأن التراث العربى الإسلامى ما زال يعيش فى علومنا حتى الآن..»[1].

(١) المصدر السابق. ص ٤٧٧، ٤٧٦، ٤٧٠، ٤٦٠، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٦٢، ٤٧٨، ٤٩٥ـ ٥٠٦.

-١٦-

أما الشهادة السادسة عشرة فهى للمستشرق الفرنسى الكبير البارون «كارادى فو» Baron Gara De vaux [١٨٦٨ - ١٩٣٩ م] . . الذى درس العربية ودّرسها فى المعهد الكاثوليكى بباريس . . وتخصص فى الفلك والرضيات والفلسفة . .

ومن آثاره العلمية : شرح كتاب [الكرويات] تصحيح يحيى بن محمد المغربى سنة ١٨٩١ م . . والنشر لكتاب يبحث فى الساعة المائية . . وكتاب [المجسطى] لأبى الوفاء البوز جانى سنة ١٨٩٢ م . . وكتاب [الآلات والحيل] لهيرون الإسكندرى سنة ١٨٩٣ م . . كما ألف «كارادى فو» كتابا عن ابن سينا سنة ١٩٠٠ م . . وكتابا عن الغزالى سنة ١٩٠٢ م . . وله - كذلك - كتاب [مفكرو الإسلام] - فى خمسة أجزاء - سنة ١٩٢١ م . . كما ترجم [التنبيه والإشراف] للمسعودى سنة ١٩٤٠م . . وقصيدة النفس - لابن سينا - . . وتائية ابن الفارض . . إلخ . . إلخ . .

وفى هذه الشهادة يتحدث «كارادى فو» عن الحضارة الإسلامية التي مثلت منارة الحضارة فى العالم أجمع . . وعن تميز الحضارة الإسلامية بارتباط الفكر بالواقع والعلم بالعمل . . وعن الدقة العلمية فى العلم الإسلامى . . وعن إضافات العلم الإسلامى فى : الحساب . . وعلم المثلثات . . والجبر . . . والهندسة التحليلية . . والأوزان . . والفلك . . وعن اللغة العربية كلغة للعلوم الدقيقة . . وعن النظرة الإسلامية النقدية للعلم القديم والموروث . .

يتحدث «كارادى فو» عن ذلك ، فيقول :

* * *

«.. والسبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم فى الغرب. إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى فى الوقت الذى كان العالم المسيحى يناضل نضال المستميت للانعتاق من أحابيل البربرية وأغلالها. ووصلوا إلى قمة نشاطهم (الذى استمر حتى القرن الخامس عشر) فى القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثانى عشر فصاعدا كانت مراكش والشرق الأوسط محط أنظار كل غربى يميل إلى العلم ويتذوقه، وفى هذه الفترة شرع أبناء أوربا يترجمون آثار العرب، كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق..»(١) .

* * *

«إن العرب ليسوا كالإغريق يتقربون من أحد هواة الفن والأدب أو نصير من نصرائها ميله إلى الثقافة للثقافة نفسها، لكنهم كانوا يبذلون علومهم لجميع التلاميذ الأذكياء بكل سخاء.. فهم يمتازون بالتفكير الواقعى، لذلك كان لعلومهم هدف مادى، فالحساب كان يخدم التجارة ويعاون فى تقسيم الأموال ـ [المواريث] ـ أما الفلك فهو مطلب المسافرين وقاطعى الصحارى والمهالك، أو يستخدم لأغراض الدين لمعرفة أوقات الصلاة وقبلة مكة، وللدقيقة الأولى لطلوع قمر رمضان..»(٢).

* * *

«إن العرب كانوا هندسيين قبل كل شىء .. ويرى «م. روديت»M.rodet أن الهندوس أكثر تحليلا من العرب، ولكن العرب هندسيون خالصون أكثر من الهندوس..

وفى القرن الثامن عشر، اعترف العالم الجبرى «ليونارد فيبوناجى البيزى» [أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣] بأنه مدين للعرب بالكثير. رحل هذا الباحث إلى مصر وسوريا واليونان وصقلية، وتعلم هناك القواعد العربية فوجدها «أدق وأسمى من قواعد فيثاغورس..»(٣) .

---

(١) كارادى فو : «الفلك والرياضيات» ـ بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف «أرنولد» ـ مصدر سابق ـ ص ٥٦٤ .

(٢) المصدر السابق . ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ .

(٣)المصدر السابق . ص ٥٧٢ ، ٥٧٣ .

«إن العرب هم الذين علمونا استعمال «الصفر»، ولو أنهم لم يكونوا مبتكريه وهكذا ابتدعوا حساب الحياة اليومية. إنهم جعلوا (الجبر) علما متقنا، وتقدموا به ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية، وهم بلا منازع موجدو علم المثلثات المستوية والكروية اللذين لم يكن للإغريق فضل فى وجودهما إذا ما توخينا الحقيقة والإنصاف. كما أنهم عملوا فى الفلك أرصادا عديدة قيمة وحفظوا لنا بترجماتهم عددا كبيرا من كتب الإغريق وأبحاثهم التي ضاعت أصولها ..

إنا لنجد (الصفر) معروفا عند العرب قبل أن يعرفه الغرب بمائتين وخمسين سنة على الأقل .. ولم يدخل الصفر أوربا إلا فى القرن الثانى عشر حين بدأ الحسابيون النصارى يكتبون رسائل فى علم العدد والأرقام من غير حقول ويكملونها بالصفر[١].

* * *

«والخدمات التى أسداها «أبو الوفاء البوزجانى» [٣٢٩ ـ ٣٨٨ هـ ٩٤٠ ـ ٩٩٨ م] فى علم المثلثات لا يمكن أن يجادل فيها، فقد أصبح هذا العلم بفضله أكثر بساطة ووضوحا متطلبا القانون التالى لإضافة الزوايا :

جا (أ + ب) = جا أ جتاب + جا ب جتا أ
ك (الكمية)

هذا القانون الذى اكتشف فى ذلك الزمن، لم يعرف عند العالم اللاتينى، ويظهر أن «كوبرنيكوس» [١٤٧٣ ـ ١٥٣٢ م] يجهله. لكن «رايتكوس» تلميذ «كوبرنيكوس» وناشر كتبه، عاد إلى استخراجه بمشقة عظيمة فى قانون أكثر التواء وتعقيدا من قانون «أبى الوفاء» .. ونجد أيضا عند «أبى الوفاء» القاطع، الذى يسميه «بقطر الظل» بينما يعزى اكتشافه إلى كوبر نيكوس»[٢].

* * *

---

(١) المصدر السابق . ص٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ .
(٢)المصدر السابق . ص ٥٨١ ، ٥٨٢ .

«إن كتاب «عمر الخيام» [٥١٧ هـ ١١٢٣ م][فى الجبر] يعتبر من الدرجة الأولى،ويمثل تقدما عظيما جدا على ما نجده من هذا العلم عند الإغريق، لقد أحرز تفوقا على «الخوارزمى» [٣٢٣ ـ ٣٨٣ هـ ٩٣٥ ـ ١٩٩٣ م] نفسه فى درجات المعادلة بصفة خاصة، فقد خصص القسم الأكبر من كتابه لمعالجة المعادلات التكعيبية بينما لم يتصد الخوارزمى إلا للمعادلات التربيعية بصدد بحث المسائل فى الحلول، وكل هذا يسجل تقدما شاسعا جدا على الإغريق ..

وعند الخيام نجد «نوعا من الهندسة التحليلية كان معروفا قبل «ديكارت» [١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م] .. لقد برهن الخيام على عبقرية حيال اليونان وكثير من تلامذتهم العرب الذين سبقوه، فهو يقول فى مقدمة رسالته: «إنك لواجد فى هذه الدراسة فروضا تعتمد على نظريات ابتدائية معينة فى غاية من الصعوبة والتعقيد، فشل فى حلها أكثر من تصدى لها، كما لم يصل إلينا من أبحاث القدماء ما ينير لنا السبيل إلى معالجتها أبدا...».

إن هذه الطريقة لحل المعادلات من الدرجة الثالثة ترجع لتبدو بنصها الحرفى تقريبا فى كتاب [الجو مطرى] لديكارت [١٥٩٦ ـ ١٦٥٠م].

والفروض التى لم يستطع «أرخميدس» [٢٨٧ ـ ٢١٢ ق. م] إثباتها فى كتاب [الكريات والأسطوانات] ـ جـ٢ ص ٦ ـ ٧ ـ أثارث بحثا لدى «ابن الهيثم» [٣٥٤ ـ ٤٢٩ هـ ٩٦٥ ـ ١٠٣٨ م] وغيره..» [(١)].

* * *

«وقدم العرب فى الحساب عدة مكتشفات فيما يتعلق بالمربعات السحرية، والأعداد المتحابة، كما أن اختراع البرهان بطريقة إسقاط التِّسَع تعزى إليهم، وكذلك القاعدة المسماة «بقاعدة وضع الخط المزدوج» التى نجدها ثانية عند رياضيي القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأعلن واحد منهم النظرية الشهيرة بنظرية (فرما) ـ «بيير فرما» [١٦٠١ ـ ١٦٦٥ م]

---

(١) المصدر السابق . ص٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦.

ـ وهى أن مجموع مكعبين لا يمكن أن يكون قدر مكعب عدد صحيح، لكنه لم يقدم لذلك برهانا تاما. أما «الكرخى» ـ محمد بن الحسن [٤٢١ هـ ١٠٢٩ م] ـ فيقدم لنا طريقة هندسية لجمع المتسلسلة التكعيبية الآتية:

$$١^٢ + ٢^٢ + ٣^٢ + \ldots\ldots\ldots ن^٢$$

ثم يأتى بعده «الكاشانى» محمد غياث الدين [٨٢١ أو ٨٣٨ هـ ١٤٢٤م أو ١٤٣٦ م] الطبيب والفلكى الذى استخدمه «ألغ بك» من سمر قند فيقدم لنا طريقة لجمع المتسلسلة العددية المرفوعة إلى القوة الرابعة، وهى الطريقة التى لا يمكن أن يتوصل إليها بقليل من النبوغ... أما «البطروجى» أبو اسحق نور الدين ـ عاش فى حدود [٥٧٦ هـ ١١٨٠م] ـ أحد تلامذة «ابن طفيل» [٤٩٤ ـ ٥٨١ هـ ١١٠٠ ـ ١١٨٥ م] ـ فله آراء مبتكرة فى حركة الكواكب السيارة..[١].

* * *

إن التراث العربى يحوى عددا من الرسائل فى الأوزان، منها رسالة «الخازنى» ـ أبو الفتح ـ [كان حيا حوالى ٥٠٠ هـ ١١٠٧ م] ذات القيمة الجليلة الخاصة، ونظرية التوازن والثقل فى هذه الرسالة قد قطعت شوطا بعيدا فى مضمار التقدم، كذلك ورد فيها بحث عن الأثقال النوعية ...[٢].

* * *

«والقسط الأكبر من شهرة «البتاتى» [٣١٧ هـ ٩٢٩ م] يعود بدون شك إلى اكتشافه، أو على الأقل نشره وتبسيطه أوائل علم النسب المثلثية كما نستعملها اليوم. لقد استعمل «بطليموس» [٩٠ ـ ١٦٨ م] الأوتار فى عملياته التى كان قد عرف منها قانونا واحدا

---

(١) المصدر السابق . ص ٥٨٧، ٥٨٨ .

(٢) المصدر السابق . ص ٥٧٨ .

رئيسيا مضطربا أخرق، فاعتاض «البتانى» بالجيب عن الوتر، واستعمل «الظل» و«ظل التمام»، وكان يدرك علاقتين أو ثلاثا رئيسية من علاقات النِّسب المثلثية.. وهذا ما يجعلنا متقدمين بمسافة شاسعة عن المرحلة التى وصل إليها الإغريق ويفتح لنا فى الواقع أبواب العلم الرياضى الحديث على مصاريعها...[1].

* * *

«لقد أولى فلكيو العرب اهتماما عظيما لإتقان صنع آلات الرصد، وأهمها (ذات الحلق).. وأكمل العرب (ذوات الحلق) الإسكندرية والبطليوسية وأدخلوا عليها تحسينات بإضافة دائرتين إليها، إحداهما لتثبيت النجوم من جهة الأفق والأخرى لرصد الارتفاع وسعوا لجعل آلاتهم بأكبر حجم مستطاع لتقليل الخطأ القياسى إلى أدنى حد ممكن، ثم صاروا يعملون أدوات أخرى كل واحدة منها خاصة بنوع معين من الرصد فكان فى مرصد «المراغة» آلات مركبة من دوائر معدنية أو خشبية لاستعمالها فى أرصاد معلومة، كرصد فلك البروج ecliptic والمنقلبات solistices وكان ثم ما يسمى بذات الحلوق الإستوائية، وذات الحلوق الشمسية، المؤلفة من خمس حلقات يبلغ قطر أكبرها نحوا من اثنتى عشرة قدما مقسمة إلى درجات ودقائق. ولما أراد الملك «الفونسو القشتالى» [١٢٢١ ـ ١٢٨٤م] أن يعمل (ذات الحلق) رجع إلى العرب مسترشدا بخبرتهم ومستمدا المعلومات الضرورية بهذا الشأن من كتبهم، فكانت آلته أدق وأبدع من كل ما صنع منها حتى ذلك الوقت. ولما أراد «ريجيو مونتانس» [ت ١٤٧٦ م] فى عهد إحياء العلوم، إعادة تركيب (ذات الحلق) الشمسية البطليوسية، استهدى بالكتب العربية، ومنها اقتبس العضادة alidade العربية الأصل..

وعلينا أخيرا أن ننوه بفلكيي سمرقند الذين كانت لجداولهم الفلكية الموضوعة سنة ١٤٣٧ م لأمير من أسرة «تيمورلنك» [٧٣٦ ـ ٨٠٧ هـ ١٣٣٦ ـ ١٤٠٥ م] باسم (أزياج

---

(١) المصدر السابق. ص ٥٧٩، ٥٨٠.

أولغ بك) [١٣٩٣ـ ١٤٤٩م] عظيم منزلة معتبرة فى الغرب، فقد طبعت فى إنكلترة بأجزاء متتابعة خلال القرن الثامن عشر...[١].

* * *

«إن اللغة العربية هى لغة جافة دقيقة التعبير، تذكر المرء بعض الشىء بأسلوب **«ڤولتير»** [١٦٩٤ـ ١٧٧٨م] الفرنسى، فهى أكثر ملائمة للعلم الدقيق منها للفخامة الشعرية. وثم ميزة أخرى لها، هى مرونتها وسرعتها فى استجابة مطالب المصطلحات الفنية والتعابير العلمية الدقيقة. لم يكن علماء العرب يكتبون شعرا كالهندوس الذين كانوا يؤلفون أعمالهم الجبرية بـ (شلوكات shloka) ـ [قصائد شعر طويلة] ـ ولم يعالجوا مسائل تاريخية كالإغريق.. إنهم أكثر واقعية من الإغريق..»[٢].

* * *

«لقد كان لهؤلاء العلماء ـ [العرب] ـ أدمغة حرة مستطلعة، فلم يترددوا فى انتقاد «بطليموس» [٩٠ ـ ١٦٨ م] نفسه، وقد أعلنوا بلسان فيلسوفهم «ابن رشد» [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م] أنهم ضد نظرية تعدد الأفلاك وابتعادها عن المركز. لقد كانوا يتطلعون إلى نظم أبسط وأقرب إلى الطبيعة وسبق «للبيرونى» [٣٦٢ ـ ٤٤٠ هـ ٩٧٣ ـ ١٠٤٨ م] فقال بأن فرضيات الفلك إنما هى مترابطة فيما بينها، وقوله هذا شبيه بما توصل إليه أسلافه أمثال «أرسطافوس الساموسى» [القرن الثالث ق. م] و«سلوقوس» قبل ألفى سنة من ظهور «كوبرنيكوس» .. لكن روح البحث العلمى العربى لم تعرقلها فى هذه الفترة أى نظريات علمية موضوعة أو تقاليد ثابتة[٣]».

* * *

«يقول «البيرونى»: «إن عمر الإنسان لا يفى بعلم أخبار أمة واحدة من الأمم الكبيرة

---

(١) المصدر السابق. ص ٥٨٩، ٥٩٢.

(٢) المصدر السابق . ص ٥٦٧.

(٣) المصدر السابق . ص ٥٨٩.

علما ثاقبا فكيف يفى أخبار جميعها؟ هذا غير ممكن، ولا سبيل إلى التوصل إلى ذلك سوى التقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل أقاويلهم وآراءهم .. وإذا كان الأمر جاريا على هذا السبيل، فالواجب علينا أن نأخذ الأقرب فالأقرب والأشهر فالأشهر ونحصّلها من أربابها، ونصلح منها ما يمكننا إصلاحه، ونترك سائرها على التعرف فى غيرها ومرشدا إلى ما لم يتهيأ لنا ..»[1].

---

(١) المصدر السابق . ص ٥٦٣ .

ـ ١٧ ـ

أما الشهادة السابعة عشرة فهى للمستشرق الألمانى «بلسنر» مارتن.plessner, M المحاضر فى معهد العلوم الشرقية بجامعة فرانكفورت . . والمتخصص فى إحصاء الترجمات العربية عن التراث اليونانى، بميادين الأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية ـ فى الحقبة التى تسميها أوربا «العصور الوسطى».

ومن آثاره الفكرية: مباحث فى أسس الكيمياء العربية القديمة وتأثرها بنظريات من سبق «سقواط» [٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق.م] من فلاسفة اليونان سنة ١٩٣٠م . . والمخطوطات العربية فى إستانبول وقونية ودمشق سنة ١٩٣١م . . ومصنف عما صدر بالعربية من الأدب العبرى فى القرون الوسطى . . وترجمة العلوم اليونانية إلى العربية سنة ١٩٥٤م . . والتعريف بعدد من المصطلحات والمفردات فى دائرة المعارف الإسلامية . . ودراسته عن العلوم الطبيعية والطب فى تراث الإسلام . .

وفى هذه الشهادة يتحدث «بلسنر» عن إنجازات العلم الإسلامى ـ بالحضارة الإسلامية فى ميادين العلوم الطبيعية . . وفى الطب . . والعلوم . . وعن النزعة النقدية فى العلم الإسلامى . . والتميز المنهجى لهذا العلم بالواقعية والتطبيق والتجريب . .

يتحدث «بلسنر» عن ذلك فيقول:

«تعود بداية الاهتمام بالعلوم القديمة عند المسلمين إلى عهد أقدم بكثير من عصر الترجمات. فالجدل المستمر بين المسلمين من ناحية والنصارى والأقوام التى دخلت

الإسلام بثقافتها الهلينية من ناحية أخرى، كان لا بد أن يؤدى إلى إثارة الاهتمام بالعلوم .. [1].

* * *

«ولا يكاد يوجد شيء من جهود المسلمين فى ميدان العلوم لم يتأثر به الغرب بطريق أو بآخر..

لم تكن علوم المسلمين، بطبيعة الحال، العامل الوحيد الذى أدى إلى إحياء العلم فى الغرب، فتقاليد العلوم القديمة لم تتلاش تماما وسط الفوضى التى عمت خلال عصر غزوات البرابرة لأوربا، ومع ذلك فمن الصحيح أن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوربى قوة دفع جديدة، والأهم من ذلك، أن هذا العلم الغربى قد اكتسب مادة أدت إلى إثرائه بدرجة لا نظير لها بفضل الترجمات العربية عن الإغريق، وكذلك بفضل الإنتاج العلمى المستقل للمسلمين أنفسهم..»[2].

* * *

«إن المؤلفات الطبية التى وضعها إسحق بن سليمان الإسرائيلى [٣٢٠ هـ ٩٣٢ م] وموسى بن ميمون [٥٢٩ ـ ٦٠١ هـ ١١٣٥ ـ ١٢٠٤م] لا تختلف عن أعمال المؤلفين المسلمين، وينسحب ذلك على الكتابات العلمية التى وضعها الأسقف النصرانى ابن العبرى [٦٢٣ ـ ٦٨٥ هـ ١٢٢٦ ـ ١٢٨٦ م] (بارهيبرا يوس) Barhebraeus .

والواقع أن مجرد كون كتب المؤلفين المسلمين قد أمكن ترجمتها إلى العبرية واللاتينية دون أية تغييرات جوهرية، إنما يثبت وجود تفاعل بين الأديان فى العلم الإسلامى لا تقل أهميته عما كان فى ذلك العلم من تفاعل بين القوميات، وربما كان العلم هو أقل الميادين الثقافية خضوعا لعملية «الصبغ بالصبغة الإسلامية».

---

(١) بلسنر: «العلوم الطبيعية والطب» ـ دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] ـ إشراف «شاخت» و«بوزورث» ـ مصدر سابق ـ القسم الثالث . ص ٨٥ .

(٢) المصدر السابق. ص ٧٩، ٨١ .

إن كتاب القانون ـ لابن سينا ـ أصبح وكأنه إنجيل الطب فى العصور الوسطى..

والعالم الذى اكتشف الدورة الدموية الصغرى، وذلك عن طريق الاستنتاج المجرد، ونعنى به على بن النفيس (ت ٦٨٧ هـ ١٢٨٨ م) ويبدو الآن أن «مايكل سير فينوس» Michael servetus [١٥٠٠ ـ ١٥٥٣م] كان على علم بنظرية ابن النفيس هذه..

كما لابد لنا أن نذكر مثالا فريدا لتأثير التراث الإسلامى على الغرب ذلك أن مؤسس علم التشريح الحديث «أندرياس فيساليوس Andreas vesalius [١٥١٤ ـ ١٥٦٤ م] نشر سنة ١٥٣٨م [جداوله] التشريحية الستة كدراسة تمهيدية لمؤلفه الرئيسى المعروف باسم [الصنعة] الذى كتبه سنة ١٥٤٣، وقد ورد فى النص اللاتينى لهذه الجداول عدد كبير من المصطلحات العربية والعبرية، بل إن بعض المصطلحات كتبت بحروف عبرية. وقد قام «شارلز سنجر» Gharles Singer و«حايم رابين» Ghaim rabin ببحث دقيق عن هذه الجداول. ولم تكتف هذه الدراسة بشرح النصوص الواردة فى الجداول المذكورة شرحا دقيقا، بل أظهرت أيضا كيف اهتدى «فيساليوس»إلى معرفة المصطلحات فى اللغات السامية التى لم يكن هو نفسه ضليعا فيها وهكذا حملت جداول «فيساليوس» التشريحية التراث العربى فى الطب إلى مطالع العصور الحديثة..»

«ولا يعرف حتى الآن إن كانت مؤلفات المسلمين فى النبات بالذات، مثل [كتاب النبات] لأبى حنيفة الدينورى» [٢٨٢ هـ ٨٩٥ م] قد تركت أى أثر على الغرب لكن هذا الأثر يبدو حقيقة واقعة إلى حد ما بالنسبة لمؤلفات علماء المسلمين فى الزراعة والفلاحة، فقد ترجمت إلى اللاتينية مقتطفات مطولة من [كتاب الفلاحة النبطية] لابن وحشية [٢٩٦ هـ ٩٠٩] كما ترجمت إلى اللغة القشتالية فى العصور الوسطى كتابات عالمين أندلسيين فى الزراعة، هما «ابن وافد» (ت ٤٦٧ هـ ١٠٧٥م] و«ابن بصال» (ت ٤٩٩ هـ ١١٠٥ م]..

كذلك فإن مؤلفات المسلمين فى خواص المعادن والأحجارأثارت اهتمام الغرب.

ولم تثمردراسة هذه العلوم الطبيعية الثلاثة (وهى النبات والحيوان، والمعادن

والأحجار)، مؤلفات متخصصة فى هذه العلوم فحسب، بل إن المادة الناتجة عنها قد ضُمنت فى موسوعات خاصة بجميع العلوم ، وكذلك فى المؤلفات العامة التي تصف الكون General Gosmogvaphies.

ولازالت مؤلفات المسلمين فى الجغرافية تحتل مكانا مهما حتى يومنا هذا، لأن المعلومات التى تتضمنها تزيد فى علمنا بالجغرافية التاريخية المتعلقة بالبلدان التى تناولتها هذه المؤلفات، وبالتالى تنمى بصورة غير مباشرة معلوماتنا عن تاريخ تلك البلدان، فتراث الإسلام فى هذا الميدان له أهمية إيجابية خاصة..

وكان للخرائط الإسلامية وماكتبه المسلمون فى علوم البحار أثر بالغ فى تقدم الملاحة الغربية ..»(١).

❊ ❊ ❊

«لقد أنشأ المسلمون علما خاصا بالتراجم وأسماء المؤلفات التى وضعها علماؤهم فى مختلف العلوم، وهو تقليد يتمنى المرء لو أن غيرهم من الأمم وأصحاب الثقافات الأخرى اتبعوه..

وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)كتب القاضى والفلكى الطليطلى صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد الأندلسى [٤٢٠ ـ ٤٦٢ هـ ١٠٢٩ ـ ١٠٧٠م] أول كتاب عن تاريخ العلم فى العالم، بعنوان [التعريف بطبقات الأمم]، ويشتمل هذا الكتاب على دراسة مفصلة لما أسهمت به الأمم المختلفة فى ميادين العلم..» (٢).

❊ ❊ ❊

«فى تلك القرون اتسع تسامح الفكر الإسلامى حتى أتاح الفرصة للمواجهة بين الأديان المختلفة على نحو لم يسمع به من قبل فى أى مكان آخر..

---

(١) المصدر السابق. ص ٨٣، ٨٤، ١٢٤ـ١٢٨، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩.

(٢) المصدر السابق. ص ١٤١، ١٤٣، ١٤٤.

كان الرازى [٢٥١ ـ ٣١١ هـ ٨٦٥ ـ ٩٢٣ م] يميل فى مسائل ما وراء الطبيعة إلى اتخاذ موقف قريب من موقف «كنت»kant [١٧٤٢ ـ ١٨٠٤ م] القائم على تحكيم العقل، كما اتخذ هذا الموقف أيضا فى العلوم التى مارسها، وقد سجل بدقة تاريخ حالات مرضية، أمكن التعرف على بعضها من خلال أبحاث «ماكس مايرهوف» M.meyerhof [١٨٧٤ ـ ١٩٤٥ م] . ووضع الرازى كتابا شهيرا طالما تناقش حوله العلماء، وعرف فيه لأول مرة تعريفا صحيحا الفرق بين الجدرى والحصبة .. أما فى ميدان الكيمياء فكان الرازى أول عالم لا يجوز فى حقه أن يوصف بأنه سيميائى، إذ لا شك فى أن الرازى كان ملما بآراء من سبقه من الكيميائيين، ولكنه اختلف عنهم فى أنه قدم تقسيما منطقيا للعناصر المعروفة لديه، وأعطى أوصافا دقيقة للأدوات والطرق التى استخدمها فى تجاربه العملية، وتوصل من خلال ذلك إلى نتائج دقيقة مبنية على ملاحظاته هو نفسه..

وبالرغم من أن الرازى كان على علم بجميع ميادين العلم اليونانى .. فقد تحدى التراث الماضى فى جميع الميادين، وكان على وعى تام بما يفعل، ففى كتابه [الشكوك على جالينوس] (Dubitationes in Galenum) أورد صراحة كل الانتقادات التى وجهها العلماء، بما فى ذلك جالينوس نفسه إلى من سبقوهم، وكان ذلك قبل أن يكتب موسى بن ميمون الفصل الأخير من كتابه [المقدمات الخمس والعشرون] بثلاثة قرون، وهو الفصل الذى أورد فيه ابن ميمون نقده الخاص لجالينوس مستشهدا بالرازى..

أما البيرونى [٣٦٢ ـ ٤٤٠ هـ ٩٧٣ ـ ١٠٤٨ م] فإنه ـ فى السبعينات المتأخرة من عمره ـ وضع مؤلفه المعروف بكتاب [الجماهر فى معرفة الجواهر] الذى خالف فيه تماما ما هو مألوف فى كتب علم التعدين عند المسلمين وتجاهل كلية وجود أية خواص سحرية للأحجار .. وكتابه [الآثار الباقية عن القرون الخالية] والذى ألفه عندما كان عمره حوالى الثانية والعشرين ـ والذى انتفع فيه [بقوانين] ـ بطليموس [٩٠ ـ ١٦٨م] وواصل فيه أفكاره لا يعتبر فقط دارسة مقارنة ووصفا لحقب مختلفة من التقويم ـ وهو من هذه الناحية

يعد الكتاب الأول من نوعه فى الفكر العالمى ـ وإنما هو أيضا مورد لا يقدر للمعلومات المتعلقة بتاريخ الأديان ومأثورات الشعوب..»[1].

* * *

«لقد اتضح لنا من خلال الميادين العلمية التى بحثت حتى الآن الاتجاه العملى للعلم الإسلامى، ويتجلى هذا الاتجاه أوضح ما يكون فى المؤلفات التى وضعها العلماء المسلمون فى النبات والحيوان والمعادن ففى الحالات التى لم توضع فيها كتب النبات لأغراض لغوية فإن المؤلفات الإسلامية فى هذا الميدان كانت ذات طبيعة زراعية أو صيدلانية...»[2].

(١) المصدر السابق. ص ٩٩، ١٠٠، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣.

(٢) المصدر السابق. ص ١٣٠.

-١٨-

والشهادة الثامنة عشرة كتبها المستشرق الإسبانى «جوان فيرنيه Juan ver-net Gines - فى دراسته عن [الرياضيات والفلك والبصريات] فى تراث الإسلام . .

و«فرنيه» مستشرق إسبانى تخرج من جامعة «برشلونة»، وشغل كرسى أستاذ اللغة العربية بها ١٩٥٤ م . . ومن آثاره الفكرية : ترجمة القرآن إلى اللغة الإسبانية ١٩٥٣ م . . والمشاركة فى دراسة الأعمال الفلكية «لابن البناء» [٦٥٤ - ٧٢١ هـ ١٢٥٦ - ١٣٢١ م] سنة ١٩٥٢م . . وترجمة [ألف ليلة وليلة] إلى الإسبانية . . وتحقيق كتاب [بسط الأرض فى الطول والعرض] لعلى بن سعيد المغربى [٦٨٩ هـ ١٢٩٠م] سنة ١٩٥٣ م . . وترجمة عربية موجزة لتقويم الفلك سنة ١٩٥٠ م . . و[المغرب فى جغرافية ابن سعيد المغربى] سنة ١٩٥٣ م . . والآلات الفلكية سنة ١٩٥٣ م . . وهل أصل الخرائط البحرية عربى إسبانى؟ سنة ١٩٤٩م . . إلخ . . إلخ . .

وهو فى شهادته هذه، عن مكانة الرياضيات والفلك فى الحضارة الإسلامية، يقول :

«إن علماء المسلمين كانوا، منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، واثقين بفضل الجهد الذى بذلوه فى عملهم من أنهم يتقدمون فى كل الميادين الرياضية، وأن ترجماتهم للنصوص القديمة كانت أدق بصورة عامة من المخطوطات الأصلية، كما يتبين لنا أنهم فى كثير من الأحيان لم يكونوا على خطأ فى أحكامهم هذه مثلما

أن المترجمين الذين نقلوا كتاباتهم العربية إلى اللاتينية بعد ذلك بقرن لم يخطئوا بدورهم فى وضع تقييم مماثل لأعمالهم..[١].

***

«وإذا نحن تحرينا الدقة نجد أصل التطور العلمى للرياضيات عند المسلمين يبدأ مع القرآن الكريم، وذلك فيما ورد فى القرآن من الأحكام المعقدة فى تقسيم الميراث. ولكن الخوارزمى (ت حوالى سنة ٢٣٢ هـ ٨٤١ م) يعتبر أول رياضى مسلم كبير. ونحن مدينون له بمحاولة وضع تنظيم منهجى باللغة العربية لكل المعارف العلمية، والتقويم كما ندين له باللفظ الإسبانى «غوارزمو»(Guarismo) الذى يعنى الترقيم (أى الأعداد ومنازلها والصفر) .. وكان الجبر هو الميدان الثانى الذى عمل فيه الخوارزمى، وهو فرع من الرياضيات لم يكن حتى ذلك الوقت موضوعا لأية دراسة منهجية جادة ...[٢].

***

«ويبرز فى حقل الهندسة من العلماء العرب الإخوة الثلاثة أبناء موسى بن شاكر، الذين عاشوا فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، وكان مصنفهم الرئيسى المعروف باسم [كتاب معرفة مساحة الأشكال] أحد الجسور التى انتقل بها التأثير اليونانى إلى بغداد، حيث بدئ فى إدخال إضافات جديدة وأصلية عليه، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية بعد ذلك بقرون على يد «جيرار الكريمونى» بعنوان [أقوال موسى بن شاكر]. وعن طريق كتاب بن شاكر استطاع علماء الغرب، من أمثال «فيبوناش»(fibonacci) [أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣] و«جور دانوس نيموراريوس» Jordanus Nemorarus) [١٨٣٨ـ ١٩٢٢م] و«روجـــــر بيكون (Roger Bacon) [١٢١٤ ـ ١٢٩٤ م]

---

(١) جوان فيرنيه: [الرياضيات والفلك والبصريات] ـ بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف «شاخت» و«بوزوزث» ـ مصدر سابق ـ القسم الثالث ـ ص ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق. ص ١٦٨ ـ ١٧٠ .

و«توماس براد واردين» thomas Brad wardine [ت ١٣٤٩ م] أن يعرفوا الأفكار الأولى الخاصة بالرياضيات العالمية...[١].

* * *

«وقد أجرى العلماء المسلمون سلسلة من الأرصاد لتصحيح المعلومات الواردة فى الكتب المترجمة إلى العربية وكانت هذه الأرصاد تؤدى دائما إلى وضع جداول فلكية، ولما كانت هذه الجداول تقوم على التجربة، فقد أطلق عليها اسم الأزياج الممتحنة (الموثقة the probate) لدى المؤلفين اللاتين...»[٢].

(١) المصدر السابق. ص ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق. ص ١٩٧ .

والشهادة التاسعة عشرة على دور ومكانة الحضارة الإسلامية فى إحياء تراث الإنسانية فى الرياضيات . . وفى الإبداع والإضافة والتطوير لهذا التراث «يقدمها المستشرق «كاربنسكى» .Karpinsk. L. C [١٨٧٨-١٩٥٦م] وهو مستشرق أمريكى، تخرج فى جامعات كوزيل وإستراسبورج وكلية المعلمين بنيويورك، وشغل كرسى أستاذ الرياضيات فى جامعة ميتشجان، وأستاذا زائرا فى عدة جامعات منها الجامعة الأمريكية بالقاهرة وانتخب رئيسا وعضوا فى جمعيات علمية عديدة . .

ومن آثاره العلمية . . نشر كتاب الجبر والمقابلة -للخوارزمى ١٩١٥ م . . وكتاب الرياضيات الموحدة ١٩١٨م . . والأعداد الهندية العربية ١٩١١م . . وتاريخ الحساب ١٩٢٥م . . والمدخل إلى الحساب ١٩٢٦ م . . وفهرس المصنفات الرياضية المطبوعة بأمريكا ١٩٤٠ م . . وجبر أبى الكامل شجاع بن أسلم ١٩١١ - ١٩١٢ م .

وفى هذه الشهادة يقول «كاربنسكى» - بالمحاضرة التى ألقاها فى نادى العلم بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى نوفمبر ١٩٣٣ م :

«ويرجع الأساس فى تقدم الرياضيات وإيجاد التكامل والتفاضل إلى المبادئ والأعمال الرياضية التى وضعها علماء اليونان، وإلى الطرق المبتكرة التى وضعها علماء الهند .

وقد أخذ العرب هذه المبادئ وتلك الأعمال والطرق ودرسوها وأصلحوا بعضها، ثم زادوا عليها زيادات هامة تدل على نضج أفكارهم وخصب قريحتهم .

وبعد ذلك أصبح التراث العربى حافزا لعلماء إيطاليا وإسبانيا ثم لبقية بلدان أوربا، إلى دراسة الرضيات والاهتمام بها.

وأخيرا أتى «فيتا» ووضع مبدأ استعمال الرموز فى الجبر وقد وجد فيه «ديكارت» [١٥٩٦ـ١٦٥٠ م] ما ساعده على التقدم ببحوثه فى الهندسة فى خطوات واسعة فاصلة مهدت السبيل للعلوم الرياضية وارتقائها ارتقاء نشأ عنه علم الطبيعة الحديث وقامت عليه مدنيتنا الحالية . . .»[١] .

---

(١) كاربنسكى ـ مقدمة كتاب [تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك] لقدرى حافظ طوقان ـ ص ١٥ ـ طبعة القاهرة ـ جامعة الدول العربية ـ دار القلم سنة ١٩٦٣ م.

- ٢٠ -

والشهادة العشرون ميدانها الأدب فى الحضارة الإسلامية . . وفضل هذا الأدب وتأثيراته على النهضة الأوربية . . وهى لواحد من أعلام علماء مشاهير المستشرقين . . للمستشرق الإنجليزى «جب» (السير هاملتون) Gibb,sir Hamilton, A. R. [١٨٩٥ - ١٩٧١ م] . .

ولقد ولد «جب» بالإسكندرية . . والتحق بمدرسة اللغات الشرقية سنة ١٩١٩م. وحاضر فيها سنة ١٩٢١ م - سنة ١٩٣٠ م . . وخلف المستشرق الإنجليزى «مارجليوث» [١٨٥٨ - ١٩٤٠ م] فى أكسفورد سنة ١٩٣٧ م - سنة ١٩٥٥ م . . وكان «جب» واحدا من المستشرقين الذين اشتركوا فى تأسيس مجمع اللغة العربية - بالقاهرة - كما كان عضوا بالمجمع العلمى العربى بدمشق . . ولقد درس العربية فى أدنبرا أثناء الحرب العالمية الأولى على يدى السير توماس أرنولد [١٨٦٤ - ١٩٣٠ م]، وهو ضليع فيها كأبنائها . . وبعد أن شغل كرسى اللغة العربية بجامعة لندن ١٩٣٠ - ١٩٣٧ م . . وفى أكسفورد ١٩٣٧ - ١٩٥٥ م . . شغله فى جامعة هارفارد سنة ١٩٥٥م . . وعمل مديرا لمركز الشرق الأوسط سنة ١٩٦٢ م . .

ولقد زار البلاد العربية واجتمع بعلمائها وأدبائها، ودرس مصنفاتهم الأدبية والفكرية . . وله عشرات المؤلفات والترجمات والتحقيقات . . منها: المدخل إلى التاريخ العربى سنة ١٩٢٦ م . . وفتوح العرب فى آسيا الوسطى سنة ١٩٢٣م . . ورحلة ابن بطوطة فى آسيا وإفريقيا سنة ١٩٢٩ م . . وما هو الإسلام؟ سنة ١٩٣٢م. والعرب سنة ١٩٤١ م . . والآثار الإسلامية سنة ١٩٤٤ م . . والاتجاهات الحديثة فى الإسلام سنة ١٩٤٧ م . . والديانة المحمدية سنة ١٩٤٩ م . . والمجتمع

الإسلامى والغرب سنة ١٩٥٠م . . والشرق الأدنى الإسلامى سنة ١٩٦١ م . . وكيان التفكير الدينى فى الإسلام سنة ١٩٥٠ م . . والحكومة والإسلام سنة ١٩٦٢ م . . ودراسات فى الحضارة الإسلامية سنة ١٩٦٣ م . . ودراسات فى الأدب العربى المعاصر سنة ١٩٢٦ م . . والنظرية الإسلامية عند ابن خلدون سنة ١٩٣٣م . ونظرية الماوردى فى الخلافة سنة ١٩٣٧ م . . والخلافة فى الإسلام سنة ١٩٣٩م . . والخلافة عند السنة سنة ١٩٤٧ م . . والعديد من الدراسات والتحقيقات عن تاريخ صلاح الدين الأيوبى [٥٦٤ـ٥٨٩ هـ ١١٦٩ ـ ١١٩٣م] . . والمعنى الاجتماعى للشعوبية سنة ١٩٥٣ م . . وتفسير التاريخ الإسلامى سنة ١٩٥٥م . . وأثر الثقافة الإسلامية فى أوربا فى العصر الوسيط سنة ١٩٥٥م . . والضرائب كما قررها عمر الثانى ـ ابن عبد العزيز سنة ١٩٥٥م . . وتطور الحكومة فى صدر الإسلام سنة ١٩٥٥ م . . والمرأة والقانون سنة ١٩٦٢ . . إلخ . . إلخ . .

وفى هذه الشهادة ـ عن الأدب العربى الإسلامى ـ يقول هذا المستشرق الكبير :

«إن شيوع «مَوْظة» اقتبال الآثار العربية: فلسفية كانت أم علمية، جلب معه اهتماما بنواح أخرى من الآداب العربية، لاسيما الحكايات الخرافية، والمقالات الخلقية، والقصص، وهى بمجموعها تؤلف فن الكتابة الراقى العربى (أسلوب الحكيم). وقبل ذلك بزمن أذاع النقل الشفوى عناصر أخرى من القصص العربى والشرقى وشمل انتشاره منطقة واسعة ، ولقد ظل الناس حتى زمن قريب يسلمون بلا جدال، بل ينادون مقرين للشرق بأصول بعض الحكايات الشعبية التى ازدهرت فى أوربا فى غضون القرن الثالث عشر بأشكال مختلفة مثل الخرافات والأمثال والقصص الخيالية، وغير ذلك مما يوجد بينه وبين القصص الشرقى والهندى أوجه شبه لا جدال فيها..

إن أدب الأسفار وأدب الجغرافية الحيوانية العربيين قد خلفا كذلك آثارهما فى الأدب الغربى، فالرحلات لم تعرف فى أوربا إلا لغرض الحج إلى الأراضى المقدسة ويكاد يكون أمرا مفروغا منه، أن انتشار عناصر الأساطير العجيبة والأخيلة الخرافية فى رقع واسعة

المدى قد تم بالنقل الشفوى. إنها كانت بمثابة حلى وزخارف وشيت بها رحلات (ماركو بولو) [١٢٥٤ ـ ١٣٢٣ م] ورحلات (سيرجون ماندفيل) [القرن الرابع عشر]، ولكن حدودهما لم تكن قاصرة على الدول اللاتينية الغربية، فقد امتدت حتى إسكيندينافيا وأيرلندا ـ ربما كان ذلك عن الطريق التجارية لبحر قزوين ـ حتى البلطيق وعادت إلى الظهور حكايات رهبانية: كأسطورة القديس برندان، جاء بها الجونكلير والتجار من الدول الصليبية التى أقيمت فى سوريا وفى مرافئ البحر الأبيض المتوسط.

ومن المصادر الشفوية يمكننا الادعاء باحتمال كبير بأن «بوكاتشو» [١٣١٣ ـ ١٣٧٥ م] اقتبس الحكايات الشرقية التي ضمنها كتابه [ديكا ميرونى]، كذلك قصة [سكواير] لشوسر، فهى من ألف ليلة العربية، التى ربما نقلها إلى أوربا التجار الإيطاليون القادمون من البحر الأسود حيث إن محل القصة جعل فى بلاط خان المغول على نهر«الفولجا». «إن دخول أنماط الأدب العربى هذه إلى أوربا القرون الوسطى كان فى الواقع مظهرا من مظاهر الحركة الثقافية العامة. كانت الحضارة اللاتينية تضيق ذرعا بالقيود التى تفرضها الأنظمة الكنسية فى العصور المظلمة، وأصبح الناس جميعا وهم يشكون محتارين أمام الأمور التى ظلوا يقبلونها كحقائق منزهة لا تقبل الدحض، ولما رأوا أنفسهم عاجزين عن إيجاد ما ينقع غلتهم وسط جدب أدبهم اللاتينى وضيقه وزيفه وسخفه، فقد اضطروا أن ينشدوا ما يريدون فى أصقاع أخرى.

كانوا حتى ذلك التاريخ يعترفون ويسلمون حانقين ساخطين بتفوق الإسلام العسكرى، أما الآن فصاروا يدركون خجلين وجوب التسليم للإسلام بالتفوق الفكرى. وبتدفق فيض العالم العربى الذى أعقب هذا التسليم والإيمان، ولدت مجموعة من النثر الأدبى الذى تسلل إلى جميع الآداب الأوربية الأخرى المتحاملة على نفسها المتنامية، قليلا كان نموها أم كثيرا وكان هذا مما مهد الطريق للانفجار الفكرى المعروف (بالرينسانس)..».

«والحق يقال، أن ثم حقائق دامغة لا يمارى فيها أحد: فالأمثال الشرقية، والحكايات الشرقية، ومالف لفها من المصنفات، تمتعت بشهرة واسعة فى القرون الوسيطة: وأول كتاب طبع فى إنكلترا [حكم الفلاسفة وأقوالهم] كان مترجما عن نسخة فرنسية مأخوذة من ترجمة لاتينية مترجمة عن أصل عربى. وللمرة الثانية نجد فى القرن الثامن عشر ما لا يقل عن ثلاثين طبعة من قصص [ألف ليلة وليلة] باللغتين الإنكليزية والفرنسية ومنذ ذلك الحين نُشر أكثر من ثلثمائة طبعة لهذه القصص فى جميع لغات أوربا الغربية. وطار صيت عمر الخيام [٥١٧ هـ ١١٢٣ م] فى إنكلترا وأمريكا أكثر مما اشتهر اسمه فى فارس.

ولولا [ألف ليلة] ما كان [روبنسن كروزو] ولا كانت ـ ربما ـ [رحلات جوليفر]..لقد صارت [ألف ليلة] مصدرا تستمد منه عناصر البناء لهيكل الرواية..»[١].

* * *

«.. وثمت ما يبرر الادعاد القائل إن الشعر العربى له الفضل إلى حد ما فى قيام الشعر الجديد بأوربا، وإن كنا لا نستطيع السير طول الطريق مع البرفسر«ماكيال» الذى يقول مؤكدا : «كانت أوربا مدينة بدينها إلى اليهودية، وكذلك هى مدينة بأدبها الروائى إلى بلاد العرب.. فإلى الشعوب العربية الساكنة فى النجد العربى السورى، الذى تدخل فيه (المنطقة الفلسطينية والشعب الفلسطينى القح) ندين بأكبر قسم، أو بالدرجة الرئيسية من تلك القوى الناشطة التى جعلت القرون الوسطى الأوربية مختلفة روحا وخيالا عن العالم الذى كان يخضع لرومة...».

«.. وقليلون هم الذين ينكرون أن الحياة والنشاط وسعة الخيال التى تطبع الآداب الجنوبية، يعود إلى الوسط الثقافى العربى فى الأندلس خلال العصور المتقدمة وإلى الانطباع الذى خلفته تلك الحضارة فى الشخص الأندلسى..

---

(١) جب [الأدب] ـ دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف «أرنولد» ـ مصدر سابق . ص ٢٧٧ ـ ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٦١، ٢٩١، ٢٩٩.

ولقد ظهر فضل الأدب الشرقى على الغربى فى مقدرة الأول على ابتعاث ودعوة الأحاسيس الخلاقة المبدعة التى كانت حتى ذلك الحين ترسف فى قيود الخمول والجمود، فما أن شرعت بالحركة حتى أخذت تجمع مواد مخصبة من احتياطها الداخلى تبنى به نفسها بنفسها، والعناصر الشرقية من تلك التى تشبع بها، هى الأخرى أخذت تتمثل وتذوب فى العناصر المحلية، فأصبح من العسير جدا تفريق أحدهما عن الآخر فى التطور التكاملى الختامى...»[1].

(١) المصدر السابق. ص ٢٧٥، ٢٨٦، ٣٠١.

-٢١-

أما الشهادة الواحدة والعشرون - والتى تدور حول تفوق اللغة العربية فى الميدان الأدبى . . وتأثير الأدب الإسلامى المكتوب بالعربية فى الآداب الأوربية . . فإنها للفيلسوف الهولندى «روزنتال»(فرانز) Rosenthal,f الذى شغل كرسى الأستاذية فى جامعة «ييل» . . والذى له آثار فكرية عديدة وهامة، منها : فلسفة أفلاطون فى العالم الإسلامى سنة ١٩٤٠ م . . وأثر الصوفية فى اليهودية العربية سنة ١٩٤٠ م . والكندى والأدب سنة ١٩٤٢ م . والوهابية فى مصر سنة ١٩٤٧ م . وأساليب التعليم فى الإسلام سنة ١٩٤٧ م . . وأبوحيان التوحيدى سنة ١٩٤٨ م . . وأفلوطين فى الفلسفة العربية سنة ١٩٥٢ م . . ومطلع علم النفس فى الإسلام سنة ١٩٥٢ م . والقرآن سنة ١٩٥٣ م . . وتاريخ الأطباء سنة ١٩٥٤ م . والسياسة فى فلسفة الفارابى سنة ١٩٥٥ م . ومناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى . . ومقام العربية فى اللغات السامية سنة ١٩٦٥ م .

وفى شهادته هذه يقول «روزنتال» :

«.. لقد أدى إتقان اللغة العربية، وتناولها بطريقة فنية، بوصفه الشرط الأول لكل إنتاج أدبى ذى قيمة، إلى تأكيد تفوق اللغة العربية وتبوئها المكانة الأولى بين اللغات التي تتكلمها الشعوب الإسلامية.

فعلم النحو، وتصنيف المعاجم مدينان بصفة خاصة إلى عبقرية اللغة العربية، والظروف الخاصة التى رافقت تطورها فى الجاهلية والإسلام. صحيح أن التراث العلمى الإسلامى قد نسج كثيرا من الأساطير حول التاريخ القديم لدراسة هذين العلمين منهجيا، ولكن أغلب الظن أن انتماء اللغويين المبدعين الكبار إلى أصول غير عربية ليس معناه أن علمى النحو والمعاجم العربيين قد تطورا بشكل أساسى بتأثير الاحتكاك باللغات الأخرى، وإنما

نشاهد التطور من الظروف القائمة فى الوضع اللغوى للعربية نفسها .. أما التأثيرات الأجنبية فيبدوا أنها كانت ذات تأثير منشط فى الدرجة الأولى ..»[1].

* * *

«إنه لا يمكن أن يكون هناك شك فى أن «دانتى» [١٢٦٥ ـ ١٣٢١ م] كان «فى إمكانه» أن يقرأ نص قصة المعراج ـ [المترجم عن العربية] ـ، ومن الممكن أن يكون قد ألهمه فكرة إيجاد مقابل مسيحى عميق ذى مستوى رفيع للتصور الإسلامى للعالم الآخر..

ولقد أوجز المستشرق الإيطالى «لينى دلافيدا» البحث حول هذه الناحية بقوله: «اليوم لم يعد هناك مجال لأى شك فى هذه الحقيقة، وهى أن كتاب المعراج، الذى كان بوسع العالم اللاتينى الاطلاع عليه بلغتين أوربيتين (يعنى اللاتينية والفرنسية) إن لم يكن بثلاث (أى بإضافة الإسبانية)، ما كان ليبقى بعيدا عن تناول دانتى، وإلا كان أمرا خارجا عن المنطق المعقول. وهكذا يتأكد لنا اليوم أن نظرية «آسين بلاثيوس» [١٨٧١ ـ ١٩٤٤ م] قد أصبحت فوق مستوى النقاش. إن القضية لم تعد قضية إمكان اطلاع «دانتى» على المصادر العربية، وإنما هى قضية حقيقية ينبغى التسليم بها »[2].

---

(١) روزنتال: «الأدب» ـ بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف «شاخت» و«بوزورث» ـ مصدر سابق ـ القسم الثانى. ص ١٤٥، ١٤٦.

(٢) المصدر السابق. ص ١٨٢، ١٨٣.

-٢٢-

أما الشهادة الثانية والعشرون - والتى تدور حول التصوف الإسلامى، وتأثيره فى الأدب الأوربى - فإنها للمستشرق الإنجليزى «نيكلسون» (رينولد ألين) Nicholson,R.A. [١٨٦٨ - ١٩٤٥ م] . . خريج جامعة كمبردج، والمتخصص فى الدراسات الشرقية . . والضليع فى اللغة العربية واللغة الفارسية ولغات الهند . . وأستاذ الدراسات الفارسية فى الكلية الجامعية بلندن سنة ١٩٠١م . . وفى كمبردج سنة ١٩٠٢ م . . وأستاذ كرسى العربية سنة ١٩٢٦ م - سنة ١٩٣٣ م . . وعضو العديد من المجامع العلمية .

وصاحب الدراسات والتحقيقات والترجمات التى غدت مراجع متميزة فى الشعر الفارسى والفلسفة الفارسية . . والتصوف الإسلامى ومذاهبه وأعلامه ومصطلحاته . . وفى الأدب العربى وعلاقته بالتاريخ السياسى والعمرانى وفى الفلسفة الإسلامية . . إلخ . . إلخ . .

وفى هذه الشهادة يقول هذا المستشرق الحجة - «نيكلسون» -:

«إنه مما لا شائبة فيه أن ابن العربى [٥٦٠ - ٦٤٣ هـ ١١٦٥ - ١٢٤٠ م] قد أثر على بعض الباحثين المسيحيين فى القرون الوسطى. كما أشار البروفسور «آسين بالاسيوس»[١٨٧١ - ١٩٤٤ م] موخرا أن كثيرا من أوصافه وتعريفاته بجهنم والفردوس. والرؤيا المباركة أوردها «دانتى» [١٢٦٥ - ١٣٢١ م] بالدقة والمطابقة نفسها، بحيث يصعب القول أنها جاءت عفوا. فرقعة جهنم، والسماء النجومية، وحلقات الوِرْد الصوفية، وأجواق الملائكة تحيط بمصدر النور الإلهى وفيضه، والدوائر الثلاث

التى ترمز إلى الأقانيم الثلاثة، كل ذلك وصفه «دانتى» كما وصفه «ابن العربى» بالضبط..»(١).

* * *

«إن عقائد المسلمين الدينية، مثل المعراج (صعود النبى إلى السماء)، والشروح الفلسفية الدينية لمذهب ما بعد الحياة المستمدة من التراث الإسلامى العام ومن كتاب المسلمين (كالفارابى) [٢٦٠ ـ ٣٣٩ هـ ٨٧٤ ـ ٩٥٠ م] وابن سينا [٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م] والغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م] (وابن العربى)، لا بد وأنها كانت قد جمعت فى المذخر العام للثقافة العلمية التى تيسرت لأنبغ العلوم الأوربية فى القرن الثالث عشر..»(٢).

---

(١) نيكلسون : «التصوف» ـ بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف أرنولد ـ مصدر سابق . ص ٣٣١، ٣٣٢ .

(٢) المصدر السابق . ص ٣٣٣ .

أما الشهادة الثالثة والعشرون فهى للمستشرق الألمانى الكبير «أتنجهاوزن» (ريتشارد) .Ettinghausen, R [١٩٠٦- م] . . الذى تخرج من جامعات ميونخ، وكمبردج، وفرانكفورت . . وشغل مناصب مساعد الدائرة الإسلامية فى المتحف الوطنى ببرلين سنة ١٩٣١ م - سنة ١٩٣٣ م . . ومساعد نشر دراسات الفن الفارسى سنة ١٩٣٣م - سنة ١٩٣٤ م . . وعضو المعهد الأمريكى للفن والآثار الفارسية سنة ١٩٣٤م - سنة ١٩٣٧م، ومعيدا للفن الإسلامى بمعهد الفنون الجميلة بجامعة نيويورك سنة ١٩٣٦م - سنة ١٩٣٨ م . . ومساعد أستاذ للفن الإسلامى بجامعة ميتشيجان سنة ١٩٣٨ م - سنة ١٩٤٤م . . ثم أستاذا للفن الإسلامى بها سنة ١٩٤٨ م . . ومحررا لمجلة الفن الإسلامى سنة ١٩٣٨ م - سنة ١٩٥١ م . . ومجلة الفن الشرقى سنة ١٩٥١ م . .

ومن آثاره الفكرية : دراسات عن الفن الإسلامى والأيقونات الإسلامية سنة ١٩٥٠ م . . والرسم عند الفاطميين سنة ١٩٤٢ م . . والكعبة سنة ١٩٣٣ م . . والقرآن فى العهد السلجوقى سنة ١٩٣٥ م . . والبرونز الإسلامى سنة ١٩٤٣ م . والغزالى سنه ١٩٤٣ م . . والوحدة فى الفن الإسلامى سنة ١٩٥٥ م . . والواقعية المبكرة فى الفن الإسلامى سنة ١٩٥٥ م . . إلخ . . إلخ . .

وشهادة «أتنجهاوزن» هذه، ميدانها : الفن الإسلامى . . والأثر القوى والقوة الحيوية للإسلام الدين فى هذا الفن . . وتأثير الروح الإسلامية والتقوى والورع الإسلاميين فى فنون الكتابة والخطوط بالحضارة الإسلامية . . وتأثيرات هذه الفنون الإسلامية فى الفنون الغربية .

وفى هذه الشهادة يقول «أتنجهاوزن» :

«إننا نجد اليوم أن مفهوم الفن الإسلامى نفسه موضع تساؤل جاد فى بعض الأحيان، ويكون هذا التساؤل فى العادة مضمرا أو صريحا .. وقد نتج هذا الاتجاه إلى التخصيص أيضا من ظهور جيل جديد من العلماء فى بلاد الإسلام المختلفة اليوم، يبحثون باهتمام بالغ فى تراثهم الفنى الإقليمى الخاص. ونشأ معظم هؤلاء فى عصر علمانى الفكر، تغلب عليه الروح القومية، ومن هنا فإن معظمهم ينظرون إلى ماضيهم على اعتبار أنه إنجاز قومى فى المقام الأول، لم تقم فيه العوامل الدينية والثقافية والإسلامية العامة إلا بدور صغير، ولهذا فإن أولئك العلماء ومعهم عدد من زملائهم الغربيين المتأثرين بهم يتحدثون عن بلدهم وحسب، سواء كان ذلك البلد الهند أو الأندلس أو حتى باكستان.

ومع ذلك، فهناك أسباب عديدة تبرر الاستمرار فى الأخذ بوجهة النظر التقليدية، إذ على الرغم من الاختلافات التى يمكن وصفها بأنها اختلافات فى «اللهجة ـ المحلية» فإن جميع الفنون فى «دار الإسلام»تتكلم نفس اللغة أساسا.

ومثال ذلك أن المقارنة بين أعمال الخزف فى مراكز مختلفة شديدة التباعد، مثل إيران وبلاد الشام ومصر، أو منطقة جنوب الفولجا، أو فى منازل القطيع الذهبى فى مناطق القرجيز فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) تثبت لنا هذه النقطة بغاية الوضوح، بل إنه بعد نصف قرن من البحث الدولى المركز، لا يزال مستحيلا فى كثير من الأحيان التعرف علي الاختلافات الإقليمية، بل إن أحدا لا يستطيع أن يعين البلد الذى كتبت فيه المصاحف الكثيرة المزينة بالزخارف حتى سنة ٣٩٠ هـ سنة ١٠٠٠ م. أو يميز بين قطع الزجاج الصخرى المنحوتة فى مصر والعراق فى القرن الرابع والخامس للهجرة (العاشر والحادى عشر للميلاد)، أو يميز بين قطع الزجاج المشكلة فى هيئة فصوص فى نفس الفترة، أو يفرق بين المنسوجات الحريرية التى صنعت فى هذين البلدين خلال القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر للميلاد) وهناك مثال آخر يؤيد هذه النقطة هو أن عددا من المخطوطات المزدانة بالتصاوير الفارسية التى تعود إلى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) تنسب الآن إلى الهند الإسلامية لا لأنها تحمل ملامح هندية واضحة (إذ ليس هناك سوى دلائل قليلة على ذلك بحسب علمنا)

بل لأن العلماء لم يستطيعوا حتى الآن أن يحددوا موضعا معينا من إيران يمكن أن تكون قد صنعت فيه. وهذا يوضح بصورة مؤكدة وجود صناعة يدوية عريقة استلهمت من مصدر واحد تستعمل فى الإنتاج الفنى أساليب متشابهة يمكننا أن نفترض أنها موجودة فى كل حرفة على وجه التقريب فى العالم الإسلامى.

ونجد فى حالات أخرى، أن نسبة العمل الفنى إلى مكان ما من عالم الإسلام، لا تقوم على أية دلائل من الأسلوب الفنى بل هى ناتجة عن قراءة الكتابات المثبتة على الأعمال الفنية، بالإضافة إلى وسائل التقنية الحديثة التى استعين بها منذ زمن قريب.

وأخيرا فلابد أن نلاحظ أن الشخصية الإسلامية ظاهرة فى الفنون والصناعات إلى درجة أنها تتجلى حتى بعد أن تكون المنطقة التى صنعت فيها، مثل الأندلس أو صقلية، قد عادت إلى السيطرة المسيحية، بحيث تغير الاتجاة الفنى فى المنطقة المذكورة تغييرا كاملا.

وهكذا يتضح لنا أن الإسلام كان له أثر قوى جدا، بل كانت له قوة حيوية انعكست على جميع الفنون التى نشأت فى عالم الإسلام..».

* * *

«إنه كلما تحدثنا عن التراث الفريد الذى خلفته الحضارة الإسلامية للعالم فى صورة فنونها المتنوعة، فإننا نسلم بأن هذا التراث من الناحية الجمالية يكوّن وحدة شاملة متصلة أجزاؤها بعضها ببعض، وربما كنا على علم بالاختلافات الشكلية التى وجدت فى الأقاليم المتنوعة التي تضمها الساحة الشاسعة لعالم الإسلام، ولكننا نظل نؤيد أساسا الرأى القائل بأن هذه الوحدة تربط أجزاءها بعضها إلى بعض خصائص عامة ذات طابع غالب موحد..»[1].

* * *

(١) أتنجهاوزن: «الفنون الزخرفية والتصوير، شخصيتها ومجالها» - دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «شاخت» و«بوزورث» - مصدر سابق - القسم الثانى. ص ١ - ٦٣، ٦٠.

«لقد كان القاضى أحمد يقول: «إن صفاء الكتابة ينبع من صفاء القلوب».

والقاضى أحـمد هذا صاحب تأليف إيرانى عن الخطاطين ومـصورى الكتب فى أوائل القرن الحـادى عشـر الهجرى (السـابع عشـر الميلادى). وهو يسند ذلك الرأى إلى مـصدر رفيع ويقول: «إن غرض على المرتضى (والمراد الخليـفة على بن أبى طالب) كرم الله وجهه من تجويد الكتـابة لم يكن ابتكار الحروف والنقط، ولكنـه كان يرمى من ورائها إلى تحـقيق الهدفين الأساسيين، وهما الصفاء والفضيلة».

وهـذا الرأى يعـبـر عن مـوقف كـان أبو حـامـد الغـزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م] قد اتخـذه قبل ذلك بخمـسمائة عام، وعـبر عنه بقوله: «فـمن رأى حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعـال صفاتها الجميلة البـاطنة التى يرجع حاملها عند البحث إلى العلم والقدرة» ـ [الإحياء ـ جـ ٤ ص ٣٠٣، ٣٠٤] ـ ..

ونتيجة لذلك، فإننا نجد أن تراجم الفنانين والمصورين تصـفهم أحيانا كثيرة بأنهم كانوا نماذج من التقى الوادع ..وعلى ذلك فإن المثل الأعلى للفنان أو الصانع الماهر المسلم لا صله له بالفنان البوهيمى الذى نعرفه فى العصر الرومانسى..»[1].



«..وخـلال ما يزيد على ألف وثـلثمـائة عام كـان بين عـالم الإسلام والعـالم الأوربى مواجهة شبه دائمـة، وكانت العلاقات بينهما تتسم بالتفاعل النشط، وفـى كثير من الأحيان بالتوتر.

لكن بالرغم من موقف الإنكار العنيف الذى كان الغرب يقفه من الدين الإسلامى ومن نبيه، وهو موقف لا زال الغرب يحتـفظ به فى الواقع إلى اليوم، وبالرغم من الحرب الفعلية التى كانت مـستمـرة بينهما والتى بلغت أوجـها فى الحروب الصليـبية وفى فـتوح الأتراك العثمانيين فى أوربا، فإن الغرب لم يحمل قط غيـر شعور الاعجاب بفنون البلاد الإسلامية ولـم يقـتصـر الأمر على مـجرد قـبول تلك الفـنون بطريقة سلبـية، بل إن إعـجاب الغـرب

---

(١) المصدر السابق. ص ٨١، ٨٢.

بالفنون الإسلامية تجلى فى إدخال ما تيسر له منها فى أكثر منشآته احتراما وجلالا، سواء أكانت تلك المنشآت دينية أو دنيوية ويظهر ذلك الإعجاب أيضا فى اقتباس الغرب فنون الشرق بصورة أو بأخرى.

فلماذا لقيت الفنون الشرقية هذا القبول فى الغرب؟.

أول نقطة تذكر فى هذا الشأن هى نقطة سالبة، بمعنى أنه لم يوجد فن تصوير إسلامى خاص أو فن تشيع فيه رموز دينية يمكن أن تجرح إحساس العقلية المسيحية..

وهناك سبب أكثر إيجابية لقبول المواد الفنية الإسلامية، وهو قيمتها الجمالية الواضحة التى تتمثل فى تناسقها وفخامتها وما تحفل به فى كثير من الأحيان من غنى فى الألوان.

وهناك ميزة أخرى تتجلى بصورة خاصة فى العصور الأولى، وهى الدرجة العالية من الإتقان الفنى الواضح فى صنعة تلك القطع، وهى درجة تفوق بمراحل أى شىء كان من الممكن أن ينتجه الغرب فى تلك العصور، ناهيك عن طرافتها الغريبة بالإضافة إلى شىء هام زاد من قدرها وهو ارتباطها الصحيح أو المفترض بالأرض المقدسة وبشخصيات دينية معينة ..

.. بل إن صنعة ثانوية مثل تجليد الكتب تحمل أيضا طابع المسلمين. فلدينا أول الأمر التحسينات الفنية (فى هذه الصنعة) التى تعلمتها أوربا من جيرانها الشرقيين.

وتمثل تصاوير المنمنمات آخر الفنون الإسلامية التى تركت طابعها فى الغرب. وهنا نجد أن فن عصر سلاطين المغول الكبار فى الهند كان أول ما ترك أثرا ملحوظا فى الغرب ..»[١].

---

(١) المصدر السابق . ص ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٨ .

-٢٤-

أما الشهادة الرابعة والعشرون فهى للمستشرق «كريستى» (أى. أج) . . صاحب دراسة [الفنون الفرعية الإسلامية وتأثيرها على الفنون الأوربية] . . والتى تحدث فيها عن البعث الإسلامى للفن . . وتلقائية الفن الإسلامى . . وتأثير الفن الإسلامى فى الفن الأوربى . . وعن الفنون الفرعية، من مثل: النسيج . . والزهور . . والورق . . والعملة . . والآلات الفلكية . . إلخ . . إلخ.

وفى هذه الشهادة يقول «كريستى».

«فى هذه الأصقاع ـ [الشرقية] ـ كان الفن قد جر عليه النسيانُ ذيولَه حتى الفتح العربى، حيث أخذت صناعة الأوانى الخزفية بالتأثير الإسلامى تبدو للوجود بطراز واتجاه جديدين، وبزخارف ونقوش مستحدثة..

لقد انتعشت وارتقت صناعة الخزف الوطنية أثناء الحكم الإسلامى فى مصر والشرق الأدنى وسلكت سبيل التفنن والإتقان والزخرف وأصبح المسلمون فيها أساتذة خبراء، وهى الصنعة التى كانت منذ العصور الغابرة تتأرجح بين الانتعاش والخمول.

ولقد اتخذ الفن الإسلامى، وهو فى سبيل تقدمه من جديد بهذا الفن القديم شكلا متمايز المعالم، وطابعا خاصا واضحا، حتى ليمكن عده طبيعيا يمر النظر به مر الكرام غير متشكك. كأن كل شى سواء أُوُعد للاستعمال الاعتيادى أو عُمل لمناسبة خاصة ـ يكسو الزخارف النابضة بالحياة بإسراف عظيم الدقة وبأشكال تبدو وكأنها طبيعية كالرسوم التى تخلعها الطبيعة على الأحياء أكثر مما تبدو زخارف اصطناعية.. فاطراد النسق الإيقاعى فى الزخرف هو للعين الشرقية ضرورة إيناسية صرفة كضرورة اللحن للأذن الغربية.. إن

الأشكال الزخرفية يجب أن توضع فى صف أعلى الفنون الصغيرة التى تفتقت عنها العبقرية الإسلامية .. وثم مظهر آخر من مظاهر الزخرف الإسلامى، وهو استعمال الخطوط العربية..»[(١)].

* * *

«وهناك طرق أخرى مارسها الصناع المسلمون بنقش المعدن، غير الزخرف المحفور أو المرسوم. إنهم برزوا فى فن التكفيت على الذهب والفضة والبرنز والصفر ..إن فن التكفيت المعدنى الإسلامى وصل حد الكمال فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر، واستمر محافظا على منزلته الرفيعة هذه طوال قرنين ..»[(٢)].

* * *

«فى نهاية القرن الرابع عشر أخذ فن التكفيت بالاضمحلال، فاندفاع المغول فى سوريا، ونهب تيمور لنك [٧٣٦ ـ ٨٠٧ هـ ١٣٣٦ـ ١٤٠٥ م] لدمشق السنة ١٤٠١ م، جر ذيول الدمار على المراكز الصناعية النشيطة، وشتت الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ م البقية الباقية من الأساتذة القاهريين القليلين.

ولكن، فى الوقت الذى كان هذا الفن يموت فى مسقط رأسه، أخذ يلقى فى أوربا اهتماما متزايدا، حيث قدر له أن يولد ميلادا باهرا. ففى القرن الخامس عشر أخذت التجارة الشرقية التي استعادتها المدن الطليانية أثناء الحروب الصليبية تزدهر للغاية، وأضحت المنتوجات الشرقية شائعة الاستعمال عند أمراء إيطاليا الصغار عشاق الفخفخة والمظاهر، الذين أخذ صناعهم يتخذون من تلك المصنوعات نماذج يحتذونها ويخرجون ما يصح أن يكون نصرا مبينا لتقليدهم إياها. وكان للصناعة المعدنية الإسلامية أثرها العميق على صناع البندقية المحليين حتى ظهرت مدرسة بندقية ـ

---

(١) كريستى : «الفنون الفرعية الإسلامية وتأثيرها على الفنون الأوربية» ـ بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف «أرنولد» ـ مصدر سابق ـ ص ١٨٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٨٠ ، ١٨١ .

شرقية قـائمة بذاتها، فيها حورت التـصاميم والاتجاهات الإسلاميـة إلى ما يوائم ذوق عهد النهضة الإيطالية...»[1].

❊ ❊ ❊

«لقد استمد الفن الإسلامى روحيته من جزيرة العرب، ولكن شكله المادى قد فصل من مكان آخر فى بقاع كان الفن قوة تنبض بالحياه..

بدأ الفن الإسلامى فى الجامع. هنا ولد فى رائعـة النهار، وربى بكل وضوح تحت رعاية الجمـهور، وكان أول جـامع أبنيتـه عارية، خلت من أية نزعـة معمـارية، وجعلت للعـبادة والوعظ فقط..ولكن سرعان ما ظهـر جيل أكثر تدقيقا فى ملاحظة التبـاين بين فقر المسجد وغنى كنيسة الكفار. وبسير الزمن فى مجراه أصبحت المنارة والمحراب الزخرفين الرئيسيين فى بنايات عـدت، بسبب براعة التـصميـم وتلون الزخارف من بين فتـوحات فن العـمارة الخالد..

وباتساع رقـعة الإسـلام أخذ التـماس مع الأمم الغـربية نظرته الفنيـة، وأنتجت القـيود الصارمة الدائمة التي تفرضها العـقيدة اتجاهات جديدة للعمل الفنى الأعلى، زد على ذلك أن اتساع النظرة الإسـلامية أدى إلى دخول عنصـر ثقافى جديد دنيـوى خالص فى طبيعـته وتركزه على حـساب التفـوق الروحى، وعندما أخذت العـادات الأجنبية تصـيب بعدواها الحاكمين، الذين لم يكونوا أساطين الدين الحنيف، صارت الصبغة الدينية تنسل من جدران القصور، وزحفت أنواع من الفنون ما كانت من الدين فى شيء عندما بدأ الخلفاء المثقفون يكتسبـون أذواقا دقيقـة فى الكتب الجميلة والمنسوجـات المزركشة بالزخارف وأمـثالها من الأشياء اللائقة بملك لا بخليفة الرسول..»[2].

❊ ❊ ❊

«سرعان ما أصبح المسلمون أعظم البنائين. كانت عبقريتهم قد انبتت آراء هندسية ذات

---

(١) المصدر السابق. ص ١٨٤، ١٨٥.

(٢) المصدر السابق. ص ١٦٩ ـ ١٧١.

مفاهيم فنية دقيقة، ووقف التحريم الدينى للتصوير البشرى حائلا دون أى تطور فى عمل نحت التماثيل، لكن النحاتين على الصخر والحفارين على الخشب وغيرهما من المواد كانوا عظيمى المهارة..

وفى الوقت الذى كان الفخارون المسلمون يمتصون بكل شوق كل الآراء التقدمية الموافقة، فإنا نجدهم محافظين على أصول فنهم العظيم بإتقانهم أخذ نماذجهم من الخارج وصبها فى قوالبهم الخاصة..

إن تنويع النقش ومتانة الصنع فى هذه القطع الخشبية، أوصل النجارين المسلمين إلى طريقة فذة عجيبة فى تحشيد وتصفيف هذه الحشيات الخشبية والتأليف فيما بينها بشكل زخرفى استلطفه المسلمون ووقع فى أنفسهم أجمل وقع، فأولعوا به، وعملوا زخارف من عدة مضلعات منبثقة من أشغال نجمية، وهو طرز فى الزخرفة ربما كان من أبرز وأعظم ما ساهم به الفن الإسلامى فى ميدان فن الزخرف العالمى..»(١).

* * *

«لقد بدأ التماس بين المسيحيين والمسلمين من أوقات سبقت الحروب الصليبية بأزمان طويلة.

ففى إسبانيا ركز الإسلام نفسه على تخوم أوربا الغربية، ومارس من البداية نفوذ ا عميقا على الثقافة المسيحية، وفى صقلية عاش الدينان فى صعيد واحد، بينما كان شمال إفريقيا كله محكوما من المسلمين، وكانت سفنه تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط من نهاية إلى نهاية ..

وكانت الحروب الصليبية فاتحة عهد جديد، فأصبح الصيت الرفيع شبه الخرافى الذى كان يشار به إلى العرب حقيقة واقعة أمام المسيحية الحائرة المتعجبة، ومالبثت حملات المتطوعين المتقاطرة بين أرجاء أوربا أن وجدت نفسها فجأة وهى على تماس مباشر بالنظام الاجتماعى الذى كان يضيق من كل جهة بحدود تجاربهم وعقلياتهم المحدودة.

---

(١) المصدر السابق. ص ١٧٣، ١٧٩، ٢١٠.

كانت ردود الفعل الناجمة عن هذا الاتصال واضحة فى كل ضرب من ضروب النشاط الاجتماعى، وفاق نجاحه فى النواحى الفنية نجاحه فى النواحى الأخرى بما لا يمكن قياسه.

وطد التجار اللاتين بمرور الزمن صلات تجارية بالمرافئ السورية، فأصبحت التجارة مع الشرق منتظمة فى قواعد ثابتة دائمة، وأخذ يصل الأسواق الأوربية كل أنواع المصنوعات الإسلامية النادرة، تلك الصادرات صارت تسد حاجات لم تكن من قبل يدركها أويفطن إلى ضرورتها مستعملوها الجدد، وأثارت روح المحاكاة، وفتحت أينما حلت اتجاهات للتطور بصورة مباشرة أو بطرق غير مباشرة قدرلها أن تُؤتى ثمارها الناضجة فيما بعد.

لقد بقيت أوربا أكثر من ألف سنة تنظر إلى الفن الإسلامى كما تنظر إلى أعاجيب، لأنه كان بالدرجة الأولى مرتبطا ارتباطا محكما بالأراضى التى طمحت المسيحية أن تستردها، لكن مصدر الإعجاب أصبح بالأخير متأتيا من جمال الفن بذاته.. لقد أصبحت هذه الفرائد التي يقدرها كل خبير حق قدرها مصدر إلهام روحى لأولئك الذين وقفوا حياتهم على فنون كانت مهملة فى الغرب..

لقد قُدر للإسلام حين بدأ بالسير فى نهجه المجيد من ناحيته الغربية أن يزرع شكلا من الفن جديدا فى المدن المتاخمة للأطلنطى. إن طريقة حفر الرسوم المعروفة باسم (كرافيتو) ..استعملت فى القرن الخامس عشر بنجاح عظيم واستعملها الفخارون الطليان الذين ربما استمدوها من الجهات الإسلامية، إذ أنهم استحصلوا على آراء ومفاهيم فنية ناضجة منها كانت مفيدة لهم جدا لإحياء فن صناعة الخزف فى عهد الرينسانس.

لقد حصل الطليان على أوعية الأدوية البراقة من فلنسية مركز إنتاج هذا الخزف الإسلامى فى الغرب، حيث كانت تصنع أشكال من أبدع ما وجد منها فى العالم، أحيانا بناء على طلبات وتوصيات تجار أجانب كانت شعاراتهم تنقش عليها..

إن الخزف الإسباني البراق نجح كثيرا وأثار غيرة إيطاليا حتى أن الفخارين المحليين عرفوا كيف يضيئون نماذج عهد الرينسانس المأثورة بنور لا ينطفىء وبأسلوب يناقض تماما التقليد المتبع قبلا..

وفى القرن الخامس عشر حول الزجاجون البندقيون، الذين اشتهر أمرهم فى كل أوربا منذ القرن الثالث عشر، كل اهتمامهم إلى الأساليب الشرقية، وتمكنوا من امتلاك ناصية نقش المينا بشكل لم يعد معه وقفا على المسلمين. أخذ هذا الفن ينتشر من البندقية إلى مراكز أوربية أخرى، ويبرز بمبتكرات جديدة، فقوارير الكحول الزاهية الألوان، التى شاعت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، إنما هى أنسال شوهاء للإبداع والدقة الإسلامية فى القرون الوسطى.

إن تقليدهم النماذج الشرقية، وإن لم يخل من طرافة، سواء فى جمال الشكل أو دقة النقش لا يمكن أن يضاهى بالأصل قط.

ولم يقتصر استخدام الحرير الشرقى للحلل الكنسية على القرون الوسطى، بل تعداه إلى العصور التى أعقبتها. فحلة القدّاس فُصّلت من قماش فارسى من مصنوعات أواخر القرن السادس عشر وبداية السابع عشر بنقوش لا تليق قط بخدمة الغرض الذى فُصّلت لأجله، فكيف يُتسامح بالظهور فيه فى المسجد؟فقوام النقش بصورة رئيسية صف من الشباب الواقفين مرتدين ثياب القصر، قابضين على كئوس وقوارير خمر، صُوِّروا واقفين وسط سيقان نباتية رفيعة متسلقة تحمل أوراقا وأزهارا..

وفى القرن الخامس عشر نجد الصناع الأوربيين قد استفزهم النجاح الإسلامى فى فنون الصناعات التحافية المربحة التى أصبحت شيئا جوهريا لجلال عصر الرينسانس، يتوجهون إلى الشرق وقد انتابهم اهتمام مجدد، فأخذوا بدافع دراسة أعمق الأساليب الإسلامية يصلحون ويوسعون أساليبهم الفنية الخاصة، وبعملهم هذا لم يعودوا يكتفون باقتباس عناصر زخرفية كهذه التى جاءت عفوا، بل بدأوا يستكشفون، بدقة ونظر جديد، قوانين الزخارف الإسلامية ويقتبسونها بروح جديدة فى آثار أوربية بحتة الصبغة..

ولم تقتصر ممارسة النماذج الشرقية على صغار الصناع، بل تعدتها إلى شخصيات فنية كبيرة أمثال (ليوناردو دافنشى..»[١].

* * *

«إن (حى العتّابية) فى بغداد، حيث يسكن نسل «عتّاب» ابن حفيد أحد صحابة الرسول ﷺ اشتهر فى القرن الثانى عشر بنسيج خاص قُلّد فى إسبانيا، وعرف هناك باسم الحرير(الأتّابى) وعرفته فرنسا وإيطاليا باسم (تابيس) واشتهر أمره باسمه التجارى هذا خلال أوربا كلها وفى ١٣ تشرين الأول ـ [أكتوبر] ـ سنة ١٦٦١ م الموافق يوم الأحد (يوم الرب) ارتدى مستر «بيباس» سترته الحريرية العتابية بشرائطها المذهبة، غير مدرك أصول هذه الكلمة العريقة. وفى السنة ١٧٨٦ م حضرت الآنسة «بيرنى» حفلة ميلاد ملكة وندسور مرتدية فستانا من العتّابى الليلاكى، وهو صبغة معروفة فى بلاد فارس باسم (الليلق) وقد انتقل إلى الغرب مع الشجيرة المزهرة المسماة بهذا الاسم ..

إن المحل الذى استقى منه الصناع الطليان الأُول أسرار الصنعة، وأخذوا عنها النماذج والأشكال، هو بالدرجة الأولى جزيرة صقلية، حيث كان الفاتحون المسلمون قد أسسوا فى القصر الملكى «ببالرمو» معمل نسيج مشهور بقى مزدهرا حتى عادت الجزيرة إلى الحكم المسيحى أيام النورمان...»[٢].

* * *

«ومن بلاد فارس حصل الغرب على مسارب تركية وسورية فى أغلب الأحيان على عدة نبتات أزهار شاع زرعها فى حدائقنا الآن. هذه الأزهار لم تكن معروفة لدى أوربا إلى زمن بعيد إلا فى الخزفيات والفخاريات المستوردة من الشرق الإسلامى. وكان أول من

(١) المصدر السابق. ص ٢١٩، ٢٢٠، ٢١٨، ٢١٩، ١٦٩، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٧، ٢٠٤، ٢٢٠.
(٢) المصدر السابق. ص ٢٠١ ـ ٢٠٣.

جلب زهر الخزامى إلى الغرب هو السفير الإمبراطورى إلى القسطنطينية «يوزيك» فى حوالى منتصف القرن السادس..»[١].

❊ ❊ ❊

«وتستعمل الكتب فى الحياة اليومية وتدين بشىء من مادتها وفنها وصنعتها إلى الإسلام، فهى أوسع الحاجات انتشارا وربما بدا لأول وهلة أن احتمال ارتباطها بالشرق بعيد.

إن الطرق الحديثة لتجليد الكتب وإنتاجها قد استفادت أكثر من الكثير من صناعة الإسلام ومهارته فى القرون الوسطى .. ومع أن أوربا قد أتقنت فن الطباعة، ووصلت به حد الكمال قبل وصوله الأقطار الإسلامية، فنحن مدينون للشرق بمادة كانت العامل الأكبر، إن لم يكن الأوحد، فى ارتقاء فن الطباعه وبلوغه مرتبة الكمال. لقد عرف الإسلام الورق ـ وهو اختراع صينى قديم ـ عند استيلائهم على «سمرقند» سنة ٧٠٤ م. وتعلموا إنتاجة من الصناع الصينيين، وانتشر استعماله فى الغرب بفضل الإسلام.

وعلى كل حال، فالناشر الحديث ليس مدينا للمسلمين بالورق وحده، ففى غضون القرن الخامس عشر، عندما كانت البندقية منهمكة فى امتصاص الثقافة الإسلامية، و«موضة» الإسلام الفنية فى أوربا، اتخذت صنعة تجليد الكتب فى إيطاليا مظهرا شرقيا لا شائبة فيه ..[٢].

❊ ❊ ❊

«..عملة ذهبية، ضربها «أوفا» ملك «مرسية» سنة ٧٥٦ م ـ سنة ٧٥٧ م، هى الآن محفوظة فى المتحف البريطانى، تشبه هذه القطعة الدينار الإسلامى شبها عظيما، إلا أن كلمتى (أوفا . ملك) قد ثبتا على وجهيها وسط كتابة عربية منقولة نقلا أمينا، بحيث أننا

---

(١) المصدر السابق . ص ١٩٥ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢١٤، ٢١٥

نجد تاريخ القطعة الأصلية بالعام الهجرى، ودعاء دينيا إسلاميا ظاهرا للعين فى النسخة. إن هذه القطعة لا مثيل لنوعها، فهى تثبت لنا كم كان واسعا تداول العملة الجديدة التى تخرجها دور الضرب الإسلامية!

وفى المتحف نفسه شاهد آخر لتماس الغربى بالصناعة الإسلامية فى شخص صليب إيرلندى مطلى بالبرنز، يعود إلى حوالى القرن التاسع، وسط زجاجة عليها العبارة العربية (باسم الله) بالخط الكوفى.

فى كلتا هاتين الحالتين لم يكن الصناع يدركون مغزى الكتابة العربية التي ينقشونها أو التى يقلدونها إذ لا يمكن لكتابات إسلامية بحتة كهذه أن تنقش بدراية وفهم على عملة ملك مسيحى، أو تثبيتها فوق شارة مقدسة كشارة الصليب..»[١].

«والأصطرلاب آلة فلكية من مخترعات الإغريق، حسنها الجغرافى الإسكندرى «بطليموس» [٩٠ ـ ١٦٨ م]، ووصل بها المسلمون حد الكمال..»[٢].

---

(١) المصدر السابق. ص ١٧٦.

(٢) المصدر السابق. ص ١٧٧.

أما الشهادة الخامسة والعشرون فإنها للمستشرق الإنجليزى الحجة، والعالم الثقة «سيرتوماس أرنولد» .arnold, sir thomas] ـ والذى سبقت ترجمته والتعريف به وبمكانته فى صدر هذه الشهادات . .

وهذه الشهادة هى الأخرى عن الفن الإسلامى، وتأثيراته فى الغرب . . وتأثيرات فنون الحروف العربية فى الفنون الغربية . .

وفيها يقول «أرنولد» :

« . . فى خلال الحروب الصليبية، حصل تماس أكثر من ذلك مع مسلمى الشرق، مما أدى إلى تسهيل استيراد الحاجات ذات الطابع الزخرفى الإسلامى المتمايز . وفى بلاد مركز الارتباط التجارى مع الشرق «كجنوا» و«بيزا» و«البندقية» دخل هذا النموذج فى التصوير ، واستتبع ذلك أن ظهر الاهتمام بالعالم الشرقى، ذلك الاهتمام الذى اشتد كثيرا بعاملى الفضول والافتتان بما خالف المألوف، وبدا ذلك فى أول إنتاج لمدرسة رسم فى مدينة «سيينا»، وأصبح ثابتاً مستقرا فى الفن التوسكانى .

أخذت الرءوس المعتمرة بالعمائم والسحنات الشرقية، تبدو فى صور إيطالية، قبل النصف الثانى من القرن الرابع عشر . هذه الشخوص الأجنبية كانت تحتل مكانة ثانوية فى رسم المنظر المقدس . ولم يلمس وجود التأثير الشرقى بصورة خاصة إلا فى التوابع لا الأصول، كمحاكاة الفارسى من السجاد وغيره، وإكساء الأشخاص فى الصورة، حتى الرئيسيين منهم، ثيابا شرقية، واقتباس الحيوانات الأجنبية كالفهود والقردة والببغاوات، كذلك فى تفاصيل المناظر الطبيعية أيضا فمن الممكن

ملاحظة دقائق صغيرة فى الأشجار وأوراق النباتات تبدوا تقليدا محكما للأنماط الشرقية.

والاستعمال الزخرفى للأحرف العربية ظهر فى لوحات إيطالية قبل عصر «غيوتو» [١٢٦٦ - ١٣٣٦م] مثال ذلك الكشف اليمنى لصورة المسيح فى قيامة لعازر بكنيسة (أرينا).

إن « فرا أنجليكو» [١٣٨٧-١٤٥٥م] و « فرافليبى سيبّو » [١٤٠٦-١٤٦٩ م] كانا مغرمين بصورة خاصة بهذا النوع من الزخرفة، واستعملاه حتى فى تزيين أكمام العذراء مريم وحاشية ثوبها . . جاهلين تمام الجهل، كما يدل ظاهر الحال، أصول تلك الأشكال. . »[١].

(١) أرنولد: «الفن الإسلامى وأثره على التصوير فى أوربا» - دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «أرنولد» - مصدر سابق - ص ٢٢٥، ٢٢٦.

أما الشهادة السادسة والعشرون - والتى تتحدث عن إنجازات الحضارة الإسلامية فى الموسيقى - فهى للمستشرق «فارمر» (هنرى) farmer.H.G [١٨٨٢ - ١٩٦٢م] . . الذى احترف فن الموسيقى . . وكانت دارسته لتاريخ الموسيقى هى طريقه لتعلم العربية والفارسية . . ولقد أوقف نشاطه كله على دراسة الموسيقى الشرقية عامة، والعربية خاصة، وقدم آثاره الفكرية والفنية - كتبا ومقالات ومحاضرات - فى هذا الميدان . .

ولقد تناولت دراساته : التحقيق لتراث الموسيقى العربية ، وآلاتها، وتأثيراتها فى الموسيقى الغربية . . ومن منشوارته مخطوطات موسيقية عربية سنة ١٩٢٦م . . وتاريخ الموسيقى العربية ١٩٢٩م . . وعلماء الموسيقى الإغريقية فى الترجمات العربية سنة ١٩٣٠ م . . والوقائع التاريخية فى أثر الموسيقى العربية سنة ١٩٣٠م . . وآلات القدماء من أصل شرقى سنة ١٩٣٠م . . وكتاب أرغون القدماء سنة ١٩٣١م . . والموسيقى العربية . . ودراسات فى آلات الموسيقى الشرقية سنة ١٩٣١م . . وكتابات الفارابى العربية باللاتينية فى الموسيقى سنة ١٩٣٤م . . وثبت المخطوطات العربية التى تتناول الموسيقى العربية النظرية والعملية وتاريخها سنة ١٩٣٥م . . والتقديم لكتاب الملاحن لأبى طالب المفضل بن سلمة سنة ١٩٣٨م . . والتحقيق لأوصاف الآلات الموسيقية التركية . . والموسيقى فى كتاب الأغانى . . والميمونيون فى الموسيقى . . والطرب فى الليالى العربية . .

ويعد كتابه : مصادر الموسيقى العربية أهم المراجع الشاملة فى هذا الفن .

ولقد شغل كرسى أستاذ الموسيقى فى جامعة فؤاد الأول - [القاهرة]- سنة ١٩٤٥م . . وفى جامعة جلاسجو . .

وفى هذه الشهادة - عن إنجازات الحضارة الإسلامية فى فن الموسيقى - يقول فارمر» :

«..كان أكثرية النظريين العرب فى فن الموسيقى من نوابغ (الرابوع Cquadrivium ومن خيرة الطبيعيين والرياضيين.

وإن نظرية الموسيقى، والقواعد الطبيعية للصوت، التى جاءت بها الرسائل اليونانية،حملت جمهرة من أولئك النظريين على إجراء تجارب خاصة بأنفسهم، وهذه ناحية من أروع نواحى مجهوداتهم . ولقد قرأنا أكثر من مرة قولهم إنهم وضعوا النظرية الفلانية والفلانية فى حيز التطبيق والعمل فوجدوها خاطئة، إلى غير ذلك. وإن نقدات «صفى الدين بن عبد المؤمن» [٦٩٤ هـ / - ١٢٩٤م] وتعاريف «الفارابى» [٢٦٠ - ٣٣٩ هـ ٨٧٤ - ٩٥٠ م] و« ابن سينا» [٣٧٠ - ٤٢٨ هـ ٩٨٠ - ١٠٣٧م] أظهرت لنا طباع هؤلاء الرواد الباحثين اللذين لم يخروا على ركبتهم ركعا مقتبلين الآراء التى جاء بها سلفهم على علاتها مهما كانت أسماء أولئك الأسلاف شهيرة، إن لم تكن آراؤهم تلك صحيحة..

إن كلا من «الفارابى » و«ابن سينا» قد زادا على ما جاء به الإغريق، فكما أصلح الفلكيون العرب أخطاء « بطليموس » [٩٠ - ١٦٨م] وغيره، كذلك حسّنوا ما خلفه لهم أساتذتهم الإغريق من تراث موسيقى.

فمقدمة «الفارابى» لكتابه [الكبير فى الموسيقى] تضاهى فى الواقع، إن لم تزد كل ما ورد من المصادر اليونانية، ومما لا شك فيه أن العرب حققوا بعض التقدم فى نظرية المبادئ الطبيعية للصوت. وعلى الأخص فى قواعد انتشاره، ومما لا شك فيه أن الستار سيزاح عن كثير من معميات المصطلحات و العبارات اليونانية العلمية التى استغلقت على الأفهام وأضحت مجالا للأخذ والرد بين كتاب اليونان، وذلك بعد نشر آثار النظريين العرب بإتقان وتهذيب..»(١) .

* * *

(١) فارمر : «الموسيقى» - دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «أرنولد» - مصدر سابق - ص ٤٥٠، ٥٤١.

إن آلات الموسيقى العربية تفوق الحصر، ويتعذر علينا هنا أن نأتى على ذكر عشرها. لقد أوصل العرب صناعة آلات الموسيقى إلى مرتبة الفن الجميل، وكتبوا عدة رسائل وكتب فى طرق صنعها . . . ولدينا أكثر من دليل على أن العرب كانوا من مخترعى آلات الموسيقى ومحسّنيها . . . »(١)

* * *

« أن شكلا من أشكال العلامات الموسيقية (النوتة) شاع استعماله - [عند العرب] - فى السنوات الأولى من القرن التاسع - [الميلادى] - ولقد كان أغلب أصحاب الصناعة [الآلاتية] يدرسون الموسيقى عن طريق السماع . . . (٢)

* * *

«لقد كان التراث الذى تركه العرب لعالم الموسيقى هبة جسيمة رائعة، فحيثما أرسلنا الطرف فى الشرق وجدنا تأثير الفن العربى عمليا.

أما عن انتفاع النظريين الترك والفرس وغيرهم أيضا فهناك كثير من الشواهد الخطية . . وفى تركيا نجد مترجمات تركية لرسائل « الفارابى» و«صفى الدين» و«عبد القادر . . . »(٣)

أما عن غرب أوربا، فإن الفوائد المستخلصة من الاحتكاك بالحضارة العربية أكثر وأعظم، فلقد استمدت أوربا تراثها من العرب بسبيلين:

١- الاحتكاك السياسى الذى أوصل تراث الفن العملى باليد واللسان.

٢- بالتماس الأدبى والثقافى الذى توسل إلى نقل تراث الفن النظرى بالترجمة وبتعاليم الباحثين من علماء الغرب الدارسين فى المعاهد الإسلامية بإسبانيا وغيرها..

---

(١) المصدر السابق. ص ٥٢٦، ٥٢٧.
(٢) المصدر السابق. ص ٥٢٩.
(٣) المصدر السابق. ص ٥٤١، ٥٤٢.

ولعل أهم تراث خلفه العرب لأوربا هو «الموسيقى الموزونة» . لقد كان الغناء الموزون قبل مجيء «فرانكو الكولونى» - حوالى سنة ١١٩٠م - غير معروف فى أوربا...

لقد قدر للحضارة العربية، التى سمت إلى الأوج، أن تعكس ضوءها على أوربا الغربية، وثبت لدينا أن الإسبان كانوا يقلدون النماذج العربية فى الأسجاع والأوزان الشعرية للقصيدة فى غضون القرن التاسع الميلادى. ولقد تأثر بها حتى اليهود أنفسهم فى غضون القرن العاشر. مما لا ريب فيه أن الموسيقى التى تصاحب الشعر استعيرت أيضا،لأنهما يؤلفان وحدة لا انفصام لها...

إن التراث العربى المتخلف لأوربا الغربية، فيما يخص الآلات الموسيقية والفن الموسيقى الآلى إنما ينطوى على عظيم أهمية . أما وأن للعرب فضلا فى إدخال أسماء عدد من الآلات الموسيقية بأشكالها الحالية فى أوربا الغربية ، فهذا ما قرّ الرأى عليه بصورة عمومية، فأصل كلمات « العود» و«الربا» و«القيثار» و«النقارة» Naker وGuitar وLulerebec هو العربى...

لقد دخل عدد كبير من أشكال عربية خالصة جديدة تماما، وكانت ذات أهمية كبيرة للموسيقى الأوربية. فأولا: وصل كل أسرة الآلات الوترية لمجموعات العود والطنبور والقيثار.

وثانيا : وردت الآلات القوسية بمختلف أشكالها . . .

ولم يكن لدى المطربين الأوربيين قبل الاحتكاك العربى إلا ما يدعى بـ (Githara Harb) من الآلات الوترية ، ولم يكن لديهم غير آذانهم تهديهم إلى (الدستان) الصحيح ، فجلب العرب إلى أوربا عيدانهم وطنابيرهم وقيثاراتهم بمواضع النغمات مؤشرة فوق زند الآلة بواسطة ما يسمى (fret) (من العربية : فرْضة أو فريضة)وهى التى حددت مقياس المسافات (الميزان الصوتى) وهو تقدم عَظيم بحد ذاته . والواقع ، ربما كانت «دستانات» (فرضيات) العود العربى هى التى أدت إلى استعمال (مقام البعد الكبير Majormode) فى أوربا .

وبطبيعة الحال ، فأعظم غنم نالته أوروبا فى الموسيقى من جراء الاحتكاك بالعرب

هو بدون شك اقتباس الموسيقى الإيقاعية التى درج المطربون على استعمالها قبل أن يتناولها النظريون بالتنظيم بزمن طويل، ويأتى بعد ذلك الزائدة gloss أو الحلية أو زخرفة المقطوعة، وهو ما يقابله فى الفنون الأخرى (الزخرفة العربية : أربسك) فهذه استعيرت ودرج استعمالها . . .

كما أن العود العربى، الذى أصلحه فنانو الإسبان، كان السبب لابتداع الموسيقى التصويرية musicatictu عندنا ـ [أى عند الغربيين]ـ . . .

لقد كانت تظهر فى أوربا، بين آن وآخر، محاولات لإدخال الألحان العربية والمسحة الشرقية فى الموسيقى الغربية، وظهر قبيل نهاية القرن التاسع عشر بعض الموسيقاريين أمثال «روبنشتاين» [١٨٣٠ ـ ١٩١٣ م] و فيليسيان داڤيد» [١٨١٠ ـ ١٨٧٦م] و«سانت سينس» [١٨٣٥ـ ١٩٢١م] قاموا بمثل هذه المحاولات، إلا أن بعض المتأخرين من الموسيقاريين هاجموا، فى نفس الوقت ذلك المنحى وانتقدوه . . .(١)

---

(١) المصدر السابق. ص ٥٤٢، ٥٤٧، ٥٤٩ـ ٥٥٢.

-٢٧-

أما الشهادة السابعة والعشرون فهى للمستشرق الروسى «جرابار» (أوليج) Grabar, O. [١٨٩٦م] . . . الذى تخرج فى جامعتى بطرسبورج واستراسبورج . . وعين أمينا مساعدا بمتحف صوفيا سنة ١٩٢٠ م . . ومعيدا للغة الروسية فى جامعة استراسبورج سنة ١٩٢٢ م . . ومحاضرا فى تاريخ الفن سنة ١٩٢٨م . . ومعيدا فى علم الآثار البيزنطية سنة ١٩٣٦م . . . ومديرا للدراسات فى السوربون سنة ١٩٣٧ م . . وأستاذا للآثار فى معهد فرنسا سنة ١٩٤٦ م . . . ومديرا لمجموعات الكراسى الأثرية . . وعضوا فى العديد من الجمعيات المتخصصة . .

ومن منشوراته : الرسم الدينى فى بلغاريا سنة١٩٢٨م . . وأبحاث عن الأثر الشرقى فى الفن البلقانى ١٩٢٨م . . وصليبيو أوربا الشرقية والفن سنة ١٩٣٠م . . وأفلوطين وأصول فن الجمال سنة ١٩٤٥م . . والإمبراطور فى الفن البيزنطى ١٩٣٦م . . . ونماذج بيزنطية فى المكتبة الوطنية سنة١٩٣٩م . . والمستشهد سنة ١٩٤٦م . . والفسيفساء فى جرمن دى بره ـ وفيه مقارنة بين الفن الكورلنجى والأموى سنة ١٩٤٧م . .

وهو يشهد هنا على العمارة الإسلامية . . وإبداع المسلمين لطابع معمارى متميز تميزت به العمارة فى الحضارة الإسلامية . . وكيف تحرر الإسلام من المادية والتجسد، فحرر منهما الفن المعمارى . . كما يشهد على الابتكار الإسلامى فى العمارة الدينية . .

يشهد «جرابار» على ذلك، فيقول :

« لقد حقق المسلمون، فى القرنين الأول والثانى للهجرة (السابع والثامن للميلاد) إنجازات رائعة، وبذلك تمكنوا - خلال هذين القرنين - من أن ينشئوا من العدم - تقريبا - حضارة إسلامية . . . »[1]

* * *

«لقد كان الإسلام، فى نشأته الأولى، عقيدة صافية مجردة من الماديات، قامت دون حاجة إلى رجال دين، أو مبنى ذى هيئة خاصة، أو رمز معين..»[2]

* * *

« إن العمارة الإسلامية تكونت فى عالم ذى ثروة معمارية هائلة، فيما يتعلق بالأشكال والأساليب الفنية، ولكنها نشأت فى عالم يمتاز أيضا، على ما يبدو، بقدرة كبيرة على التصرف بمرونة فى المعانى التى تُعطى للأشكال والأساليب.

والعامل الثانى المكون للعمارة الإسلامية هو الإسلام نفسه. ونلاحظ أن النقطة التى تستوقف النظر هنا، هى أن الإسلام فى فترات تكوينه لم يشأ ولم يطلب أن يكون له طابع معمارى خاص..

لكن الشىء الأصيل فى عمارة المسلمين هو أن العقيدة الجديدة.. كما أُوحى بها إلى الرسول، وكما عرفها خلفاؤه الأوائل. لم يحاول أصحابها ولا شعروا بالحاجة لأن يعبروا عن إيمانهم تعبيرا معماريا إنشائيا ذا فخامة..

إن العمارة الإسلامية كان لابد لها من أن تنشأ بوصفها ظاهرة فريدة متميزة بذاتها انبثقت عن مجموع كبير معقد من الأشكال السابقة عليها أو المعاصرة لها... إنها مجرد مثل واحد لقدرة فريدة لدى المسلمين على تحويل عناصر شكلية أو وظيفية عديدة أخرى إلى شىء إسلامى.. لقدرة المسلمين الهائلة على تطويع الأشكال المستمدة من أقاليم عديدة

---

(١) جرابار (أوليج): «العمارة» - بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «شاخت» و«بوزورث» - مصدر سابق - القسم الثانى - ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) المصدر السابق. ص ٢١ .

مختلفة بحيث تلبى حاجة الإسلام.. هذه القدرة على إعطاء معنى إسلامى منسجم مع طبيعة الإسلام، لعدد كبير من الطرز الفنية المتنوعة، هو ما نود أن نسميه «بالطريقة الإسلامية». وبفضل وجود تاريخ لطريقة إسلامية، إلى جانب تاريخ الطرز المعمارية المحددة، اكتسبت العمارة الإسلامية سمة من أكثر سماتها تفردا..

إنه ربما كان أعظم منجزات العمارة الإسلامية،هو أنها قدمت صورة للحضارة الإسلامية موازية للصور التى قدمتها لها النصوص الأدبية، ومختلفة عنها، فأثبتت بذلك أن هذه الحضارة كانت أكثر تعقيدا وعمقا بكثير مما يظن فى العادة..

إن العمارة الإسلامية، وإن كانت قد نبعت من نفس المصادر التى نشأت عنها العمارة المسيحية فى العصور الوسطى، إلا أنها انتفعت بما ورثته من صور أكثر تنوعا بشكل ظاهر، وأعطت معانى جديدة لأشكال كانت معروفة وشائعة، كما أعطت معانى قديمة لمبتكرات جديدة فى الأشكال. وإذا كان الفهم الدقيق لكل معنى وكل شكل من أشكال تلك العمارة يدخل فى نطاق الفهم العام للحضارة الإسلامية، فإن وجود هذه العمارة يمكن أن يثرى فهمنا للعمليات المعمارية بصورة عامة..»(١)

* * *

بالنسبة للمسيحية، لم تكن فى حاجة إلى أن تعبر معماريا إلا عن عدد قليل جدا من الأغراض تطلبتها تلك العقيدة، ووجدت السبيل إلى ذلك فى عدد وافر من الأشكال والمصطلحات والحاجات المعمارية ـ ومع ذلك فقد استغرقت هذه العملية ثلاثة قرون ـ فى حين أننا نجد فى حالة العمارة الإسلامية، أن كل مطالب الحياة كان لابد أن تجد لها صورا معمارية، وتمكنت من الوصول إلى ذلك فى بضع عشرات من السنين وحسب، ففى أيام الوليد بن عبد الملك [٨٦ ـ ٩٦ هـ ٧٠٥ ـ ٧١٥ م] توصل المسلمون فيما يبدوا إلى تعبير أو طراز معمارى يتفق مع حاجات مجتمعهم، ويتضح ذلك بصورة جلية فيما يتعلق بالعمارة الدينية على الأقل..

---

(١) المصدر السابق: ١٩، ٢٠، ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٥٧.

والأسباب التى أدت إلى السرعة والنجاح اللذين تم بهما ظهور طرازمعمارى إسلامى، ترجع فى المقام الأول إلى الحاجة التى شعر بها خلفاء مثل عمر بن الخطاب[٤٠ ق هـ ٢٣ هـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م] وعبد الملك بن مروان [٢٦ـ ٨٦ هـ ٦٤٦ ـ ٧٠٥ م] والوليد بن عبد الملك، وولاتهم فى الأمصار(وهو شعور يدعوا إلى العجب حقا) إلى إظهار حقيقة الوجود الإسلامى فى صورة مادية تختلف عما يحيط بها، وتتميز مع ذلك بهيئة إسلامية مفهومة..

فبالنسبة لمؤرخ العمارة، يمكن استخدام قيام العمارة الإسلامية فى توضيح ظاهرة قلما تلاحظ، وهى كيف يخلق طراز معمارى نفسه فى هيئة متميزة ثقافيا.أما بالنسبة لمؤرخ الإسلام، فإنها تصور ما اختارته الثقافة الإسلامية وما رفضته، وعن طريق ما أخذت وما رفضت، أنشأت لنفسها صورة خاصة بها اجتهدت الثقافة فى إبرازها..» (١)



«لقد تميزت العمارة الدينية الإسلامية بالطراز الذى يمكن أن يسمى بحق «طراز البناء القائم على الأعمدة»...

وحتى إذا لاحظنا أن تلك القاعة ذات الأعمدة لها مشابه فى ردهات معابد إيران المسماة باسم عبادانات(Apadanas) وبعض أجزاء المعابد المصرية القديمة، أو أنواع معينة من أروقة الخطابة الرومانية (forams)، فإنه يبدوا لى أن مجال الشك قليل فى أن صحون المساجد ذات الأعمدة لم تتأثر بأى طراز معمارى أخر سابق عليها، وإنما كان هذا الطراز ابتكارا إسلاميا خالصا.

وهناك حجج كثيرة تدعم هذا الاستنتاج، وبخاصة أن هذا الطراز وتطوراته الأولى حدثت فى المدن الجديدة التى أنشأها المسلمون فى العراق، حين لم تكن توجد منشآت معمارية لها أروقة ذات أعمدة تشبه ما أنشأه المسلمون..

---

(١) المصدر السابق. ص ٢٣، ٢٤.

وبالنسبة لتطور الزخارف الجصية، واستعمال أساليب غير عادية فى ترتيب وضع الآجر بحيث يكوّن أشكالا زخرفية، نجد أن كثيرا من هذه الأعمال الفنية ابتكار فنى أصيل فى ميدان الزخرفة المعمارية الإسلامية، كما تتضمن تلك الأعمال موضوعات زخرفية فريدة فى بابها وجديرة بالدراسة . . »[١]

* * *

«أما العمارة الدنيوية، فكانت شيئا مختلفا كل الاختلاف. فلم يكن هناك طراز معمارى عربى أو إسلامى مبكر يمكن اتباعه، وباستثناء ما عرف عن المسلمين من عزوف عن حياة الترف، والبذخ، يصاحبه ارتياب مشوب بالإعجاب أحيانا إزاء الأساليب الأجنبية، فلم يكن هناك تحريم دينى أو معارضة فكرية لاستخدام أى شكل من أشكال العمارة الدنيوية . .

إن فخامة عمارة القصور الإسلامية، كما هو الحال بالنسبة للنسيج الذى صنعه المسلمون، والمشغولات الفنية التى أبدعوها، كان لها جميعا أثر فنى واسع جاوز حدود عالم الإسلام، ويمكن أن نعد آثارها نماذج كبرى للفن فى العصور الوسطى بوجه عام[٢].

---

(١) المصدر السابق. ص ٢٧، ٢٩، ٤٨.

(٢) المصدر السابق. ص ٣٣، ٤٥.

ـ٢٨ـ

أما الشهادة الثامنة والعشرون فهى للمستشرق الإنجليزى «بريكز»(مارتن اس) Martin. s.Briggs . .

وهو من المستشرقين المتخصصين فى فن العمارة العربية الإسلامية . . وهو أستاذ بجامعة أكسفورد . . وله كتاب [فن العمارة الإسلامية فى مصر وفلسطين]- أكسفورد سنة ١٩٢٤م-. . والعديد من المقالات فى العمارة الإسلامية . . وشهادته هذه على التميز الإسلامى فى العمارة . . وعلى تأثيرات فنون العمارة الإسلامية فى فنون العمارة الأوربية . .

وفى هذه الشهادة يقول «بريكز» :

« . . ومع احتمال جهل العرب فى أمور الهندسة المعمارية فى أوائل عهد الفتوح ، فإن الحقيقة الساطعة عن العمارة الإسلامية هى أنها بقيت نسيجا وحدها فى كل البلاد وكل العصور التى مر بها الإسلام ، مع بقاء أصولها معقدة غاية التعقيد . هنالك شيء يميزها عن آثار جميع المدارس المعمارية المحلية التى كانت أداة فنية لخلقها . .

وربما كان الدين الإسلامى هو العامل الذى حور فى مجموعة أساليب البناء المختلفة ، وربط فيما بينها ، مخرجا أسلوبا ذا نمط واحد متمايز . .

ويعتبر مسجد (المدينة) البسيط ، الذى بناه الرسول فى سنة ٦٢٢م ، الطراز المحتذى للمساجد الأخرى . . »[١]

* * *

---

(١) بريكز : «الهندسة المعمارية» ـ دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف «أرنولد» ـ مصدر سابق ـ ص ٢٣٢ .

« . . ومن المسلم به أن الصليبيين اقتبسوا بعض الآراء المعمارية من قلاع سوريا ومصر، حيث بلغ فن العمارة فى سوريا وأرمينيا شأوا بعيدا من السمو قبل هذا العهد بعدة قرون .

واستعمال الأوربيين للمشربية مثلاجاء من هذا المصدر . . ولذلك كان واضحا أن الصليبيين اقتبسوا هذه الفكرة من العرب، وليس العكس . وهكذا أصبحت المشربيات المقامة فوق صفوف من الدعامات من المظاهر الأنيقة فى القلاع الفرنسية والإنكليزية فى القرن الرابع عشر . .

وثم ظاهرة أخرى فى هندسة البناء العسكرية اقتبست من مصر وسوريا، وهى مدخل القلعة الملتوى، أو المدخل ذو الزاوية القائمة خلال مدخل فى الجدران ، وبهذه الطريقة لا يتمكن العدو الذى يصل باب القلعة من الرؤية والرمى باتجاه المدافعين فى الناحية الداخلية . ومدخل من هذا الطراز لايبدو أنه كان معروفا فى الفنون العسكرية الرومانية أو البيزنطية .

وفى الوقت الذى لم يكن للقبة الإسلامية كبير تأثير على قباب الرينسانس فى الغرب فيبدو محتملا أن المآذن الإسلامية الموجودة بأبدع نماذج لها، وخاصة القاهرية، التى تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر منها، قد أثرت على معالم فن الرينسانس المعمارى فى برج الناقوس للكنيسة الإيطالية، وقد أخذ عنها «سركر ستوفر» [١٦٣٢ ـ ١٧٢٣م] مسلاته الرائعة التى زينت مدينة لندن .

ويدل تعبير «الأرابسك» الذى يطلق على الحفر الزخرفى ذى البروز القليل، الرائج استعماله فى إنكلترا العهد اليزابى ـ وما بعده ـ يدل بأننا مدينون لعرب القرون الوسطى بشىء . .

فواجهات المبانى الرخامية المخططة فى «بيزا» و«جنوة»و«سيينا»و«فلورنسا» وغيرها من المدن الإيطالية، قد تكون على أكثر احتمال، من تراث القاهرة التى ارتبطت معها بوشائج تجارية فى القرون الوسطى . وترى أبنية ملونة بهذا الأسلوب

فى «لوباى» ـ بأوفرن ـ [فى وسط فرنسا] ـ. وأقرب من ذلك كنيسة القديس بطرس (بنورثامبتن) فى بلدنا إنكلترا . .

إن دَيْن الإسلام المتراكم على العالم الغربى فى فن العمارة هو دَيْن كبير . .

ففى ميدان الهندسة العسكرية وحده، نجد الصليبيين الذين خلفوا لنا عدة كنائس وقلاع رائعة فى الأرض المقدسة، قد تعلموا هم أنفسهم شيئا من فن التحكيم من خصومهم العرب الذين استفادوا بدورهم من عبقرية البنائين الأرمن .

أما استعمال الأعمدة المندغمة عند زاوية الأساطين، وهى ظاهرة ذات أهمية كبيرة فى تاريخ التسقيف القوطى، فإنها بدعة عربية لا يرقى الشك إليها، من بدع القرن الثامن والتاسع ـ الميلاديين ـ. .

لقد جاءت الزخارف المحفورة أو النافرة إلى القاهرة من العراق، ثم انتقلت منها إلى إيطاليا، لتصير بعدها من معالم العمارة القوطية البارزة . وإن الكتابات المحفورة التى كانت تقوم بمثابة زخارف فى أنماط قوطية لزمن متأخر لها شبيهها فى جامع أحمد بن طولون بالقاهرة (القرن التاسع ـ الميلادى) . لكن الكتابة بالأحرف الكوفية امتدت إلى فرنسا خلال فترة احتلال المسلمين أقاليمها الجنوبية . .

وثم أمثلة نادرة جدا من الزخارف فى إنكلترا يُعتقد أنها تأثرت بالأساليب العربية . وقد يمكن أن يكون مصدر الواجهات المخططة، القاهرة، وربما جاء منها أيضا شكل أبراج النواقيس لعهد الرينسانس، والحنايا الخشبية الشبيهة بقشور الصدف .

إن المشربيات العربية الخشبية التى كانت تستعمل لإخفاء جناح الحريم من الدار، أو كستار فى المسجد، نسخها الإنكليز فجعلوا منها أسيجة وحواجز من القضبان المعدنية المتشابكة .

ومن المحقق أن السطح المزخرف بنقوش قليلة النتوء، على طريقة الأرابيسك، أو على النموذج «الديابرى»، واستعمال النقوش الهندية للزينة، هو جزء من دَيْننا للشعوب الإسلامية، التى كانت أيضا مصدرا أو وسطا ناقلا لكثير من معرفتنا فى العلوم الهندسية . . »[1].

(١) المصدر السابق. ص ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٢ - ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٨.

أما الشهادة التاسعة والعشرون فهى للمستشرق الهولندى« كرمرز» kramaers,J..H. [١٨٩١ - ١٩٥١م] . . والذى بدأ عمله ترجمانا للسفارة الهولندية بالآستانة سنة ١٩١٥م - ١٩٢٢م . . ثم عمل فى نشر مطبوعات الأمير المصرى «يوسف كمال» : [آثار أفريقيا ومصر]سنة ١٩٢٥م . . وشغل كرسى أستاذ اللغة التركية والفارسية فى جامعة ليدن . . ثم خلف المستشرق الشهير «فنسنك» على كرسى اللغة العربية بنفس الجامعة سنة ١٩٢٩م . .

ومن الآثار الفكرية «لكرمرز» : فن التاريخ عند الأتراك العثمانيين سنة ١٩٢٢م . . والأسماء الإسلامية المركبة من كلمة«دين» سنة ١٩٢٧م . . ودراسات جديدة عن رباعيات الخيام سنة ١٩٢٩ م . . وابن حوقل والبلخى والاصطخرى وأطلس الإسلام سنة ١٩٣١ م . . وعلم الاجتماع الإسلامى سنة ١٩٥٠ م . . والإسلام والديمقراطية سنة ١٩٤٥م . . وحق الإسلام والتشريع الإسلامى سنة ١٩٣٧ م . . . ومصنفات الجغرافيين العرب سنة ١٩٣٨م . . واللغات السامية سنة ١٩٤٩م . . وحول الفن الإسلامى سنة ١٩٥٣م . . ودراسات شرقية ١٩٥٣ م . . والقرآن مترجم من العربية سنة ١٩٥٦م . . كما أعاد طبع كتاب المسالك والممالك لابن حوقل سنة ١٩٣٨م . .

وفى هذه الشهادة يشهد هذا المستشرق الكبير على سماحة الإسلام . . وعلى الإنجازات الحضارية الإسلامية فى الجغرافيا . . وفى التجارة . . وفى الملاحة . . وفى الفلك . . وفى صناعة الورق . . وفى ذلك وعليه يشهد «كرمرز» ، فيقول :

«إن الفتح الإسلامى لم يمنع من زيارة القبر المقدس. أو يحل بين الأوربيين المسيحيين وبين إنجاز هذه الفريضة الدينية..[1]

* * *

«..ولقد بدأت دراسة الجغرافية(كعلم) عند الإسلام بتأثير الإغريق وعلى هداهم. وكان نتيجة من النتائج التى تمخض بها النشاط العظيم فى ترجمة المؤلفات الإغريقية فى مفتتح القرن التاسع الميلادى، وعلى الأخص فى غضون حكم الخليفة المأمون [٨١٣ ـ ٨٢٣م]، ذلك العمل الذى جعل من العرب وارثى الحضارة اليونانية الروحيين، فصاروا على معرفة تامة بأبحاث بطليموس [٩٠ ـ ١٦٨م] ونظريته الجغرافية القائلة بأن ساحل إفريقيا الشرقى يمتد إلى أقصى الشرق. وهذا ما كان يتفق تمام الاتفاق ونظرية البحرين المنفصلين.»

«فى القرآن الكريم إشارة جغرافية فى آيتين منه:﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن:١٩ـ ٢٠). ﴿وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (الفرقان: ٥٣). عن كيفية فصل الله البحرين بحاجز لا يمكن اقتحامه، وتناول المفسرون هذه الآيات باعتبارها إشارة إلى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى، بما فيه البحر الأحمر، التفسير الذى ربما اقترب من الصحة..»[2].

* * *

« إن تأثير الإسلام الذى يمكن تلمسه فى مدنيتنا الحاضرة فى هذه النواحى العملية الجغرافية، يظهر لنا فى الكثير من المصطلحات ذات الأصل العربى فى قاموس التجارة وعلم الملاحة..

---

(١) كرمرز: «الجغرافيا والتجارة» ـ دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف «أرنولد» مصدر سابق ص ١٢٩.

(٢) المصدر السابق. ص ١٣٢، ١٣٣.

إن المصطلحات البحرية الحديثة فيها كلمات غير قليلة أصلها عربى، ومنها يتضح لنا مدى سيادة المسلمين على تلك البحار..»

« لقد صارت التجارة من أقوى العوامل وأشدها فعالية فى نقل الفكر والثقافة إلى شعوب أوربا التى كانت تتوق إليها، وتتقبل بحماسة منافعها وفوائدها بفضل ملوكها،أمثال «روجر الثانى» [١٠٩٧ ـ ١١٥٤م] صاحب صقلية..

ولقد حفظت لنا معاجم المصطلحات التجارية أبلغ الشواهد والأدلة على حقيقة النفوذ الذى كانت تمارسه التجارة العربية والنقل التجارى العربى، ومبلغ أثره فى تقدم التجارة المسيحية..

ومن المعروف جيدا أن هذه العلاقات كان لها أعظم الأثر فى التنظيم التجارى لشعوب الغرب. فالاتفاقات والمعاهدات التى عقدوها مع ملوك المسلمين وأمرائهم، ومجالس الشورى والقنصليات، ولجان التحكيم فى مرافئ الشرق، كانت من العوامل المهمة فى تطوير القواعد التجارية التى تحكم التجارة العالمية فى وقتنا الحاضر..

إن الغُنم الثقافى الذى نالته أوربا من العالم الإسلامى فى صعيد الجغرافية و التجارة لم يكن ثمرة ساعة واحدة، وإنما قام على العلاقات المتبادلة التى ظلت متواصلة منذ مطلع القرن الحادى عشر حتى الآن، فوصلت إلى ذروة مجدها أثناء حكم المغول فى القرن الثالث عشر، كذلك يجب أن نضع نصب أعيننا حقيقة واحدة وهى أن الحضارة الإسلامية بنموها وازدهارها عن طريق الدول التى أعقبتها فى الحكم (كتركيا وإيران وشعوب الهند المسلمة وسكان جزر الهند الشرقية المسلمين) جعلت كثيرا من الآراء والعادات الإسلامية معروفة مطبقة فى البلاد الأوربية. ولكن لم يبد من فترة تاريخية تفوق ساحق عظيم للشعوب الإسلامية على العالم المسيحى كفترة القرن العاشر، أعنى عندما وصل الإسلام إلى أوج السؤدد والتقدم، وعندما كانت أوربا المسيحية فى ركود وظلام حالك» . [١]

* * *

(١) المصدر السابق. ص ١٣٠، ١٥٢، ١٥٩ ـ ١٦١، ١٦٣، ١٦٤.

«لقد كان لعلم الفلك الإسلامى تأثير مباشر يفوق تأثير الجغرافية كثيرا على علوم القرون الوسطى، فترجمت بعض آثار هؤلاء إلى اللاتينية فى أعصر متقدمة، مثل [زيج البتانى] الموضوع حوالى سنة ٩٠٠ م، ترجمه «بلاتو التيفولى»،الذى نبغ حوالى سنة ١١٥٠ م. وكانت طليطلة مركزا رئيسيا كشف عن ثمار القرائح العربية لعلماء النصارى الذين تقاطروا إليها من مختلف البلاد المسيحية بعد أن فتحها الملك «الفونسو السابع» [١١٠٤ ـ ١١٥٧م].

أما التراث الذى يفوق ما سبق أهمية، فهو الفكرة القائلة بأن نصف الكرة الأرضية له مركز أو قمة أرض تقع على بعد متساو من الشرق والغرب والشمال والجنوب كالجزيرة تماماً، ويسمى «ابن سته» هذا المركز (بقمة آرين)، وآرين كلمة معربة عن اسم المدينة الهندية (أوجيئينى) وهى(أوزينى) فى جغرافية بطليموس، إذ كان يوجد فى تلك المدينة مرصد فلكى، وقد ساد اعتقاد هندى الأصل بأن قمة الأرض تقع فى تلك المدينة لوقوعها فى دورة نصف النهار. وتبين التلاميذ النصارى ـ كأساتذتهم الفلكيين العرب ـ أهمية هذا المبدأ العظيم، ومنهم «أدلارد البائى» [القرن الثانى عشر الميلادى] الذى ترجم جداول الخوارزمى [٣٢٣ ـ ٣٨٣ هـ ٩٣٥ ـ٩٩٣ م] فى المثلثات إلى الإنكليزية فى السنة ١١٢٦ م، و«جيرارد القرمونى» [١١١٤ ـ ١١٨٧ م] و« روجر بيكن» [١٢١٤ ـ ١٢٩٤ م] و«البرت الكبير» [١١٩٣ ـ ١٢٨٠ م].

إن نظرية (الأريق أو الأريم) ظلت منتشرة، ووجدت قبولا واحتفاء فى الكردينال بطرس الأليائى، فى كتابه [صورة العالم] المطبوع السنة ١٤١٠م. ومن هذا الكتاب نفسه، درس «كريستوفر كولمبس» هذه النظرية التى تطورت إلى أن حملته على الاعتقاد بأن الأرض هى على شكل الكمثرى، وأن فى نصف الكرة الغربى قبالة قمة آرين مركزا أو قمة أرضية أخرى هى النصف المفلطح من الكمثرى. ولذلك يحق للنظرية الجغرافية الإسلامية أن تدعى بسهم فى اكتشاف العالم الجديد.

وإننا لنجد تأثير هذه النظرية فى مجال أخر، فمن المحتمل جدا أنها حملت «دانتى»

[١٢٦٥ـ ١٣٢١م] ـ الذى ثبت تاريخيا اعتماده على الفكر الإسلامى فى تأليف الكوميديا الإلهية ـ على وصف المطهر بشكل جبل يقع فى نصف الكرة الغربى، موفقا فى ذلك بين النظرية وبين العقيدة المسيحية القديمة القائلة إن الفردوس الأرضى يقع أقصى نصف الدائرة الشرقى من العالم فيما وراء البحر، وكان توفيقه فى ذلك رائعا..»[١]

* * *

«لقد تعلمت أوربا صناعة الورق ولا شك من الشعوب الإسلامية فى حدود القرن الثانى عشر..[٢]

---

(١) المصدر السابق. ص ١٤٦، ١٤٨.

(٢) المصدر السابق. ص ١٦١.

-٣٠-

أما الشهادة الثلاثون فهى للمستشرق الإنجليزى «باركر» (سير أرنست) Sir Ernest Barker [١٨٧٤-١٩٩٠م] . . الحائز للعديد من درجات الشرف العلمية من أشهر جامعات العالم . . والذى شغل كرسى الأستاذية للعلوم السياسية فى كمبردج سنة ١٩٢٨م - سنة ١٩٣٩ م . . و أستاذا لنفس العلم بجامعة كولون سنة ١٩٢٧م - ١٩٢٨ م . .

ومن آثاره الفكرية : الفكر السياسى لأفلاطون وأرسطو سنة ١٩٠٦ م . . والفكر السياسى فى إنجلترا من أيام هربرت سبنسر حتى الآن سنة ١٩١٥م . . ونظرات فى الحكم سنة ١٩٤٢م . . وبريطانيا والشعب البريطانى سنة ١٩٤٢م . . ومبادئ النظرية الاجتماعية والسياسية سنة ١٩٥١م . . والتراث الأوربى والحروب الصليبية . . الخ . . الخ . .

وفى شهادة « باركر» هذه - التى كتبها ضمن دراسته عن [الحروب الصليبية] - يتحدث عن التأثيرات الإسلامية فى الحضارة الأوربية - وخاصة فى الحساب والرياضيات - وعن دور الاحتكاك الحربى - إبان الحروب الصليبية - على هذا التأثير . . وكذلك التأثير الإسلامى فى أوربا بميادين التجارة . . والنفوذ . . والنظم المالية . . وفى ميادين العمارة الحربية والأدوات القتالية . . وكذلك التأثير الإسلامى على أوربا فى النباتات . . والأزياء . . والأثاث . . وعن تأثير اللغة العربية من خلال الكلمات والمصطلحات التى دخلت إلى اللغات الأوربية . .

يتحدث «باركر» - فى شهادته هذه - عن كل ذلك فيقول :

«لقد كان عرب إسبانيا بالأحرى، لا عرب المشرق هم الذين أهدوا إلى الغرب اللاتينى

حياتهم النفيسة فى ميادين العلم والفلسفة. على أن الشيء الذى لا يمكن نكرانه بحال، أن بعض المعلومات الرياضية انتقلت من الشرق، فأُثر عن « أدلارد الباثى» [القرن الثانى عشر الميلادى] الذى درس فلك العرب وهندستهم، أنه سافر إلى مصر وآسيا الصغرى، فضلاً عن إسبانيا، فى غضون النصف الأول من القرن الثانى عشر. وأُثر عن« اليوناردو فيبوناشى» [أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣، أول عالم جبرى بين النصارى، المعاصر «لفردريك الثانى» [١١٩٤ـ ١٢٥٠م] ـ وهو الذى قدم هذا العالم رسالته الجبرية فى الأعداد التربيعية ـ بأنه زار مصر وسوريا كذلك.

ربما كان الفضل فى إنشاء الأرقام العربية والحساب العربى إلى نشاط التجارة ما بين سوريا والمرافئ الإيطالية، وكان الطب كالرياضيات من مفاخر العلوم العربية وأركانه الوطيدة.

على أن موطن المفاخر العلمية العربية ومصدر إشراقها كان إسبانيا أكثر من سوريا. وغاية ما يمكن أن نجيزه فى موضوع تأثير سوريا هو أن نقلدها فضل قيام مدرسة الطب فى مونباليه بسبب التجارة التى كانت قائمة آنذاك بين فرنسا وساحل سوريا.» (١)

* * *

«فى مملكة أورشليم نفسها كانت بيوت الأقطاب والزعماء تبنى على الأنماط العربية،فيما يختص بباحة الدار والركاك والفسقية، وفى خرير المياه الجارية.

وسارت الزخرفة الداخلية وتوزيع الأثاث فى الدار على هذا المنوال، ولا سيما فى البندقية.

وربما كان لقطع العاج والمينا والسجاد والبُسُط الشرقية التأثير نفسه فى الغرب بصورة

---

(١) باركر: «الحروب الصليبية» ـ دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف أرنولد ـ مصدر سابق. ص ١٠٥، ١٠٦.

عامة. وقد نتحدث فيما بيننا عما يدعى بالنمط العربى فى العصور الوسيطة باللهجة والنغمة التى تتحدث عن النمط الصينى (عندما نشير إلى ورق تزيين الجدران ودهان الأخشاب اللماع و الأثاث فى القرن الثانى عشر).

وربما حدث فاشترى الحجيج صناديق وعلبا عربية لحفظ التذكارات المسيحية والعودة بها إلى أوطانهم، وربما آبوا إلى بلادهم مرتدين الأحزمة الشرقية ذات الصرر والجيوب كيما يتقلدونها فى مدينة باريس، ولعلهم نقلوا إلى الغرب (النفير) المصنوع من قرن الحيوان الذى رددت أجواء سوريا صداه فى زمن ما..»[١]

* * *

«هذه التجارة الشرقية التى نشطتها الحروب الصليبية ـ إن لم نقل أوجدتها ـ فأضحت مركزة بالدرجة الأولى فى سوريا خلال القرن الثانى عشر، لم يكن تأثيرها قليلا على تقدم مسالك التجارة وظهور وسائل جديدة للتبادل المالى والشئون المصرفية.. لقد استدعت الحاجات المالية لتجارة الشرق البعيد وتنقلات الفرسان المبحرين منهم والمقيمين فى سوريا إلى إيجاد نظام أوراق الائتمان والتحاويل المالية، ونشأت المصارف والبيوت المالية (فى جنوا وبيزا وسينا) وامتدت فروع لها ونشرت أعمالها على طول ساحل الشام. وقد صارت الجمعيات العسكرية، وخصوصًا جماعة «التمبلارية الدوّية» (بمثابة، مصارف للإيداع والتسليف).

ومن النتائج المالية العجيبة التى تمخضت بها الحروب الصليبية فى شئون التجارة الشرقية التى شجعتها، هى أن سك البنادقة فى الأرض المقدسة عملة نقدية أسموها (بيزنطى ساراسيناتى ـ وهى سكة ذهبية).

ربما كانت أقدم ما ضرب اللاتين من مسكوكات ثمة، وذلك للتعامل بها مع الأقطار الإسلامية الداخلية. وظلت هذه المسكوكات محلاة بزخارف عربية وبآيات

---

(١) المصدر السابق. ص ١٠٤، ١٠٥.

قرآنية قصيرة وإشارات إلى النبى ﷺ وتاريخ هجرى حتى السنة ١٢٤٩م . وبعدها اعترض عليها البابا «أنوسنت الرابع» [١٢٤١ ـ ١٢٧٠ م].

وإننا لنستطيع الوقوف على مسكوكات من الشكل نفسه حتى فى جنوبى فرنسا يرجع بها العهد إلى أواخر القرن الثالث عشر..»(١)

«إن التأثير العربى يمكن اقتفاء خطاه فى أشكال الأقسام المختلفة للقلاع الضخمة مع زيادة أقسام ماكان يعرفها الغرب من قبل فى المعمار الحربى القديم ، وفى عدد من أنظمة وقواعد جديدة دفاعية استلزمها من حركات الحصار العسكرية الذى تقدم فى الشرق كثيراً. وتبعا لذلك يعزو«بروتز» إلى المصادر العربية استخدام الحيطان المزدوجة (وهو أساس طراز القلعة الململمومة) وتشييد برج إضافى أو نقطة حصينة بين الجدارين المزدوجين، ويرى أيضا فى قصر (غبّار) الشهير الذى بناه« ريتشارد الأول» [١١٥٧ ـ ١١٩٩] فى فكسن بعض الدلائل وسمات لا جدال فيهما تشير إلى تأثير الشرق...

وقيل إن القوس المصلبة جاء من الشرق، وعزى استخدام الدرع لحماية الفارس وجواده إلى تأثير الحروب الصليبية، وعزى كذلك استخدام بعض الوسائد والثياب القطنية الواقية تحت الزرد. وعلى كل حال فإن الفارس الفرنكى تعلم أثناء حربه فى فلسطين، استعمال الكوفية العربية وقاء لرأسه وعنقه من حرور شمسها المشرق.

واستخدام الحمام الزاجل لنقل المعلومات العسكرية إنما هو اختراع عسكرى أُخذ عن العرب ويحق علينا القول بأننا كثيراً ما عثرنا على تنويهات بهذا فى أخبار صقلية النورمانية.

ومن المحتمل أيضا أن عادة الاحتفال بالانتصارات العسكرية بطريق التنويرات ونشر السجاجيد الملونة على الجدران والنوافذ (وإن كانت عادة طبيعية ملازمة لما جبلت

---

(١) المصدر السابق. ص ١٠٢، ١٠٣.

عليه تربة البشر من نوازع وعواطف) فربما كانت من جملة ما استقيناه من المصدر نفسه.

ومناورات الكر والفر والطعان والضرب المشابهة لألعاب (الجريد) ربما تم نقلها بواسطة الصليبيين، ويمكن أن يعزى كثرة استعمال البيارق والرنوك إلى احتكاك بالقبائل العربية فى سورية. وقد ثبت أنهم استعملوا بعض أشكال من الرايات الحربية كالنسر ذى الرأسين وزهر الزنبق والمفتاحين وكثير من رسوم الرايات، فضلا عن تسميات لبعض الرايات لا يمكن تجاهلها، مثل (الآزور)، وربما (غوليس) ـ [أى آزور: مأخوذة من لازورد. وغوليس ـ كليس ـ مأخوذة من «كل» ـ بالكاف المعجمة الفارسية ـ ومعناها: الوردة أو الزهرة] ـ إذ يبدو أنها استمدت من المصدر نفسه.

ويبدو أن توحيد شارات الدروع فى أوربا سببه الحروب الصليبية، كذلك رسوم الرايات الخاصة ورموزها وأنظمتها المتشابهة فى جميع دول أوربا..»(١)

* * *

«وبالاقتراب، نستطيع أن نفسر انتقال نباتات وحبوب وأشجار شرق البحر المتوسط إلى أصقاعه الغربية، كالسمسم والخروب والذرة والأرز والليمون والبطيخ والمشمش والثوم.

وبالطريقة عينها يمكننا أن نفسر انتشار الأزياء والصناعات الجديدة فى الغرب، أو على الأقل الطراز المتقدم للثياب والأزياء القديمة كالملابس القطنية وأنواع الموسلين الوارد من الموصل، والبلد كان الوارد من بغداد، والدمقس والدمشقيات الواردة من دمشق، والسميتى والدمياطى والديابر من بيزنطة والأطلس العربى ـ وهو نوع من الحرير الساتان يصنع فى الشرق أيضًا ـ والسجاد البسيط والبطاطين من الشرق الأدنى وأواسط آسيا، وأدهان الصقل وألوان

---

(١) المصدر السابق. ص ٩٨، ١٠٠.

جديدة كالقرمز والليلق (وهما عربيتان كما يدل اللفظ) والأصباغ والأدوية والتوابل والعطور كالشب والعود والقرنفل واللبان والنيل وخشب الصندل وبعض الأزياء من الثياب والألبسة، أمثال الكاملت والجوب (من الجبة العربية) والمساحيق ومرايا الزجاج والأواني الخزفية الدقيقة الصنع والزجاج والذهب والفضة وشغل الميناء، حتى السبحة نفسها التي قيل إن مصدرها البوذيون وأنها وصلت عن طريق سوريا إلى أوربا الغربية . . . » [(١)].

* * *

« أما الكلمات العربية التي دخلت اللغات الغربية فأكثر بكثير . . » [(٢)]

---

(١) المصدر السابق . ص ١٠١، ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق . ص ٩٦ .

-٣١-

أما الشهادة الواحدة والثلاثون التى نقدمها على إنصاف العلماء الغربيين الثقاة للإسلام وحضارته، فهى للمستشرق الإسبانى «براند تراند(چون) John,Brande Treand [١٨٨٧ ـ ١٩٥٨م] .. وهو واحد من رواد تاريخ إسبانيا . . شغل كرسى الأستاذية فى جامعة كمبردج . . واشتغل فى معهد الدراسات الشرقية بلندن . . وزار العديد من بلاد الغرب والشرق، وتقلد العديد من الأوسمة . .

ومن آثاره الفكرية: صورة لإسبانيا الحديثة سنة ١٩٢١م . . وموسيقى تاريخ إسبانيا سنة ١٩٢٥ م . . ولغة إسبانيا وتاريخها سنة ١٩٥٣م . . وإسبانيا والبرتغال . . الخ . . الخ . .

وهو يشهد ـ هنا ـ على دور الأندلس ، كمنارة للحضارة الإسلامية، فى إخراج أوربا من عصور الجهالات والظلمات إلى عصرها الحديث ونهضتها الحضارية . .

فيقول :

« إن عرب إسبانيا خلقوا مدينة زاهرة، وأتقنوا تنظيم الحياة الاقتصادية فى الوقت الذى كانت تنوء أغلب أصقاع أوربا تحت نير الشقاء والأغلال، مادية كانت أم روحية . أجل، لقد لعب عرب إسبانيا دورا خطيرا فى تقدم الفن والفلسفة والشعر حتى ارتفع تأثيرها إلى أعلى قنن الفكر المسيحى فى القرن الثالث عشر بظهور« توما الأكوينى» [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م] و «دانتى»[١٢٦٥ ـ ١٣٢١م].

إن قرطبة التى فاقت كل حواضر أوربا مدنية أثناء القرن العاشر، كانت فى الحقيقة محط إعجاب العالم ودهشته، كمدينة ڤينيسيا فى أعين دول البلقان . وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة

التى تحوى سبعين مكتبة، وتسعمائة حمام عمومى. فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراحىّ أو مهندس أو معمارى أو خائط ثياب أو موسيقى فلا يتوجهون بمطالبهم إلا إلى قرطبة. .»(١)

* * *

«كانت اللاتينية لغة بربرية غليظة الكتابة إذا قيست بالعربية، وكل ما كان ميسورا من أدبياتها فهو تافه قليل الأهمية، لذلك وجدنا أسقفنا فى قرطبة لا يشتط كثيراً فى لوم رعاياه لقلة إيمانهم، بقدر ما يشتط فى تأنيبهم لتفضيلهم الشعر والنثر العربيين على قصص آبائهم الدينية.

كذلك أدخل المسلمون الكاغد، فصارت الكتب العربية تفوق اللاتينية برخص الثمن وسرعة الانتشار. . »(٢)

* * *

« ثم وإن كان بلاط الملك «الفونسو» [١٢٥٢ ـ ١٢٨٤م] بلاطا مسيحيا بالاسم (كما تأثر خطاه فى هذا المضمار بلاط «فردريك الثانى» [١١٩٤ ـ ١٢٥٠م] فى بالرمو بعد ذلك الزمن بمائتى عام تقريبًا) فقد كانت مسحة المدنية الإسلامية تغلب عليه. ولقد أعلن الملك «الفونسو» عن نفسة قائلا: إنه ملك الديانتين. كانت مدارس طليطلة تجتذب طلاب العلم من جميع أنحاء أوربا، وبضمنها إنجلترا ونبغ من تلامذتها الأوربيين «روبرتس الإنكليكوس» أول من ترجم القرآن الكريم. . و«دانييل مورلى» و «ميخائيل أسكوت» [ت حوالى ١٢٣٥م]. . . »(٣)

---

(١) جون براند تراند: « إسبانيا والبرتغال » ـ دراسة منشورة بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف أرنولد ـ مصدر سابق ـ ص ٢٢، ٢٧.

(٢) المصدر السابق. ص٢٦.

(٣) المصدر السابق. ص٥٥.

-٣٢-

أما الشهادة الثانية والثلاثون - والتى نختم بها هذه الشهادات العلمية الغربية، المنصفة للإسلام - فهى للعالمة الجليلة، والمستشرقة الألمانية الشهيرة «سيجريد هونكة»، التى ولدت فى ٢٦ إبريل سنة ١٩١٣م، بمدينة «كيل» - الألمانية - . . والتى تخرجت فى جامعات «كيل» و«فرا يبورج» و«برلين» . . والتى تخصصت فى الدراسات المقارنة بين الحضارات والديانات . .

● ولقد حصلت «سيجريد هونكة» على الدكتوراه من جامعة «همبولدت» - فى برلين سنة ١٩٣٩م - بأطروحة عنوانها [حول تأثير الأنماط الغربية فى ضوء فن الغزل العربى والألمانى] . .

● وقامت بتدريس الفلسفة . . وعلم النفس الجمعى للشعوب . . وعلم الأديان المقارن . . واللغة الألمانية وآدابها . . وتاريخ القرون الوسطى . . فى العديد من الجامعات . .

● كما قدمت للمكتبة أعمالها الفكرية المتميزة، التى تخصصت فى دراسة الإسلام وحضارته، مقارنة بالحضارة الغربية والنصرانية . . ومن هذه الأعمال الفكرية :

١- [شمس الله تسطع على الغرب] سنة ١٩٦٠م - ولقد بيعت منه أكثر من مليون نسخة - وصدرت ترجمته العربية - بعنوان [فضل العرب على أوربا] سنة ١٩٦٤م . .

٢ - و[العقيدة والمعرفة] - الذى صدرت ترجمته العربية سنة ١٩٨٧م - . .

٣ـ و[الله ليس كذلك] ـ الذى كتبته أوائل تسعينيات القرن العشرين ـ وصدرت ترجمته العربية سنة ١٩٩٥م.

٤ـ و[قوافل عربية فى رحاب القيصر] سنة ١٩٧٦م ـ عن الصلات التاريخية بين العرب والألمان..

● ولقد أسست «سيجريد هونكة» لمشروعها الفكرى ـ المقارنات الحضارية والدينية ـ سنة ١٩٧٣م رابطة حملت اسمها.. وتولت الرئاسة الفخرية لها..

● وهى عضو شرف بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ بمصر ـ.. وحاصلة على العديد من الجوائز والأوسمة العالمية.. ومنها: جائزة وسام الفيلسوف كانت سنة ١٩٨١م.. وجائزة الشاعر «شيللر» للألمان ١٩٨٥م.. ووسام الاستحقاق والتقدير المصرى من الطبقة الرفيعة فى العلوم والفنون سنة ١٩٨٨م..

* * *

وفى هذه الشهادة تؤكد الدكتورة «سيجريد هونكة» على:

١ـ سماحة الإسلام.. فى مقابل التعصب الأعمى للكهنوت النصرانى الغربى..

٢ـ والفهم الغربى الخاطئ للجهاد فى الإسلام..

٣ـ والنموذج الإسلامى المتميز لتحرير المرأة وحريتها..

٤ـ وتميز العقل اليونانى بالطبيعة التأملية التجريدية.. المحتقرة للعمل اليدوى، وللتجربة فى الطبيعة. الأمر الذى جعل هذا العقل لا يتخذ من الطبيعة مصدرا للمعرفة، ولا من التجريب أداة لاختبار صدق المعرفة.. فوقفت المعرفة ـ لديه ـ عند العقل، لا الواقع، والفلسفة، لا العلم..

٥ـ وتميز العقل المسيحى الأوربى بالموقف المعادى من معرفة الطبيعة، التى اعتبرها خطيئة.. وشهوة مماثلة لشهوة الجسد الكامنة فى الحواس.. كما اعتبر

العقلانية إثما . . وحصر المعرفة فى اللاهوت والإنجيل وحده . . فالمعرفة ـ عند هذا العقل النصرانى الأوربى ـ ليست فى هذا العالم . . والبحث عنها فى غير الوحى خطيئة وإلحاد . .

٦ ـ ورفض المسيحية الأوربية للفكر اليونانى وتراثه . . على حين أحياه الإسلام . .

٧ ـ وتميز العقل الإسلامى والعربى بـ:

ـ التسامح والتفاعل مع المواريث الحضارية . . وإنقاذ هذه المواريث من الضياع
ـ وأثر التسامح الإسلامى فى إبداع الدراسات المقارنة . .

ـ وتميز الحضارة الإسلامية بالإبداع فى العلوم المدنية والحضارية منذ فجر ظهور الإسلام . .

ـ والإبداع الإسلامى للمنهج التجريبى ، كأثر من آثار الموقف الإسلامى المتميز من الطبيعة . . الأمر الذى ميز العلم الإسلامى ، وحقق الإضافات التى تجاوزت العلم اليونانى . . وصححته بالتجربة . . والتى نهضت على أساسها أوربا نهضتها الحديثة . .

ـ وأثر التجريب فى العلم الإسلامى على نشأة المنهج الاستقرائى ، المنطلق من الجزئيات إلى الكليات والقانون . .

ـ وأستاذية العلماء المسلمين لأوربا الحديثة . .

٨ ـ ودور العلم التجريبى الإسلامى فى انتصار العقل العلمى الأوربى الحديث على النظرة اليونانية والنظرة المسيحية للطبيعة والتجريب . .

ـ وتبنى العلم الأوربى للنزعة الإيمانية فى فلسفة العلم الطبيعى ، على النحو الذى سنته فلسفة العلم فى حضارة الإسلام . .

ـ وشذوذ العلم الوضعى الغربى ـ المادى ـ عن إسلامية العلوم . .

٩ـ كما تشهد [سيجريد هونكة] لضرورة تميز النهضة العربية المنشودة بمكونات الهوية الحضارية الإسلامية المتميزة . . دونما تغريب واغتراب . . ودونما عزلة وانغلاق . .

نعم . . تشهد هذه العالمة الجليلة، على هذه الحقائق . . حقائق الامتياز الإسلامى . . والتميز الحضارى الإسلامى . . فتقول :

١ ـ سماحة الإسلام:

● «إن سماحة النفس العربية وتسامحها الآسر الغامر الذى نما فى ثرى تلك القارة تحت ظلال الحضارة العربية الفريدة، كان له أبلغ الأثر فى ازدهار إسبانيا العربية ـ على العكس من اضطهاد «إيز يدورس» لليهود والمارقين إبان عصر القوط الغربيين ـ لقد سمح لضروب الفكر على تباين المفكرين واختلافهم أن تتلاقح وتثمر فى تساوق سام، وانسجام تام، دون أن يدب إليها الانحطاط إذا سكنت رياحها : لا فرق بين العرب والقوط، والبربر والمصريين، واليهود والسوريين، وسكان أيبيريا والفرس، ولقد انسحب ذلك على المسلمين ـ وقد كانوا الأغلبية ـ وعلى غيرهم من اليهود ومن النصارى غير مغبونين . . »

● «إن العرب هم الذين أبدعوا إبداعا، يكاد يكون من العدم، هذه الروعة الحضارية الشامخة فى إسبانيا، تلك الجنة الفريدة الجمال لأساتذة فن المعمار، والمغنين والمغنيات، والشعراء والشاعرات، والعلماء، بل جنة المرأة، التى نسج الغرب حولها صورا خيالية شيطانية غاية فى الوحشية، دون أن يكون له أدنى معرفة أو حتى إلهام طفيف ضحل بها . . »

● «إن الكتب، آنذاك، كانت نادرة الوجود شمالى جبال البرانس، حتى أنها كانت فى الأديرة تثبت بالسلاسل، بينما ذهب رجال الدين النصارى آنذاك، إلى أن طلب العلم والمعرفة، بعد ما أُنزل الإنجيل، تجديف وكفر بالله «مثلما زعم من قبل «ترتوليان» [١٦٠ ـ ٢٢٠م] و«أغسطين» [٣٥٤ ـ ٤٣٠م] اللذان لعنا حب الاستطلاع أو الفضول المريض»، واصفين إياه بأنه «واحدة من أخطر صور الوسوسة والضلال»، مما يسلم الفضولى إلى الملاحقة والتعذيب . . ».

● « وبينما عاشت النصرانية فى ظل الحكم الإسلامى قرونا طوالا - فى الأندلس . . وفى صقلية . . وفى البلقان - فإن « انتصار النصرانية على الإسلام - فى الأندلس سنة ١٤٩٢م - لم يعن سوى طرد المسلمين واليهود واضطهادهم وإكراههم على التنصر ، واستئناف نشاط محاكم التفتيش التى قامت بتعقب كل من يتخذ سوى الكاثوليكية دينا ، والحرق العلنى فى احتفالات رسمية تحفها الطقوس والشعائر الكنسية لكل من اعتنق الإسلام أواليهودية . . ولم تلغ محاكم التفتيش إلا فى سنة ١٨٣٤ م . . »

● « لقد كفلت معاهدة السلطان الكامل [٦١٥ - ٦٣٥ هـ ١٢١٨ - ١٢٣٨ م] - ابن أخ صلاح الدين الأيوبى [٥٦٤ - ٥٨٩ هـ ١١٦٩ - ١١٩٣ م] - مع القيصر فريدريك الثانى [١١٩٤ - ١٢٥٠ م] المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين والاحترام المتبادل ، والحرية الكاملة لليهود والنصارى والمسلمين فى إقامة شعائرهم الدينية فى كافة أنحاء الأرض المقدسة كما شاءوا . . »

● « ولقد كتب بطريرك القدس « تيودوسيوس » - فى أوائل القرن الحادى عشر - إلى الأسقف «أجنا يتوس» - فى بيزنطة - يقول : « إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام ، وهم لا يحاربون النصرانية ، بل على العكس من ذلك يحمونها ، ويذودون عنها ، ويوقرون قساوستنا ورهباننا ، ويجلون قديسيانا . . »

● «بينما أصدركبير وعاظ الحروب الصليبية «برنارد كلير فوكس »أمره إلى المحاربين الصليبيين : «إما التنصير وإما الإبادة»!

« ووصف المؤرخ الأوربى «ميشائيل درسيرر» مذبحة المسلمين فى القدس سنة ١٠٩٩ م - على يد الصليبيين وكيف كان البطريرك نفسه يعدو فى زقاق بيت المقدس ، وسيفه يقطر دما ، حاصدا به كل من وجده فى طريقه ، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح فأخذ فى غسل يديه تخلصا من الدماء اللاصقة بها ، مرددا كلمات المزمور التالى : « يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار ، ويغسلون أقدامهم بدمهم ، فيقول الناس : حقا إن للصديق مكافأة ، وإن فى الأرض إلها يقضى » - [المزمور ٥٨ : ١٠ - ١١] - ثم أخذ فى أداء القداس

قائلا : إنه لم يتقدم فى حياته للرب بأى قربان أعظم من ذلك ليرضى الرب»!

● «وعندما احتل الصليبيون «دمياط» - الميناء المصرى - بعد الاستيلاء على حصنها - [٦١٥ هـ - ١٢١٨م] أبادوا جميع من بها، بناء على أوامر البابا ومبعوثيه الكرادلة ورجال الكنيسة . .

فلما انتصر السلطان الكامل على هذه الحملة سنة ١٢٢١م أكرم أسراهم . . ولم يقتص منهم : العين بالعين والسن بالسن، وإنما أطعمهم فى مسغبة أربعة أيام طوالا، مرسلا إلى جيوشهم المتضورة جوعا كل يوم ثلاثين ألف رغيف، ومواد غذائية أخرى . . وشهد بهذا الإكرام أحد هؤلاء الأسرى - عالم الفلسفة اللاهوتية «أوليفروس» - من كولونيا نهر الراين بألمانيا - فكتب يقول للملك الكامل :

« منذ تقادم العهود لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود، خاصة إزاء أسرى العدو اللدود . ولما شاء الله أن نكون أسراك، لم نعرفك مستبدا طاغية، ولا سيدا داهية، وإنما عرفناك أبا رحيما، شملنا بالإحسان والطيبات، وعونا منقذا فى كل النوائب والملمات، ومن ذا الذى يمكن أن يشك لحظة فى أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله .

إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، وأذقناهم مر العذاب، لما غدونا أسراهم، وكدنا نموت جوعا، راحو يؤثروننا على أنفسهم على ما بها من خصاصة، وأسدوا الينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان . . »

● « وحين تمكن صلاح الدين الأيوبى من استرداد بيت المقدس [٥٨٣ هـ ١١٨٧م] التى كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل [٤٩٢ هـ ١٠٩٩م] بعد أن سفكوا دماء أهلها فى مذبحة لا تدانيها مذبحة وحشية وقسوة، فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقاما لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته،

وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضاربا المثل فى التخلق بروح الفروسية العالمية.

وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أى التزام خلقى تجاه كلمة الشرف أو الأسرى.. فالملك ريتشارد قلب الأسد [١١٥٧-١١٩٩م] الذى أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربى أن حياتهم آمنة، إذا هو فجأة منقلب المزاج، فيأمر بذبحهم جميعا..»! [(١)]

* * *

٢ـ الجهاد الإسلامى:

«إن الجهاد الإسلامى ليس هو ما نطلق عليه ـ ببساطة ـ مصطلح الحرب المقدسة.

فالجهاد ـ كما يذكر الألمانى المسلم أحمد شميدة ـ.. «هو كل سعى مبذول، وكل اجتهاد مقبول، وكل تثبيت للإسلام فى أنفسنا، حتى نتمكن فى هذه الحياة الدنيا من خوض الصراع اليومى المتجدد أبدا ضد القوى الأمارة بالسوء فى أنفسنا وفى البيئة المحيطة بنا عالميا. فالجهاد هو المنبع الذى لا ينقص، والذى ينهل منه المسلم مستمداً الطاقة التى تؤهله لتحمل مسئوليته، خاضعا لإرادة الله عن وعى ويقين. إن الجهاد بمثابة التأهب اليقظ الدائم للأمة الإسلامية للدفاع بردع كافة القوى المعادية التى تقف فى وجه تحقيق ما شرعه الإسلام من نظام اجتماعى إسلامى فى ديار الإسلام».

... واليوم، وبعد انصرام ألف ومائتى عام، لا يزال الغرب النصرانى متمسكا بالحكايات المختلقة الخرافية التى كانت الجدات يروينها، حيث زعم مختلقوها أن الجيوش العربية بعد موت محمد نشرت الإسلام «بالنار وبحد السيف البتار» من الهند إلى المحيط الأطلنطى. ويلح الغرب على ذلك بكافة السبل: بالكلمة المنطوقة

---

(١) سيجريد هونكة [الله ليس كذلك] ص ٥٣، ٥٥، ٤٥، ٣٠، ٢٠، ٢٥، ٢٢، ٣٣، ٣٤. ترجمة: د. غريب محمد غريب. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

أو المكتوبة، وفى الجرائد والمجلات، والكتب والمنشورات، وفى الراى العام، بل فى أحداث حملات الدعاية ضد الإسلام.

. . [لا إكراه فى الدين]: تلك هى كلمة القرآن الملزمة - كما ترد فى الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة - . . فلم يكن الهدف أو المغزى للفتوحات العربية نشر الدين الإسلامى، وإنما بسط سلطان الله فى أرضه، فكان للنصرانى أن يظل نصرانيا، ولليهودى أن يظل يهوديا. كما كانوا من قبل. ولم يمنعهم أحد أن يؤدوا شعائر دينهم، وما كان الإسلام يبيح لأحد أن يفعل ذلك. . ولم يكن أحد لينزل أذى أو ضررا بأحبارهم أو قساوستهم ومراجعهم، وبيعهم وصوامعهم وكنائسهم . .

لقد كان أتباع الملل الأخرى - وبطبيعة الحال من النصارى واليهود - هم الذين سعوا سعيا لاعتناق الإسلام والأخذ بحضارة الفاتحين، ولقد ألحوا فى ذلك شغفا وافتتانا، أكثر مما أحب العرب أنفسهم، فاتخذوا أسماءً عربية وثيابا عربية، وعادات وتقاليد عربية، واللسان العربى، وتزوجوا على الطريقة العربية، ونطقوا بالشهادتين. لقد كانت الروعة الكامنة فى أسلوب الحياة العربية، والتمدن العربى، والسمو والمروءة والجمال - وباختصار: السحر الأصيل الذى تتميز به الحضارة العربية، بغض النظر عن الكرم العربى والتسامح وسماحة النفس - كانت هذه كلها قوة جذب لا تُقاوم.

لقد ساء ذلك الآباء الروحيين النصارى فقد كانوا شهود عيان فى الأندلس لقوة جذب المد الروحى والفكرى العربى، الذى سقط ضحيته رعاياهم النصارى طوعا وعن طيب خاطر، يشهد بذلك أسقف قرطبة (القارو) الذى راح يجأر بشكواه بكلمات مؤثرة تصور بلواه:

« إن كثيرين من أبناء دينى يقرءون أساطير العرب، ويتدارسون كتابات المسلمين من الفلاسفة وعلماء الدين، ليس ليدحضوها، وإنما ليتقنوا اللغة العربية ويحسنوا التوسل بها حسب التعبير القويم والذوق السليم. وأين نقع اليوم على النصرانى - من غير المتخصصين - الذى يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل؟ بل من ذا الذى يدرس منهم حتى الأناجيل الأربعة، والأنبياء ورسائل الرسل؟ . .

واحسرتاه ! إن الشباب النصارى جميعهم اليوم، الذين لمعوا وبذوا أقرانهم بمواهبهم لا يعرفون سوى لغة العرب والأدب العربى !إنهم يتعمقون دراسة المراجع العربية باذلين فى قراءتها ودراستها كل ما فى وسعهم من طاقة، منفقين المبالغ الطائلة فى اقتناء الكتب العربية وإنشاء مكتبات ضخمة خاصة، ويذيعون جهرا فى كل مكان أن ذلك الأدب العربى جدير بالإكبار والإعجاب! . ولئن حاول أحد إقناعهم بالاحتجاج بكتب النصارى. فإنهم يردون باستخفاف، ذاكرين أن تلك الكتب لا تحظى باهتمامهم! . .

وامصيبتاه! ، إن النصارى قد نسوا حتى لغتهم الأم، فلا تكاد تجد اليوم واحدا فى الألف يستطيع أن يدبج رسالة بسيطة باللاتينية السليمة، بينما العكس من ذلك لا تستطيع إحصاء عدد من يحسن منهم العربية تعبيرا وكتابة وتحبيرا، بل إن منهم من يقرضون الشعر بالعربية، حتى لقد حذقوه وبذوا فى ذلك العرب أنفسهم » .

❊ ❊ ❊

إن سحر أسلوب المعيشة العربى ذاك قد اجتذب إلى فلكه الصليبيين إبان وقت قصير، كما تؤكد شهادة الفارس الفرنسى «فولشير الشارتى» : «وها نحن الذين كنا أبناء الغرب قد صرنا شرقيين »! . ثم راح يصور أحاسيسه وقد تملكه الإعجاب بالسحر الغريب لذلك العالم العجيب بما يعبق به من عطر وألوان، تبعث النشوة فى الوجدان، ثم يتساءل بعد ذلك مستنكرا : «أفبعد كل هذا تنقلب إلى الغرب الكئيب؟! بعد ما أفاء الله علينا، وبدل الغرب إلى الشرق؟!» (١)

بهذا انتشر الإسلام . . وليس بالسيف . . أو الإكراه . .

❊ ❊ ❊

---

(١) المرجع السابق. ص ٤٠ ـ ٤٣ .

٣ـ التحرير الإسلامى للمرأة:

● « إن الرجل والمرأة فى الإسلام يتمتعان بالحقوق نفسها ، من حيث النوعية ، وإن لم تكن تلك الحقوق هى ذاتها فى كل المجالات . .

. . . وفى الحياة الزوجية ، التى يهتم القرآن بها اهتماما رئيسيا ، تنظر المرأة إلى زوجها نظرة العارفة بقوامته عليها ، وذلك أن كبرياءها يأبى عليها الامتثال والولاء والطاعة إلا لمن ترفع إليه بصرها إعجابا وتقديرا . . فالعلاقة بينهما تخضع للامتثال القائم على الثقة والخضوع والولاء ، ولا تعنى تلك «الطاعة» عبئا ينوء المرء تحته معانيا ، بل إن المرء يتمتع بخضوعه هنا ، دون الحط من قدره ، بل إنه ليبلغ بخضوعه أسمى الدرجات ، سواء فى عبوديته لله ، أو فى حبه من يحب . . وهذا هو الذى عبر عنه ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ـ٤٥٦هـ٩٩٤ـ١٠٦٤م] فى كتابه [طوق الحمامة] حيث يقول : « ومن عجب ما يقع فى الحب من طاعة المحب لمحبوبه . . ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة المحب لمحبوبه . . وهذا مكان تتقاصر دونه الصفات ، وتتلكن بتحديده الألسنة . . » .

● «لذلك فعلى المرأة العربية أن تتحرر من النفوذ الأجنبى . . وإذا أرادت طى صفحة الماضى بخلعها للحجاب ، فلا ينبغى عليها أن تتخذ المرأة الأوربية أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها ، أو أن تهتدى بفكر عقائدى مهما كان مصدره ، لأن فى ذلك تمكينا جديدا للفكر الدخيل المؤدى إلى فقدها لمقومات شخصيتها ، وإنما عليها أن تتمسك بهدى الإسلام الأصيل ، وأن تسلك سبيل السابقات من السلف الصالح ، اللاتى عشنه منطلقات من قانون الفطرة التى فطرن عليها ، وأن تلتمس العربية لديهن المعايير والقيم التى عشن وفقالها ، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع متطلبات العصر الضرورية ، وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة المتمثلة فى كونها أم جيل الغد العربى ، الذى يجب أن يُنَشَّأ عصاميا يعتمد على نفسه . »

● «لقد طبع التحدى الذى واجه الفلسطينيات موقفهن بطابع متميز . . فبينما

يعانى آلاف الرجال ذل السجون، كان عليهن أن يقمن وحدهن بأعباء الأسرة، وتربية الأطفال وتنشئتهن، وحماية أنفسهن وأسرهن من الفتك الذريع واغتصاب الزبانية بوحشيته السادرة، وهكذا لم يكن دور الفلسطينيات جديدا فحسب، وإنما نشأن وشببن ليتولين أدوارا قيادية فى المجتمع، ولقد شاركن مشاركة إيجابية فى حركة الانتفاضة - أو قل جهاد التحرير - على كل المستويات الممكنة.

إن نساء فلسطين العربيات يكتبن بأنفسهن التاريخ اليوم، وهن اللاتى يحملن مسئولية تقرير المصير فى التحول الاجتماعى. فهن يرأسن المؤتمرات الشعبية، وينظمن اللجان والهيئات التعاونية والإنتاجية ويوفرن أماكن العمل والوظائف المختلفة ويشغلنها، وهن فدائيات مجاهدات شهيدات، ينتهك الغاصب كرامتهن، ويزج بهن فى السجون، ويمعن فى تعذيبهن. ولا ريب أن الفلسطينيات سوف يسهمن فى المستقبل إسهاما خطيرا فى تقرير مصيرهن بأنفسهن، ومصير فلسطين. وسوف تتحدد حرية جميع الأرض المحتلة فى ضوء تحقق المساواة وتحرير المرأة». [(١)]

* * *

٤ - العقل اليونانى:

• «إن العقل اليونانى الإغريقى عقل تأملى.. يرتاب، ويزدرى، ويتجنب الخبرة الملموسة، والعمل الذى يتطلب الملاحظة المكثفة، مثلما ينكر على الرجل الحر العمل اليدوى الموكول للعبيد فقط فى الحقول، متمما بذلك تحليقه شطر مملكة الأفكار العامة والقوانين. لذا، فإن اليونانى يذعن للصيغ الفكرية الهندسية المجردة، ولأشكال الفضاء المثالية، فى الوقت الذى يترك مزاولة الأعمال الحسابية إلى البائع فى السوق.. وهذا التصنيف ينطبق على المراتب الاجتماعية بدءا بالهيئة الحاكمة، ونزولا إلى المهن المبتذلة كأصحاب الحرف والمهندسين ومهندسى البناء والفنيين، وختاما بالعبيد..».

---

(١) المرجع السابق. ص ٦٦، ٦٣، ٧١، ٧٢.

● «والمادة (الطبيعة) لدى حكماء اليونان : نقيضة لله تماما . . والحركة والصيرورة والتحول هى علاقة اللاكمال . . »

« ورجال من أشباه «هيبارش» [١٢٥ ـ ١٩٠ م] و«آريستارش» [٣١٠ ـ ٢٥٠ ق . م] و«أرخميدس» (٢٨٧ ـ ٢١٢ ق . م) و«حيرون» [حوالى سنة ١٠٠ ق . م]، نادرا ما ينجحون فى إقامة مدرسة فى بيئة لازال العمل الذهنى فيها يعتبر من مهن الأحرار، ويترفع فيه عن قذارة العمل اليدوى، الذى لا يسند إلا للعبيد، وبالتالى لا لزوم إلى التقنية فيه . . » .

«ولقد اعترف «هوميروس» [القرن التاسع ق . م]، بعد صراع طويل مع نفسه، وبندم شديد، أنه طرح جانبا محاولة الغوص فى الحكمة اللاروحية لكتابات الوثنية، حيث قال : «أيها السيد : لو عدت إلى قراءة تلك الكتب الأرضية مرة أخرى فإنما أنكر بذلك وجودك » !

«وبقدر ما حركت الطبيعة حكماء الإغريق، بدءا «بتاليس» [٦٢٤ ـ ٥٥٠ ق . م] وانتهاء « بهيراقليط» [٤٨٣ ـ ٥٤٤ م]، كان تفاعل «أفلاطون» [٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م] معها ضعيفا، وجاء فى سن متأخرة . والفلاسفة الثلاث متفقون على ذلك تقريبًا، إن الحواس لا تقدر على تمييز (المعرفة) الوجود الصادق، لأنها ـ الحواس ـ تخدع الإنسان، إنها لا تدرك غير الظاهر، الشىء المتقلبة فى تياره على الدوام، مما كان، عبر ما هو كائن، فيما يؤول إليه . إنها مصدر المعرفة الضبابية غير الصافية . ونفس النقص الذى يلازم المعرفة الحسية البشرية، يلتصق بعالم الظاهر المضطرب، المبتعد، المتلون، المتداخل، الهائج النامى، المتحرك، المنتظم والمضطرب، دائم التغير . فظيعة العفونة فى«المادة»! . .

ومن خلال اكتشاف عالم المادة والطبيعة، لا يتسنى الحصول على المعرفة . إن التعرف الفعلى على أى شىء لا يتم إلا حين يغادر الإنسان الجسد، لأن الاتحاد بالجسد لا يسمح للروح بالعثور على المعرفة . . » .

«وفى الأفلاطونية الجديدة كان محب الجمال، صاحب الشعور المرهف، يخجل

إن هو ملك جسدا . . لذا ، فإن الروح ذاتها تصبح شريرة حالما تلامس المادة ، تلوث بها وتلطخ ، وتصاب بالشهوة » . .

«ولقد ابتعد أرسطو طاليس [٣٨٤ـ٣٢٢ ق . م] عن الحقيقة لدى تعرضه لطبيعة الطيور ، لأنه لم يمارس صيد الطيور أبدا» .

« لقد رسخ أرسطو طاليس الفلسفة ، وأيقظ متعة العقلانية كما أيقظ ولعا ذاتيا فاترا فى فن البرهنة والمحاجة والجدلية المصاغ منطقيا ، كالتحليل والتمييز ، والمفاضلة ، والاستنتاج والتصنيف ، والتى تحولت ، بالنظر لبقائها بدون مضمون ، إلى صيغ هشة . . »

«لقد وضع أرسطو طاليس نفسة كمعلم للمنطق والجدل ـ وهو الوحيد الذى حكم العقل وحده ، فاتخذ القوانين المنطقية المجردة وسيلة لتأمل الله والعالم » .

«لقد أعار أرسطو طاليس اهتماما لكل التفاصيل فى حقل المعرفة الحيوانية . لكن مقومات العلم اليونانى لم تتبدل بذلك ، إن الفلك والفيزياء ، ونظرية الموسيقى ، والكيمياء ، والطب ، وعلم الحيوان ، والنبات اليونانية ، تبقى على الراجح فلسفية ، وبذلك يونانية المنطق . لقد كانت الحقيقة لدى الحس اليونانى المتأمل ، ليس مما تعتبره الحاسة واقعا ، بل واقعا عقليا فقط . . »(١)

❊ ❊ ❊

٥ ـ العقل المسيحى الأوربى:

● «يقول «بولس» : « لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله . . والرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة» !

---

(١) سيجريد هونكة [العقيدة والمعرفة] ص ٣٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ١٢٤ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ١٦٨ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ١١١ . ترجمة : عمر لطفى العالم . طبعة دمشق سنة ١٩٨٧ م .

«ولقد حارب آباء الكنيسة العلم والبحث بحجة أن ذلك «يجعلهم يترددون فى الخطيئة» . . مرددين بذلك ما أكده لهم «ترتوليان» حيث زعم أنه « بعد مجىء عيسى» لا يحق لهم« أن يكونوا محبى استطلاع أو أن يبحثوا فى العلوم ، ففى الإنجيل الكفاية » .

ولذلك، فلا الروم البيزنطيون، ولا فرق النصارى، سواء الأقباط أو النساطرة، أو القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، هم الذين سعوا إلى إنقاذ حضارة إغريق هلينية ـ التى كان بعضها قد أبيد إبادة تامة على أيدى متحمسى النصارى النشطين فى مهاجمة العلوم . . »

● وفى النصرانية : « الإيمان هو أن لا ترتاب، وأن لا تسأل» . .

«ولقد وصف الأب الروحى ««تيرتوليان» فضول العقل بأنه إثم، فضول فاحش . . أو ليست الشهوة، وهى الأكل من شجرة المعرفة، بقصد الارتقاء إلى مستوى الله، هى الخطيئة التى هبطت بالإنسان إلى الأرض؟ فمن خطيئته الأولى فى الجنة، حظر الإنسان على نفسة بعدها أن يدعى معرفة ليست من حقة ـ ذلك المذنب!ـ وكان حريا به أن يسعى إلى النجاة بروحه ، بدل أن ينحرف بالرغبة الجامحة الخاطئة فى معرفة المزيد! . .

أو لم يصنف الله المعرفة فى الدنيا بأنها غرور؟ . ونهى بولس الرسول عن أى نوع من أنواع البحث عن الحقيقة فى هذا العالم؟ . لقد جاء : « سأبدد حكمة الحكماء وأنبذ معرفة العارفين» . .

فإلى جانب الطريق الوحيدة التى تزكى الروح، كان ثمة طريق أخرى خاطئة ملحدة، أى البحث عن الحقيقة فى مكان آخر غير ما أوحى به من السماء» . .

● « لقد تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية مسيحية (وقد اعتبر ذلك من أخطر صيغ المحاولة) لاستقاء المعرفة . هذا ما قدمه«أوغسطين» مرة وإلى الأبد : « . . لأنه فضلاً عن شهوة الجسد التى تكمن فى متعة حواسنا واستمتاعنا ـ وعبيدها

مآلهم إلى الفناء حين ينأون عنك - يحيا فى النفس من خلال نفس الحواس ميل وفضول . . يُسَيَّج بقناع العلم والحكمة . . »

ومن هذا الفضول القاتل، الذى ينشأ من هَرْش نحو حب المعرفة والابتكار، رغب الناس المتطلعون إلى اكتشاف الطبيعة - ولئن كانت هذه المعرفة ليست ذات قيمة لهم - فى الاكتشاف لمجرد الرغبة فى المعرفة، وانصرفوا إلى الاهتمام بمسار الكواكب بدلا من العناية بشفاء روحهم المذنبة التى تحدق بها الأخطار. ولقد أطلقوا على ذلك أيضا، سوء استعمال قوى العقل، إن هو عنى باستكشاف الطبيعة، بدلا من التوجه إلى تعاليم الدين الموحى به . . »

«وكما أراد «أوغسطين»: نشأ بدافع الفضول المريض، مجرد النزعة إلى التجربة والابتكار، وبها ظهرت إحدى أخطر صيغ التجربة؟».

وكما قال بولس الرسول: «يوجد مكتوب: أريد أن أهدم حكمة الحكماء وأحطم عقل العقلاء . . وإن الغباء الموجود فى الوجود اختاره الله. وهذا يسىء إلى الحكماء»!

« أينما وضعت المسيحية قدمها، فى الإسكندرية وبيزنطة. فى اليونان وروما، فى فرنسا وبريطانيا، أدت إلى تقلص مروع للثقافة».

«لقد فصلت المسيحية فصلا مطلقا بين الحياة الأخروية العلوية، والدنيوية الأرضية المكتظة بالنقائص. وكل ما هنالك قابل للقسمة بعمق، وتُلْقَى بينهما العداوة بلا أمل للتوفيق: الله والعالم ، الروحى والدنيوى، الروح والجسد، الرجل والأنثى. لقد تعلموا ذلك من أوغسطين أساسا».

● « لم يكن لدى المسيحية، كهدى سماوى، أسئلة توجهها إلى العالم، ولقد سمحت للإنسان كذلك بتوجيه أسئلة إليها:

- أو لم تكن الشهوة إلى المعرفة هى السبب فى إنزال الخطيئة إلى العالم؟

- أولم يصف الله حكمة العالم بأنها غباء؟ . « ورفض بولس كل أنواع البحث عن الحقيقة».

وإلى جانب الطريق الروحية، الوحيدة الموصلة للروح، إلى الله، اعتبر كل طريق للبحث عنها في أي مكان أخر عدا الوحي خاطئا مارقاً . . أن تكون محبا للاطلاع، وأن تبحث بعدما بشر بالإنجيل، أمران جعلهما «تيرتوليان» و«أوغسطين»ورئيس أساقفة « تمبير » إثما عظيما وخطيرا» .

«ولقد شهّر الراهب «أبسالوم» ـ من دير سانت ڤكتور ـ بالفضول الكافر المتزايد نحو معرفة شكل الأرض، وطبيعة عناصرها، وموقع النجوم، وطبيعة الحيوانات، وقوة الرياح، وحياة النباتات والديدان»

« إن الديانة المسيحية السماوية، لم تكن خالية الوفاض فقط من أسئلة توجهها إلى العالم، لأن مشيئة الله ليست موضع سؤال، بل لأنها فضلاً عن ذلك غير قابلة للحساب، وفي رأيها : لم يكن ثمت باعث، بل ولاحق أيضا في تقصي الأسباب» .

واستنادا إلى خلفية الفكرة المسيحية عن العالم (صورته)، كما رسمها اللاهوتيون طبقا للإنجيل، ومؤازرة من خادمهم ـ سواء بأوغسطين أو أفلاطون، أو الأفلاطونية الجديدة، أو الفلسفة الأرسطوطاليسية ـ فإنه لم يكن بالإمكان أبدا نشوء علم طبيعي . لماذا؟

إن الثنائية المسيحية عملت على رفد الطبيعة بنظام خارجي، عن طريق إله أخروي، دخل في هيئة غيبية، سواء أكان بمعجزة، بالرحمة أو العقاب، بتقمص صورة إنسان، في عالم أبدي تسيطر عليه العفاريت، وبعد أن انسحب ما انفك يتدخل يوميا من خلال سر الأقداس، ومن خلال تقبل الصلوات والجزاء والأعمال الخيرة» . .

ولم يكن للعلم أن يتقدم في ظل الثنائية الأفلاطونية والأفلاطونية الجديدة، طالما أن العالم المنظور للطبيعة السماوية والأرضية هو لا شيء ، مجرد ظل واهن لعالم الفكرة، وأن كل مجهود يبذل لاكتشافها عبث، لايستسيغه العقل، كما قال أفلاطون : «يجب، بدلا من ذلك أن ننكب على المهام المجردة، سواء في

الفلك أو الرياضيات أو الأجرام السماوية، إذا ما طمحنا بصدق إلى فهم الفلك».

● «لقد جاء فى مرسوم رئيس أساقفة باريس «تيمير» بإلحاد «سيجر - باربانت» [١٢٣٥ - ١٢٨٢م]:

«إن ما هو صحيح فى نظر العقل، قد يكون خطأ فى نظر العقيدة».

● «وإن انصراف أوربا ذات النشأة المسيحية إلى الله والنفس، فى ذات الوقت الذى تم فيه إعطاء الطبيعة الصبغة الشيطانية، وتلحيد المحيط، أدى إلى تخلف الثقافة، وإلى الركود العقلى إلى درجة العقم. وبدافع الازدراء لأعمالهم اليومية غير المفيدة، انتقد «أيو سيبوس Eusebius الباحثين فى مصر، قائلاً: «قليلاً ما نفكر فى أشيائهم، وتيممُ روحنا شطر أشياء أفضل».

«حدث هذا فى الوقت الذى بلغ فيه العالم الإسلامى مستوى عريضا على طريق تطوير العلوم الطبيعية.. انطلاقا من الحافز الدينى على النظر فى ملكوت السماوات والأرض.. لقد خلق العرب الفلك خلقا جديداً.. ولقد ظهر بينهم فلكيان عظيمان يسمى كل منهما (عمر) وقد جلسا يوما من الأيام عند عمود مسجد من المساجد وأمامهما كتاب الماجسطى، فعبر عليهما جماعة من العلماء فوقفوا، وسألوهما: ماذا يدرسان؟. فأجابا: «نحن نقرأ - أجاب أحد العمرين: «تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨)﴾. (الغاشية: ١٧: ١٨).

● لقد حرمت الكنيسة طرق المداواة الجديدة باعتبارها شعوذة وخرافات باطلة، وظلت ستمائة سنة بحالها مشلولة دون المضى قدما فى تطوير الطب وتوظيفة فى خدمة الإنسان.. وكالصليبيون فى حملة «دمياط» الصليبية[١٢١٨ - ١٢٢١ م] يؤثرون علاج جراحهم لدى أطباء خصومهم العرب».

● «ولقد عبر «القرافى» [٦٤٨ هـ ١٢٨٥ م] - فى سياق الأسئلة الجريئة - عن ذلك فقال:

«يحرص اليهود والنصارى على القول بأن النصب المقدسة تذرف الدمع، ومن أثدائها ينضح اللبن»!

على هذا النحو احتقر العربى المتنور أمثال هذه الخزعبلات، فيما قدر عاليا أصحاب الرأى المشابه في المسائل التى تتعلق بالكائنات فى الطبيعة، الذين هتكوا حجاب المعجزة الذى غطى فى أوربا كل شىء».

● «لقد قرأ«البرت الكبير» [١١٩٣ ـ ١٢٨٠م] شيئا حول الجبر والهندسة، وألف كتابين عن الحساب كما تعلمها على يد الأخوة موسى الثلاث ـ محمد ابن موسى ابن شاكر [٢٥٩ هـ ٨٧٣ م] وأحمد بن موسى بن شاكر [كان حيا قبل ٢٥٩ هـ ٨٧٣ م]، وحسن موسى بن شاكر [٢٠٠ هـ ٨١٥ م]ـ وثابت بين قرة [٢٤٨ـ ٢٨٩ هـ ٨٦٢ ـ ٩٠١ م]، وبحافز من العرب اهتم بدارسة السكونيات والميكانيك. . وتطلب الأمر من هذا الرجل العنيد. . أن يبذل جهدا كبيرا من أجل الحصول على ترخيص استثنائى يخوله حق التعاطى والتعامل مع الفلاسفة الوثنيين (المسلمين) بوساطة من رؤسائه، الذين حرّموا المضى بالانحراف من خلال الاحتكاك بأولئك الكفرة (المسلمين) مرة وإلى الأبد».

«ولقد نص مرسوم سنة ١٢٢٨م الكنسى : « إن على أعضاء الطائفة أن لايدرسوا الفلاسفة الملحدين. . وعليهم أيضا أن لا يتعلموا الفنون الحرة إذا ولا المبادئ الأولية أيضًا كالحساب والتعداد، وحساب الأعياد الكنائسية، وأن استثناء خاصا منح لبعض الشخصيات»

«وكان فلاسفة اللاهوت عندما يصل إلى علمهم أن شخصا ما يبحث، يرفعون عقيرتهم: إنه ملحد!. . لأنه يطالب بحق الفهم، وبالحق فى معاينة وتحليل ادعاءات السلطات. . وحين يعثرون على شىء غير مدون فى مكان ما، حينئذ يطالبون بإلصاق تهمة الهرطقة. . لقد نظرت الكنيسة إلى العلم بتقزز واشمئزاز، وحذرت وخوفت الطامحين فى المعرفة الإنسانية. .

ولا عجب أن احتل مؤلف «سكوت إريوجينا»[٨١٠ - ٨٧٧ م] الرئيس الرائع، النابغ عن ألمعية فى العقل، وعمق فى التفكير، والذى يدور حول [تسخير الطبيعة] يحتل المرتبة الأولى فى قائمة الكتب التى حكم عليها بالمروق والمطاردة من قبل رابطة الرهبان، واعتبر فى المقدمة، والأكثر قدما فى الإلحاد حتى سنة ١٩٤٨ م، كما جاء فى آخر إصدار رسمى شهر به دون هوادة. . لقد اتهم بأنه صبى طائش وأكبر مغتر بالإلحاد الجنونى والحجج الشيطانية المارقة، آثم، بشع، كافر بالله».

«إن حكما باللعنة صدر حول كتاب [حول الطبيعة] لإريوچينا من سنة ١٢٠٩م. . ومنع من الأديرة. . وجمعت سائر النسخ المتوفرة وأحرقت. . ومن احتفظ بنسخة منه عرض نفسه للطرد من الكنيسة وللحكم عليه أمام الراى العام بالإلحاد».

«وعند «إريوچينا»، فإن الألوهية التى لا تُدرك، هى التى تخلق الطبيعة، من حيث يخلق فيها كل شىء ذاته فى خلق دائم، إن الله يبسط ذاته فوق كل شىء مثلما يكمن فيه، ومنه وبه كل كائن حى، والله هو الذى يسع كرسيه السموات والأرض، الفعال لكل شىء، وبدونه لا يتم شىء، ولا شىء سواه يمتد، لأنه هو المكان والمحيط لكل شىء. . كل شىء من الله، والله فى كل شىء، ولم يخلق شىء من هباء، بل منه وبه قد صار. .

إن ما ذكر هنا يناقض كلية سائر المعتقدات المسيحية فى الخلق ويناقض الأفلاطونية، والأفلاطونية الجديدة، والأرسطوطاليسية».

« ولقد استخلص «إريوچينا» أن الطبيعة لم تعد الأسفل، المضاد لله، بل إنها خلقت وسخرت للإنسان. . إن لها قيمة، وكينونة وحركة فى ذاتها. . لقد تحررت الطبيعة لتصبح موضوع البحث العلمى».

● « وكان أفلاطون قد شدد على استحالة المعرفة بواسطة الحواس. . وأجمعت الكنيسة والأفلاطونية والأرسطوطاليسية على وصف الأرض وما يعيش عليها كبؤس وضيع، وشبح مرتم فى النتانة، ومادة معتمة، فوضوية، فى مقابل عالم فوقى مثالى، علوى خليق بالطموح».

● « لقد كان الله، في نظر القرون الوسطى - الواقع تحت التأثير الشديد للأفلاطونية الجديدة - هو: المطلق والسكون الأبدى اللامتحرك. في حين كانت الحركة، على الطريقة الأوربية، بمثابة شيء ردىء يبعث على الغيظ.. وهكذا قوبل كل تقدم باستنكار، وأصبحت كل محاولة لتغيير الحالة الراهنة وإحلال شيء جديد محلها، أقرب ما يكون إلى الإثم..

وفضلاً عن الخوف من التحديث، عم ازدراء العمل اليدوى الذى جعل العقلانيين يفضلون التعامل مع الأدوات اليدوية العقلية الخالصة على المادة الوضيعة سهلة التناول..

أولم يعد «توما الأكوينى» [١٢٢٥ - ١٢٧٤ م] إلى الأذهان تفاهتها إبان الخصومة فى القرن ١٣؟.. فى هذه النقطة أيضا يتفق الفكر المسيحى واليونانى: « إن أدنى قدر يمكن لأحد أن يلم به عن الأشياء الواقعة تحت نظره، أجدر بالطموح من إلمامة معنية بالأشياء التافهة».

● « لقد ألح الإنجيل على خطيئة آدم، مبينا أن كافة الويلات والشرور المستشرية فى هذه الدنيا مصدرها الأول آدم..

لكن الإسلام لا يرى هذا، إذ ينص على أن الله غفر لآدم بعد أن تاب ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧).

والإسلام لا يقول أساسًا بوراثة « الخطيئة الأصلية» ولا بأن أول إنسان كان أثيما، بمعنى أن الخطيئة أو الإثم ليس أصل الفطرة التى فطر الإنسان عليها، بل إن الإثم قد يُغتفر إذا تاب الإنسان توبة نصوحا، حيث يغفر التواب الرحيم الذنوب.. »[1]

---

(١) [الله ليس كذلك] ص ٧٧، ٧٨، ٣٧. و[العقيدة والمعرفة] ص ٢١، ١٥٩، ٢٣، ٤٢، ٢٠١ - ٢٠٣، ١٩٤، ١٨٧، ١٨١، ١٦٧، ١٦٥، ٨٣، ٩٤، ٥٢، ٥٣، ٦٣، ٥٥، ٧٩، ٢٢٧، ١٩١، ١٩٢. و[فضل العرب على أوربا] - لذات المؤلفة - ص ٢٧٤، ٢٧٥، ٩٠، ٩١، ترجمة د. فؤاد حسنين على. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

٦ـ رفض المسيحية للفكر اليوناني:

• «لقد اعتبر القديس «هيروتيموس» الفكر اليوناني لعنة على البشر، فترجم الإنجيل إلى اللاتينية، بحيث قلبت «الفولجاتا» vulgata ـ [الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس لهيروتيموس سنة ١٥٤٦م] ـ كلاً من هوميروس وفرجيل [٧١ـ ١٩ ق.م] رأسا على عقب»..

• «ولذلك كانت الحرائق المدمرة، وأعمدة الدخان المتصاعدة فوق الإسكندرية، كنز المعرفة اليونانية والهلينية على مدى مئات السنين ـ تلك الحرائق التي أشعلتها المسيحية في هذا التراث اليوناني ـ..

إن السماء تصطبغ باللون الأحمر فوق عاصمة المعرفة على دلتا النيل. هذا في الوقت الذي تتهاوى فيه درر لا تعوض من الأشعاروالفلسفة اليونانية والعلوم الإغريقية ضحية لعمليات إبادة من تدبير التعصب المسيحي.

إن إحراق مكتبة الإسكندرية الكبرى ـ والذي يصرون بعناد على تحميل العرب مسئوليته، رغم أنهم فتحوا المدينة، بعد انقضاء أربعة قرون على ذلك الحدث ـ قد دل هذا الحريق على أنه ـ بعد دارسة وافية ـ هو من أعمال الإبادة المسيحية، فضلاً عن أنه دعاية موجهة ضد الإسلام.

وفي عام ٤٧ قبل الميلاد، وفي أثناء مرابطة يوليوس قيصر [١٠١ ـ ٤٤ق.م] قدمت ٧٠٠ لفافة من كتب مكتبة الإسكندرية طعما للنيران. لكنه في القرن الثالث وضعت خطط التدمير المنتظمة، فقد قام بطريرك مسيحي بإغلاق المجمع العلمي، وطارد أعضاءه. وفي عهد الإمبراطور البيزنطي «فالنوس» عام٣٦٦م تم استبدال المجمع العلمي بكنيسة، ونهبت مكتبته وبددت، وتعقبوا فلاسفتها تحت غطاء وبتهمة السحر والشعوذة.

وفي عام ٣٩١م استصدر البطريرك «ثيوفيلوس»[٣٨٥ـ ٤١٢م] إذنا من القيصر ثيودوسيوس يقضي بتدمير أكبر وآخر محج للعالم القديم، وهي أكاديمية

الإسكندرية الكبرى (السيرابيون)، وبتقديم ٣٠٠ لفافة طعما للنيران، وبذلك تعرضت البشرية لأفدح خسارة فى تاريخها . .

وفى القرن الخامس يعترف آنيوشين - صديق البطريرك سيفيروس، بأنهما كانا عضوين فى مجموعة إرهابية مسيحية فى الإسكندرية، وأنهما قاما بمحاربة العلماء الوثنيين وبمهاجمة دور الثقافة، ودمروا مكتباتهم ومنشآتهم، واختفى بذلك ملاذ آخر من معاقل العلم الهلينى . .

وفى عام ٥٢٩ م تم إغلاق آخر مدرسة فلسفية فى أثينا . وفى عام ٦٠٠م أحرقت مكتبة بالاتين، التى أنشئت فى روما من قبل أوغوسطوس [٦٣ ق . م - ١٤ م]ومنع تداول المؤلفات الكلاسيكية عامة، والرياضيات بصفة خاصة» (١) .

* * *

٧- العقل الإسلامى:

• « إن الفكر العربى يحتفل بالواقع الحقيقى، بينما نرى الفكر الهندى يحتفل بالناحية الذاتية كل الاحتفال، خلافًا للفكر اليونانى الذى ينتقل طفرة من الجزئى إلى الكلى، من الحقائق المفردة إلى الفكرة المجردة .

فالفكر الإغريقى لم يكن همه الحقائق الملموسة المحسوسة، وإنما وقف بحوثه على مثله العليا، وتحركت دراساته النظرية حرة طليقة من إسار التأثيرات المادية فى مجال الفكر البحت . . أما العرب، فقد سلكوا نهجا وعرا، وصعودا من أسفل الدرج فى تسلسل تدريجى يتغلغل دنيا الحقائق العلمية كل منها على حدة : المنهج التجريبى القائم على الرصد والملاحظة دون ملل أو كلل، والقياس، والمعادلات والحلول الرياضية، والترقى فى صبر وكبد من الخاص إلى العام، ولئن كان اليونانى فى جوهره من فلاسفة الطبيعة (مع وجود استثناءات) فإن العربى قد غدا عالم

---

(١) [العقيدة والمعرفة] ص ٢٤ - ٢٦ .

الطبيعة بالمعنى الحرفى للكلمة، ومخترع علم الطبيعة التجريبى، ولقد عبّد العربى بآلاته حقول العلوم البكر الوعرة تعبيدا، ومهد طرق البحث تمهيداً».

● «ومن الثابت أن العرب توسطوا لأوربا فى نقل التراث القديم، بعد أن أنقذوا من الضياع ما تبقى من الأعمال التى تعرضت للدمار بمرور القرون وبسبب التعصب المسيحى، فى واحدة من أكبر عمليات التنقيب والإنقاذ المنتظمة فى تاريخ الفكر البشرى. . وفى وقت قصير آتت البذار اليونانية والهندية غلالا فائضة، بعد أن أجدبت الحضارة اليونانية منذ زمن بعيد. .

هل أحدث الرومان أوالفرس، اللذين كانت المعرفة تحت تصرفهم، ما يمكن مقارنته بهذا؟

إنه التسامح الإسلامى الذى أتاح للعالم الإسلامى أن ينهل من مصادر المعرفة، حتى الوثنية: «الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها». . فى حين أن بولس الرسول قذف «الكافرين الباحثين عن الحكمة»، وسخر «تيرتوليان»! «أى توافق يوجد بين الأكاديمية والكنيسة؟ وأى شىء يربط أثينا والقدس؟». . وقد وصف الأب الروحى «أوغسطين» الفضول الملحد بأنه ضرب خطير من المرض». . لقد كانت العبادة فى الإسلام، هى التطبيق السلوكى للمعرفة منذ الوهلة الأولى. .».

● «وعلى حين يصنف اليونانيون البشرية، فى ضوء رؤيتهم المزدوجة، إلى شيئين مميزين كل التميز: إما وإلا، هلينيين أو برابرة، أبيض أو أسود، وعلى حين نجد الاصطفاء المسيحى الجنونى المزدوج، إما مؤمنين أو غير مؤمنين. . نجد المذاهب الشتى قد عاشت بين ظهرانى المسلمين، فلم يفكروا يوما أن يشنوا عليها حربا مقدسة. . فالفكر العربى لا يكاد يوجد فيه أبيض أو أسود، إنه يقر تعددا، ويعترف فيه الواحد للآخر بأحقيته. فهو يوفق بين الأضداد، ولا تتضارب فيه الشهوة والروحانية، والإيمان والبهجة فى الحياة، والدنيوى والأخروى، بل إنها أشد ما تكون ميلاً إلى بعضها (فيما بينها). وهكذا أيضا نفهم النظرية والتطبيق»[1].

---

(١) [الله ليس كذلك] ص ٨٠، ٨١.

• « وبفضل أسلوب العرب الخاص فى التفكير، وتسامحهم، لم ينظر علماء المسلمين - كما هو الشأن لدى المسيحيين - إلى الإنسان مطلقا من خلال نظارتهم الإسلامية . لقد نظروا إلى الفرديات، وهكذا أيضا قامت العلوم المقارنة - فالبيرونى [٣٦٢ - ٤٤٠ هـ ٩٧٣ - ١٠٨٤ م] سجل الرقم القياسى بكتابه [تاريخ الهند] وإلى جانب التاريخ السياسى والوضع الروحى للأديان الهندية، وضع فى حسبانه الانتصارات الحضارية والعلمية . . وفى[آثار لماضى] يستعرض الأنظمة التاريخية للعرب والفرس والسبئيين والأشوريين واليونان واليهود والمسيحيين فى سياق أعيادهم المقدسة، ودياناتهم، وتاريخهم . . وكذلك صنع ابن حزم [٣٨٤ - ٤٥١هـ ٩٩٨ - ١٠٦٤ م] فى مقارنة الأديان، وابن خلدون [٧٣٢-٨٠٨ هـ ١٣٣٢ - ١٤٠٦م] . . »(١)

• «إن المرء ليتخذ من مقولة« هيجل» [١٧٧٠ - ١٨٣١ م] الشهيرة قاعدة . « كان يجب أن تنقضى مئات السنين قبل أن يصبح العقل الأوربى قادراً على مغادرة عشه، وعلى تحريك جناحيه والاستعداد للطيران » .

لكن هذه القاعدة لا تنطبق على العالم العربى الإسلامى، الذى زخر، على العكس منهم، بالإنجازات العلمية الهامة فى تاريخه المبكر بالذات . .

إن السيادة الإسلامية فى الشرق خلقت فى وقت قصير حضارة مزدهرة امتد بنيانها زهاء ستة إلى ثمانية قرون، حتى منغوليا فى الشرق الأقصى سنة ١٢٥٨م وفى إسبانيا سنة ١٤٩٢م إلى أن اغتالتها الصفوة الروحية المسيحية، وضحت بمحتويات المكتبات الضخمة» .

• « وإذا احتقر اليونانى الحر العمل البدنى، كاليدوى والزراعى، أو عمل الرقيق فى عقل غير مفيد، باعتبار أن هذا العمل غير كريم (شريف)، اعتبر الاستعمال التطبيقى للمعرفة بمثابة حط من شأن الفكر، وتدنيس للمثل العليا لرؤية الأفكار الصادقة، فإن هذا يتعارض تماماً مع الواقع التجريبى للعرب . . وهنا تكمن جذور

---

(١) [العقيدة والمعرفة] ص ١٠٣، ١٠٦، ١٢٦، ١٢٧، ١٥١، ١٥٢ .

نوع معين من توجيه المعرفة، والتى بسببها أصبح العرب يتمتعون بوزن خاص، علمياً وتاريخياً، وبتأثير حاسم على أوربا . . وبفضل هذا الفرق كان العرب أكثر من مجرد وسطاء للتراث اليونانى، أكثر من سعاه بريد للقديم . . فلم يرتضوا أن يرددوا كالببغاء معارف القدماء، وإنما ابتكروا شيئا خاصا وجديدا».

«لم يعمل العرب على إنقاذ تراث اليونان من الضياع والنسيان فقط - وهو الفضل الوحيد الذى جرت العادة على الاعتراف به لهم حتى الآن - ولم يقوموا بمجرد استعراضه، وتنظيمه، وتزويده بالمعارف الخاصة، ومن ثم إيصاله إلى أوربا، بحيث أن عددا لا يحصى من الكتب التعليمية العربية حتى القرنين ١٦ , ١٧ قدمت للجامعات أفضل مادة دراسية، و قد أصبحوا - وهذا أمر قلما يخطر على بال الأوربيين - المؤسسين للكيمياء والفيزياء التطبيقية، والجبر والحساب بالمفهوم المعاصر، وعلم المثلثات الكروى، وعلم طبقات الأرض وعلم الاجتماع وعلم الكلام.

وإلى جانب الابتكارات والاكتشافات الفردية التى لا حصر لها فى سائر العلوم التجريبية - التى إما أنكرها أو نسبها الكتاب الأوربيون إلى الغير - فقد وضعوا فى يد العالم الأداة المتكاملة الجاهزة، ألا وهى النظام العددى والحسابى، ومناهجهم العلمية الطبيعية فى مجال البحث التجريبى، الذى من العسير تقييم دوره الفعال فى التطور العلمى الأوربى».

« إن عددا كبيرا من الأعمال اليونانية والإغريقية لـ: «أيوكير»و «جالينوس»، وبطليموس، وغيرهم . . قد تم تجاوز بعضها من قبل العرب الذين أمسكوا بزمام التراث اليونانى على مدى مئات السنين وواصلوا السير فيه وتعدوه»[(١)] .

● «وبالعرب أيضا، أصبحت الحقائق المتفرقة موضوعا لسائر البحوث، وهنا أيضا تولّد الصعود التدريجى المتأنى، الذى يركن إليه . من الحالات الفردية إلى العموميات، وذاب النهج الاستقرائى ليشق طريقه لمنهج علمى، فيه تحاصر الحقائق

---

(١) المرجع السابق. ص١٥٨، ١٥٩، ١٠٦، ١٠٧، ١٣٣، ١٩ .

بمشاهدات ومقايسات لا تعرف الكلال، وبعدد لا يحصى، وصبر لا ينفد، وعمل منتظم، من التجارب المتكررة تحت شروط مختلفة ثم الحصول على قواعد وقوانين ثابتة، وأعيد النظر فى النظريات، فمنها ما استبدل، ومنها ما اعتمد فى ضوء من حرية الفكر، الذى ظل الشك كالشوكة فى جنبه».

« ولكى نفهم ملمح العلم العربى، ونمطه المتميز بالمقارنة إلى اليونانى، يجب أن ندرك أنه فى حين يتوق اليونانى إلى التجرد من الحس إلى المصادفة، والتغاضى عما هو فردى كى يصعد نحو المفهوم المجرد، تحتل الخصوصية الفردية مكان الصدارة بالنسبة للعربى . . ».

● «وفى الوقت الذى كانت فيه أوربا منغلقة، تجدّف فى وحل المؤسسات السلطوية، محرومة تمامًا من الوقوف على قدمين ذاتيتين، تعالت فى العالم العربى دائماً أبدا أصوات : « لا أستطيع أن أجارى أرسطو طاليس فى هذه النقطة » . . «لقد لاحظت . . » . . «أنا نفسى قد رأيت» . . «لأننا رغم إجلالنا الكبير لجالينوس، فإن ما شاهدناه بملء أعيننا أقرب إلى التصديق».

إن النقد البناء للطبيب عبد اللطيف البغدادى [٥٢٠ - ٦٢٨هـ ١١٢٦ - ١٢٣١م] - المتواضع، الذى كان مدرسا فى سائر العواصم تقريباً - فجالينوس [١٢٩ - ١٩٩ م] قد درّس بأن الفك الأسفل يتكون من عظمين مجتمعين معاً. ولقد كتب البغدادى : «إلا أننا شاهدنا ألوفا من العظام والهياكل، وقمنا بفحصها بدقة متناهية، وتحصلنا على نصيب وافر من المعرفة من هذه الدراسة. وهى معرفة ما كنا لنتحصل عليها من دراسة الكتب. وكان جالينوس قد علمنا بأن الفك الأسفل يتألف من عظمين يجمع بينهما نسيج ضام غير أنا عاينا ألفى عظم ولم نجد فيها فكا واحدا مؤلفا من عظمين . إنه عظم واحد دون أى رفو».

وصوت آخر من ابن النفيس [٦٨٧ هـ ١٢٨٨ م] : « إن ما قاله جالينوس خطأ» . فلقد اكتشف ابن النفيس، لأول مرة خطأ جالينوس حول دخول الدم من خلال ثقوب الحجاب الحاجز من حجرة إلى أخرى (الأذين والبطين) فصحح الدورة الدموية الصغرى بمساعدة التشريح، وهو اكتشاف انتحله بعده بثلاثة قرون الإسبانى

ميخائيل سيرفت [ ]. لقد كتب ابن النفيس: « لكى نصف مهمة كل عضو على حدة، نستند إلى ملاحظة دقيقة ودراسة صريحة، دون الاكتراث ما إذا كانت تلك من علوم الأولين الذين سبقونا أم لا ».

- «لقد قال النظّام [٢٢١ هـ ٨٣٦ م]: إن أول شرط للمعرفة هوالشك.

وبهذه الكلمة المدهشة، وفى زمن سادت فيه العقائد السلطوية، وجه إبراهيم النظّام علماء العرب نحو الطريق، وبذلك أصبحت التربة ممهدة أمام التجربة العلمية.. أى التعرف على الشىء عن طريق أفضل معرفة، اكتشاف الطبيعة الحقيقية للأشياء، كما هى عليه، وبالمقدار المتاح للإنسان. وهذا برنامج عمل لا يسلّم بشىء قبل أن تؤكده التجربة..

لقد تطلب العلم العربى:

١ - التسامح السخى مع كل ما هو غريب، حتى فى القضايا الدينية.. والتسامح مع معرفة الكفار.

٢ - استعداد النبى بالوحى، وعبر الهداية الدينية الخاصة والعالمية، لا لقبول المعرفة البشرية العقلانية فقط، بل والحث عليها، حتى أن مداد طالب العلم ارتفع إلى درجة التقديس، وأصبح بمثابة دماء الشهداء

- وليس كما فعلت الكنيسة: حشر المؤمنين فى حيز عقائدى ضيق، بعيدا عن المتنفس.

٣ - ولوج الحياة الفعلية، والتوجه الدائم نحو الحاجات العملية، التى أدت إلى التقارب بين النظرية والتطبيق، لا كما كانت عليه الحال مع اليونانيين البعيدين عن الحقيقة، المتنقلين بين الأعمدة الخرساء، أو غير المعقول كما هو الشأن فى الدارسين المسيحيين المتزمتين من فلاسفة أوربا فى جدلهم العقيم، الذين كانوا ينظرون إلى العمل نظرة مهينة.

٤ - الاستعداد للشك، والإصرار على عدم الانصياع للعقائد والآراء الجاهزة، والإقبال على سبر غور كتب المعرفة الداكنة بالحواس والفهم، وشرحها بشهادة العينين والأذنين..

لقد قال الطبيب الغرناطى والوزير ابن الكاتب [ ] : «إن القاعدة التى يجب أن ننطلق منها دائما هى أن برهانا اقتبس عن المنقول، عليه أن يخضع للتغيير، حين يقف على النقيض الظاهر مما تشير حواسنا إلى صدقه».

ولقد تعرف هذا الطبيب العربى إلى طبيعة الأمراض التى وصفت من قبل اليونانيين بأنها دنس أرضى، ومن أوربا المسيحية على أنها عقاب ربانى . . فعزى وباء الطاعون إلى العدوى، وقال« إن وجود العدوى قد ثبت بالتجربة، وبالبحث، وبالفهم، وبالتشريح والأدلة الموثقة، وهذه العوامل تهيئ الدليل غير القابل للنقض. إن حقيقة العدوى تتأكد للباحث الذى يلاحظ كيف أن الشخص الذى يحتك بمريض، يصاب هو أيضا بالمرض، فى حين أن الشخص الذى لايحتك لا يصيبه المرض. وكم أن نقل المرض فى بيت أو ربع يتم بواسطة لباس أو إناء، علاوة على ذلك، فإن العدوى قد ثبتت عن طريق وافد من قطر يعانى من الوباء فى مدينة ذات ميناء، وعن طريق حصانة « الأشخاص المعزولين».

• «ولقد كتب ثابت ابن قرة [٨٣٦ هـ ٩٠١م] إلى زميله فى الترجمة إسحاق ابن حنين [٢٠٢-٢٩٨ هـ ٨١٧ - ٩١٠ م] حول ألواح بطليموس - التى ثبت خطأها -: «نحن - بطبيعة الحال - لسنا بعدُ فى وضع يمكننا من الإجابة القاطعة على مثل هذا السؤال. والحسم الموضوعى فيها كان ليتم لو أننا قدرنا على مراقبة الشمس فى الفترة الواقعة بين بطليموس ويومنا هذا. فإذا وجدت إحداها لدى المؤلفين اليونان، فأرجوا إفادتى بها، بحيث أتمكن من تكوين حكم أكيد حول ذلك. وأود أن أضيف، بأنه، بعد جلاء هذه النقطة، فإننى سوف أعالجه هنا. غير أنه لازال مظلما، ويبدو أنه مجرد تخمين، وعليه لا يمكن قبول هذا الكتاب. لاننى - من جانبى - لا أريد أن أتبنى ما هو ليس بحكم الأكيد، بل العارى من الشك من كل جانب».

• «وثمة خاصية للعقل العربى فى الحساب، كانت فى صالح الثقافة والعلم التطبيقى والتجربة، وهى الحدس تجاه كبر الأعداد والبهجة فى المسائل الحسابية. . لقد جعلوا الأرقام الهندية الغامضة، بواسطة الصفر، أداة طيعة

منظمة، سهلة الاستعمال للتعداد العملى والرياضيات التى اعتبرت من علوم المستقبل، وبذلك تفوقوا بالخطوة الحاسمة على البابليين واليونان والرومان، وحتى على الهنود، الذين اشتهروا بموهبتهم فى الرياضيات، وعلى المسيحيين المثابرين فى الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، فى المدن الأشورية وما بين الرافدين».

«لقد حوّل العرب موروث اليونان فى العدد والحساب من العلاقات الهندسية.. إلى تجبير وترييض الحساب، ثم أخذه رياضيونا الأوربيون وظلوا محتفظين به حتى يومنا هذا»[1].

● «لقد كان جابر بن حيان [٢٠٠هـ ٨١٥م]- الصيدلى- هو «هيبوقراط» الكيمياء.. المؤسس لعلوم الكيمياء، والمتحدث باسمها حتى مطلع العصر الحديث.. كان باحثا أصيلاً مستقلاً، خلف دونه، بطرقه التجريبية المبتكرة واكتشافه لعناصر ومركبات كيميائية حديثة، نظريات وتجارب الشرق واليونان الكيميائية، وحتى الهيلينية ذاتها بمسافات طويلة، أجل، بما أجرى على الحيوانات من تجارب.. وقد تصدى بنقد لاذع لمعالجة الأولين للمسائل الكيميائية والفيزيائية الفلكية والغيبية.

هنا يتوضح دور العرب الأصيل الذى تنبع واقعيته وحقيقيته المبصرة من القناعة، وتقرب من الأشياء بمساعدة الوقائع والتفكير، اللذين بنى عليهما علمه. وبذلك أصبح النزاع مع التراث اليونانى أمرا محتما وقوعه..

والعلم لدى جابر ممكن فقط، حتى يتعرف ويستفسر المرء عن سبب وجود الشىء، وبفضل نظرة جابر الجديدة إلى الحقيقة، يتجاوز جابر كيمياء الأولين المتقوقعة، ويطهرها من أجزائها التأملية غير العلمية، حين ينقى من كيمياء البابليين، واليونان، والمصريين المتأخرين، والفرس اللاهثين خلف المعجزة، العنصر السحرى المجازى.. ويدعو، من خلال تجارب عملية ومنتظمة.. إلى

---

(١) المرجع السابق. ص ١٢٤، ١٢٥، ١٢٠، ١٢١، ١١٥ - ١١٧، ١٢٠، ١٣٠، ١٦٥، ١٦٦.

تحليل المواد الأولية، وإلى فرزها، وإلى تعريفها. وبدلا من طريقة الصهر البدائية والمستعملة حتى ذلك الحين للحصول على الذهب، كما كانوا يتوهمون، من المعادن، ابتكر محلولا حصل عليه من أحماض الملح وماء الملك - [مؤلف من ثلاثة محاليل مركزة لروح الملح + حمض النتريك] - كما نجح أيضا فى الحصول على النشادر المعدنى وعلى مشتقاته، الأمر الذى استبدلته الكيمياء القديمة بشكل جوهرى.

وثمة فرع آخر يعد شيئا مثيرا للقرن الثامن، يعكس عبقرية جابر، وبه بز العلماء اليونان والهلينيين أيضا من خلال تصوره للكيمياء العضوية، إن تحليل الجسم إلى العناصر الأولية التى يتكون منها احتل جانبا جوهريا من علمه، وهو فى النهاية مرتبط بتحليل الكائن العضوى: «فقد حضّر من المواد الحيوانية النباتية أشربة (الكسير)، سجل مواصفاتها على أسس حسابية.

وثمة مؤلفٌ من نوع خاص يتحدث عن السموم، قام جابر بتأثيرها على الحيوانات أولا..

على أن ولع جابر بالتجربة مضى إلى مدى أبعد، إنها المغناطيسية التى كانت تأسر لبه، والتى كسب بها قصب السبق. إن المغناطيس بتأثير يخترق صفائح النحاس السميكة. أجل، والمغناطيسية تحوله إلى معدن آخر. لقد قاس جابر حمولة المغناطيس تبعا لقدرة الرفع فى وزنها، وأثبت أنها تتناقص بمرور الوقت.. كما يستدل على ذلك من أقدم الوثائق التى يرجع تاريخها إلى عام ٨٥٤م - حيث اصطحب البحارة العرب حجر المغناطيس لتحديد وجهة إبحارهم فى الرحلات الطويلة فى حالة حجب الليل لنجوم السماء.»..

● «ومن بين أبرز تلاميذ جابر بن حيان الرازى الطبيب [٢٥١-٣١١هـ ٨٦٥-٩٢٥م] الذى صنع من الكيمياء علما للشفاء، والذى كان إلى عهد قريب فرعا من فروع الطب، فرفعه إلى مرتبة مستقلة، علم يقوم على مبدأ خاص. فإذا ما اشتغل جالينوس، ومن بعده ديوسكوريدوس [القرن الأول الميلادى] ذات مرة بالمستحضرات النباتية، فقد قدم الرازى الآن - واضعا أستاذه نصب عينيه - الكيمياء

غير العضوية كعلم تجريبى، وعن إدراك سابق فى خدمة الطب. وجعلها طوع الاستعمال للعلاج الطبى بهدى التجارب على الحيونات. وقد اتضح له أنه من خلال تحسين واستبدال المواد الطبيعية صناعيا، يمكن الحصول على أدوية جديدة لا يمكن وجودها فى الطبيعة. وهذه إحدى مكتشفاته الحديثة، بالقياس إلى القديم. وفضلاً عن المواد النباتية والحيوانية، كالدم والحليب والبول والسموم، فقد كان السباق إلى استعمال عدد كبير من المعادن، والملح، والبوريك (بوراكسن) ـ وهى كلمة من أصل عربى ـ، والزاج، والمعادن، والأحجار، والزئبق، والكبريت، وسلفات الزرنيخ. . فقبل استعمالها، اختبر حسب أفضل منهج. . منهج عربى منذ أيام جابر ـ المواد المستحضرة بطريقة تركيبية فى التجارب على الحيوان، وبالتجريب على القردة، طور مركبات الزئبق كعلاج ـ على سبيل المثال ـ لبعض أمراض الجلد. وفى حوزتنا مواصفات كاملة على مثل هذه الاختبارات.

وفى حقل التجارب على الحيونات، استكمل صيدلة الحشيش والأفيون لغرض التخدير، الذى أثراه العرب من عدة جوانب، فى حين أنه فى أوربا العصر الوسيط، سرعان ما كان يرتاب فى أمره على أنه من أعمال الشعوذة ساعة تدريسه فيلاحق ويطرد!. .

وكان الرازى أول من حضّر أحماض الكبريت الهامة. وقد درس بالتفصيل اثنين وثمانين سما متفرقا من عالم الحيوان، والمعادن، وعالم النبات. وعلى سبيل المثال، سموم الفطريات. ويعتبر، بالتعرف إليها، معالجتها ومداواتها لسموم مضادة ـ يعتبر مكتشفا ومخترعا ـ ولازال المستهلك حتى يومنا هذا، يبتهج فى مودة زائدة بالأدوية سيئة الطعم، قدمها الرازى فى أقراص غلفها بقشرة ظاهرة.

وأخيرا، ومن السوائل المتخمرة المقواة، أو المحتوية على السكر، صنع الكحول ـ كلمة عربية ـ ومعناها الناعم.

وقد تم لجابر، والرازى، ومن تلاهما وصف عدد كبير من المركبات الكيماوية، ومن بينها أكسيد الزئبق والزنجفره، والزرنيخ، ونترات الفضة، والشب ـ كلمة

عربية أيضا ـ والزاج الأزرق، والحامض الملحى، ومحلول البوتاسيوم، ومحلول النطرون، ومستحلب الكبريت، ومستحلب الكبد الكبريتى، وأشياء أخرى.

وقد تحصلوا على الكحول النقى الذى استعمل فى الجراحة، وميزوا بين الأحماض والقلويات، وراقبوا زيادة وزن المعادن بالتأكسد والتكبرت، كما عرفوا قبل غيرهم أن النار تنطفئ بمنع الهواء وطوروا العمليات الكيماوية الأساسية، كالتبخير، والتصعيد، ومزج المعادن بالزئبق، والتبلر، والتكلس، والتصفية، والتقطير، بحيث فرقوا بين التقطير المباشر بواسطة الحمام الرملى أو المائى.

ولأجل هذا الغرض، وضع صانعوا الزجاج السوريون والمصريون، تحت تصرفهم، إنتاجهم الرفيع فى فن تكوير الزجاج بواسطة النفخ، والذى صاغوا من مصهوره اللزج الأشكال التى يريدون. ومن هنا وضعت صناعة الزجاج قدمها بواسطة المصنعين العرب فى مورانوا بإيطاليا، وغزت بجمالها غير المعهود أوربا منذ القرن ١٣، ونخص بالذكر الحلبى منه، الذى كانت سلعه الزجاجية تمثل إحدى أكثر السلع المصدرة إقبالا، وصدرت إلى المختبرات العربية القوارير الزجاجية، وأنابيب الاختبار مع الأنبيق والعُدل، الذى اخترعه العرب للتقطير، والذى لازال يحمل الاسم العربى حتى الآن.

وإضافة إلى الفرن الآلى المستعمل من قبل الكيماويين، صمم الطبيب الأندلسى أبو القاسم الزهراوى [٣٢٤ ـ ٤٠٣ هـ ٩٣٦ ـ ١٠١٣ م] فرنا خاصا للتقطير بشكل آلى، ومن أجل إثبات الوزن النوعى لمادة قيد الاختبار وتثبيتها، ابتكر ميزانا حساسا بخمس صحاف، إحداها تطفو فوق سطح الماء»[1].

● ولقد كانت براعة العرب فى التجربة، وإبداعهم للمنهج التجريبى، سبيلهم إلى نقد الموروث العلمى القديم..

فعلى بن العباس [ ] ـ طبيب عضد الدولة [٣٣٧ ـ ٣٧١ هـ ٩٤٩ ـ ٩٨٢م] يقول: «لم أجد بين مخطوطات الأطباء الأقدمين والمحدثين كتابا كاملاً،

---

(١) المرجع السابق. ص ١٣٤، ١٣٨.

يحتوى على كل ما هو ضرورى من أجل تعليم فن الطبابة. هيبوقراط كتب باختصار شديد، وكثير من تعابيره ضبابية وتحتاج إلى شرح.. وجالينوس ألف عدة كتب لا يحتوى كلاً منها إلا على جزء يسير من فن الطبابة، غير أن كتبه مفرطة الطول كثيرة الإعادة والتكرار، لم أجد له كتابا واحداً متكاملاً ومناسبا لتعليم المتدربين..

أما ما يتعلق بى، فإنى سوف أعالج فى كتابى كل ماهو ضرورى للحفاظ على الصحة وعلاج المرضى.. الأمور التى يجب أن يعيها كل طبيب مقتدر ذى ضمير حى..»

• «وفى الأندلس، ألف الجراح أبو القاسم الزهراوى [٣٢٤-٤٠٣ هـ ٩٣٦-١٠١٣ م] كتابا جامعا فى الطب، يقوم على التجارب الشخصية، وضع فصله الثالث حجر الأثاث للجراحة الأوربية، ورفع الطب الجراحى - الذى احتقرته المسيحية - كفرع طبى مستقل، يستند إلى التشريح العربى، إلى مصاف الاختصاصات الأخرى سواء بسواء.».

• «وفى الأندلس ألف ابن زخر [٤٨٤ - ٥٥٧ هـ ١٠٩١ - ١١٦٢ م] كتابه الرئيس [المداواة بالحمية والتنفيس] مرشدا للطب، غرضه الأساسى تثقيف المبتدئين من الجراحين من خلال قصص المرضى والأطباء المبرزين.»

• « ومخطوط الرازى [حول الحصبة والجدرى] قد ظل يطبع فى أوربا حتى القرن ١٩».

• « إن العرب هم الذين أدخلوا النور والنظام على أعمال الأقدمين، التى كان يكتنفها الغموض فى وضعها المتفكك وهذه شهادة باعتراف جماعى ممن أرخ للطب. ولقد أعطتهم أوربا - وهو أمر تندر معرفته اليوم - الأفضلية كأساتذة، وأخذت عنهم معارفها الطبية، أكثر مما أخذت من مصادر اليونان المشوشة المحدودة».

• «يقول الطبيب العربى ابن الخطيب [٧١٣-٧٧٥ هـ ١٣١٣ - ١٣٧٤ م]: « إن

القاعدة التي يجب أن نستند إليها دائما، هي أن برهانا تاماً، أُخذ بطريق النقل، ينبغي أن يخضع للتعديل إذا ما اتخذ موقفاً مناقضا مما يشير إليه إدراكنا الحسي». . «ويقول ابن البيطار [٦٤٦هـ ١٢٤٨م]: «كل ما كتبته هنا نابع من تجربتي الشخصية، أو من تقارير أمثال هؤلاء المخالفين، الذين نعرف عنهم أنهم كتبوا ما وجدوه ثابتا من خلال التجربة الخاصة»[(١)] .

● «ومما لا سبيل إلى تجاهله، عدد الفلكيين العرب الذين لم ينساقوا خلف الاعتقاد السائد الأعمى، الذي قابلت به أوربا في القرون الوسطى، أمير الفلك الهليني بطليموس، بل أعادوا النظر في النتائج التي توصل إليها من خلال المشاهدات الجديدة والحسابات والنظريات المستحدثة فحسنوها، وصححوا الأخطاء، وتجاوزوها في بعض المسائل .

لقد وضع الفلكيون اليونان بين أيدي العرب بعض أجهزة القياس، غير أنها سرعان ما عجزت عن تلبية المتطلبات: المطروحة للقياسات التي يحتاجها العرب لأغراض العبادة اليومية. ولكونهم تقنيين غزيري الخواطر، وميكانيكيين مهرة، فهم يسعون دائما إلى التحسين، ويجرون تعديلات ، ويفكرون في الجديد، ويطورون في أساليب مشاهداتهم وأدوات القيا س المختلفة لديهم نحو الكمال، بينما يأخذها الغرب عنهم، ويستعملها على صورتها دون إدخال تعديلات عليها حتى عصر ابتكار التلسكوب. وفي هذه الأثناء تحولت المراصد الفلكية إلى منشأة لا غنى عنها، تم بناؤها من قبل الأمراء الهواة وطلاب العلم، وغالباً ما ارتبطت بأكاديمياتهم. ومن أشهر هذه المراصد، المرصد الذي بناه المأمون [١٩٨ ـ ٢١٨ هـ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م] في بغداد ـ وفي سامراء . . وفي دمشق . . ومرصد العزيز [٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م] والحاكم [٣٨٦ ـ ٤١١ هـ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م] في القاهرة. . ومرصد عضد الدولة [٣٣٧ ـ ٣٧١ هـ ٩٤٩ ـ ٩٨٢ م] في بغداد . . ومرصد ملك شاه [ ] في نيسابور . . ومرصد أولوغ بيع في سمرقند» .

---

(١) المرجع السابق . ص ١٥٤ ـ ١٥٧، ١٨٠، ١٧٠ .

• «لقد كان البيرونى [٣٦٢-٤٤٠ هـ ٩٧٣ ـ ١٠٨٤ م] أحد أهم علماء العرب فى عصرهم . . ولقد ذهب فى ابتلائه ـ (اختباره) ـ الناقد لعقيدة الهيلينيين الفلكية مذهبا بعيدا، بحيث رفض صورة العالم البطليموسية الشاملة للشمس الدائرة حول الأرض . . وفى رأيه أن الشمس ليست هى المسئولة عن تناوب الليل والنهار، بل الأرض ذاتها التى تدور حول محورها مرة فى اليوم، ومرة تنتقل فيها حول الشمس فى عام . ظل البيرونى يقف وحيدا أمام المعتقد السائد حول فكرة « الزخرفة المقدسة» .

• « واكتشاف البقع الشمسية على يد ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] الذى أقدم هو وزميله البطروجى [٥٨٠ هـ ١١٨٤ م] على رج العقيدة البطليموسية، وعلى تقديم تفسيرات أخرى لمنحنيات الكواكب .

ومارس ابن باجة الأندلسى [٥٣٣ هـ ١١٣٨ م] تأثيرات أشد بالنسبة إليه فإن القوة لديه واحدة، وهى ذاتها، سواء منها ما يحرك الكواكب أو التى تجعل تفاحة تسقط من شجرة، وهو الرأى الذى يجابه الازدواجية اليونانية، والذى يؤثر ـ بصفته فيزيائيا ـ على جاليلى [١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م] عن طريق العلاقة التى يفترض وجودها بين القوة ـ السرعة ـ والمقاومة فى الأجسام المتحركة» .

• «لقد أجرى الفلكى الكبير السَّرْقَلى [٤٢٠ ـ ٤٨٠هـ ١٠٢٩ ـ ١٠٨٧م] ـ فى طليطلة ما لا يقل عن ٤٠٢ مشاهدة، فكان أول من برهن على أن تغيير بُعد الأرض والشمس التى اعتبرها اليونانيون ثابتة، ملائمة لتقدم نقاط تعادل الليل والنهار) . وقد قام جيرهارد ـ كريمونا، بترجمة مؤلَّف السَّرْ قلى هذا إلى اللاتينية، وعرف باسم المؤلف .Arzachel . وفى عام ١٥٣٠م استشهد كوبر نيكوس [١٤٧٣ـ ١٥٤٣م] فى كتابه الذى نشر بالفرنسية تحت اسم De Revolutioi Bus بهذا الكتاب، وبكتاب البتانى [٢٤٤ ـ ٣١٧ هـ ٨٨٥ ـ ٩٢٩ م] . .

• « ولقد تحدث الطبيب الطبرى [كان حيا قبل ٣٦٦هـ ٩٧٦م] عن كرة نحاسية ضخمة أثارت إعجابه فى عام ٨٥٠م :

«أما م مرصد فى سامراء شاهدت جهازا أشرف على بنائه عالما الفلك والميكانيكيان الأخوان محمد وأحمد بن موسى، وهو يشبه شكل الكرة، ويصور النجوم ورسم البروج، ويعمل بالطاقة المائية، فإذا أفل فى السماء الفعلية نجم، اختفت صورته فى نفس اللحظة من الجهاز فى نفس الوقت الذى يغيب تحت خط الدائرة التى تمثل مجال الرؤية فإذا طلعت فى الطبيعة صورة نفس الكوكب، أشرقت صورته أيضا على الجهاز فوق خط الأفق» . [(١)]

● «على أن العامل المساعد الضرورى للبحث والتجربة لدى العرب، هى الرياضيات، لقد رأينا كيف أرسى الخوارزمى الأصول الطبيعية للرياضيات التى تمكن من جميع العمليات الحسابية، لكنه لا يكتفى بمساهمته تلك فقط، إنه يضع بين يدى زملائه الباحثين [جهازا يدويا لا غنى عنه: الجبر أو علم المعادلات]: الذى يُسمح بموجب هذا العلم استخراج العدد الصحيح، لعدد واحد أو أكثر من المجاهيل، وقد ألف كتابه فى سنة ٨٢٠ م، وهو كتابه الثانى الذى دخل به التاريخ.

وهذا المؤلف البالغ الأهمية، الذى أدخل فيه الجبر ضمن نظام للمرة الأولى، حظى بتقدير كبير فى العالم العربى، وأعارته أوربا أهمية غير عادية. . ولقد تتلمذ ليوناردو ـ بيزا [أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣]، رياضى القرون الوسطى الكبير على يد الخوارزمى . .

ومن كتاب الجبر لأبى كامل [١٣٢هـ ٧٥٠م] ـ الذى عاش فى مصر ـ ومخطوطات البيرونى، وابن سينا [٣٧٠ـ٤٢٨هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م] والقرشى [ ] نهل ليورناردو معارفه حول المعادلات من الدرجة العالية، وبلغ الجبر ذروته على يد عمر الخيام [٥١٧ هـ ـ ١١٢٣م] الذى اعتبر حجة فى نظر الرياضيات القروسطية . .

---

(١) المرجع السابق. ص ١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٢٨، ١٤٦، ١٤٧.

ولقد أصبح العرب أيضا، المؤسسين للرياضيات الكروية، وهى حقل للعلوم لم يكن له وجود عند اليونان. . ووضع العرب الجيب، ونظريات المماس والصيغ الأساسية لعلم المثلثات، وبذلك يكونون قد أحيوا حقلاً غير معروف حتى ذلك الوقت ما لبث أن احتل منزلة مرموقة فى مجال الفلك والملاحة البحرية والمسح الأرضى»

● «إن بطليموس لم يعرف سوى وجهين من أوجه الاستعمال الفلكى، وهذه النقطة تلقى الضوء على الفروقات فى الأوجه وحول طبيعة العلوم العربية، وهكذا يعرض الخوارزمى الأربع والثلاثين مسألة، ثم لا يلبث خلفه أن يتم العدد حتى الألف».

● وعلى حين كان علم الحساب عند اليونان يعنى التسلية بالتصرف فى الأعداد، والترف الفكرى المحض للمولعين بالتأمل. . مضى الفلكى والحسابى الرقاش بعلم الحساب نحو مرتبة أعلى على سلم الكمال. ففى كتابه [المفتاح إلى علم الحساب] قدم لنظام المراتب العددية آخر شكل من الكمال، وذلك حين استبدل - كأول شخص (عالم) - الكسور بالخط المرصوف، وعلم الحساب بالكسور العشرية، وهو إنجاز ما كان لبائعة البيض أو بائعة الحليب التوصل إلى نتيجته من دونه فى عالمنا اليوم، ولا كان حساب اللوغارتمات ممكنا بدونه كذلك». [(١)]

● «يقول ابن الهيثم: «وليس شعاعا يغادر العين هو الذى يسبب الرؤية. وعلى الأغلب، فإن شكل الجسم الملموس يشع فى العين، ويستبدل بجسمه الشفاف.»

ويصف وصفا دقيقا عدسة العين، الملتحمة، والإفرازات، وأعصاب الرؤية التى ترسل انطلاقاً من الأجسام انطباعات الحواس.

هل تنشأ هنا صورة مصغرة بسيطة طبق الأصل؟. إن ابن الهيثم. لا يحسم المشكلة بهذه السهولة، فاستنادا إلى التجارب المختزنة، يتوصل الدماغ إلى الانطباعات الحسية الملتقطة - فى الحالة الراهنة - إلى استنتاجات عن بعد وإلى شكل الجسم المدرك.

---

(١) المرجع السابق. ص ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٣٢.

ترى، ما الذى جعله يتوصل إلى هذه النظرية الصاعقة حول الرؤية، وطبيعة الأشياء وإنجازات الحواس ؟

فكونه فلكيا، واعتمادا منه على مشاهداته، اكتشف بأن سائر الأجرام السماوية ترسل ضوءا ذاتيا، بينما القمر وحده يستقبل نوره من الشمس. ولقد اقتبس من ذلك تصورا جديدا عن طبيعة الإشعاعات الضوئية : من كل موضع فى الجسم المقابل تجرى مستقيمة فى كل الاتجاهات. وقد برهن على ذلك الشيء فى كل تجاربه بدقة حسابية.

وفى تجاربه التى أجراها. . قاس كل مجالات المبصرات الهندسية وأحيا إحدى حقول الدراسة. . وفى ذات الوقت، وبينما كان الناس فى ألمانيا يبذلون جهدهم، عند الخسوف لطرد الغول الذى ابتلع القمر، عن طريق العويل والصخب، فى ذلك الوقت، كان الناس على النيل يتساءلون : كيف تحدث ظاهرة الخسوف، طالما أن القمر ذاته لا يضيء، بل يستقبل ضوءه من الشمس التى تكبره، ويظهر مع ذلك ظلاً، محجوبا، جزئيا أو كلية؟. وعلى الفور كوّن مصادر استيحائه، ودرس فى ضوء أشد اختلافات التجربة تباينا كل شيء يمكن أن يكون له مفيدا فى كتابه[حول طبيعة التظليل]ـ كما أحب أن يسمى كتابه ـ وقد سجل سابقا كذلك، حين جرّب بآلة تصوير ذات ثقب واحد، وهو نموذج لأقدم آلة تصوير دلته على انتشار الأشعة الضوئية المستقيمة ـ وقلما كان يطمئن إلى نظره ـ وقدمت له العالم مقلوبا من خلال أنعكاس الصور. وفى هذا الصدد استخدم نفس الترتيب الذى لا بد وإن كان بالمصادفة. . استعمله ليوناردو دافنشى فيما بعد. وقد عثر على تعليل لانكسار الضوء الذى يحدث عن طريق الوسائط كالهواء والماء أوالزجاج، وحسب من بعدها ارتفاع الغلاف الجوى الأرضى بما مقداره ١٥ سم تماما، وهو أمر يدعوا إلى الدهشة وأعمل الفكر فى نشوء هالة القمر، والغسق، وقوس قزح، والتى فشل أرسطو طاليس فى إعطاء تفسير فيزيائى لها من ذى قبل، وسلط معرفته كذلك على الأجهزة البصرية.

لقد بز الكندى [١٨٥ـ٢٦٠ هـ ٧٩٦ـ٨٧٣ م] فى القرن التاسع معرفة اليونان

بتجاربه على المرآة الحارقة، أما ابن الهيثم فقد درس الانعكاس وحسبه فى المرآة الحارقة (كرة ومقطعا مخروطياً) وعثر على قوانين تأثير الكشاف. ولقد فحص تأثير الاحتراق والتضخيم لا بواسطة المرآة المجوفة فقط، بل بواسطة العدسة المجمعة المكبرة أيضا. وابتكر كذلك أول نظارة للمطالعة. وقد برهن على تفوقه الهائل كمنظّر ومجرّب فى التجارب التى أجراها على سير الأشعة داخل كرة. وهى تجارب ما لبث أن واصل تنفيذها بعقله نظير له - كمال الدين - من بعده بثلاث مائة سنة.

إن تأثير هؤلاء العمالقة العرب على الغرب تأثير هائل. لقد طغت نظرياتة الفيزيائية - البصرية، على العلوم الأوربية حتى العصر الحديث. وعلى العلوم البصرية لابن الهيثم قامت كل بصريات الإنجليزى روجر بيكون [١٢١١ - ١٢٩٤م] حتى بولونيا (فيتليو) [   ] والإيطالى ليوناردو دافنشى[١٤٥٢ - ١٥١٩م] وحتى يومنا هذا، لا زالت المسألة الفيزيائية الحسابية المعقدة التى حلها ابن الهيثم بمعادلته من الدرجة الرابعة، والتى تفشى مقدرته الكبرى فى الجبر، على النحو الآتى تقريباً: حساب نقطة فى مرآة لها شكل قبة يُعكس عليها جسم من مسافة محددة فى صورة معينة، لازالت تلك المسألة تسمى باسمه (مسألة الحازم). . »

• « إن مؤلف ابن سيناء فى المعادن - وهو الذى ذاع صيته كطبيب ورياضى وفيلسوف - كان مصدرا رئيسيا للچيولوچيا الأوربية حتى القرن ١٨ ».

• « والشعب العربى الذى أحب التجوال، قد أنجب قبل ماركو بولو [١٢٥٤ - ١٣٢٣ م] عددا لا يحصى من الجغرافيين، منهم [الإدريسى [٤٩٣ - ٥٦١ هـ - ١١٠٠ - ١١٦٦ م] - من سبتة - الذى وصل إلى سواحل إنجلترا الغربية والبحر الأسود فى القرن ١٢ وصنّف فى بالرمو فيضا من الملاحظات ومخططات الخرائط والمقايسات الحسابية فى مؤلف جامع يقع فى سبعين خارطة، استغرق إعدادها خمس عشرة سنة. كان يشدها ككرة على الأرض ويجرى تقييما لها، وفى عام ١١٥٤ م قدم لملك النورمان فى صقلية خارطة للأرض نافرة أصبحت من بعدُ

شهيرة، صنعها من الفضة، حدث ذلك فيما كانت خرائط العالم فى أديرة أوربا توضع بحسب الإنجيل، يطوق فيها البحر اليابسة، تقع الجنة فى منتصفها.

والمسعودى [٣٢٤ هـ ٩٣٦م] - من بغداد - الذى حملته مسائل علمية جادة على القيام برحلته الاستكشافية، والذى كتب استنادا إلى مشاهدات خاصة فى بلدان الصين وسيلان وحتى إسبانيا، موسوعة فى ثلاثين مجلدا، أرفقها بوصف للأرض، وبوصف مصور ضخم لعادات الشعوب.

وابن بطوطة [٧٠٣ - ٧٨٠ هـ ١٣٠٤ - ١٣٧٨ م] الذى استمرت رحلته مدة أربع وعشرين سنة، استكشف فيها شمال ووسط إفريقيا حتى النيجر، وآسيا الصغرى، والصين وروسيا، وإسبانيا . . ». (١)

* * *

• « لقد أصبحت المصادر الإغريقية - العربية هى ألف باء العلم، وارتفع الاسم العربى فى ذلك الوقت إلى درجة أنه لكلى يفسح الأطباء والكيميائيون والصيادلة والفلاسفة الطريق أمام نتاجهم الفكرى فى الأوساط التخصصية، كانوا يطبعونه بالاسم العربى - اللاتينى لابن سيناء وما سويه الابن [ ] أو جابر بحيث تعمل على شد اهتمام المتعلمين. ولقد ظلت الكتب المدرسية، ككتاب القانون لابن سينا من المواد المدرسية الراسخة فى الجامعات الأوربية حتى النصف الثانى من القرن ١٧».

• «ومن يدرى ما إذا كان كولومبس [١٤٥١ - ١٥٠٦م] قد اعتمد فى مغامرته على الخريطة العربية الأفضل فى نظره ؟».

• « إن العرب سبق واستعملوا البوصلة بالسفينة فى القرن التاسع . . وأقدم وثيقة فى هذا الصدد ترجع إلى سنة ٨٥٤ م:

---

(١) المرجع السابق. ص ١٤٠ - ١٤٢، ١٥١، ١٥٠.

«إذا أصبح الليل حالك السواد، بحيث لم يعد يُستدل بالنجم على الاتجاه، غُرست إبرة فى قشة أو نبات الحلفاء ووضعت فوق طشت فية ماء، وحُركت بواسطة حجر مغناطيسى نحو اليمين، بحيث أنها تتجه - لدى إقصائها المفاجئ - إلى وضع يُظهر الشمال والجنوب. وقد جرت العادة فى المحيط الهندى على استبدال الإبرة والقشة بقطعة من الصفيح لها شكل السمكة، تظهر بالرأس والذنب إثر توجيه وهمى مفاجئ باتجاه السماء».

● «وفى الكتب العربية اشتم وجود أسلحة متفجرة، البيوض المتحركة المحترقة «التى تخرج نارا لها دمدمة مثل الرعود».

ولقد استخدمها العرب فى دمياط ضد جيش الملك القديس لودفيج سنة ١٢٤٩م. . وكان الملك يصيح كلما انطلقت قذيفة :

عزيزى المسيح، احمنى أنا وقومى!». . وفى سنوات ١٣٢٥م و١٣٣١م و١٣٤٢ م استعمل العرب مدافع البارود فى إسبانيا، وتمكنوا من تفريق جيوش الشمال الإسبانى المدعمة من قبل الفرنسيين والإنجليز».

● «ولقد كانت المعاهد العربية مراكز تعليمية، ومؤسسات مغلقة، مقسمة إلى أربع كليات، وعلى رأس كل واحدة منها عميد. ولكل كلية عدد متماثل من الطلبة، هنا ٧٢ وهنا ٨٢. ومن المنح الدراسية، لأن حصص الدراسة بلا مقابل مادى، وكان المدرسون يتقاضون مكافأة من الخلفاء أو الموقفين. هذا فى الوقت الذى كان يتقاضى فيه كل طالب دينارا واحدا فى الشهر بالإضافة إلى القرطاسية اللازمة.

وكان الطلاب الوافدون من جميع الجهات، والمنتمين على الغالب إلى ديانات مختلفة، يكونون أربع فئات قومية، فى مساكن منفصل بعضها عن البعض الآخر.

وفى مدارس الأندلس، سُمح أيضا للفرنجة بالدراسة، وصُممت الأبنية المشادة على شكل مربعات للإقامة الداخلية، والخدمات، وفضلا عن ذلك فقد

كانت تحتوى على عدة قاعات للمحاضرات، وصالات للعمل، ومكتبة كبرى، وبها تلحق هنا وهناك معاهد خاصة. ويمنحُ العميدُ المرشح، بعد إجراء امتحان له، إجازة فى التعليم، وبذلك يتحصلون على (البكالوريا) - كلمة عربية أدخلت إلى اللاتينية - على ذمة الراوى - بتخويل من السلطة بتعليم شخص آخر».

وإن طلبة أكاديمية الفنون الغربية هذه، لم تكن سوى نسخة عن العربية الأصل».

• « لقد أرسل فريدريك الأول بارباروسا [١٦٥٧ - ١٧١٣ م] جرهارد فون كريمونا إلى طليطلة، وجلب المحاربون الصليبيون والحجاج الخبرات والمعارف العلمية، والتحف التذكارية المفيدة، والأجهزة، واستوردت عبر جبال الألب المنتجات الوفيرة لعقول المبتكرين التقنويين العرب، وكذلك الساعات وأجهزة القياسات من جميع الأنواع، والرافعات ومولدات الطاقة، والعدسات والعدسات المكبرة، وغيرها من البصريات، فضلاً عن المناظر الفلكية والمعدات الطبية والمعدات المساعدة للكيمياء التطبيقية. هنا هبت فى لفحات قوية مواد وفيرة للبحث لا يمكن تجاهلها، وقدمت محصلات ووسائل بصورة واضحة دفعا مؤقتا أحيانا، وأثرت تأثيرا تدريجيا فى أحيان أخرى، فأقبل الأوربيون بجمال على المادة العلمية الجديدة، وأصبح لزاما عليهم أن لا تملى عليهم الأمور من فوق إملاء. لقد صادفت البذار العقلية القادمة من العالم الآخر - [العربى] - استعدادا داخليا، وهنا وهناك فقط وجدت التربة المواتية المناسبة للطلوع».

• « لقد هاجرت أقواس المساجد الإسلامية إلى الكنائس القوطية فى شارتر وريم وكولون وسالزبورى ».

• « ومن أكبر إنجازات العرب فى حقل الكيمياء، شهادات عدد لا يحصى من المصطلحات المستعملة حتى وقتنا الحاضر، انتقلت إلى لغات أهل الأرض من

المفردات العربية، وعلى رأسها تأتى كلمة كيمياء، والأمبيق، والكحول، والبنزين، والبوراكس، ودروجرى، والكسير، وقاليوم، ونطرون، وصودا، وتالكوم، وشيلاق الخ . .

وبفضل مناهجهم العلمية، طوروا - استنادا إلى رأى المؤرخ الإنجليزى كاستوم [Custom] الكيمياء حتى هذا المستوى، بحيث أن اكتشاف الكيمياء العضوية كانت مضطرة لأن تعيدها إلى المستوى الذى رفعها إليه العرب».

● «لقد أثرت العلوم التجريبية العربية تأثيرا أشد من مجرد نوع من شرارة انطلاق لخطة جاهزة للعقل الأوربى . . لقد أمدت الاستعداد الموجود فى الغرب بالمادة المشتعلة المفجرة، وأيقظت الاستعدادات العقلية التى كانت تغط فى سبات عميق، وأطلقت العنان للقوى التى كانت لا تزال متخلفة، ووضعت التطور العلمى العملى لأوربا فى المسار الصحيح . . » (١).

* * *

٨ - انتصار الفكر الأوربى على النظرة اليونانية والمسيحية للطبيعة:

● «وبعد قرون من التقلب فى ازدراء الطبيعة، والتمرغ فى وهدة الإحساس بالذنب، بدأت إرهاصات الإعجاب، وتفتحت الأزاهير فى الشعر أولا، مؤذنة بتنفس الصعداء، بالإعجاب من معجزات الخالق، وفى التفتح الصادق من الروضة الإلهية الندية، ولعل أجملها مانجده لدى فريدريك زوننبرج [ ] وفرانسيسكوفون آزيزى [ ] وغيرهم كثيرين . . كما أن أسلوب الكتابة لدى الفلاسفة، الذين اقتبسوا عن إريوچينا مبدأه، أخذت هى الأخرى فى التفتح والفوحان . وتحول أريوچينا إلى قدوة، وطرقت مؤلفاته آذان أوربا كلها . . » .

---

(١) المرجع السابق . ص ١٨٥، ١٤٩، ١٧٢، ١٧٧، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٠، ١٣٨، ١٣٩، ١٦٠، ١٦١.

● «لقد أطلق «أدلهردفون باث»[١٠٩٠ ـ ١١٦٠ م] زفرات من أعماقه بعد رحلته فى العالم الإسلامى، وعودته إلى وطنه ـ بريستول ـ فكتب فى رسالته [أسئلة إلى الطبيعة] مقارنا بين موقفين من الطبيعة:

«إننا إن تهاونا وقصرنا فى تفهم أسرار هذا الكون الرائعة، وجماله وجلاله البديع الحكيم، ونحن نعيش فيه، فإننا نستحق كل الاستحقاق أن نطرد منه طرداً، لأننا نكون أشبه بالضيف الجاهل حرمة البيت وكرامته، الذى أحله إياه المضيف.

لقد أتيح لى أن أتعلم شيئا من الأساتذة العرب الحكماء عن الانقياد للعقل، أما أنت فإنك تتبع صورة فرضتها عليك هيمنة مستبدة، كأنك مقيد إلى رسَن، مأخوذ بمقودك.. ألا فلتعلمنَّ أن الماشية التى يؤخذ بأزمتها إلى أية وجهة، إنما لا تستطيع أن تميز أو تستبين إلى أين ولماذا تُقاد، ولا تملك إلا أن تتبع الزمام الذى يوثقها، كذلك فإن «سلطة المؤلفات» تقود عددا ليس باليسير منكم، فأنتم أسراها المكبلون، منقادون لها كالدواب بسرعة تصديقكم الحيوانية».

● «ولقد عمل «نيقولاس فون كويس» [١٤٠١ ـ م] على رفض وتفويض كامل الصورة اليونانية والإنجيلية للطبيعة والعالم، تلك التى كانت سائدة ومقبولة من غير نقاش، والتى أعارها الناس آذانهم منذ ألفى سنة. لقد أزاح القذارة عن العالم، الذى كان يُنظر إليه على أنه شرير، وضيع، ملوث، مدعاة للازدراء والشك. وحتى الموت والفناء لم يعودا مؤشرين على النقص، ولم تعد الأرض أحط وأسفل نقطة فى التداعى الدنيوى العاتى.. لقد أزاح «نيقولاس فون كويس» هذا الركام عن العالم الذى جزأه اليونانيون والإنجيل إلى شذرات، وتلقاه إنسان الغرب فى تلك الصورة عن طريقة التعليم الكنائسى».

● «وبالنسبة ليوناردودافنشى [١٤٥٢ ـ ١٥١٩م].. فمن أى معين ياترى نهل هذا المفكر ثاقب النظر المتعدد المواهب، ليشكل حدثا عالميا؟..

إن الطبيعة، لديه، انبساط للربوبية التى تتسع لكل شىء، وهى فى كل شىء

أيضاً. إن الله هو طبيعة سائر الأشياء، وبفضل الحضور الإلهى هذا، فقد أضحى ذلك ممكنا للإنسان أيضاً، ألا وهو التعرف إلى الطبيعة الإلهية الحية . . .

وفى البصريات، كما فى الرياضيات استند ليوناردو دافنشى على المؤلفات العربية الشهيرة لابن الهيثم الموجودة فى فلورنسا، وعلى نظريته فى الانعكاس الضوئى، وتجاربه على عدسة العين والعدسات المكبرة، وبالكاميرا ذات الثقب . .

وفى علم طبقات الأرض، كان العالم ابن سينا قد سبقه إلى اكتشاف تشكل التربة، ولم يتوقف عند التجربة وحدها، بل اعتبرها أساسا لكل معرفة: « يجب أن ننطلق من التجربة لكى نتقصى القانون»ورفض ـ كذلك ـ القول بتفاهة العالم، وعزلة الخلق الأبدية» .

● «ولقد كان كل من جاليلى [١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م] وبلانك [١٨٥٨ـ ١٩٤٧م] على دراية بأن الكون يتجاوز، وبلا حدود قوة إدراك نظرتنا إليه وفهمنا له . .

وتحديا للعون الرائع الذى قدمه المنظار الفلكى، فقد درّس جاليلى الإحاطة الذاتية بالعلم، بحيث ارتضى بتقييد الباحثين بالجانب الرياضى للحقيقة وبالاستغناء عن كل تحديد للجرهر . .

إن المتعرَّف عليه هو حقيقة، يقوم على المطلق الذى لا سبيل إلى إدراكه أبدا، والعلم الطبيعى هذا على دراية بحدوده، بالاعتراف بحدود التعرّف البشرى هذا. وتعود فكرة (الجهل الدارى) للفيلسوفين «إريوچينا» و«كوسانر» [ ]، على غرار جذب حدود معرفة العقل للفيلسوفين «كانت» [١٧٤٢ـ ١٨٠٤م] و«جوته» [١٧٤٩ـ ١٨٣٢م]. وبالمعرفة حول محدودية الحقيقة، يطوق العقل الأوربى وفى كل الأزمان اليقين، لكى يتعرف معا إلى الوجود الحقيقى للشىء الذى ما من سبيل إلى معرفته، إلى اكتشافه، فيه، المتضمن فى كل ما يتسنى معرفته . . » .

« إن استكشاف الطبيعة لم يعد بالنسبة للإنسان الأوربى الموجّه توحيدا وكلية

(شموليا) منذ زمن بعيد عقبة، سبيلاً للانصراف عن الله، ولا للانحراف، وإنما وعلى الدوام طريقاً نحو ما هو مجهول، نحو الربوبية. .

ومن المعروف، بما يتفق تماما مع توجهات بلانك وآينشتاين [١٨٧٩ - ١٩٥٥ م] قبيل وفاته بوقت قصير:

« إنه الإحساس الأعمق والأروع، الذى نحن عليه قادرون. منه وحده ينبت العلم الصحيح. ومن كان هذا الإحساس غريباً عنه، هو الذى لا يستطيع بعد أن يعجب، وأن يفرط فى خشية، فهو الذى يُعد ميتا روحيا، لذا فالمعرفة أن يوجد بحق ماهو غير مكتشف، وأن يتجلى بصفته أسمى حقيقة وأسطع جمال، الشيئين اللذين لا يتسنى لنا منهما سوى علم ضبابى - وهذه المعرفة - وهذا العلم، هما جوهر التدين الحق».

● «إن الطبيعة، لدى جاليلى، ليست قابلة للتجربة، للتعرف للحساب فقط، بل هى أيضاً قابلة للاستعمال، وللتسيير، وللإفادة.

إن كتاب الطبيعة، الذى هو فى ذات الوقت كلمة الله، ذو تعبير وانبساط للألوهية، مكتوب بحروف رياضية، وفى سائر ظواهره تتجلى الربوبية بأوضح صورها وأشدها إدركا، بالنظام الرياضى السائد، الذى يرى الباحث الطبيعى نفسه ملزما بقراءته».

● « ولقد قال «جوردانو برونو» [١٥٤٨ - ١٦٠٠م]، الذى عومل كمنشق عن المسيحية. . وملحد. . والذى قضى سبع سنوات فى السجون تنفيذا لحكم محاكم التفتيش. . لقد قال:

« إننا نبحث عن الله فى القانون الطبيعى الثابت غير المستقر، وفى الوجدان المفعم بالخشية، ونبحث عنه فى سطوع الشمس، وفى جمال الأشياء التى تنطلق من حضن مناغاة الأم لأبنائها، وفى إطلالة النجوم (طلعة) التى لا تحصى، التى تتلألأ فى حاشية السماء، ولا تقاس».

● « ولقد اعتبر «روجربيكون» [١٢١١ - ١٢٩٤م] دراسة اللغات اليونانية

والعربية والعبرية أمرًا لا مناص منه من أجل تفهم أفضل للإنجيل المغلوط، ومن أجل دلالة اللفظ وترجمات أرسطو طاليس وسائر علماء المسلمين. وأصدر رؤساء الطائفة أمرا بنفى الملحد المزدرى للسلطات المقدسة عشر سنوات من أكسفورد إلى باريس.. وصدر عليه الحكم بالسجن سنة ١٢٧٨م، ثم بالسجن المؤبد، إلى أن حرره الموت سنة ١٢٩٤م، بعد خمس عشرة سنة قضاها فى السجن».

● «أما «سيجر» [١٢٣٥ ـ ١٢٨٢م] ـ من باربانت ـ الذى رفع راية ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م] فى الحقيقة المزدوجة ـ والذى تصدى للحكم الصادر ضده بشجاعة، واستنجد بالبابا، فقد قضى الـ ١٥ سنة المتبقية من عمره فى سجن البابا، ومات فيه مخنوقاً..

● «إن «كبلر» [١٥٧١ ـ ١٦٣٠م] هو الشخص الذى كان يمتلك الحرية النفسية والشجاعة للإحاطة بالعقيدة اليونانية ـ الأرسطية حول مسار النجوم الدائرى، الذى أدى إلى إعاقة البحث إعاقة شديدة على النحو ـ أى الإطاحة ـ الذى اقترب به الفلكيون العرب فى القرن ١١..».

● «وإنه لمن الخطأ ـ بكلمات الفيلسوف الشاب «كانت» [١٧٤٢ ـ ١٨٠٤ م] بناء حكم عام: أن نعتقد بأن العلم الطبيعى اعتمد، كشرط أو نتيجة محتمة، إطلاق المادة، وميكنة الحياة الإنسانية، ووداع الله من هذا العالم وداعا لا لقاء بعده!. إذ على العكس، فقد كان ممكنا فوق أرضيته حكمة دينية جديدة لحقيقة الموقف واتخاذ موقف.. من المادة تنزع به الشوائب التى لازالت عالقة بها من قبل «توما الأكوينى» [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ م]. وأن يرتفع بها إلى مرتبة برهان إلهى منظور، مدرك، يمكن التعرف إليه، كسبب لكل ما هو صغير وكبير، ولكل مافيه حياة وما ليس فيه، ولكل القوى المؤثرة الموجودة فى الطبيعة والانتظام الداخلى. وهذه الوحدة الداخلية للكون كله هى الفرضية الأصلية لكل المعرفة العلمية فى الفهم الأوربى».

● « يقول «آرثورستانلى أربجتون» [١٨٨٢ ـ ١٩٤٦ م] :

«إن الفيزياء الحديثة تقودنا بالضرورة إلى الله، ولا تبعدنا عنه. لم يكن أى مخترع للإلحاد عالما طبيعيا. بل كانوا جميعا فلاسفة، أنصاف معتدلين جداً».

● «ويقول « آلبرت آينشتاين» [١٨٧٩ ـ ١٩٥٥ م]:

« على كل باحث طبيعى متعمق، أن يكون على مقربة من نوع ما الشعور الدينى، لأنه قد لا يستطيع أن يتصور بأن الصلات الدقيقة النادرة، التى يخشاها، قد صدرت عنه بادئ الأمر. ففى الكون المبهم يتجلى فهم تأنٍّ بغير حدود. إن التصور الجارى القائل بأننى ملحد ينطوى على خطأ جسيم. من يستخلصه من نظرياتى العلمية، فقلما يكون قد أدرك غايتها».

● «وعند الفيزيائى«هايز نبرج» [١٩٠١ ـ ١٩٧٦ م]:

« الله موجود فى العالم وفىّ أنا. إنه يبرهن عن ذاته فى مركزية وانتظام سائر الأشياء وكل المستجدات، كما أنه خلف كل الظواهر الصلة الملموسة، والتى ينهل الإنسان من مأمنها قوته، والذى لا يمكنه الشك فى حقيقتها » هنا اكتمل التطابق بين العقيدة والمعرفة..

لقد كتب «هايز نبرج»ـ أيضاًـ: إن التقسيم المزدوج حسب التصور الأرسطو طاليسى كان بحق خاصية شيطانية، إنه يؤدى من خلال التكرار المتصل إلى الفوضى فقط. غير أن الإمكانية الثالثة التى برزت إلى السطح بواسطة النظرية التكاملية الكمية، يمكن أن تكون مثمرة، وأن تنفذ بالتكرار فى حيز العالم الحقيقى».

● «إن العلم الطبيعى الأوربى كان ممكنا فقط على أرضية إيجاد تفسير دينى آخر للطبيعة، وعلى المفهوم الإلهى لمغزى المادة، التى، لا كما يقول توما الأكوينى عنها، بأنها مصابة بكل ما يخطر على البال من شوائب، بل هى سامقة للانبساط

الإلهى المنظور، المحسوس، الذى تتحقق وحدته وتنسجم فى شتى الصور - وتتجسم «وتتجمع لتتحد انطلاقا منها»لتتوحد» .[1]

* * *

● «إنها خديعة الاعتقاد بأن فى مقدور العلم معرفة كل شىء، ونظرته للحقيقة على أنها الكل فى الكل. وبذلك فإن الحقيقة كلها، وجميعها، ما يتعرف إليها هو، ويمكن صنعها بالتقنية كاملة، هى تلك المخاوف والذعر، وانعدام الغاية والأمل، والاستسلام والعدوانية، والمعاناة، والعنف اليومى، كلها جميعا من جريرة تلك الخديعة.

إن الفكر النهائى نفسه لا يصبح آنئذ واقعا، إلا إذا تواجد فى ضوء اللامتناهى. إن العلم لا يدرك دائما سوى جزء من الحقيقة، والصورة العلمية وإن كانت مصيبة حقا، فإنها مع ذلك صورة معنوية، لا تصرف النظر فقط عن النوعيات والصلات ذات الصفة غير السببية، كالتعرف إلى الحياة والموت، البداية أو انعدامها، أجل وعن الإلمام بالشروط المسبقة الخاصة بها.

وحيث إنه لا يقدم حول هذه الأمور دوما إلى بعض وجوه الحقيقة الكلية بحسب موقع المشاهد ووفق سؤاله، للسبب الآتى فقط، لأنه كنتيجة لتنوير المجالات الخاصة دوما، فقد أبقى على فراغات عريضة تتخللها، وحتى ما قدم منها بشكل غير مباشر، دون تنوير.

لقد سلط الضوء، بحيث أن ما كان قابل الإدراك رياضيا للحقيقة الموضوعية، قدّم عن العالم صورة واهية ضحلة، يستلزم بالضرورة فهما تجريبيا، فى سائر مناحى الحياة:

لقد نظر إلى العقل بمثابة الآلة الوحيدة التى يحتاج الإنسان إليها، والمناسبة له

(١) المرجع السـابق. ص ٦٠، ٨٦، ٨٧، ٧٤، ٢٠٨-٢١١، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٥٣١، ٢٢٥، ٢١٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٩٣، ٢١٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٠، ٢٠٦.

لتسديد ما يفعل ويترك، وللتغلب على المستجدات التكنولوچية الآخذة فى التعقيد».

إنه الأسر فى بنى الفكر الثنائى القديم، انشطار الإنسان فى جانبيات متطرفة، هى التى أمدت فى عمر الأزمة، أو فى اشتدادها».

«والزلزال الذى نعيشه اليوم نشأ فى الأصل عن عشق عصا الطاعة الذى أخذ فى التزايد ضد الإله المسيحى الذى أصبح غير جدير بالاعتقاد، كما شخّص «نيتشه» [١٨٤٤ - ١٩٠٠ م] ذلك، من خلال استئصال الآخرة، التى جردت من قيمها كذلك من لدن المتنورين. والآن تحققت لعنة الثنائية من كل شكل»(١)

* * *

٩- أصول النهوض العربى.. وعناصر الهوية الإسلامية:

● «عندما تحررت البلاد العربية من نير الاستعمار الذى جثم فوقها قرونا.. ألفت نفسها - على اختلافها - تواجه متطلبات العصر الحديث.. وأخذت تسلك سبلاً مختلفة كى تشق طريقها إلى العالم الحديث، لتفسح لنفسها مكانا فيه، والأخذ بأسلوب حياة المستعمرين وحضارتهم الفتية، وأن يحتذوا سيرة السادة اللاحقين وحياتهم الناجحة، وطريقتهم فى العيش والتفكير، وعاداتهم وما حققوه من إنجازات مادية ومثل أخلاقية، وهكذا يتأوربون كالأوربيين، ويتأمركون كالأمريكيين، ويتروّسون كالروسيين؟

على أن ضد هذا الخطر الجديد، الذى بات يتهدد الاستقلال الداخلى بعد التحرر خارجيا، تداعت القوى - على اختلاف تجربتها فى المعاناة فى ماضيها مع الاستعمار وشدة اغترابها - وأعلنت رفضها أن تكون مجرد تقليد أعمى للمدنية الحديثة الغربية..

---

(١) المرجع السابق. ص ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٥.

إن تلك «الأصول» و«الجذور» التى ينبغى على العالم العربى أن «يجدها» ويتعهدها حتى «يشق طريقه إلى أمام» - والتى ذكرتُها فى كثير من محاضراتى فى المغرب العربى كله - هى :

١ - اللغة العربية . . فهى المفتاح الرئيسى إلى عالم الفكر الذاتى للعرب .

٢ - الدين ، بصفته المحور الذى يدور حوله وجودهم ، فى كل ما يتعلق بأمورهم ، ونعنى بذلك الإسلام النقى من العناصر غير الإسلامية ، المنفتح على العالم ، والذى لا يعارض التطور العقلى . .

٣ - وعودة الوعى ، والرجوع إلى الهوية الذاتية ، الذى يتطلب :

التنقيب عن الماضى الفكرى المدفون تحت الأنقاض تماماً ، واستيعاب أسباب نشوئه ، واكتماله واكتهاله ، ثم تقهقره واندثاره ، والخروج بالعبر والدروس اللازمة للانطلاق للمستقبل ، فالعرب انطلقوا من قبل أيضا من البداية ، وكانوا آنذاك وسط حضارات تفوقهم ، فلم يترددوا فى الأخذ عن أولئك الغرباء ما رأوه ضروريا لبقائهم ، دون أن يحاكوا محاكاة عمياء ، ثم واصلوا فوقه البناء بطريقتهم الخاصة ، وبالوسائل التى أتاحها لهم نبوغهم المميز ، وصاحب هذا تطويرهم لأساليبهم النابعة منهم ، وهكذا غدوا أكفاء لخلق إيداع فكرى جديد ، قيّم من الدرجة الأولى ، منتم إليهم .

فالتعلّم من الماضى لبناء المستقبل حق مفروض . . ورفض غلو التقوقع والانغلاق . . وغلوا الانفتاح المطلق بلا قيد ولا شرط ، والمؤدى إلى الاغتراب . . هو شرط للنجاة من الانحياز لجبهة واحدة ، الأمر الذى يتهدد الحياة . .

لقد أعقب المرحلة الأولى التى تلت الاستقلال ، والتى اتسمت - على جميع المستويات - باتخاذها الأنماط الغربية أو الأيديولوچية الروسية قدوة لها ،

انتكاس المسيرة، وسرعان ما تمخض ذلك عن عدم الثقة بكل ما هو غريب دخيل، ورفضه، خاصة ما أتى من «الغرب»، وقد ارتبط ذلك بإحياء الإسلام والرجوع إليه.

إن الإسلام هو ولا شك أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة وإنصافا. نقولها بلا تحيز.، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة أن تلطخه بالسوا د، وإذا ما نحينا هذه المغالطات التاريخية الآثمة فى حقه، والجهل البحت به، فإن علينا أن نتقبل هذا الشريك والصديق، مع ضمان حقه فى أن يكون كما هو..»(١)

* * *

---

(١) [الله ليس كذلك] ص ٩٥، ٩٦، ١٠١.

وفى الختام

. . فبعد أن قدمنا ملامح الإسلام: الدين . . والدولة . . والأمة والحضارة . . ذلك الإسلام، الذى:

• صدَّق بما بين يديه من النبوات والرسالات . . والشرائع والكتب والصحائف والألواح.

• والذى أحيا مواريث الأمم والحضارات فى العلوم والمعارف والثقافات . . وانتقدها . . وطوّرها . . وأضاف إليها.

• والذى آخى بين الشعوب والقبائل والأجناس والألوان والألسنة واللغات والقوميات والملل والنحل والشرائع والثقافات والحضارات . .

* * *

. . قدّمنا ـ فى القسم الأول ـ نماذج من الافتراء الغربى على الإسلام . . وأقمنا البراهين الغربية على قِدم وتجذّر هذا الافتراء ـ فى التراث الغربى . . والثقافة الغربية ـ منذ ظهور الإسلام.

* * *

. . ثم قدمنا ـ فى القسم الثانى ـ أكثر من ثلاثين شهادة غربية، لأعلام علماء الاستشراق الغربى والثقافة الغربية . . ينصفون فيها الإسلام وأمته ودولته وحضارته، إنصافا يرد افتراء المفترين . . ويثبت قلوب المؤمنين . .

وذلك . . لنقول ـ بهذه الشهادات ـ ما قاله الله، سبحانه وتعالى فى نبأ السماء العظيم:

- ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (يوسف: ٢٦).
- ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ١٨).
- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سبأ: ٤٨ - ٤٩).

قدّمنا ذلك، لنقول للمفترين الجهلاء:

- ذلك هو إنصاف علمائكم الثقاة للإسلام.

ولنقول للذين هالهم افتراء المفترين الجهلاء على الإسلام: لقد صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٦، ١٢٧).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: ٧ - ٩).

المصادر والمراجع

ابن أبى أصيبعة [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] طبعة بيروت سنة ١٩٦٥ م.

ابن جلجل [طبقات الأطباء والحكماء] تحقيق فؤاد سيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

ابن رشد (أبوالوليد) [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

ابن عبد الحكم [فتوح مصروأخبارها] طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

ابن عبد البر [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م.

ابن عبدربه [العقد الفريد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م .

ابن عساكر [تهذيب تاريخ ابن عساكر] طبعة دمشق سنة ١٣٣١ هـ .

ابن النديم [الفهرست] طبعة ليبزج سنة ١٨٧١ م.

أتنجهاوزن - ريتشارد [الفنون الزخرفية والتصوير: شخصيتها ومجاله] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «شاخت» و«وبوزورث»ترجمة د. محمد زهير السمهورى. تعليق وتحقيق: د. شاكر مصطفى. مراجعة: د. فؤاد زكريا - طبعة الكويت - عالم المعرفة سنة ١٩٧٨ م.

أرنولد - سير . توماس [الدعوة إلى الإسلام] ترجمة. د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م.

[الفن الإسلامى وأثره على التصوير فى أوربا] بحث منشور فى كتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «أرنولد» - ترجمة: جرجس فتح الله. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.

باركر - سير أرنست [الحروب الصليبية] بحث منشور بكتاب [ثراث الإسلام] - بإشراف أرنولد. مصدر سابق.

براند تراند - جون [إسبانيا والبرتغال] بحث منشور بكتاب [ثراث الإسلام] - بإشراف أرنولد -.

برنارد لويس [السياسة والحرب] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف «شاخت» و«بوزورث».

بريكز - مارتن إس [الهندسة المعمارية] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أنولد.

بكر ـ كارى هينرش	[تراث الأوائل فى الشرق والغرب] بحث منشور بكتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] للدكتور عبد الرحمن بدوى طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.
بلسنر ـ مارتن	[العلوم الطبيعية والطب] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف «شاخت» و«بوزورث».
جابرييلى ـ فرانشيكو	[الإسلام فى عالم البحر المتوسط] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف «شاخت» و«بوزورت».
الجاحظ	[كتاب الحيوان] تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة ـ الثانية.
جب ـ سير هاملتون	[الأدب]بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد
جرابار ـ أوليج	[العمارة] بحث مشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف « شاخت» و«بوزورث».
جوان فيرنيه	[الرياضيات والفلك والبصريات] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف «شاخت» و«بوزورث».
جيوم ـ الفريد	[الفلسفة وعلم الكلام] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أرنوالد.
خليل داود الزرو	[الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة] طبعة بيروت سنة ١٩٧١.
رودنسون ـ مكسيم	[الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف «شاخت» و«بوزورث».
روزنتال ـ فرانز	[الأدب] بحث منشور بكتاب [ثراث الإسلام] بإشراف «شاخت» و«بوزورث».
سارتون ـ جورج	[الثقافة الغربية فى رعاية الشرق الأوسط] ترجمة. د. عمر فروخ. طبعة بيروت ١٩٥٢.
سانتيلانا	[القانو والمجتمع] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد.
سيجريد هونكة	[العقيدة والمعرفة] ترجمة: عمرلطفى العالم. طبعة دمشق سنة ١٩٨٧م. [الله ليس كذلك] ترجمة. د. غريب محمد غريب. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م. [فضل العرب على أوربا] ترجمة. فؤاد حسنين على. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م.
شاخت	[تراث الإسلام] بإشراف شاخت ـ ترجمة. جرجيس فتح الله. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣.
د. صبرى أبو الخير سليم	[تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١ م.

د. على فهمى خشيم	[الجبائيان: أبو على وأبو هاشم]طبعة طرابلس - ليبيا سنة ١٩٦٨ م.
الغزالى - أبو حامد	[المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] طبعة القاهرة - مكتبة الكليات الأزهرية - بدون تاريخ.
	[الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة القاهرة - مكتبة صبيح - بدون تاريخ.
د. فؤاد سيزكين	[مكان المسلمين والعرب فى تاريخ العلوم] - مجلة «الثقافة» الجزائرية - عدد مارس - إبريل سنة ١٩٨٦م.
فارمر - هنرى	[الموسيقى] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد.
فلهوزن - يوليوس	[تاريخ الدولة العربية] ترجمة. د. محمد عبدالهادى أبوريدة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
قدرى حافظ طوقان	[تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م.
قنواتى - جورج شحاته	[الفلسفة وعلم الكلام] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف «شاخت» و«بوزورث».
كارادى فو	[الفلك والرياضيات] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد.
كاربنسكى	مقدمة كتاب [تراث العرب العلمى فى الفلك والرياضيات] - مصدر سابق.
كرمرز - ج. هـ	[الجغرافيا والتجارة] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد.
كريستى - أى. أج.	[الفنون الفرعية الإسلامية وتأثيرها على الفنون الأوربية] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد.
لامبتون	[الفكر السياسى عند المسلمين] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف «شاخت» و«بوزورث».
مؤتمر كولو رادو - وثائق	[التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] طبعة مالطا سنة ١٩٩١ م.
مارسيل بوازار	فى كتاب [الإسلام فى الفكر الغربى] للواء أحمد عبد الوهاب. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م.
الماوردى	[أدب القاضى]طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م.
مايرهوف - ماكس	[العلوم والطب] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام]بإشراف أرنولد.
	[من الإسكندرية إلى بغداد] بحث منشور بكتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] للدكتور عبد الرحمن بدوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.

محمد حميدالله الحيدر آبادى - محقق [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م.

محمد عبده - الأستاذ الإمام [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م.

د. محمد عمارة [الغارة الجديدة على الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م.

[الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٣ م.

مونتجمرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ترجمة . د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ - طبعة القاهرة - مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠١م.

نلينو - كارلو ألفونسو [بحوث فى المعتزلة] بحث منشور بكتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] للدكتور عبد الرحمن بدوى . مصدر سابق.

نيكسون - ريتشارد [الفرصة السانحة] ترجمة : أحمد صدقى مراد . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م.

نيكلسون [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد.

[التصوف] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد.

هوبرت هيركومر [صورة الإسلام فى التراث الغربى] ترجمة : ثابت عيد . وتقديم د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

يوحنا النقيوسى [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ترجمة ودراسة . د. عمر صابر عبد الجليل . طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ م.

دوريات

[شئون دولية] - كمبردج - لندن.

[الحياة] - لندن.

[الشرق الأوسط] - لندن.

[النيوزويك] - أمريكا.

[واشنطون بوست] - أمريكا.

[الأهرام] - القاهرة.

[العربى] - القاهرة.

الفهرس



لقد صدق الله العظيم: [وشهد شاهد من أهلها].. فأهلها: [ليسوا سواء]..

● فلا مشكلة بين الإسلام وبين الإنسان الغربي..أو العلم الغربي..وإنما المشكلة مع مؤسسات الهيمنة الغربية - السياسية..والكنسية.. والإعلامية - ..ففي مشروع هذه الهيمنة بدأ الافتراء على الإسلام منذ ظهور الإسلام!!.

● وفي هذا الكتاب - بعد تقديم الصورة الحقيقية للإسلام: الدين..والدولة.. والأمة..والحضارة :

- شهادات غربية على تجذُّر الافتراء الغربى على الإسلام..

- وشهادات غربية - لعشرات من أعلام الثقافة الغربية - تنصف الإسلام، على النحو الذى يجب أن يتعلم منه المسلمون، ليردوا به على الخصوم!..

● إنها وثائق الإدانة الغربية للافتراء الغربي على الإسلام..

ووثائق الإنصاف الغربي لعظمة الإسلام..

تحملها إلى الباحثين والقراء صفحات هذا الكتاب.



دار الشروق